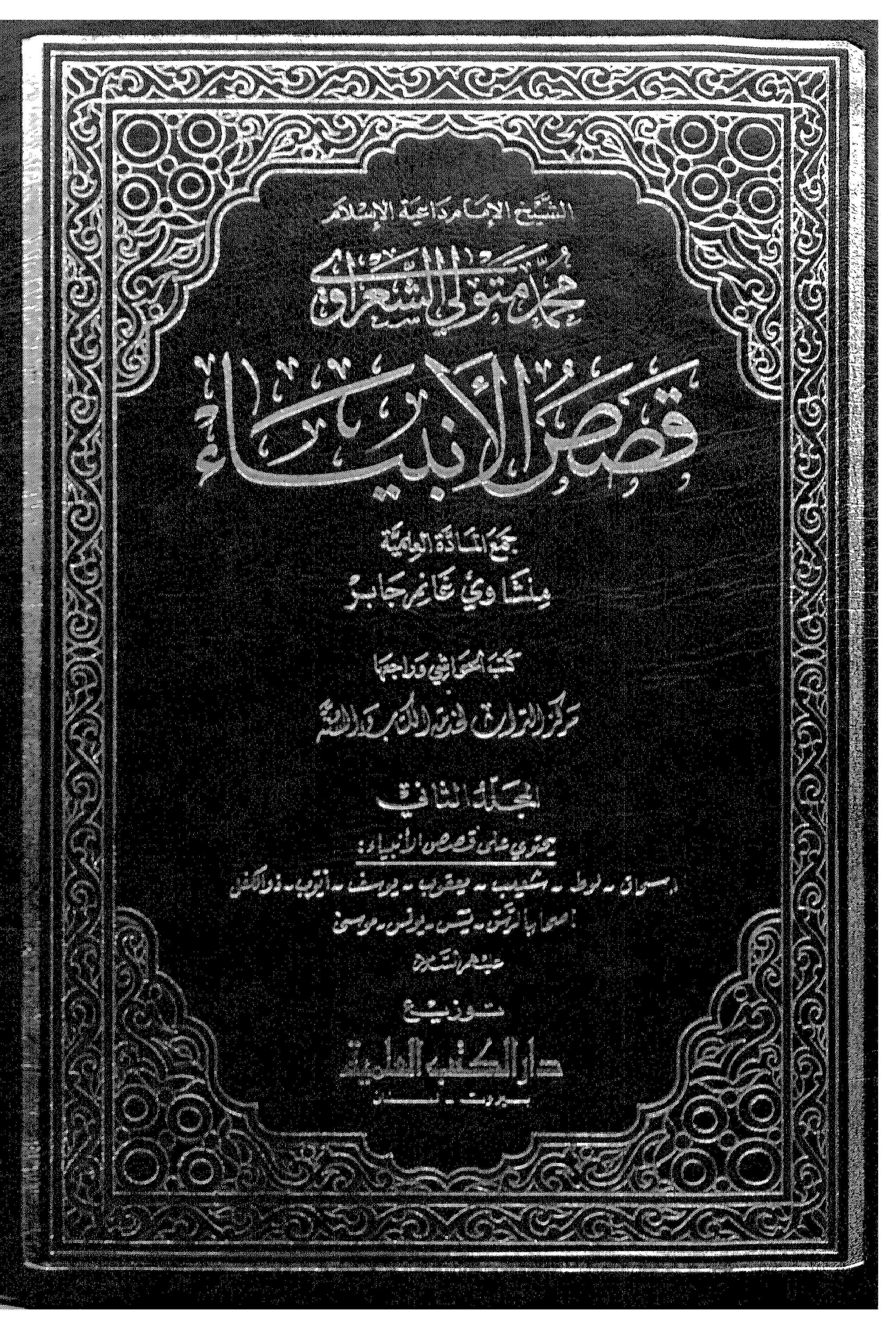


الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي
قصص الأنبياء
جمع المادة العلمية
منشاوي غانم جابر
كتب الحواشي وراجعها
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة
المجلد الثاني
يحتوي على قصص الأنبياء:
إسحاق - لوط - شعيب - يعقوب - يوسف - أيوب - ذو الكفل
عليهم السلام
توزيع
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان







الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي



جمع المادة العلمية

منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

الجزء الثاني

يحتوي على قصص الأنبياء :

إسحاق - لوط - شعيب - يعقوب - يوسف - أيوب - ذو الكفل

أصحاب الرس - يس - يونس - موسى

عليهم السلام

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٢٩٧



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

* نبى الله إسحاق عليه السلام *

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ - ١١٣] .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ . [هود : ٦٩ - ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ . [الحجر : ٥١-٥٦].

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ . [الذاريات : ٢٤ - ٣٠] .

=

(١) سيأتى بيانه فى « إبراهيم يجادل الملائكة فى عذاب قوم لوط » . صفحة ٦٨٢

= يذكر تعالى : أن الملائكة قالوا : ـ وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ لما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافًا ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلا ثمينًا من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم : ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أى لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم ، وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشارًا بذلك ، قال الله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أى بشرتها الملائكة بذلك : ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أى فى صرخة : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أى كما يفعل النساء عند التعجب ، وقالت : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضًا ، وهذا بعلى أى زوجى ، شيخًا ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه . ولهذا قالت : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ .

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها : ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق أخو إسماعيل ، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ . وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ ، وهو المشوى رغيفًا من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن ، وعندهم أنهم أكلوا ، وهذا غلط محض ، وقيل : كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء .

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم : أما سارة امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن =

. . . .

= اسمها سارة ، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنًا ، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه - يعنى ساجدًا - وضحك قائلا فى نفسه ، أبعد مائة سنة يولد لى غلام ، أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة؟! .

وقال إبراهيم لله تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم : بحق إن امرأتك سارة تلد لك غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل ، وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ولخلفه من بعده ، وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًا كثيرًا ، ويولد له اثنا عشر عظيمًا ، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم .

فقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٤٩].

وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين(١) من حديث سليمان ابن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : قلت: يا رسول الله . . أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أى؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد » .

وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله .

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو-إسرائيل-بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء. وقد =

---

(١) أخرجه البخارى [٣٣٦٦] بلفظ : أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام»، قلت : ثم أى ، قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم كان بينهما ؟ قال: «أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله ، فإن الفضل فيه » . وأخرجه مسلم [٥٢٠] بلفظ: « . . . أربعون سنة ، وأينما أدركتك الصلاة فصلِّ فهو مسجد » .

= كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال فى دعائه كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٥ – ٤١] .

وما جاء فى الحديث[1] من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثًا كما ذكرناه عند قوله : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] [2] ، ـ وكما سنورده فى قصته[3] ـ فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ، ولا سبق إليه . [قصص الأنبياء لابن كثير : ٢٠٠ ـ ٢٠٣]

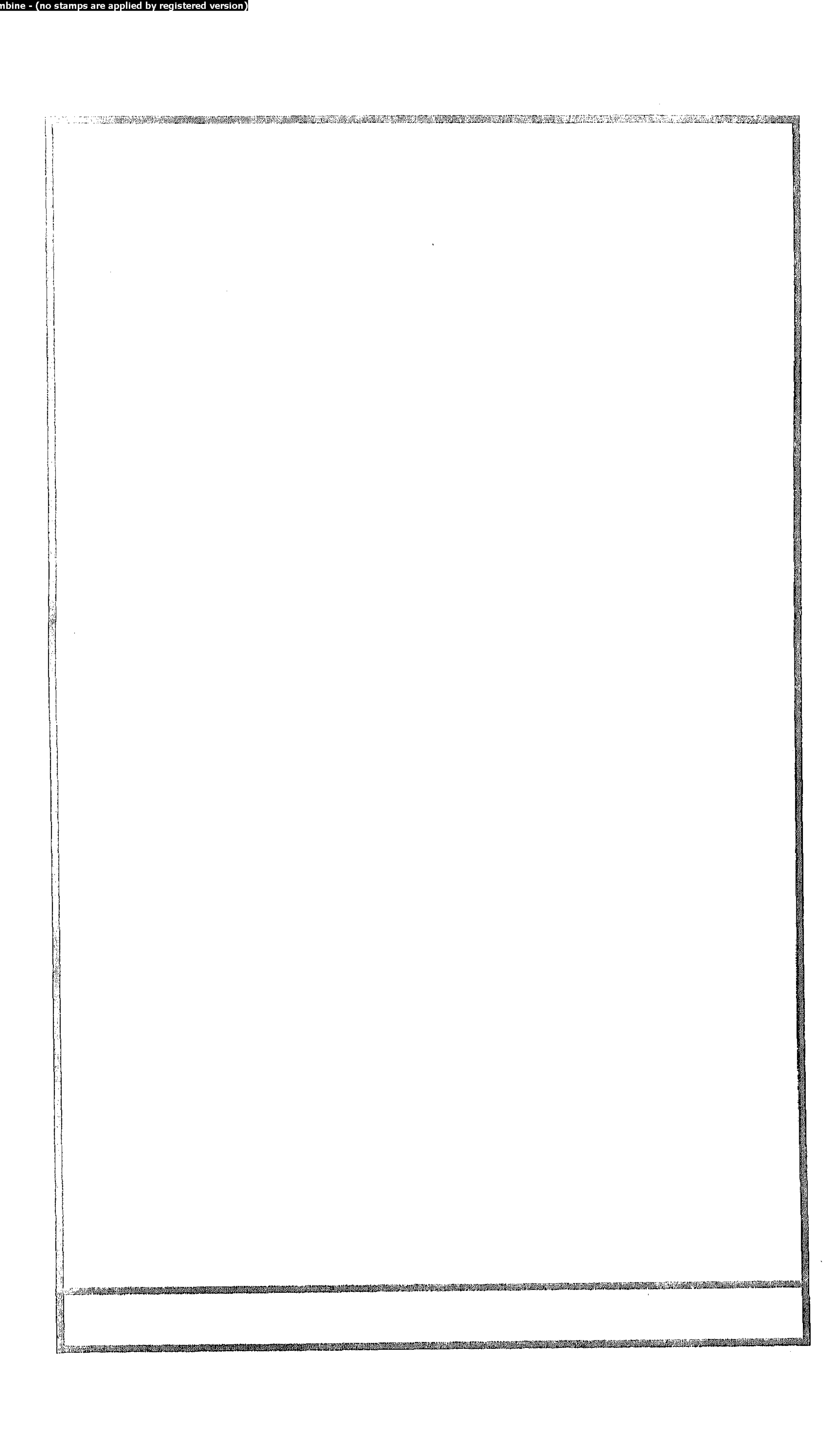
« تمت قصة إسحاق عليه السلام »

(١) عن عبد الله بن عمرو هو ابن العاص عن رسول الله ﷺ : « أن سليمان بن داود لما بنى مسجد بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا : سأل الله حكما يصادف حكمه فأوتيه وسأل الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه » . [أخرجه النسائى فى الكبرى [٧٧٢] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٢/ ١٧٦] وصححه الشيخ شاكر [٦٦٤٤] ، والحاكم فى المستدرك [١/ ٣١] وصححه ووافقه الذهبى ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٢٠٩٠] .

(٢) تفسير ابن كثير [٣/ ٣٩ : ٣٩] .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير [٥٤٧ : ٥٦٨] .


نبي الله
لوط
عليه السلام



❊ نبى الله لوط عليه السلام ❊

يقول: الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلُوطًا ﴾ أى: أن الله كما أرسل نوحًا إلى قومه، وأرسل إلى عاد أخاهم هودًا، وإلى ثمود أخاهم صالحًا، أرسل لوطًا إلى قومه[1]. ولذلك جاءت منصوبة. ولكن الحق بدأ الآية بقوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ وربما يقول قائل: ما دام لوط قد قال، فلا بد أنه أُرسل لقومه قبل حدوث هذا القول، إذ كيف يرسله الله فى وقت أن قال ؟ نقول: إن ﴿ إِذْ ﴾ بمعنى الزمن، وإن معنى الآية: ولوطًا أرسلناه إلى قومه إذ قال.. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه بمجرد أن يقال للرسول بلغ، فساعتها يقوم بالبلاغ. فكأن الرسالة

---

(١) لوط هو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عمه وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وأعمالها، التى أهلكهم الله بها ودمرها عليهم، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهى مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال بيت المقدس بالشام.

قال ابن كثير: هو لوط بن هاران بن تارح - وهو آزر - ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة.

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكان أمَّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين. [قصص الأنبياء : ٢٢٨]

جاءت ساعة التبليغ لا فاصل بينهما [1] . وكلمة «قومه» تعنى أنه عاش

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قال الفراء : لوط مشتق من قولهم : هذا أَلْيَطُ بقلبى ، أى ألصق . وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين ـ يعنى الفراء ـ أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين . قال : وهذا غلط ؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق كإسحاق ، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد . وإنما صُرِف لوط ؛ لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط . قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية . فأما لُطْت الحوض ، وهذا أَلْيَط بقلبى من هذا ؛ فصحيح . ولكن الاسم أعجمى كإبراهيم وإسحاق . قال سيبويه: نوح ولوط أسماء أعجمية ، إلا أنها خفيفة فلذلك صُرِفت. بعثه الله تعالى إلى أمّة تسمى سدوم ، وكان ابن أخى إبراهيم. ونَصْبه إما بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المتقدمة فيكون معطوفا. ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى واذكر.

[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٤٣]

وقال الإمام البقاعى : عبر فى قصة نوح عليه السلام بـــ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ثم نسق من بعده عليه فقيل : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ . وعدل عن هذا الأسلوب فى قصة لوط ، فلم يقل : وإلى أهل أدوما أخاهم لوطا ، أو إلى أهل سدوم لوطا ، أو وأرسلنا لوطا إلى قومه ونحو ذلك ، كما سيأتى فى قصة موسى عليه السلام ؛ لأن من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسلية النبى ﷺ فى مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب ، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش فى الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين ، وأما قصة قوم لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش ، فعدل عن ذلك النسق تنبيها عليه وتهويلا للأمر وتبشيعا له ، ليكون فى التسلية أشد ، وفى استدعاء الحمد والشكر أتم، وحينئذ يترجح أن يكون العامل « اذكر » ، لا « أرسلنا » أى واذكر لوطا وما حصل عليه من قومه زيادة على شركهم من رؤيته فيهم هذا الأمر الذى لم يبق للشناعة موضعا ، فالقصة فى الحقيقة تسلية وتذكير بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال ، وإنذار لهم بسوء المآل مع ما شاركت فيه أخواتها من الدلالة على سوء جبلة هؤلاء القوم ، وشرارة جوهرهم المقتضى لتفردهم عن أهل الأرض بذلك الأمر الفاحش، والدليل على أنه أشنع =

معهم فترة ، وقول الحق: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ولم يقل هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطًا ، ولكنه قال ﴿لِقَوْمِهِ﴾ ، فكيف ذلك؟ لابد أن نتنبه إلى أن لوطًا لم يكن من هذا المكان، فلوط كان هو وإبراهيم فى مدينة بعيدة، ثم جاء إلى هذا المكان فرارًا من الاضطهاد هو وإبراهيم ، وفى هذه الحالة يكون طارئًا عليهم. ولذلك لم يقل أخاهم الذى كان يقيم معهم ، ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة فعرفوا أخلاقه وصفاته، وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض . وهكذا نرى دقة التعبير فى القرآن، لم يقل أخاهم لأنه لم يولد ولم يرب معهم، ولكنه قال ﴿قَوْمِهِ﴾ لأنه عاش معهم فترة فعرفوه(١) .

= الشنع بعد الشرك مع ما جعل الله تعالى فى كل طبع سليم من النفرة عنه اختصاصه بمشاركته للشرك فى أنه لم يحل فى ملة من الملل فى وقت من الأوقات ولا مع وصف من الأوصاف . [نظم الدرر ٢/ ٤٥٢ ـ ٤٥٤]

(١) القوم: الجماعة من الرجال والنساء جميعًا ، وقيل : هو للرجال خاصة دون النساء، ويُقوى ذلك قوله تعالى : ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ؛ أى رجال من رجال ولا نساء من نساء، فلو كانت النساء من القوم لم يقل ولا نساء من نساء ؛ وكذلك قول زهير:

وما أدرى وسوفَ إخالُ أدرى ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساء ؟

وقَوْمُ كل رجل : شيعته وعشيرته . وروى عن أبى العباس : النفر والقوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء . وفى الحديث : «إن أنسانى الشيطان شيئًا من صلاتى فليُسبِّح القوم وليُصفِّق النساء »(١) قال ابن الأثير: القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . الجوهرى : القوم الرجال دون النساء لا واحد له من لفظه ، قال : وربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر =

---

(١) رواه أبو داود [٢١٧٤] وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [٤٧٠] .

. . . .

= ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل : رهط ، ونفر ، وقوم، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ فذكَّر ، وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأنَّث ؛ قال : فإن صَغَّرتَ لم تدخل فيها الهاء، وقلت قُوَيْم ورُهَيْط ونُفَير ، وإنما يلحقُ التأنيثُ فعله ، ويدخل الهاء ، فيما يكون لغير الآدميين مثل الإبل والغنم ؛ لأن التأنيث لزم له ، وأما جمع التكسير مثل جمال ومساجد ، وإن ذكر وأنث ، فإنما تريد الجمع إذا ذكرت ، وتريد الجماعة إذا أنثت .
ابن سيده : وقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إنما أنث على معنى كذبت جماعة قوم نوح ، وقال المرسلين ، وإن كانوا كذبوا نوحًا وحده؛ لأن من كذب رسولا واحدًا من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها ؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل ، وجائز أن يكون كذبت جماعة الرسل ، وحكى ثعلب : أن العرب تقول : يا أيها القوم كفُّوا عنا وكُفَّ عنا ، على اللفظ وعلى المعنى . وقال مرة: المخاطب واحد ، والمعنى الجمع ، والجمع أقْوام وأقاوِم وأقايِم ؛ كلاهما على الحذف ؛ قال أبو صخر الهذلى أنشده يعقوب :

فإنْ يَعْذِرِ القَلْبُ العَشِيَّةَ فى الصِّبا ... فُؤادَكَ ، لا يَعْذِرْكَ فيه الأَقاوِمُ

ويروى : الأَقايِمُ ، وعنى بالقلب العقل ؛ وأنشد ابن برى لِخُزَز بن لَوْذان :

مَــنْ مُبْــلِغٌ عَمْــرَو بنَ لأ ... يِ حَيْــثُ كــانَ مِن الأَقاوِمْ

وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ . قال الزجاج : قيل عنى بالقوم هنا الأنبياء ، عليهم السلام ، الذين جرى ذكرهم ، آمنوا بما أتى به النبى ﷺ فى وقت مَبْعثهم ؛ وقيل : عنى به من آمن من أصحاب النبى ﷺ وأتباعه ، وقيل: يُعنى به الملائكة فجعل القوم من الملائكة ، كما جعل النفر من الجن حين قال عز وجل : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وجاء : إن تَوَلَّى أهلُ مكة استبدل الله بهم أهل المدينة ، وجاء أيضًا: يستبدل قومًا غيركم من أهل فارس ، وقيل : المعنى إن تتولوا يستبدل قومًا أطوع له منكم. قال ابن برى: ويقال قوم من الجن وناسٌ من الجن وقومٌ من الملائكة ، قال أمية :

وفيهــا مِــنْ عِبادِ اللهِ قَوْمٌ ... مَلائِكُ ذُلِّلوا وهُمُ صِعــابُ

[لسان العرب ١٢/٥٠٥ ـ ٥٠٦]

ماذا قال لوط لقومه؟ لم يقل لهم: إن ربى نهاكم عن العملية القذرة التى تقومون بها، ولكن أدب النبوة جعله يقولها بأسلوب الاستفهام. ولكنه استفهام تقريع واستفهام استنكار. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. وهكذا يحمل السؤال استنكاراً لما يحدث ، يقول لهم: إن العقل الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة. وهذا شىء لم يسبقهم إليه أحد، ولكنهم فعلوه للشهوة. إذن فرغم أنها عملية قذرة والفطرة السليمة تأباها، فإنها كانت موجودة فى هذا المجتمع بقصد الشهوة والشذوذ عن الطبيعة. وكلمة فاحشة[1] هى التزيد فى القبح ؛ أى أن الشىء ليس قبيحًا فقط ولكن فيه زيادة فى القبح. ولكن الذى يأتى أنثى بدون زواج مثلا تكون فاحشة. ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالاً، أما إتيان الرجل الرجل ففاحشة بمعنى مركب؛ لأنه ليس مخلوقًا لهذه العملية، ولا يمكن أن يصير حلالاً أبدًا.. فهو فحش مركب.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[2]

---

(١) قال الإمام القرطبى فى تأويل قول الله تعالى : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعنى إتيان الذكور ؛ ذكرها الله باسم الفاحشة ؛ ليبين أنها زنى كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] . [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٤٣]

الفاحشة : الفُحْش والفَحْشاءُ والفاحشةُ، القبيحُ من القول والفعل ، وجمعها الفَواحشُ.

وقد تكرر ذكر الفُحْش والفاحشة والفاحش فى الحديث ، وهو كل ما يَشتد قُبْحُه من الذنوب والمعاصى . [لسان العرب : ٦/ ٣٢٥]

(٢) ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال عمرو بن دينار : ما رؤى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . [الطبرى : ٨/ ٢٣٤]

وقال الإمام القرطبى: ﴿مِنْ﴾ لاستغراق الجنس ، أى لم يكن اللواط فى أمة قبل =

يقول بعض الفقهاء إن ﴿ مِنْ ﴾ زائدة!! ولكن بالنسبة لكلام الحق

= قوم لوط . والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم . والصدق ما ورد به القرآن . وحكى النقاش أن إبليس كان أصل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله ، فكان ينكح بعضهم بعضا . قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُرَباء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض . وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : «إن أخوفَ ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط »(١) . وقال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعملُ عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك: يُرجَم ؛ أُحصِن أو لم يحصن . وكذلك يُرجم المفعول به إن كان محتلما . وروى عنه أيضا : يُرجم إن كان مُحْصنا ، ويُحبس ويؤدّب إن كان غير محصن . وهو مذهب عطاء والنخعى وابن المسيب وغيرهم . وقال أبو حنيفة : يُعَزّر المحصن وغيره ؛ وروى عن مالك . وقال الشافعى : يُحَد حَدّ الزنى قياسا عليه . احتج مالك بقوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] . فكان ذلك عقوبة لهم وجزاء على فعلهم ، فإن قيل : لا حجة فيها لوجهين: أحدهما : أن قوم لوط إنما عُوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم . الثانى : أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها ؛ فدل على خروجها من باب الحدود . قيل : أما الأول فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصى فأخذهم بها ، منها هذه . وأما الثانى فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه . وهى حكمة الله وسنته فى عباده. وبقى أمر العقوبة على الفاعلين مستمرا . والله أعلم .

وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذى والنسائى والدارقطنى أن رسول الله ﷺ قال: « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . لفظ أبى داود وابن ماجه . وعند الترمذى: « أُحصنا أو لم يحصنا » (٢). =

(١) أخرجه ابن ماجه رقم [٢٥٦٣] وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٢٠٧٧] .

(٢) أخرجه أبو داود [٤٤٦٢] والترمذى [١٤٥٦] وابن ماجه [٢٥٦١] والدارقطنى [٣٢٠٧] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٧٤٥] وصحيح الترمذى [١١٧٧] وصحيح ابن ماجه [٢٠٧٥] ، وأخرجه النسائى فى الكبرى [٧٣٣٧] بلفظ: « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » . وكلهم عن ابن عباس .

سبحانه وتعالى فلا يوجد شيء زائد، فلو أننا قلنا ما سبقنا واحد أو اثنان أىْ عدد قليل جدًا لا يعتد به. ولكن إذا قلنا من أحد، فمعناه أنه لم يسبقنا أحد بالنفى القطعى. تمامًا كما تقول لإنسان : ما عندى مال، فقد

= وروى أبو داود والدارقطنى عن ابن عباس فى البِكر يوجد على اللوطية قال يرجم . وقد روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه حرق رجلا يُسمى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار . وهو رأى على بن أبى طالب ؛ فإنه لما كتب خالد ابن الوليد إلى أبى بكر فى ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبى ﷺ واستشارهم فيه ؛ فقال علىّ : إن هذا الذنب لم تَعْصِ به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يُحرق بالنار . فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم ابن الزبير فى زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهم خالد القَسْرِى بالعراق. ورُوى أن سبعة أُخذوا فى زمن ابن الزبير فى لواط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحْصِنوا فأمر بهم فَخرجوا من الحرَمَ فرُجموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم يُنكرا عليه. وإلى هذا ذهب الشافعى . قال ابن العربى : والذى صار إليه مالك أحق ، فهو أصح سندًا وأقوى معتمدًا . وتعلق الحنفيون بأن قالوا : عقوبة الزنى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألا يشاركها فى حدّها . ويأثرون فى هذا حديثا : « مَن وضع حدا فى غير حد فقد تعدى وظلم » . وأيضا فإنه وطء فى فرج لا يتعلق به إحلال ولا إحصان ، ولا وجوب مهر ولا ثبوت نسب ؛ فلم يتعلق به حد .

[تفسير القرطبى ٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥]

وقال الإمام البغوى : قال محمد بن إسحاق : كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الأرض مثلها ، فقصدهم الناس فآذوهم ، فعرض لهم إبليس فى صورة شيخ ، فقال: إن فعلتم بهم كذا نَجَوْتُم ، فأبوا فلما ألحَ عليهم الناس قصدوهم فأصابوهم غلمانًا صباحًا، فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم . قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلا الغرباء .

وقال الكلبى : إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس ؛ لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان ، أى : فتمثل لهم إبليس فى صورة شاب ، ثم دعا إلى دُبُرِه، فنُكِح فى دبره ، فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم .

[تفسير البغوى : ٣/ ٢٥٥]

تملك عشرة قروش أو عشرين قرشًا، ولكنك لا تعتبرها مالاً. ولكن إذا قلت له : ما عندى من مال، أى من بداية ما يقال له مال ولو مليمًا واحدًا. فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] أى: من بداية ما يقال له أحد ، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾أى : ما يطلق عليه اسم العالمين . فالحق سبحانه وتعالى سماها أولا: فاحشة أى تزيد فى القبح ، ثم أكد لنا أنه لم يسبق قوم لوط إليها من أحد، أى أنها بدأت بينهم وهذا استنكار فظيع .

ولنبحث المسألة عقليا ، لما جعل الله الإنسان خليفة كان لا بد من بقاء النوع وخصوصًا أن الأعمار محدودة. وبقاء النوع مضمون بالزواج فهو الوسيلة لإبقاء النوع، والله تكفل للإنسان بالقوت الذى يقيم به صلبه.

إذن فالإنسان خليفة فى الأرض يريد إنجابًا ويريد قوتًا. ولذلك حين خلق الله الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان (١) وخلق فيها الذكر

---

(١) قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠] .

وقال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد . قال السدى : أنبت فيها شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال الحسن وعكرمة والضحاك : قدر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع ، جعل فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد وقيل قدر البُرَّ لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر ، وكذلك سائر الأقوات .

قيل : إن الزرع أكثر الحرف بركة لأن الله وضع الأقوات فى الأرض وقال ابن عباس أى شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل فى هذه ما ليس فى هذه وفى هذه ما ليس فى هذه، وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها =

والأنثى لبقاء النوع، والإنسان لا يولد ومعه كل مقومات الخلافة؛ بل يمر بخمس مراحل. فهو يكون فى أول الأمر نطفة فى ظهر أبيه، ثم جنينًا فى بطن أمه، ثم يولد[1] وهناك فترة طفولة محتاجة إلى عناية، وفترة تربية حتى يبلغ رشده ويصلح للخلافة فى الأرض. إذن فهناك خمس مراحل يمر بها الإنسان وهى مراحل شاقة . فالأم تحمل جنينها تسعة أشهر دون ملل أو كلل برغم ما فيه من شدة وتعب ؛ ولذلك : فإن الحق سبحانه وتعالى كى يخفف عن الإنسان جعل هذا الحمل انسيابيًا .. ما معنى انسيابى؟ الجنين يكون أولاً مقداره ملليمترًا، ويكبر ليصبح ملليمترين ثم ثلاثة ثم أربعة. وهكذا يكون نمو الجنين بين المرحلة والأخرى تدريجيا وليس فجأة، كل يوم يزداد بالتدريج مع الوقت ، والحمل الانسيابى لا يدرك فيه الزمن مع الحركة ، وإياك أن تفهم أن حركة الزمن أو الساعة انسيابية، فلو لاحظت عقرب الدقائق مثلا لوجدته كل دقيقة يقفز قفزة. ولكن النمو غير ذلك. ولذلك إذا لاحظت طفلك كل يوم فإنك لا تستطيع أن تحدد حركة النمو فيه بين يوم وآخر. ولو ظللت كل يوم تنظر إليه ما استطعت أن تقول كم زاد فى الأربع والعشرين ساعة.

ولا يمكن أن تلاحظ ذلك إلا إذا مرت عدة أسابيع ، والحمل فى بطن

= أنهارها وأشجارها ودوابها . [فتح البيان : ١٢/٢٢٨]

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله وكل فى الرحم ملكًا فيقول : يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة . فإذا أراد أن يخلقها قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ يارب أشقىّ أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيُكتب كذلك فى بطن أمه ». أخرجه البخارى [٣٣٣٣] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٤٦].

الأم يزداد كل يوم ولكنه ازدياد انسيابى لا تحس به الأم إلا فى الأشهر الأخيرة. إذن فالمسألة تأخذ مراحل عدة بين الحمل والولادة ورعاية الطفل وهو صغير . وأطول الأجناس طفولة هو الإنسان، ما الذى يجعل الإنسان يتحمل كل هذه المتاعب ؟ إنها الشهوة التى وضعها الله فى الذكر والأنثى؛ لكى يحفظ بها النوع[1]، وعندما توضع فى مكانها ويتم منها الإنجاب تتحمل المتاعب فى التربية، وإذا عزلت الشهوة عن بقاء النوع تكون قد أفسدت فى سنة الكون؛ لأنك عطلت الإنجاب وعطلت عمارة الأرض، وهذا يتم حين تكون الشهوة فى غير موضعها ولا يستفاد منها فى الإنجاب.

والحق سبحانه وتعالى حين تحدث عن الفاحشة لم يفصلها لنا فى الآية الأولى، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ومعنى ذلك أنها أمر معلوم بالفطرة، ولكن بعض الناس قد يطلب التفصيل ، ولذلك فسرها فى الآية الثانية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف :٨١]. ما هو الإسراف؟ الإسراف هو تجاوز الحد، والله وضع لنا مصرفًا للشهوة وهى المرأة وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب. ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد؛ لأنها بُعد عما شرع الله ، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد[2].

---

(١) قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ .

(٢) قوم لوط مجتمع شذ فى تصرفاته ، شذ فى عقله ، شذ فى سلوكه ، أصابهم الشبق والسعار الجنسى الشاذ حيث اكتفى الرجال بالرجال دون الإناث وعدلوا عنهن =

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى فى سورة الشعراء:

= وما خلق ربهم منهن إلى الرجال. وكان لقوم لوط السبق فى اختراع هذه الفاحشة ، **قال الوليد بن عبد الملك** : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا ، فهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه . ولا يظن ظان أن بعض حضارات القرن العشرين الذى نعيش فيه أشرف من سدوم ، فإن هناك عقود زواج تتم بين رجال ورجال ، ويعلن ذلك فى وكالات الأنباء العالمية وتنشر الصور فى الصحف عن أول زواج يتم بين رجل ورجل! والأعجب والأغرب من ذلك أن بعض الدول التى تنتسب إلى الإسلام تعلو فيها صيحات تنادى بما يسمونه (حق الجنس الثالث) بينما الرسول ﷺ يقول : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (١) . و ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وقال الإمام الطبرى فى تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] . يخبر بذلك تعالى ذكره عن لوط أنه قال لقومه ، توبيخا منه لهم على فعلهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ فى أدبارهم ﴿شَهْوَةً﴾ منكم لذلك ﴿مِّن دُونِ﴾ الذى أباحه الله لكم وأحله من ﴿النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يقول : إنكم لقوم تأتون ما حرم الله عليكم وتعصونه بفعلكم هذا ، وذلك هو الإسراف فى هذا الموضع ، والشهوة: الفعلة ، وهى مصدر من قول القائل : شهيت هذا الشىء أشهاه شهوة ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وأَشْعَثَ يَشْهَى النَّوْمَ قُلْتُ لَهُ ارْتَحِل ... إذَا ما النُّجُومُ أعْرَضَتْ واسْبَطَرَّت
فَقَــامَ يَجُرُّ البُرْدَ لَوْ أنَّ نَفْسَــهُ ... يُقالُ لَهُ خُذْهــا بِكَفَّيْكَ جُرَّت(٢) =

(١) رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٠٠] وصححه الشيخ شاكر رقم [٧٣٢] وأبو داود [٤٤٦٢] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٧٤٥] : حسن صحيح. والترمذى [١٤٥٦] ، وابن ماجه [٢٥٦١]. كلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) أورد البيت الأول من البيتين ، صاحب اللسان فى « شها » عن ابن برى . قال : شهيت الشىء بالكسر . قال ابن برى : ومنه قول الشاعر : وأشعث . . . وفى آخر البيت كلمة : « اسبكرت » فى موضع « اسبطرت » . ولم يورد البيت الثانى ، ولم ينسب البيتين . ومعنى اسبطر : امتد . واسبكر : امتد أو انتصب أو اعتدل .
[تفسير الطبرى : ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥]

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ استنكاراً لهذا الفعل الشائن الذى انفرد به

= وقال الإمام البقاعى : ولما كان غير مستبعد على صفاقة وجوههم ووقاحتهم أن يقولوا: لم تكون فعلتنا منكرا موبخا عليها ؟ قال : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا ﴾ وأغرق فى النفى بقوله : ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ وعظم ذلك بتعميمه فى قوله : ﴿ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فقد اخترعتم شيئا لا يكون مثل فحشه لتذكروا به أسوأ ذكر ، كما أن ذوى الهمم العوال والفضل والكمال ، يستنبطون من المحاسن والمنافع ما يبقى لهم ذكره وينفعهم أجره، وفى ذلك أعظم إشارة إلى تقبيح البدع والتشنيع على فاعليها ؛ لأن العقول لا تستقل بمعرفة المحاسن .

ولما أبهم الفاحشة ليحصل التشوف إلى معرفتها ، عينها فى استفهام آخر كالأول فى إنكاره وتوبيخه ليكون أدل على تناهى الزجر عنها فقال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أى تغشونهم غشيان النساء ، ولما أبقى للتشوف مجالا ، عين بقوله : ﴿ شَهْوَةً ﴾ أى مشتهين ، أو لأجل الشهوة ، لا حامل لكم على ذلك إلا الشهوة كالبهائم التى لا داعى لها من جهة العقل ، وصرح بقوله : ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ فلما لم يدع لبسا، وكان هذا ربما أوهم إقامة عذر لهم فى عدم وجدان النساء أو عدم كفايتهن لهم، أضرب عنه بقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ ﴾. ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف ، الذى هو غاية الجهل المذكور فى سورة النمل فقال : ﴿ مُسْرِفُونَ ﴾ أى لم يحملكم على ذلك ضرورة لشهوة تدعونها، بل اعتياد المجاوزة للحدود ، ولم يسم قوم لوط فى سورة من السور كما سميت عاد وثمود وغيرهم صونا للكلام عن تسميتهم ، وأما قوم نوح فإنما لم يسموا لعدم تفرق القبائل إذ ذاك، فكانوا لذلك جميع أهل الأرض ولذا عمهم الغرق ـ والله أعلم .

[نظم الدرر ٧/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥]

وقال الشوكانى : قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة ، وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والكسائى وغيرهما . واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ وكذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة فى التقريع والتوبيخ وانتصاب ﴿ شَهْوَةً ﴾ على المصدرية ، أى تشتهونهم =

قوم لوط على سائر الناس. ولذلك يقول الله عز وجل فى آية أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]

يقول لهم نبيهم لوط، لماذا تفعلون الفاحشة وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم . زوجاتكم .

عندكم مندوحة فى تصريف الغرائز وهى الزوجات، فلماذا تنقلون ما ينبغى فعله مع الزوجات، إلى فعل حرام غير جائز مع الذكران من العالمين؟ والآية تحتمل معنى آخر ، هو أنهم كانوا يأتون نساءهم فى مواضع حرمها الله، كما يفعلون مع الذكران من العالمين.

إن الله جعل للأزواج محلاً للاستنبات فى زوجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام. محل الاستنبات الحلال الذى يجوز للرجل أن يأتى زوجته فيه هو الذى أشار إليه قول الله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] بعض الناس فهم هذه الآية خطأ. فهموها على أن موضع الحرث مشاع فى أى مكان[1] إن الآية واضحة وصريحة تقول: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ ومعنى الحرث هو

= شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ، أى مشتهين . ويجوز أن يكون مفعولا له ، أى لأجل الشهوة ، وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة ، من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل ، فهم فى هذا كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض ، لما يتقاضاها من الشهوة . ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى متجاوزين فى فعلكم هذا للنساء ، اللاتى هن محل لقضاء الشهوة ، وموضع لطلب اللذة ، ثم أضرب عن الإنكار المتقدم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف ، الذى تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة . [فتح القدير : ٢/ ٢٣٢]

(١) قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. إذن فنحن نوع من نباتات الأرض ، كما قال تعالى عن مريم :

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

مكان استنبات الولد[1]. والمرأة تضع الولد من مكان معروف من الأمام وليس من الخلف. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] العادى هو الذى شرع له شيء يقضى إربته حاجته فيه فتجاوزه إلى شيء آخر حرام.

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] هنا لوط عليه السلام يقول لقومه مستنكرًا فعلهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] معنى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى وأنتم تتعالمون بها وتتجاهرون، مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة، وأنه لم يعد هناك حياء. أو أن المعنى:

---

(١) **قال ابن عباس**: الحرث موضع الولد ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أى: كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صمام واحد. [تفسير ابن كثير ١/٢٤٧]

عن ابن المنكدر، سمعت جابرًا رضى الله عنه قال:

كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. رواه البخارى [٤٥٢٨].

وعن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال: وما الذى أهلكك قال: حولت رحلى البارحة. قال: فلم يرد عليه شيئا. قال: فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. أقبل وأدبر واتقوا الدبر والحيضة. أخرجه أحمد فى المسند [١/٢٩٧] وصححه الشيخ شاكر [٢٧٠٣].

قال الإمام الطبرى: ما ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء جهلة بعظيم حق الله عليكم فخالفتم لذلك أمره وعصيتم رسوله. [تفسير الطبرى: ١٩/١٧٥]

وقال الإمام البقاعى: أى تفعلون ذلك إظهارًا للتزين بالشهوات فعل المبالغين فى الجهل، الذين ليس لهم نوع علم فى التجاهر بالقبائح خبثًا وتغليبًا لأخلاق البهائم، مع ما رزقكم الله من العقول التى أهملتموها حتى غلبت عليها الشهوة.

[نظم الدرر ١٤/١٨٢]

كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب الفساد من عذاب وهلاك. ثم يقول بعد ذلك: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ . كلمة: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1] [النمل: ٥٥] فى ظاهر الأمر أنها تخالف قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف يجهلون ؟

فالجهل هنا ليس ضد العلم ، ولكنه مرادف السَّفه[2] ، لأن الجهل له إطلاقات.

الناس يفهمون أن الجهل عدم العلم، مع أن الأمية هى ألا تعلم، والجهل أن تعلم قضية مخالفة للواقع. ولذلك الذى يتعب فى الدنيا هو الجاهل وليس الأمى؛ لأن الأمى خالى الذهن ، تقول له القضية فيأخذها وكفى. لكن الجاهل عنده قضية مخالفة، فأنت تحتاج معه إلى عملين اثنين: أن تنزع منه قضية الباطل أولاً، ثم تدخل له قضية الحق ، وهذا شىء يحتاج إلى جهد كبير . فالذى يتعب العالم هو الجاهل لا الأمى .

---

(١) قال ابن كثير : أى لا تعرفون شيئا لا طبعًا ولا شرعًا . [تفسير ابن كثير ٣/٣٥٦]

(٢) السَّفه : خفة الحلم وقيل نقيض الحلم ، وأصله الخفة والحركة وقيل الجهل وهو قريب بعض من بعض. وقد سفه حلمه ورأيه ونفسه سفهًا وسفاهًا وسفاهة: حمله على السفة. [لسان العرب : ١٣/٤٩٧]

❋ منطق أصحاب الفطر المطموسة ❋

حين قال لهم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١] ماذا قال له قومه؟ هل ناقشوه؟.. لا.. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ . أى لم يكن فى العملية أى منطق، إلا أن قول لوط قد أشعر قومه بعقدة الذنب وفحش ما يحدث، فقالوا: الحل أن نخرج لوطاً وقومه من القرية؛ لأنه جاء ليفسد علينا شيئاً نتمتع به. وحتى فى علة الإخراج لم يكن هناك أى منطق، إلا أن لوطاً ومن آمن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه القرية وما يحدث فيها.

تماماً كما يجلس بعض الذين يشربون الخمر ويأتى لهم إنسان مستقيم لا يتناول الخمر، وكلما جلس معهم أخذ يلومهم على تعاطى الخمر، فحينما يرونه قادماً يقولون أبعدوا هذا الشخص عن مجلسنا؛ لأنه سيفسد المجلس، فقوم لوط يريدون أن يخرجوا لوطاً ومن معه من القرية ؛ لأنه بطهارته يفسد عليهم حياتهم [(١)] .

---

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح ، وركوبهم ما حرّم الله عليهم من العمل الخبيث ، إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا وأهله ، ولذلك قيل : أخرجوهم ، فجمع ، وقد جرى قبل ذكر لوط وحده دون غيره ، وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى أخرجوا لوطا ومن كان على دينه من قريتكم ، فاكتفى بذكر لوط فى أوّل الكلام عن ذكر أتباعه ، ثم جمع فى آخر الكلام ، كما قيل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] . =

= ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يقول : إن لوطا ومن تبعه أناس يتنزّهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال فى الأدبار ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال مجاهد ، وابن عباس .
وقال السدى : عابوهم بغير عيب وذموهم بغير ذم . [تفسير الطبرى : ٨/ ٢٣٥]
وقال البقاعى : أجابوه بوقاحة عظيمة وفجور زائد على الحد ، فما كان جوابهم إلا أذى لوط عليه السلام وآله بما استحقوا منهم به شديد الإنذار الذى هو مقصود السورة، عطف عليه قوله : ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أى الذين كانوا هم أهل قوة شديدة وعزم عظيم وقدرة على القيام بما يحاولونه ﴿إِلا أَن قَالُوا﴾ .
ولما كان المقصود بيان أنهم أسرعوا إجابته بما ينكيه أضمر ما لا يشكل بالإضمار ، أو أنه لما كان السياق لبيان الخبيث ، بين أنه لا أخبث من هؤلاء الذين بلغ من رذالتهم أنهم عدوا الطاهرين المتطهرين ، مما يصان اللسان عن ذكره فقال تعالى مشيرا إلى ذلك فى حكاية قولهم : ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أى المحدث عنهم ، وهم لوط ومن انضم إليه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ والمراد ببيان الإسراع فى هذا تسلية النبى ﷺ من رد قومه لكلامه لئلا يكون فى صدره حرج من إنذارهم ، ثم عللوا إخراجهم بقولهم : ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾ أى ضعفاء ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ وكأنهم قصدوا بالتفعل نسبتهم إلى محبة هذا الفعل القبيح ، وأن تركهم له إنما هو تصنع وتكليف لنفوسهم بردها عما هى مائلة إليه ، وإقبال على الطهر من غير وجهه وإظهار له رياء بما أشار إليه إظهار تاء التفعل ، وفيه مع ذلك حرف من السخرية، وحصر جوابهم فى هذا المعنى المؤدى بهذا اللفظ لا ينافى آية العنكبوت القائلة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية ؛ لأن إطلاق الجواب على هذا يجوز ، والمعنى : فما كان قولهم فى جوابه إلا إتيانهم بما لا يصلح جوابا ، وذلك مضمون هذا القول وغيره مما لا يتعلق بالجواب ، أو أن هذا الجواب لما كان - لما فيه من التكذيب والإيذان بالإصرار والإغلاظ لرسول الله ﷺ مستلزما للعذاب ، كانوا كأنهم نطقوا به فقالوا : ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ ، جعل نطقهم بالسبب نطقا بالمسبب ، أو أنهم استعملوا لكل مقام مقالا ، ويؤيده أن المعنى لما اتحد هنا وفى النمل حصر الجواب فى هذا ، أى فما كان جوابهم لهذا القول إلا هذا ؛ ولما زادهم فى العنكبوت فى التقريع فقال : =

والحقَ تبارك وتعالى يقول فى آية أخرىٰ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٩] ما الذى يريدونه من نبيهم لوط؟ أن يكف عن لومهم ونهيهم عن فعل الفاحشة. و ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أى: من المطرودين خارج بلدتنا. ولذلك يقول الحق عز وجل فى موضع آخر: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦] لماذا أخرجوا لوطاً ومن اتبعه من قريتهم؟ لأنهم يتطهرون بفعل الحلال وإتيان ما أمرهم الله به، والعصاة الذين كذبوا لوطاً لا يريدون أن يكونوا من المتطهرين. وهكذا كل أهل الباطل، لايحبون أن يكون بينهم من يأمر بالحق وينهى عن فعل الباطل. يضيقون به ذرعاً ويحاولون بشتى السبل أن يتخلصوا منه. إما بالنفى أو الحبس أو السجن أو القتل[1].

ماذا كان موقف لوط من هؤلاء المكذبين؟ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ

= ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أتوه بأبلغ من هذا تكذيبا واستهزاء فقالوا : ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية. [نظم الدرر ٧/٤٥٦ ـ ٤٥٧]

(١) هذه القرية الشاذة عقليا وجنسيًا وخلقيًا وعاطفيًا وسلوكيًا عاش فيها لوط عليه السلام، وحاول أن يبعدهم عما هم فيه من نتن وعفن ، وقدم النصح لهم ، ولكن أحدا لم يستجب لندائه ولا لنصائحه ، ولم يجد لوط عليه السلام فى هذه القرية الضالة أحدا يقف إلى جواره ، لم يكن فيها غير بيت واحد مسلم هو بيت لوط ، وهذا البيت الواحد كان غير مرغوب فيه ، كان مكروها : ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لماذا ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] . هذه القرية تكره أن يكون فيها بيت طاهر ، لا تحب أن تراه ، تطارده وتحاربه؛ لأنهم يريدون أن يعيشوا فى نجاسة. . وأن يظلوا فى بؤرة نتنة عفنة . هل رأيت أو سمعت عن ميكروب يعيش فى مكان طاهر ؟! أبداً . . وكذلك الرذيلة لا تعيش إلا فى مجتمع عفن ، وتألف البيئة النجسة ؛ لأنها تنميها وتقويها، ولكن لابد من العلاج ، وقد يكون بالاستئصال أحيانا ، حتى لا يستشرى ذلك الداء العضال .

﴿الْقَالِينَ﴾ هناك فرق بين من يعمل العمل، وبين من يكره العمل، وبين من يكره عامل العمل نفسه. لوط عليه السلام قال لهم أنا كاره لعملكم وكاره لمن يفعل الفاحشة منكم(1).

---

(1) ﴿الْقَالِينَ﴾ : جمع قَالٍ ، من قاله ، كَرَمَاهُ أو من قَلِيَه ، كَرَضِيَهُ ، قِلىً وقَلاءً : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه فى الهجر ، وقَلِيَهُ فى البغض .

بهذا المعنى قال لوط عليه السلام مخاطبا قومه : إنى لعملكم هذا من المبغضين غاية البغض . ولم يقل : إنى لعملكم قالٍ بالإفراد ، للإيذان بأنه كان يوجد من كرام الناس من يبغض حالهم ، ثم أعرض عنهم بعد أن بالغ فى نهيهم ونصحهم ولجأ إلى الله تعالى قائلا : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

[التفسير الوسيط]

* خيانة امرأة لوط ؟ *

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ﴾ [الأعراف: ٨٣] إذا سمعنا « أنجيناه » فإن ذلك يكون نجاة على أمر واحد. ولكن « نجيناه » يعنى من أشياء متعددة ، أى من أخطار متعددة. ولأن الله سبحانه وتعالى هو المنجى فإنه ينجى بكلمة «كن» ومهما تعددت الأخطار فإنها لا تحتاج من الله سبحانه وتعالى إلا كلمة ﴿ كُن ﴾ .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَهْلَهُ﴾ الأهل هنا: إما أن يكونوا أهلاً له بالنسب، أو بالتدين والتبعية. فإذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] فهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل رسول، فعندما حاول نوح عليه السلام أن يقنع ابنه بركوب السفينة ورفض الابن وأصر على كفره فغرق. قال نوح وهو يدعو الله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال له الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه [1] .

---

(١) قال القرطبى فى موقف نوح من ابنه ، فيه خمس مسائل :
الأولى : قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ أى دعاه . ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففى الكلام حذف . ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وترك قوله : ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فلما كان عنده من أهله =

= قال : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يدل على ذلك قوله : ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إلا وذلك عنده كذلك إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان ابنه يُسرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت.
وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان ابن امرأته؛ دليله قراءة على « ونادى نوح ابنها » . ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر . أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق .
الثانية : قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق فى الدين أقوى من حكم النسب ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائى: « إنه عَمِلَ غَيْرَ صالحٍ » . أى من الكفر والتكذيب ؛ واختاره أبو عبيد . وقرأ الباقون ﴿عَمَلٌ﴾ أى ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتَّى إذا ادَّكَرتْ ... فَإنما هى إقبالٌ وإدبار [1]

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذى قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الهاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة .
وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه . وكان لغير رِشْدَة ، وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه ؛ قلت : إن الله أخبر عن نوح أنه قال : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر ؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ . ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ولا يختلف أهل الكتابين أنه =

---

(١) البيت للخنساء، تصف ناقة ذهب عنها ولدها ، وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخراً .

= ابنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه ، وكان ولد على فراشه ، وكان امرأته خانته فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . وقال ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، وأنه كان ابنه لصُلبه . وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد ابن جبير وميمون بن مهران وغيرهم ، وأنه كان ابنه لصلبه . وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أكان من أهله ؟ أكان ابنه ؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا إله إلا الله ! يحدث الله محمدا ﷺ أنه ابنه ، وتقول إنه ليس ابنه ! نعم كان ابنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ؛ وهذا هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به ، وإن قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ليس مما ينفى عنه أنه ابنه. وقوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ يعنى فى الدين لا فى الفراش ، ذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فمتى؟ قال : إذا فار التنور ؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور ، فهذه خيانتها ، وخيانة الأخرى أنه كانت تدل على الأضياف ـ على ما سيأتى إن شاء الله [(١)] . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا ، كما فى الخبر « أولادكم من كسبكم » . ذكره القشيرى .

الثالثة : فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه ، قال : فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعا، ومن أهل البيت ؛ فمن وصى لأهله دخل فى ذلك ابنه ، ومن تضمنه منزله ، وهو فى عياله . وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ فسمى جميع من ضمه منزله من أهله .

الرابعة : ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما : أن الولد للفراش؛ =

(١) يقصد امرأة لوط عليه السلام .

إذن فزوجة لوط لم تدخل فى الإنجاء . . لماذا؟ لأنها كانت من الغابرين وغبر تأتى لمعان متعددة [1]، فمعناها أقام، ومعناها مضى، ولذلك يقال

= ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » [1] يريد الخيبة . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزبير «ونادى نوح ابنها» يريد ابن امرأته ، وهى تفسير القراءة المتقدمة عنه ، وعن على رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة ، فلا نترك المتفق عليها له . والله أعلم

الخامسة : قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ فـ ﴿قَالَ﴾ نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية ، وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تذلله وتواضعه . . ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من السؤال: ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أى بالتوبة: ﴿أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى أعمالا .
[تفسير القرطبى : ٩/٤٥ : ٤٨]

(١) قال البقاعى : ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى الباقين الذين لحقتهم بالعذاب العبرة والتذكير إشارة إلى أنها أصابها مثل عذاب الرجال سواء لم تنقص عنهم ؛ لأنها كانت كافرة مثلهم. [نظم الدرر : ٧/٤٥٧]

وقال القرطبى : ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى من الباقين فى عذاب الله ؛ قاله ابن عباس وقتادة. غبر الشيء إذا مضى . وغبر إذا بقى ، وهو من الأضداد . وقال قوم : الماضى عابر بالعين غير معجمة . والباقى غابر بالغين معجمة . حكاه ابن فارس .

وقال الزجاج: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى من الغائبين عن النجاة. وقيل: لطول عمرها.=

(١) أخرجه البخارى [٦٨١٨] ، ومسلم [١٤٥٨/٣٧] وكلاهما عن أبى هريرة .

هذا الشىء غبرت أيامه أى مضت، فأى معنى تتناوله الكلمة فى هذه الآية الكريمة؟ نقول: إن المعنيين ملتقيان، فمادامت لم تخرج مع لوط وبقيت فى مكانها، فقد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب. ومادامت قد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب. فقد أصبحت من الماضين لأنها؛ ستهلك.. أصبحت تاريخًا.

والحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا التفاصيل فى هذه الآية عن أسباب هلاك امرأة لوط، ولكن المعنى يؤكد لنا أنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به، ولكنه جاء بالتفاصيل فى آية أخرى فى قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم ١٠] وليس الغرض من المثل الذى ضربه الله هنا أن يقال إن امرأة لوط كانت زانية(١).

= قال النحاس: وأبو عبيدة يذهب إلى المعنى من المعمرين ؛ أى أنها قد هرمت. والأكثر فى اللغة أن يكون الغابر الباقى ؛ قال الراجز :

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أن غَفَرْ له الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ

[تفسير القرطبى : ٢٤٦/٧]

(١) قال الزمخشرى :

فإن قلت : ما كانت خيانتهما ؟

قلت : نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين ؛ فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه . ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور؛ لأنه سمج فى الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه ؛ بل يستحسنونه ويسمونه حقا ». [الكشاف : ١١٨/٤]

قال الماوردى فى تفسيره [٤٦/٦-٤٧] : فى خيانتهما أربعة أوجه :

أحدها : أنهما كانتا كافرتين فصارتا خائنتين بالكفر . قاله السدى .

الثانى : منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر ، وهذه خيانتهما قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، إنما كانت خيانتهما فى الدين . =

. . . .

= **الثالث** : أن خيانتهما النميمة إذا أوحى الله تعالى إليهما شيئًا أفشتاه إلى المشركين . قاله الضحاك .

الرابع : أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وإذا آمن أحد به أخبرت الجابرة به ، وخيانة امرأة لوط أنه كان إذا نزل به ضيف دَخّنَت لتُعْلِمَ قومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال .

وقول ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، عليه وقع الإجماع كذا قال الشوكانى [٥/ ٢٥٥].وروى هذا القول خلق عن ابن عباس منهم عبد الرزاق فى مصنفه، والفريابى وسعيد بن منصور فى سننه ، وعبد بن حميد فى مسنده ، وابن أبى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور [٨/ ٢٢٨] تفسير سورة التحريم وعزاه لابن المنذر.وأخرجه الطبرى فى تفسيره [٢٨/ ١٧٠] من قول الضحاك . وقد أخرج الحاكم فى المستدرك : ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فذلك خيانتهما . وقال : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿**فَخَانَتَاهُمَا**﴾ أى: فى الإيمان. لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئًا ولا دفع عنهما محذورًا ولهذا قال تعالى : ﴿**فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ أى لكفرهما ﴿**وَقِيلَ**﴾ للمرأتين ﴿**ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ وليس المراد بقوله ﴿**فَخَانَتَاهُمَا**﴾ فى فاحشة؛ بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة ؛ لحرمة الأنبياء كما قدمنا فى سورة النور . قال سفيان الثورى عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قرم سمعت ابن عباس يقول فى هذه الآية ﴿**فَخَانَتَاهُمَا**﴾ قال ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه ، وقال العوفى عن ابن عباس قال كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحدًا أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء . وقال الضحاك عن ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط إنما كانت خيانتهما فى الدين ، وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٩٣]

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من الله لا يستطيع أن يفرض إيماناً حتى على امرأته؛ لأن حرية الاعتقاد وحرية العقيدة قد كفلها الله للإنسان ليكون الحساب عدلاً فى الآخرة. ولذلك فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى الذين رفضوا منهج الله ورفضوا أن يؤمنوا به، والله سبحانه وتعالى لأنه أعطى كلا منا حرية الاختيار، أعطاها بعدله ، حرية أن تختار الكفر أو الإيمان، ولم يقيد هذه الحرية حتى فى زوجات الأنبياء . ويجب ألا يعتقد أحد أن امرأة لوط كانت متكبرة متسلطة على لوط؛ لأن الحق سبحانه وتعالى نفى ذلك فى قوله جل جلاله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] ومعنى ذلك أن إمرة الرجل كانت عليها ، ولم يكن لوط هو الذى يطيع أوامرها ولكنها كانت خاضعة له. ولكن حرية الاختيار جعلتها تختار الكفر على الإيمان.

ولذلك يجب ألا يأتى أحد ويقول: إن قول الحق سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام عن ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] معناه أنه ابن زنا، لا ، ولكن معناه كما قال الله وبين ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ، ولذلك لابد أن نتنبه إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] لنفهم أن حرية الاختيار فى العقيدة هى التى جعلت هذا يحدث ، وأن رسولين من رسل الله لم يستطيعا أن يرغما زوجتيهما على الإيمان ، فالمسألة فى حرية العقيدة التى كفلها الله للإنسان ، ولا أحد يستطيع أن يجبر عليها أحدا بالقوة[1]. وفى هذا ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة

---

(١) قال تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وأمثاله فى القرآن كثير .

فرعون، ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر بالله(١) . إذن فنبى لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن ، ومدع للألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تكفر، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى حماه الله بكل أنواع الحماية، بحيث لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس اقتناع وليس على أساس قهر. ولذلك فماذا كان دعاء امرأة فرعون؟ اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم : ١١].

وضرب الله مثلاً بامرأة أخرى فقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ . نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يأت بأسماء زوجتى النبيين ولا امرأة فرعون، ولكنه قال امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون، ولا نعرف من هن(٢). ولكن عندما جاء إلى مريم لم يأت بها مبهمة، بل جاء باسمها

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها،ورجليها، فكانت إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة ، فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .... فكشف لها عن بيتها فى الجنة . أخرجه أبو يعلى [٦٤٣١] والبيهقى بسند صحيح . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٩/ ٢٢١]: رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية [٣٧٨٦] بعد أن عزاه لأبى يعلى: صحيح موقوف .

وقال ابن جماعة : امرأة فرعون هى آسية ابنة مزاحم ، وأظهرت إيمانها يوم الزينة فأمر فرعون أن توتد على ظهرها أوتاد ، وأن تُرضخ بصخرة عظيمة إن لم ترجع ، فلما أُتيت بالصخرة قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾ الآية ، ورفعت بصرها فرأت مالها عند الله فقبضت روحها ورضخوا جسدًا لا روح فيه . [غرر التبيان : ٥١٤]

(٢) امرأة نوح : والغة ، وقيل واعلة . وامرأة لوط : هى والهة وقيل : واهلة .
[غرر التبيان لابن جماعة : ٥١٤]
أما اسم امرأة فرعون فقد دلت عليه الأحاديث الصحيحة ومنها ما أخرجه الشيخان ، عن أبى موسى رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال =

واسم أبيها. . لماذا الإبهام فى النساء الثلاثة ؟ نقول لأن الله يضرب مثلاً بصرف النظر عن الشخصية؛ لأن من الجائز جدًا أن يحدث هذا لأى امرأة جبار تكون مؤمنة، أو أى زوجة لرجل صالح تكون كافرة، أى أن المثل بالنسبة للنساء الثلاث ممكن أن يتكرر مرات ومرات فى الحياة الدنيا، ولكن معجزة مريم وعيسى عليهما السلام حدثت مرة واحدة فى تاريخ الإنسانية ولن تتكرر أبدًا. ولذلك لما ذكر الله سبحانه وتعالى مريم قال: ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ** ﴾ ليميزها عن نساء الأرض جميعًا؛ لأن المعجزة التى حدثت لها لن تتكرر مع أحد.

وكذلك الأمر بالنسبة لعيسى عليه السلام، فكل الأنبياء فى القرآن قد ذكروا بأسمائهم دون النسبة إلى الأب أو الأم. فقيل: نوح وهود وصالح وموسى وهارون دون ذكر نسب، أما عيسى عليه السلام فلم يذكر فى القرآن الكريم إلا منسوبًا إلى أمه، وكلما ذكر قيل: عيسى بن مريم ، ولم يقال عيسى فقط. ولذلك فلابد أن نتنبه إلى أن معجرة مريم ابنة عمران لا تتكرر حتى إذا أتت امرأة وادعت أنه حدث لها ما حدث لمريم ابنة عمران نعرف أنها كاذبة ، وإذا جاء أى إنسان وادعى أنه حدث له مثل

= كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران . وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .أخرجه البخارى ، [٣٤١١]. ومسلم [٢٤٣١] .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل نساء الجنة أربع ، مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ، وآسية ابنة مزاحم » . أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٣٢٢] واللفظ له ، وصححه الشيخ شاكر رقم [٢٩٦٠] ، والحاكم فى المستدرك [٣/ ١٦٠] وصححه ، والطبرانى فى الكبير [١٠١٩] ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [١١٣٥] .

ما حدث لعيسى عليه السلام نعرف أنه كاذب، فالمعجزة لن تتكرر فى تاريخ البشرية كلها حتى قيام الساعة [1].

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان ، غير مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أخرجه البخارى [٣٤٣١] .

وعن عبادة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . أخرجه البخارى [٣٤٣٥] .

* فأنجيناه وأهله إلا امرأته *

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣] كلمة « أنجينا » تشير أولاً إلى أن عذابًا سيقع، وأن العذاب سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط. وأن النجاة لن تكون بقدرة لوط أو المؤمنين معه، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى، فهو الذى سينجيهم من هذا العذاب. ولذلك قال الحق : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ ونسب الفعل إلى ذاته سبحانه وتعالى، ولذلك فإن الله هو الذى أخرج آل لوط وأنجاهم من العذاب.

قوم لوط قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]

فجاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى موافقة لما طلبه قوم لوط، أخرج الله لوطًا ومن معه فعلا من القرية ،ولكنه أخرجهم لينجيهم من العذاب ، فكأن ما كان يحسبه قوم لوط خيرًا لهم بإخراج لوط ومن معه من المكان كان شرًا لهم؛ لأنهم بإخراجهم نزل العذاب على قوم لوط.

والحق سبحانه وتعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٥٨، ٥٩] والقوم المجرمون هم قوم لوط، الذين أتعبوه وكذبوه، وهم الذين يفعلون المعاصى والمنكرات. وهل آل لوط كانوا ضمن القوم المجرمين؟ نحن نعرف أن الاستثناء هو إخراج ما بعد إلا مما قبلها. فآل لوط لم يكونوا فى القوم المجرمين ؛ إذن فالاستثناء ليس من قوم لوط، ولكنه من مجرمين ؛ لأن القوم كان أغلبهم فاسدين، فصار «قوم لوط» اسم علم على القوم ،

ويسمون أيضًا « آل لوط » والمجرم هو المنقطع عن الحق فالإجرام قطع، ولذلك يقولون: هذه جريمة أى قطعت أمنًا وسلامًا كانا سائدين، أو قطعت عن حق إلى باطل، فهذه اسمها جريمة. والاستثناء فى هذه الآية قضية لغوية أفاض فيها العلماء كثيرًا، فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أى إلى مجرمين ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ هذا استثناء ، فنحن لم نرسل لآل لوط، إذا كنتم ستنجونهم فيكون الإرسال للإنجاء والإهلاك ، نعم؛ لأنهم جاءوا فى الأصل لكى يهلكوا قوم لوط المجرمين ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ فاستثنى آل لوط من كلمة مجرمين.

ثم قال : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى آل لوط ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ . إذن فامرأة لوط لن تنجو، بل ستدخل فى عداد المجرمين، ولذلك قالوا: إذا توالت الاستثناءات على مستثنى منه، تأخذ المستثنى الأول من المستثنى منه، والمستثنى الثانى من المستثنى الأول، والمستثنى الثالث من المستثنى الثانى. مثلما يقول لك واحد: لك علىّ عشرة دراهم إلا أربعة « فأقر بستة دراهم » إلا درهمًا « فتكون أربعة إلا درهمًا هى المستثنى فيكون قد أقر بسبعة درهمًا». وكذلك فى الأبعاض: لك علىَّ خمسة دراهم إلا درهمًا إلا ثلثًا ، فأقر بأربعة دراهم وثلثان [1] . هنا الآية تقول :

---

(١) قال القرطبى : لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى ؛ فإذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما ؛ ثبت الإقرار بسبعة ؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة ، وهو مثبت ؛ لأنه مستثنى من منفى ، وكانت الأربعة منفية ؛ لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة ، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله ، والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها =

﴿إلا آلَ لُوطٍ﴾ فهم مجرمون إلا آل لوط، واستثنى من آل لوط امرأته فتكون قد دخلت فى القوم المجرمين: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .(1)

= ثمانية عشر: والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان ، وهو القدر الواجب الإقرار لا غير . فقوله سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال : ﴿إِلا امْرَأَتَهُ﴾ فاستثناها من آل لوط ، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت اثنتين ؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه . [تفسير القرطبى : ١٠/ ٣٧]

(١) قول الله تعالى: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]

قال الدكتور: محمد جميل غازى رئيس المركز الإسلامى لدعاة التوحيد والسنة رحمه الله تعالى: والغابرون هم فى تعريف العصر «الرجعيون» فامرأته رجعية مرتبطة بمجتمعها، لكنه لم يستعمل لفظ: «رجعية» وإنما استعمل لفظ: غابر.. امرأة غابرة.. من الغُبْرَة.. فى مجتمع غابر.

إن منطق الرجعية فى مفهوم القرآن الكريم هو الرجوع إلى تقاليد بالية، وإلى أخلاق فاسدة، وإلى عقائد منحرفة لم يردها الله ولم يشرعها الله سبحانه وتعالى.

إذن فمناط التفرقة بين ماهو رجعى وبين ماهو تقدمى هو حكم الله تعالى، فما حكم به الله يجب اتباعه؛ ومن هنا تسقط هذه الألفاظ: لفظ رجعى ولفظ تقدمى؛ لأن القرآن لايقول اقبلوا كل فكر متقدم سواء كان حقًا أو باطلاً ،وارفضوا كل فكر متأخر قديم سواء كان حقًا أو باطلاً، وإنما الفيصل بين القديم والجديد هو الحق، فإذا كان القديم حقًا قبلناه، وإن كان الجديد باطلاً نبذناه، وإذا كان القديم باطلاً رفضناه، وإذا كان الجديد حقًا اتبعناه.

فنحن لا نرفض الجديد لأنه جديد، ولكن لأنه باطل، ولا نقبل القديم لأنه قديم ولكن لأنه حق، فالباطل باطل رغم الزمان ورغم المكان ورغم المجتمعات، والحق حق بغض النظر عن البيئة التى خرج منها، أيضاً. [بتصرف يسير من تفسير الدكتور محمد جميل غازى لسورة الحجر وهو تفسير كامل موجود على شرائط كاست ، نسأل الله تعالى أن يوفق له من يقوم على طباعته] .

ولكن هل الرسل هم الذين قدروا أم الذى قدر هو الله تعالى ؟

نقول: إن الفعل يصح أن ينسب إلى الآمر به وإلى المبلغ وإلى المباشر له، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾. ويقول: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ** ﴾ [السجدة: ١١] فمرة ينسب الفعل للآمر الأعلى سبحانه وتعالى، ومرة للمبلغ ، ومرة لمن يباشر العملية، وقوله تعالى: ﴿ **قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾ حين تسمع كلمة «غابر» تظن أن الزمن الغابر هو الذى مضى، ولكن هنا غابر بمعنى باق، أو هو من أسماء الأضداد، فمعنى ﴿ **لَمِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾ أى من الباقين فلن تخرج ولن تنجو؛ لأن الذى سينجو سيخرج من القرية، والذى سيبقى هو الذى سيهلك.

وفى موضع آخر أشار القرآن إلى من تكون هذه العجوز التى أهلكها الله مع العصاة المكذبين من قوم لوط قال تعالى: ﴿ **رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ** ﴾. العجوز معروف وهو من تقدمت به السن وتجاوز الستين فى عرفنا هذه الأيام، و﴿ **الْغَابِرِينَ** ﴾ أى الهالكين. كأن الله يخبر رسوله لوطًا ، بأن هذه الزوجة التى لم تكن أهلاً للزواج من نبى وخانته فى نبوته ، ستهلك مع العصاة المذنبين، ستظل فى الدار ولا تخرج معك ضمن من اتبعك من أهلك. وسيجرى عليها ما يصيب غيرها من الهالكين. يقول المثل العربى «هذا أمر غبر وقته» أى ذهب وقته ومضى.(١)

---

(١) قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم:

غبر يغبر غبورًا: بقى متخلفًا أو مضى وذهب، قال تعالى: ﴿ **كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾ أى =

❋إبراهيم يجادل الملائكة فى عذاب قوم لوط❋

الجدل هو الحجة مقابل الحجة حتى تصل إلى الحق ، وليس الجدل أن تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل . والجدل أمر به الله لتصل إلى قضية حق، أما أن تعرف الحق وتجادل فهذه مماراة [1]، ما معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] بعد أن قال الملائكة: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾. هل كان إبراهيم يجادلهم فى تعذيب قوم لوط؟ ويطلب إعطاءهم مهلة عسى أن يؤمنوا لأن قلبه رحيم؟ الحق قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] . «الحليم» لا يعجل بالعقوبة، ﴿أَوَّاه﴾ يتأوّه، والتأوّه رقة فى القلب، وإن كان التأوه من أعلى يكون خوفًا، ومن أقل يكون رحمة ورأفة. و﴿ مُنِيبٌ﴾ العلة فى أنه جادل الملائكة ، حليم أى لا يحب العجلة فى العذاب. ولذلك يقول يا رب اتركهم قليلاً علهم

= من الباقين المتخلفين فى القرية للهلاك، أو كانت من الماضين الذاهبين أى من الهالكين، يقال: مضى وذهب بمعنى مات وهلك، فقوله تعالى: ﴿ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى من الهالكين من أهل القرية الباقية فيها.ا.هـ.

(١) ماريت الرجل أماريه مراءً إذا جادلته . والمِرْية والمُرْية : الشك والجدل بالكسر والضم. والمراء : المماراة والجدل ، والمراء أيضًا : من الامتراء والشك . والتمارى والمماراة : المجادلة على مذهب الشك والريبة . ويقال للمناظرة مماراة ؛ لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه ، كما يمترى الحالب اللبن من الضرع . [لسان العرب : ١٥/ ٢٧٧ ، ٢٧٨]

يتوبوا ويؤمنوا، ومتأوّه لله سبحانه وتعالى يرجوه رحمتهم، ومنيب أى عندما يعرف الحق يلجأ إليه ويلتزم به [1] .

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أى أن إبراهيم حين عرف الحقيقة التزم بها وتبرأ من أبيه . ولذلك عندما قالت الملائكة: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود: ٧٦] انتهى الجدل تمامًا . الملائكة قالت: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦] وما دام أمر الله جاء فله حكمة. ولذلك عاد إبراهيم إلى الحق ولم يجادل عندما قالت الملائكة: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦] أى عذاب لا جدال فيه ولا شفاعة، عذاب غير مردود لماذا ؟ لأنه ما دام أمر الله فلا يستطيع أحد أن يرده عنهم . ويقال : إن إبراهيم عليه السلام فى جداله مع الملائكة ، قال لهم: إذا كان فى قوم لوط خمسون يؤمنون بالله أتعذبونهم قالوا: لا. قال وخمسة وعشرون قالوا: لا. قال وعشرة قالوا: لا. قال وواحد قالوا: لا. قال إن لوطًا فيهم [2]. الحق سبحانه وتعالى يقول :

---

(١) المنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم ﷺ كان راجعا إلى الله تعالى فى أموره كلها . وقيل : الأوّاه المتأوّه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .
[تفسير القرطبى : ٩/٧٣] .

(٢) لما ذهب عن إبراهيم، عليه السلام الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: «أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟. قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟. قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا. قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟. قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فسكت عنهم واطمأنت نفسه» قاله سعيد بن جبير. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٤] =

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] . إلى هنا توقف الحديث بين إبراهيم والملائكة.

= وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا ، وأضافه إلى نفسه ، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة ؛ وذلك أنهم لما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال: فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال : فعشرون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة ـ أو خمسة شك حميد ـ قالوا : لا . قال قتادة : نحوا منه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ . وقال عبد الرحمن بن سمرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جريج . وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أن ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ فى موضع «جادلنا». قال النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه. وفيه جواب آخر ـ أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال؛ أى : أقبل يجادلنا، وهذا قول الفراء.

[تفسير القرطبى : ٩/ ٧٢]

ويقول الدكتور محمد جميل غازى رحمه الله:

هؤلاء الملائكة كانت مهمتهم الأساسية التى جاءوا من أجلها هى تدمير قرى سدوم وعمورة على قوم لوط، عليه السلام، فى غرب الأردن، إذ أن إبراهيم، عليه السلام، لما سألهم

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [الحجر: ٥٧-٦٠] فنلاحظ أن الرسل لم يذهبوا مباشرة إلى سدوم وعمورة، وإنما ذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام أولاً . . لماذا؟ =

ويذهب الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط لتنفيذ مهمتهم، ماذا حدث عندما وصلوا إلى لوط؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] أى شعر فى نفسه بالسوء. وضاق ذرعًا، والذرع مأخوذة من الذراع. والذراع فيه الكف، والكف فيه الأصابع التى تدفع بها الأشياء عن نفسك، وأى شيء تستطيع أن تمد له ذراعك لتدفعه عنك فلا تصل ذراعك إليه يقال ضقت به ذرعًا، أى أنت عاجز عن أن تدفع أذى جاءك. ولذلك يقال: (لو أن ذراعى طالته لحدث

= ذلك أدب عال يؤدبنا الله به؛ إنهم بدأوا بالعم الأكبر، فإبراهيم عم لوط، عليهما السلام، ما ضرَّ لو أنهم ذهبوا إلى ابن أخيه مباشرة، وإنما هذا أدب ينبغى أن نتعلمه، كما قال الرسول، ﷺ: « الكُبْرَ الكُبْرَ » (١) فنبدأ بالأكبر نجلُّه ونضعه فى مكانته.

فالملائكة يقولون: إن موضوع البشرى بإسحاق جئناك به عرضًا، لكننا جئناك فأنت الكبير وأنت العم الكبير، ونحن فى طريقنا إلى ابن أخيك، فأردنا أن نمر بك أولاً لتعلم جلية الأمر. [تفسير سورة الحجر]

(١) عن بشير بن يسار زعم أن رجلا من الأنصار يقال له : سهل بن أبى حثمة أخبره أن نفرا من قومه انطلقوا إلى خيبر فتفرقوا فيها ، ووجدوا أحدهم قتيلا ، وقالوا للذى وُجد فيهم : قد قتلتم صاحبنا ، قالوا : ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ، فانطلقوا إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر فوجدنا أحدنا قتيلا فقال : « الكبر الكبر » فقال لهم : «تأتون بالبينة على من قتله » قالوا : ما لنا بينة قال : فيحلفون . قالوا : لا نرضى بأيمان اليهود ، فكره رسول الله ﷺ أن يُطَلَّ دمه فَوَدَاه مائة من إبل الصدقة. أخرجه البخارى [٦٨٩٨] .

قال الحافظ فى الفتح [٢٢٤/١٤] : قوله : « فقال الكبر الكبر » بضم الكاف وسكون الموحدة وبالنصب فيهما على الإغراء ، زاد فى رواية يحيى بن سعيد « فبدأ عبد الرحمن يتكلم وكان أصغر القوم » زاد حماد بن زيد عن يحيى عند مسلم « فى أمر أخيه » وفى رواية بشير « وهو أحدث القوم » وفى رواية الليث « فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال كبر الكبر » الأولى أمر والأخرى كالأول ، ومثله فى رواية حماد بن زيد وزاد « أو قال يبدأ الأكبر » وفى رواية بشر بن المفضل « كبر كبر بتكرار الأمر » وكذا فى رواية أبى ليلى وزاد «يريد السن » وفى رواية الليث « فسكت وتكلم صاحباه » وفى رواية بشر «وتكلما».

كذا وكذا) أى أنك عجزت عن أن تصل إليه أى أنه فوق طاقتك [1] .

الملائكة جاءت إلى لوط فما الذى ساءه وجعله يحس بعجزه؛ لأن الملائكة جاءت إليه على هيئة بشر، وهو يعلم ما يفعله قومه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ لماذا؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين، صعدت إلى سطح البيت وأوقدت نارًا ؛ لتحدث دخانًا كثيفًا إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفًا قد وصلوا، وأنهم حسنو المظهر يستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال[2]. لوط حين وصل

---

(١) ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه . وقيل : ضاق وسعه وطاقته . وأصله أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه ؛ فإذا حمل على أكثر من طوقه ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه ؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل : هو من ذرعه القيء أى غلبه ؛ أى ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه ، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلم من فسق قومه . [تفسير القرطبى : ٩/ ٧٤]

(٢) عن أبى مالك عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ مرفوعًا قال: «لماخرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط وأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها، وكان له ابنتان، فقالوا لها : ياجارية هل من منزل؟. قالت: نعم. مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أدرك فتيانًا على باب المدينة، مارأيت وجوه قوم هى أحسن منهم، لايأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً حتى قالوا: خل علينا فليضيف الرجال، فجاءهم ولم يعلم أحدًا إلا بيت أهل لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومه قالت: إنَّ فى بيت لوط رجالاً مارأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه...» الحديث بطوله، رواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٦٣] وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. =

إليه القوم: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعنى يوم صعب ومنه العصابة التى يربطها الإنسان على رأسه فى يوم يعانى فيه من تعب شديد. ومنه العصبة لأنهم جماعة يتكاتفون على فرد، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فيكون اليوم عصيبًا بالنسبة له ؛ لأنه يلاقى فيه أذى كثيرًا [1] .

امرأة لوط أوقدت النار وارتفع الدخان ، وعرف أهل القرية أن عند لوط رجالا حسان المظهر، فلم يضيعوا وقتًا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] ومعنى ذلك أن قوم لوط جاءوا إليه

= وقال القرطبى : ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له. وقيل : وجدوا ابنته تستقى ماء من نهر سدوم ، فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم فى الأرض ـ وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات ـ فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .
[تفسير القرطبى : ٩/ ٧٥]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. أى شديد. وقال الشاعر:

وإنَّكَ إلا تُرضِ بكرَ بن وائلٍ يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصِيبُ

وقال آخر :

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالا عَصْبَ القَوِىِّ السَّلَمَ الطِّوالا

ويقال : عصِيبٌ وَعَصَبْصَبٌ على التكثير ؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب ؛ أى عصب بالشر عصابة ؛ ومنه قيل : عُصبة وعِصابة أى مجتمعوا الكلمة ؛ أى مجتمعون فى أنفسهم . وعَصَبة الرجل المجتمعون معه فى النسب ؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب[1]، أى مجتمع الخلق . [تفسير القرطبى: ٩/ ٧٤]

---

(١) فى مفردات الراغب : ومعصوب الخلق أى مدمج الخلقة .

مسرعين متدفقين. والإنسان حين يتعود على الإثم يفعله بسهولة ويسرع إليه، فالذى يسرق أول مرة يكون متهيبًا وخائفًا أن يمسك به ؛ لأنه ليس له دراية بالسرقة أما الذى يسرق كل يوم، فهو يقدم على السرقة بجرأة ونشاط. وكلمة يُهرعون من ألفاظ اللغة العجيبة ، كل فعل له فاعل مثل يضرب زيد عمرًا . من الذى ضرب؟ زيد. وضرب من ؟ عمرا. . هذا فاعل وهذا مفعول ولكن كلمة يُهرع إذا سمعناها فالضمة على الياء، وهى ملازمة للبناء للمجهول، يُهرع مثل جُن بضم الجيم، ومعناها فلان أُصيب بالجنون ، ولكن هل هو أحضر لنفسه الجنون؟ لا. . الجنون هو الذى جاءه، ونحن لا نعرف للجنون سببًا فبنيت للمجهول، مثلا يقال نكب فلان، ولكننا لا نعرف ما الذى نكبه؟ ولكن إذا جهل الفاعل بنى للمجهول، إنما ما بعده يكون فاعلا (١) .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فى موضع الحال . «يهرعون» أى يسرعون . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة ؛ يقال : أُهْرِع الرجل إهراعا أى أسرع فى رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمَّى ، وهو مُهْرَع؛ قال مُهلهل :

فجاءوا يُهرَعون وهُمْ أسارَى　　　نَقودُهمُ على رَغْمِ الأُنوفِ

وقال آخر :　　　بمعجَلات نحوه مَهارِعِ

وهذا مثل : أُولِع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد ، وزُهِى فلان . وتجىء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرِع أى أهرعه حِرصُه ؛ وعلى هذا ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أى يُستحثون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أُهْرِع الرجلُ أى أسرع ؛ على لفظ ما لم يسم فاعله . قال ابن القوطية : هُرِع الإنسان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق واستجِل . وقال الهروى يقال : هُرِع الرجلُ وأُهرِع أى استُحِث . قال ابن عباس وقتادة والسدى : ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يهرولون . الضحاك : يَسعون . ابن عُيينة : كأنهم يدفعون . وقال شِمر بن عطية: هو مشى بين الهرولة والجمزى(١). وقال الحسن: =

(١) جمز الإنسان والبعير والدابة ، يجمز جمزًا وجمزى: وهو عَدْوٌ دون الحُضْر الشديد وفوق=

قوله تعالى: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] الإنسان إذا أقبل على شىء باندفاع فهو عاشق إلى أن يذهب إلى ذلك الشىء، ولا يعشق إنسان أن يذهب إلى شىء، إلا إذا كان يذهب إلى ما يحب ودون أية هيبة، فيه اندفاع منه وفيه دفع من غيره، فأى جماعة تكون مقبلة على أمر محبب إلى نفسها تندفع إليه. فإذا كان هناك نقص فى مادة غذائية ، ثم عرف الناس أنها موجودة فى محل معين هرعوا إليه، أى اندفعوا إليه ودفعوا غيرهم، وقوم لوط مدربون على هذا الإثم.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] إذن فهم متدربون على هذا العمل، يعشقونه ويفعلونه بلا هيبة ولا حياء ؛ لأن الحياء أن يفعل بعضهم ويخاف بعضهم ، ولكن إذا كانوا كلهم يقومون بهذه السيئة ، فلا أحد يخشى أو يمتنع ؛ لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه [1] . أقبل قومه على بيته بسرعة واندفاع وفى أعداد كبيرة، وهو يعلم نيتهم من سوابقهم، ويريد أن يصرفهم عن ضيوفه انصرافًا من جنس اندفاعهم.

= مشىٌ بين مشيين ؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فِتية ما رؤى مثلهم جمالا ؛ وكذا وكذا ؛ فحينئذ جاءوا يُهرعون إليه . [تفسير القرطبى : ٩/ ٧٤ ـ ٧٥]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل ، وقيل : من قبل لوط أى كانت عادتهم إتيان الرجال .

[تفسير القرطبى : ٩/٧٥]

= العَنَق ، وهو الجَمْز . وحمار جمزى :وثّاب سريع . وجمز فى الأض جمزًا : ذهب .
[لسان العرب : ٥/ ٣٢٣ ، ٣٢٤]

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أيعرض لوط بناته عليهم؟ وما المانع ، فالمرأة معدة لهذا ، ومن الممكن أن يتم الزواج بينها وبين الرجل. ولكن هؤلاء كافرون ولوط رسول الله ؛ هل كان من الممكن أن يزوج الرجل ابنته لغير مؤمن؟ نقول نعم، ورسول الله ﷺ زوج ابنته رقية لابن أبى لهب، ولأبى العاص بن الربيع، ولم يكن فى ذلك الوقت قد نزل التشريع بالتحريم.[١]

لوط قال هؤلاء بناتى، هل قالها بالنسبة لبناته اللاتى من صلبه؟ أو لبنات أمته؟ أو بنات المؤمنين به؟ لوط لم يؤمن برسالته إلا هو وبنتاه. إذن فلم يكن المقصود بنتيه ؛ لأنهما لا يكفيان هذا العدد الكبير. إن لوطًا كان يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج، ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية[٢]، بدليل أنه قال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أى أن زواجكم

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي﴾ ابتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي﴾ فقيل : كان له ثلاث بنات من صلبه . وقيل : بنتان ؛ زيتا وزعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا فى أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتا له من عُتبة بن أبى لهب والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى، وكانا كافرين . وقالت فرقة ـ منهم مجاهد وسعيد بن جبير ـ أشار بقوله : ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النساء جملة ؛ إذ نبى القوم أب لهم ويقوى هذا أن فى قراءة ابن مسعود . « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا . وقال عكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا . [تفسيرالقرطبى : ٩/٧٦]

(٢) قال ابن جرير : قال لوط لقومه لما جاءوا يراودونه عن ضيفه : هؤلاء يا قوم بناتى =

من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال. فالزواج شريعة الله والفاحشة مع الرجال إثم عظيم .[1]

= يعنى نساء أمتى فانكحوهن فـ ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ . ونقل عن مجاهد قوله : لم يكن بناته ولكن كنَّ من أمته ، وكل نبىٍّ أبو أمته . [تفسير الطبرى : ١٢/ ٨٤]

(١) تكملة حديث ابن عباس، عند الحاكم فى مستدركه [٢/ ٥٦٣] ، يقول: فلما أتوه قال لهم لوط: هؤلاء بناتى هن أطهر لكم مما تريدون، يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا له أولم ننهك أن تضيف الرجال؟! قد علمت أن مالنا فى بناتك من حقّ وإنك لتعلم مانريد. . ».

ويقول الدكتور محمد جميل غازى رحمه الله :

وأثناء حديث الضيوف مع لوط، عليه السلام، تسللت امرأة لوط الكافرة هاربة إلى قومها لتخبرهم بضيوف زوجها، ولما أخبرتهم لم يتوانوا ولم يفكروا وقال الله عنهم: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] وتأمل لفظ: ﴿ يُهْرَعُونَ﴾ إنه يمثلهم كمجموعة من البهائم ، لا نعيب البهائم، فالبهائم تعرف فطرتها تماما، وتقوم بفطرتها كما خلقها الله، أما هؤلاء فأصبحوا أحطّ من البهائم. رجال يمارسون الجنس مع الرجال، والنساء يمارسن السحاق مع النساء !!

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر:٦٨-٦٩] أيها الناس هؤلاء ضيوفى واتقوا الله ولاتخزون معهم، أليس منكم رجل رشيد؟!! مجموعة هائلة من الرجال ليس منهم رجل عاقل واحد ينهاكم عن هذه الفاحشة؟!! أليس منكم رجل له بقية من فطرة ؟!! يأنف طبعه من هذا الفعل الفاحش فيرفض أن يكون فاعلاً أو مفعولاً به؟!! أليس منكم رجل له طبيعة رشيدة توجهه إلى فعل الخير ؟!!

وتحدث المصابون بالشذوذ الجنسى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] ألم نقل لك يا لوط ألا تضيف أحدًا من الرجال؟!. تجىء الآن وتقول: هؤلاء ضيوفى؟. .إذن فاسمح لنا بأن نهاجمك،فنحن لا صبر لنا على رؤية الرجال. ﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الحجر: ٧١] هؤلاء بناتى أطهر وأنقى وأتقى لكم فتزوجوا بهن، فإن المرأة خلقت لهذا ، فلو أن المجتمع اكتفى رجاله برجاله ونساؤه بنسائه فإنه يتلاشى ويفنى ولا تقوم له قائمة.

ثم عندما لم يجد اقتناعًا منهم بذلك ، حاول أن يستعطفهم بأن يحفظوا عليه كرامته بالنسبة لضيوفه. فقال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] كلمة ضيف مفردة وتطلق على الجماعة ، يعنى إن كان هناك واحد يقال: هناك ضيف ، وإن كان هناك اثنان يقال: هذان ضيف، وجماعة يقال: هؤلاء ضيف، فهو مفرد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع، والله سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] إذن فضيف كلمة مثلها مثل كلمة طفل تقال للمفرد والمثنى والمذكر والمؤنث والجمع. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١] . فكأن الطفل تطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ . ما هو الخزى؟ الخزى هو الفضيحة أمام الناس، فالإنسان حين يهان لو كان بمفرده فهذا هوان ، ولكن الخزى أن يهان أمام جمهرة من الناس.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أى رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة.

قوم لوط أرادوا أن يحاجوه بالباطل، واقرأ قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] يعنى أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك. وأنت تعلم أننا لا نريد البنات، ولكننا نريد

ضيوفك هؤلاء، الضيوف الرجال ذوى الهيئة الحسنة لنرتكب معهم الفاحشة. لوط أحس بالضيق الشديد والخزى وبالعجز ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ساعة تسمع ﴿لَو﴾ تكون للتمنى، أى أتمنى أن تكون لى قوة أدفعكم بها عن ضيوفى ، لو أن عندى القوة لفعلت ، وإن لم يكن عندك القوة الذاتية. فإنك تبحث عن قوى أو أقوياء، تستطيع أن تأوى إليهم ليدفعوا عنك السوء، وقوله تعالى: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أى أجد من الأقوياء من ينصرونى عليكم، فآوى إليهم ليدافعوا عنى.(١)

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد . . . » . جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٦٩٤] ، ورواه الترمذى [٣١١٦] بلفظ : « . . . قال ورحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه . وقال : حديث حسن ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٩٠]: حسن . ورواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٦١] وعنده : « ثروة » بدلا من « ذروة » وقال صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبى فى التلخيص.

وقال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أى جماعة هم كالركن الموصوف بالشدة لحلت بينكم وبين ماجئتم له ، وحذفه أبلغ لذهاب النفس فيه كل مذهب ؛ والسوء : ما يظهر مكروهه لصاحبه ؛ والعصيب : الشديد فى الشر خاصة كأنه التف شره ؛ والقوة خاصة يمكن أن يقع بها الفعل وأن لا يقع ؛ والركن : معتمد البناء بعد الأساس ، والركن هنا من هو مثله ؛ والشدة : مجمع يصعب معه الإمكان ، ووصفه الركن بالشدة وهو يتضمنها تأكيد يدل على أن قومه كانوا فى غاية القوة والجلادة ، وأنه كان يود معاجلتهم لو قدر . وذلك أن مادة ركن بكل ترتيب تدور على الرزانة ، من ركن ـ بالضم بمعنى رزن ، ويلزمهما القوة ، ومنها الركن للجانب الأقوى والأمر العظيم وما يتقوى به من ملك وجند وغيره والعز والمنعة ، ومن ذلك النكر بالضم للدهاء والفطنة ، والنكر للمنكر والأمر الشديد وما يخرج من =

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى توضح موقف قوم لوط من

= الزحير[1] من دم أو قيح ، ونكر الأمر : صعب وطريق ينكور : على غير قصد ، والمنكر ضد المعروف ؛ لأن الشيء إذا جهل صعب أمره ، وتناكر القوم : تعادوا ، والتنكر : التغير من حال يسر إلى حال يكره ، والمكنر ـ كمحدث : الضخم السمج ، ويلزم الرزانة أيضا الميل والسكون ، ومنه ركن إليه ـ بالفتح : مال وسكن ، وركن بالمنزل ـ بالكسر : أقام ؛ والكنارة ـ بالكسر والتشديد : الشقة من ثياب الكتان ، لأنه يمال إليه لبهجته ، وكذا الكنارات للعيدان والطبول ، والكران ككتاب للعود أو الصنج ، أو يكون ذلك من الشدة لقوة أصواته ـ والله أعلم .

[نظم الدرر: ٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣]

وقال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أى ألجأ أو أنضوى . وقرى ﴿أَوْ آوِى﴾ بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : « لو أن لى بكم قوة » أو إيواء إلى ركن شديد ؛ أى وأن آوى ، فهو منصوب بإضمار « أن » . ومراد لوط بالركن العشيرة ، والمنعة بالكثرة . وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ؛ فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد »[2] الحديث ؛ وقد تقدم فى « البقرة » . وخرجه الترمذى وزاد « ما بعث الله بعده نبيا إلا فى ثروة من قومه »[3] . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن . ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنح عن الباب ؛ فتنحى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وعموا =

---

(١) الزّحير والزُّحار والزُّحارة : إخراج الصوت ، أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

[لسان العرب : ٤/ ٣١٩]

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٦٩٤] .

(٣) أخرجه الترمذى [٣١١٦] بلفظ : « . . . .قال ورحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ فما بعث الله من بعده نبيًا إلا فى ذروة من قومه » . وقال : حديث حسن . وحسّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٩٠] .

الملائكة الذين جاءوا إليه بالبشرى والحوار الذى دار بينهم وبينه، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧] أى جاء أهل المدينة فرحين مستبشرين ؛ لأن الاستبشار هو استشراف النفس إلى شىء مفرح وسار؛ لأنهم حينما سمعوا بأن لوطًا جاءه جماعة فى غاية الحسن والجمال: تحركت نوازعهم المنحرفة وقالوا : هذه فرصة، فجاءوا مستبشرين ومسرورين ؛ لأننا كما نعلم أن الملاك يضرب به المثل فى الحسن والجمال. ولذلك يقول الحق سبحانه فى قصة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فكأنهم رأوا أن هذه فرصة يجب ألا تفلت من أيديهم ؛ لأنهم كانوا أهل منكر وانحراف ، وهو ليس منكرًا عامًا يفعلونه بخزى واستحياء ، وإنما كانوا يفعلونه بسرور واستبشار.

فلما جاءوا فوجئ بهم لوط وهو يعلم مصيبتهم فقال لهم: ﴿هَؤُلاءِ ضَيْفِى فَلا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] وكان من عادة العرب أن الضيف يأخذ

= وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ . وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار ، وهو يناظر قومه يناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسور الجدار ؛ فلما رأت الملائكة ما لقى من الجهد والكرب والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد ، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود ، وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها فى وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا اهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن فى بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه . [تفسير القرطبى : ٩/ ٧٨ ، ٧٩]

كرامته واحترامه من المضيف، ولا يسمح لأحد أن يناله بسوء وهو عنده ؛ لأنه أخذ جواره، وأى اعتداء على الضيف يعتبر نقيصة وعارًا على المضيف. ﴿هَؤُلاءِ ضَيْفِي﴾ هؤلاء جمع ، وضيفى مفرد كما قلنا. فلا تفضحون: الفضيحة هى هتك المساتير التى يستحى منها الإنسان؛ لأن هناك أشياء يفعلها الإنسان ولكنه يستحى أن يظهرها، هذه تسمى المساتير. لذلك حين طلب منا الحق سبحانه أن نتخلق بخلقه: جعل من كل صفات الجلال والجمال فيه نصيبًا يعطيه لخلقه. ولكنه سبحانه فى بعض الأوصاف يقولها ولا يقول المقابل لها، فمن أسمائه مثلاً: الضار والنافع، والقابض والباسط، والمعز والمذل.

ومن صفاته الستير[1] ولم يأت بالمقابل ؛ لأنه سبحانه يريد أن يحمى الكون لكى يستمتع كل فرد فيه حتى بحسنات المسىء ؛ لأنك لو عرفت لمحسن حسنات متعددة، ثم اطلعت منه على سيئة فقد تلعنه وتقاطعه، فتحرم نفسك من حسناته، فالمولى سبحانه يستر عنك هذه السيئة حتى

---

(١) الستر ، بالفتح : مصدر سترت الشىء أستره إذا غطيته فاستتر هو . وتسترَّ أى تغطَّى. وجارية مستَّرة أى مخدرة . وفى الحديث : « إن الله حيىٌّ ستير يحب الستر»[1] . ستير: فعيل بمعنى فاعل أى من شأنه وإرادته حب الستر والصون .

[لسان العرب: ٤/ ٣٤٣]

---

(١) الحديث عند أبى داود برقم [٤٠١٢] عن يعلى أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يغتسل بالبراز بلا إزار فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﷺ : « إن الله عز وجل حيىٌّ ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » . وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٣٨٧] .

والبَرَاز : بالفتح : المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع ، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع ، قيل : قد برز يبرز بروزًا أى خرج إلى البراز. البَرَاز :بالفتح اسم للفضاء الواسع، فكنّوا به عن قضاء الغائط ، كما كنوا عنه بالخلاء ؛ لأنهم كانوا يتبرّزون فى الأمكنة الخالية من الناس . [لسان العرب : ٥/ ٣٠٩]

تنتفع بحسناته ولذلك يقولون:

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى   واجن الثمار وخل العود للنار

فهو يقول لهم: لا تفضحون لأنهم ضيفى، فهذه كرامتى. ثم يقول لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٩] الفضيحة تكون أمام النفس. والخزى يكون أمام الناس. فردوا عليه بقولهم: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم نقل لك لا شأن لك بهذا الموضوع، وعن العالمين: العالم ما سوى الله تعالى، أى دعنا نفعل فى الكون ما نشاء، وإياك أن تناقش هذا الأمر معنا لا فى هؤلاء ولا فى غيرهم [1] .

---

(١) **قال أبو حيان** : قولهم : أو لم ننهك دليل على تقدم نهيهم إياه عن أن يضيف ، أو يجبر أحدا، أو يدفع عنه، أو يمنع بينهم وبينه، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد. وكان هو صلى الله على نبينا وعليه يقوم بالنهى عن المنكر ، والحجز بينهم وبين من تعرضوا له ، فأوعدوه بأنه إن لم ينته أخرجوه .   [البحر المحيط ٦/ ٤٨٩]

وقال المراغى فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أى قال قومه له : أولم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه فى قريتنا ؟ إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم وبين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم فى مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم : إن ما ذكرت من الخزى والفضيحة أنت مصدره . والجالب له ، فلولا تعرضك لنا ، ما أصابك ما أصابك .   [تفسير المراغى : ١٤/ ٣٧]

* الملائكة تخبر لوطًا بمهمتها *

عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه تكلمت الملائكة، فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ لوط عليه السلام، لم يكن يعرف أنهم رسل؛ بل كان يعرف فقط أنهم ضيوف من البشر، ولم يكن يعرف لماذا جاءوا.

عندما رأى الملائكة لوطًا فى هذا الضيق الشديد، يحاول أن يحمى ضيوفه، ولكنه فرد أمام مجموعة من الشواذ لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، أطلعوه على الحقيقة، وهى أنهم لم يأتوا ضيوفًا ، ولكنهم رسل من الله، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئًا ، ولن يصلوا إليهم، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه.

لذلك: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ الملائكة أعلموا لوطًا ألا يخاف من هؤلاء المتجمعين ، فهم لن يصلوا إليهم، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه، ثم أبلغوه أوامر الله ، بأن يسير بأهله ليلا ، هم قالوا: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعنى اخرج من هذه القرية ليلاً ولا يهم أى وقت من الليل سواء فى أول الليل أو فى آخره[1]. إذن فهم أعطوه مهلة لكى يسير ويخرج من هذه القرية ليلاً، ويقال قطع من الليل أى ما يقطع الليل أى منتصف الليل، ثم أكملوا له ما يجب أن يفعله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ الالتفات هو الانصراف عن

---

(١) وقطع من الليل : قطعة منه ، وقال : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ .

[مفردات القرآن للأصفهانى : ٤٢٣]

الشيء الذى أمامك، إلى الشيء الذى خلفك أو بجانبك ، يكون الشيء أمامك فتنصرف عنه، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ هل المقصود بذلك الالتفات الحسى أو الالتفات المعنوى؟ إن لوطًا وأهله يخرجون من ديارهم ويتركون أموالهم ومتاعهم وما اعتادوا عليه من حياة. إذن الأمر معناه : إياكم أن تتجه قلوبكم أو أنظاركم إلى ما تركتم ، اخرجوا وأنتم مصممون على الخروج، وسيعوضكم الله عما فاتكم، هذه هى اللفتة المعنوية، إنهم لا ينظرون إلى ما تركوه وفى قلوبهم حسرة. واللفتة الحسية هى اللفتة بالنظر، هى أن تلتفت أنظاركم إليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ أى أن امرأتك وحدها هى التى ستلتفت؛ لأنها عصت فحقَّ عليها العذاب. ولذلك التفتت امرأة لوط ، فرأت العذاب يصب على قومها فقالت: واقوماه. وفى اللحظة التى قالتها جاءها نصيبها من العذاب. ولذلك قال الحق: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١] ثم أبلغ الحق سبحانه وتعالى لوطًا عن موعد العذاب فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].(١)

---

(١) فى حديث ابن عباس عند الحاكم [٢/٥٣٦] ، قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥] فاتبع آثار أهلك. يقول: وامضوا حيث تؤمرون فأخرجهم الله إلى الشام.

وقال لوط: أهلكوهم الساعة. فقالوا: إنا لم نؤمر إلا بالصبح، أليس الصبح بقريب؟. فلما أن كان السَّحَر خرج لوط وأهله معه امرأته، فذلك قول الله عز وجل ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] .

قال فى التفسير الوسيط ، تفسير سورة هود: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥] أى ولا تنظر أنت ولا تترك أحدًا من أهلك ينظر إلى الوراء أثناء سيركم، لئلا يرى هول مانزل بقومه فيحصل له كرب قد لايطيقه، لكن امرأتك =

ويقول ربنا فى آية أخرى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦١،٦٢] و﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى لا أعرفكم، لم أركم من قبل، كما أن مجيئهم إليه حرك همومه وأثار فى نفسه خواطر واسعة؛ لأنه يعلم رذيلة قومه، وهؤلاء ملائكة فى أجمل صورة، فهذه المسألة أتعبته وأقلقته[1] . ولذلك يقول ربنا فى آية أخرى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] لأنه يعرف ما سيحدث من قومه، ولكن الملائكة طمأنوه ، قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر:٦٣] فقد أعلموه أنهم جاءوا للقوم الذين

= لاتخرج بها مع أهلك واتركها مع قومك، فإنها خانتك بممالأتهم عليك، ونفاقها فى الإيمان بالله، وإفشائها أسرارك إلى قومها، فدعها معهم ليصيبها مايصيبهم من عقاب أليم، ثم علل الأمر بالإسراء بأهله والنهى عن الالتفات بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] أى فأسرع السير بأهلك تحت جنح الظلام كى تبتعد عن مواقع العذاب الذى تحدد الصبح وقتًا لنزوله، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]: أى أن موعد هلاكهم الصبح وهو وقت قريب جدًا، وكان الصبح ميقاتًا لهلاكهم؛ لأنه وقت الدعة والراحة والهدوء، فيكون نزول العذاب بهم فيه أشد.

(١) **يقول الدكتور: محمد جميل غازى:**

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] لاتظنوا أن لوطًا أقل كرمًا من عمه إبراهيم، عليهما السلام، ولكن أرجو أن تتصوروا الحالة النفسية التى كان عليها لوط حينما يدخل عليه مجموعة من الشباب بهذه الوضاءة وبهذا الجمال، فى الوقت نفسه هو محظور عليه وممنوع أن يضيف فى بيته أحدًا، لذلك قال لهم: أنا أنكر وجودكم، أنا منزعج، أنا قلق من زيارتكم.

وياويلك عندما يأتيك ضيف ثم لا تقدر على حمايته. . . لأن يساء إليك أنت أهون من أن يساء إلى ضيفك وهو عندك وفى جوارك. . لأن تشتم أنت أهون من أن يشتم ضيفك وهو فى حماك، من أجل ذلك ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] .

أتعبوه، وكانوا يمترون ويشكون فى أن الله يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فنحن جئنا لنحقق لك رغبتك فى هؤلاء المفسدين ، الذين يمترون ويشكون فى عذاب الله أن يقع بهم فى الدنيا قبل الآخرة، ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الحجر: ٦٤] مثل قولهم لإبراهيم: ﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٥٥] وبعد ذلك أعطوه المنهج الذى يتبعه حتى ينجو هو وأهله.

قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦٥] ، ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ الفعلان «سرى» و«أسرى» يتواردان على معنى سريت أنا وأسريت، أى مشيت بالليل(1)، ومرة أسرى تكون هى المتعدية، مثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ ﴿ بِأَهْلِكَ ﴾ الأهل كناية عن المرأة والأولاد وما يتبعهم. ولذلك فإن الناس عندنا فى القرى لا يتكلمون عن نسائهم بأسمائهن، وإنما يقولون: الأولاد قالوا كذا، أو الجماعة يريدون كذا، ولا يذكرون اسم المرأة. يعنون بذلك نساءهم فكأن اسم المرأة دائمًا مبنى على الستر. ولذلك نجد المرأة فى كثير من الأحكام مطمورة فى حكم الرجل إلا فيما يتعلق بهاخاصة.

وقوله تعالى: ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قطع: جمع أو اسم جمع، مفرده قطعة. وعندنا الذى يدل على أكثر من واحد، ننظر هل تغير فيه شكل المفرد أو لم يتغير؟ فإن لم يتغير يطلق عليه: جمع سالم، سواء كان مذكراً

---

(1) السُّرى : سير الليل عامته ، وقيل : السرى سير الليل كله ، تذكره العرب وتؤنثه ، وسريت سرىً ومسرى وأسريت بمعنى : إذا سرت ليلاً ، بالألف لغة أهل الحجاز ، وجاء القرآن العزيز بها جميعًا . [لسان العرب : ١٤/ ٣٨١]

أو مؤنثًا ؛ لأن المفرد سلم من التغيير وألحقت به علامات الجمع مثل: كاتب.. كاتبون أو كاتبات. أما إذا تغير المفرد فيسمى جمع تكسير مثل: رجل.. رجال، قلم.. أقلام. فإن دل اللفظ على جمع وليس من هذا ولا ذاك، يكون «اسم جمع» أى يدل على الجمع، فيفرق بينه وبين مفرده بالتاء، مثلا تقول: هذا تمر، معناه شيء كثير، مفرده تمرة، وعنب مفرده عنبة، فعنب جمع ولكن ليس من جموع التكسير ولا من الجموع السالمة. فدل على جماعة وليس من واحد منها، فهذا نطلق عليه «اسم جمع» (١).

إذن قطع جمع قطعة، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ هذا منهج النجاة، يخبرون به لوطًا عما يفعله بالنسبة لأهله والمؤمنين به. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ هذا أمر ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ هذا زمان الإسراء أى المشى أو الرحيل. و﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ الدبر هو الخلف، ولماذا يتبع أدبار القوم؟ ليحثهم على السرعة، وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ورحلوا عنه، فكل واحد منهم يضع رحله على ناقته وأهله فيها. وبعد ذلك يركبون ويبدأون السير ويتخلف رئيس القوم،

---

(١) القِطْعُ والقِطْعةُ والقَطِيعُ والقِطَعُ والقِطاعُ: طائفة من الليل تكون من أوله إلى ثلثه، وقيل للفزارى: ما القطع من الليل؟ فقال: حزمة تهورها أى قطعة تحزرها ولا تدرى كم هى. والقطع: ظلمة آخر الليل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال الأخفش: بسواد من الليل؛ قال الشاعر:

افتحى الباب، فانظرى فى النجوم   كم علينا من قطع ليل بهيج

وفى التنزيل: قطعا من الليل مظلما، وقرىء: قِطعًا، والقِطْعُ: اسم ما قُطِعَ. يقال: قَطَعْتُ الشيء قطعًا، واسم ما قطع فسقط قطع. قال ثعلب: من قرأ قِطْعًا، جعل المظلم من نعته، ومن قرأ قِطَعًا جعل المظلم قِطَعًا من الليل، وهو الذى يقول له البصريون الحال. [لسان العرب: ٨/ ٢٨٢]

ويسمى «معقب». لينظر هل نسوا شيئًا من أمتعتهم أو سقط منهم متاع أو غيره، ويطمئن عليهم[1] ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ كن خلفهم، لكى تحثهم على السير حتى يسروا بسرعة ، ولتحمى أمراً سنأمرك به فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى لا يلتفت أحد منكم خلفه ، وحتى تراقب من يلتفت لابد أن تكون متخلفًا عنه.

ولماذا لا يلتفت منهم أحد ؟ لأن الالتفات يأخذ وقتًا فيؤخر السير. ونحن نريد السرعة. وأيضًا فإن القوم إذا التفتوا إلى مواقع انتمائهم من الأرض التى نشأوا عليها وعاشوا فيها واعتادوها قد ينتابهم الحنين إلى بلادهم ويقوى عندهم الانتماء . ونحن لا نريد ذلك، بل نريد أن تسرعوا إلى الأمام ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أو أن الحق سبحانه لا يريد أن يلتفت أحد خلفه[2]، حتى لا يشهد عذابًا أو مقدمة عذاب للقوم، فتأخذه بهم الشفقة. ولذلك يقول سبحانه فى إقامة حد من حدوده: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم

---

(١) قال ابن كثير: وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزو إنما يكون ساقه يزجى الضعيف ويحمل المنقطع . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٥٣٥]

(٢) قال القرطبى : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عن الالتفات ليجدوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف .
﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَفَد ، قرية من قرى لوط . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمى اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : «من ها هنا » وحدّ له حدا ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم: «أيقنت بالله » فسمى اليقين . [تفسير القرطبى : ١٠/ ٣٨]

وفى غرر التبيان : ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ هى قرية صيعير من قرى بيت المقدس وقيل زعر . [غرر التبيان : ٢٩٨]

﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] يدل على أن الموقف سيؤثر فى النفس ، مع أنهم فعلوا جريمة، ولذلك قلنا إن بشاعة الجريمة بمرور الوقت تزول وتبقى بشاعة العقوبة. أو أنه سبحانه يريد أن يعجل بهم قبل أن يوجد العذاب ولو بالتفزيع فقط، من هول ما يرون من إنزال العذاب بالقوم.

فهنا كم أمر؟ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ والظرف ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ والكيفية ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ و ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ و ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾. ولماذا لا نأخذ ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ مؤكدة لقوله : ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أى لتكن وجهتكم الأمامية والغاية، وليس لكم شأن بمن تركتموهم(١).

---

(١) قوله : ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥] أى لاتلتفت أنت يالوط ولاتجعل أحدًا ممن معك يلتفت لا بعينه ولا بعقله ولا بقلبه إلى الخلف لهؤلاء الهالكين، اقطعوا كل الصلات البصرية والعقلية والنفسية والقلبية بالمجتمع الآثم .

* كيف كان عاقبة المجرمين ؟ *

ماذا حدث بعد ذلك لقوم لوط ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] والمطر عادة هو الذى يأتى بالخير والماء، ولكن هذا المطر لم يكن خيراً ولم يكن ماء ، بل كان حجارة انهالت عليهم من السماء ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] إذن فالمطر كان حجارة ، وكان حجارة من النار (١) .

الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن نعتبر بما حدث لقوم لوط حتى لا نقع فى نفس المعصية أو نقترب منها فيقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى اعتبر يا من تسمع هذه القصة بما يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة الله ويصرون على المعصية فينزل عليهم غضب الله .

---

(١) قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى عذابنا . ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم - وهى القرية العظمى - وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقتم ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفىء لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . [تفسير القرطبى : ٨١/٩]

وانظر قول مجاهد والسدى عند ابن كثير فى ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ .

ويقول ربنا فى آية أخرى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] و﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى إلى لوط، بمعنى أوحينا إليه أو أعلمناه. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤](١).

بعد أن تكلم عن الإنجاء لآل لوط، تكلم عن العذاب لقومه المنحرفين. أى أوحينا إليه أن ﴿دَابِرَ هَؤُلاءِ﴾ أى قوم لوط ﴿مَقْطُوعٌ﴾ وقطع دابره، أى آخره، كما نقول: أخرجه من جذوره. أو أن الدابر هو الأصل. ولذلك فى القرآن الكريم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . أى أن هؤلاء القوم مأخوذون عن آخرهم، أو مخلوعون من جذورهم فلا يبقى منهم أحد(٢) .

متى يحدث ذلك؟ ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ فأنتم ستسيرون بقطع من الليل

---

(١) قال الماوردى فى تفسير سورة الإسراء أى قضينا عليهم [٣/ ٢٢٨] «أى على بنى إسرائيل» وفى تفسير سورة الحجر : أى أوحينا إليه ذلك الأمر . [٣/ ١٦٥] «أى إلى لوط» .

(٢) قال البقاعى : ولما تقرر بهذا أمر إهلاكهم من غير تصريح ولا تعيين لوقت ، قال تعالى : ﴿وَقَضَيْنَا﴾ أى بما لنا من العظمة ، موحين ﴿إِلَيْهِ﴾ أى خاصة ﴿ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ وأشار إلى تعظيمه بالإشارة إليه بأداة البعد ، ثم فسره بقوله : ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ أى آخر ﴿هَؤُلاءِ﴾ أى الحقيرين عند قدرتنا ، وأشار بصيغة المفعول إلى عظمته سبحانه وسهولة الأمر عنده فقال تعالى : ﴿مَقْطُوعٌ﴾ حال كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ ولا يقطع الدابر حتى يقطع مادونه ؛ لأن العدو يكون مستقبلا لعدوه فهو كناية عن الاستئصال بأن آخرهم وأولهم فى الأخذ سواء ؛ لأن الآخذ قادر ، لا كما يفعل بعض الناس مع بعض من أنهم يملون فى آخر الوقائع فيفوتهم البعض.
[نظم الدرر : ١١/ ٧٣]

وهم سيؤخذون مصبحين. وأخذ الصبح هذه طريقة العرب. وطريقة الحروب عندهم:

إنا إذا نزلنا بساحة قوم   فساء صباح المُنْذَرين

فالصبح ؛ لأنهم يكونون نائمين ومسترخين ، وليس عندهم استعداد للمقاومة ، فيؤخذون على غرة[1]. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أى فى حالة صباح وهى لا تتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [2] [الحجرات:٧٣] فكأن بدء الصيحة كان صُبحًا وأخذهم ونهايتهم كان فى الشروق. والصيحة : كما نرى الآن فى الألعاب العنيفة مثل الكاراتيه والچودو ، كلها تبدأ بالصياح، فهذه الحركات الإرهابية للخصم تبدأ بالصيحة فيحدث اضطراب للخصم يفقده توازنه الفكرى ، وكذلك أيضا عند التحام الجنود فى القتال .

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ويقول فى آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] و﴿مُشْرِقِينَ﴾ أى وقت الشروق. ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] أى قُلبت رأسًا على عقب. وكون هذا الانتقام جعل عاليها سافلها، فلابد أنه كان انتقامًا منظمًا ومدبرًا بدقة. ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤] مثل حادثة

---

(١) يقول الدكتور : محمد جميل غازى ، فى قوله :﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦] :عند الصباح ستأتى الكارثة ، فى الصباح بالذات .لماذا لم يهلكهم الله تعالى بالليل ؟ لأن الإنسان فى الصباح يحس أنه آمن أكثر من الليل ، ومن مأمنه يؤتى الْحَذِرُ ، هذا هو أمانكم ، وهذا هو صباحكم ، ولكنه صباح شؤم ونذير سوء .

(٢) مشرقين : داخلين فى وقت الإشراق وهو إضاءة الشمس ، والشروق طلوعها .
[إيجار البيان عن معانى القرآن : ١/ ٤٧٠]

الفيل. ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [1] [الحجر: ٧٥]
المتوسم: هو الذى يدرك حقائق المستور بمكشوف المظهور، أى يتوسم من الظاهر فيقول مثلاً : أنا توسمت فى فلان كذا، فأخذ من الظاهر ما يدل على الحقيقة.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ فساعة تراهم تجد السمة على وجوههم . فكأنه استدلال على سِيَمِ الوجوه بما فى القلوب ، قال تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ . إذن فالمتوسم هو الذى يدرك من الموجود المختبىء . ولذلك فالرجل الذى ضاع له جمل، فذهب إلى قيّم الناحية وقال له: ضاع منى جمل وبحثت عنه فلم أجده وأخشى أن يكون سرقه أحد. فسمع الكلام رجل يمر عليهما، فقال لصاحب الجمل: يا رجل.. أجملك أعور؟ قال: نعم، فقال له: أجملك أبتر « أى مقطوع الذنب » قال: نعم، فقال له: أجملك أعرج؟ « أى يعرج برجله » فقال هو جملى. فقال له الرجل: رأيته فى الطريق، فقال صاحب الجمل للرجل: إذن أنت سارقه وتعرف مكانه. فأصبحت قضية ، وعرض الرجل على القاضى. فقال له: أنت قلت إنه أعور وكذا وكذا، فما الذى عرفك هذه الأوصاف الدقيقة إذا كنت لم تأخذه؟ فقال الرجل: هذا أمر بسيط، إننى عرفت أنه أعور ؛ لأننى وجدته يأكل من العشب الجاف من جهة ويترك العشب الأخضر من جهة

---

(١) قال أبو الحسن النيسابورى فى قوله تعالى : ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ : للمتفكرين . وهذا قول الفراء فى معانيه [٢/ ٩١] ، ونقله الماوردى فى تفسيره [٣/ ١٦٧] عن ابن زيد ، والبغوى فى تفسيره [٤/ ٣٨٨] عن مقاتل ، وعزاه القرطبى فى تفسيره [١٠/ ٤٣] إلى ابن زيد ومقاتل . قال الزجاج فى معانى القرآن [٣/ ١٨٤] وحقيقته فى اللغة المتوسمون النظار المتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشىء ، نقول : توسمت فى فلان كذا وكذا أى عرفت وسم ذلك فيه . [إيجاز البيان : ١/ ٤٧٠]

أخرى، فعلمت أن هذه هى الناحية التى رأى بها، فلو كان يرى بعينيه لأكل من العشب الأخضر. فقال له: وكيف عرفت أنه « أبتر » أى ليس له ذنب. فقال الرجل: لأنه لو كان له ذنب لبعثر بعره، ولكنى وجدت بعره متجمعًا فى منطقة واحدة ، فعرفت أن ليس له ذنب. فقال: وكيف عرفت أنه أعرج؟ قال: لأنى وجدت خُفَّه منخفض الأثر فى ناحية، وغير منخفض فى الناحية الأخرى، فبرأه القاضى. هذا هو المتوسم.

وما حدث لقوم لوط لا يحتاج إلى توسم ولا فراسة ؛ لأن المسألة واضحة. لذلك يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] و﴿وَإِنَّهَا﴾ أى قرية سدوم التى نزل بها العذاب ، ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أى على الطريق، والطريق ثابت ؛ لأن هناك سبيلاً عارضًا. مثل إقامة مدن فى أكثر من جهة من الطريق. ولكن « سبيل مقيم» أى طريق مستقيم وثابت [1] . كما نسميه الآن مرصوف ، ويقول فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨] أى أنكم ترونه ؛ لأنه ما دام طريقًا ثابتًا فإن التغيير وعوامل التعرية لن تخفيه ؛ لأنه محكم التكوين والرصف والتثبيت . ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً

---

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ يقول تعالى ذكره : وإن هذه المدينة ، مدينة سدوم ، لبطريق واضح مقيم ، يراها المجتاز بها لاخفاء بها ، ولا يبرح مكانها ، فيجهل ذو لُبّ أمرها ، وغبّ معصية الله ، والكفر به .
[تفسير الطبرى : ١٤/٤٧]

وقال الإمام أبو الحسن النيسابورى فى قول الله تعالى : ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ : طريق واضح كقوله : ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ، ومعناه : أن الاعتبار بها ممكن ؛ لأن آثارها ثابتة مقيمة ، وهى قرية « سدوم » . و «أصحاب الأيكة » : قوم شعيب بعث إليهم وإلى أهل مدين ، فأهلك الله مدين بالصيحة والأيكة بالظلة فاحترقوا بنارها .
[إيجاز البيان : ١/ ٤٧١]

لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] بعدما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] فكأن من حق المؤمن أنْ يتفحص فى أدبار الأشياء، ويعرف الأشياء بسيماها، ويكون عنده فراسة. ولذلك قيل: «اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله»(١).

والحق تبارك وتعالى قال فى آية أخرى فى سورة الشعراء: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾[الشعراء: ١٧٢-١٧٣] كلمة «مطر» تعنى الماء النازل من السماء إلى الأرض، وهو فى غالب الأحوال «غيث» يغيث الناس وينقذهم من الجدب والعطش، يروى الأرض ويشرب الناس منه، هذا المطر يكون مطر رحمة. المطر الذى أصاب قوم لوط، مطر من نوع آخر، مطر عذاب، ولذلك قالوا عنه: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] لماذا جاء الحديث عنها بلفظ «مطر» الذى هو بشير خير؟ ذلك للإيناس ؛ حتى يظنوا أنه بشير خير، فيخيب ظنهم وينقلب عليهم نذير شر ، كما قالت الآية: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (٢).

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ:« اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله » . ثم قرأ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ .
أخرجه الترمذى [٣١٢٧] وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن الترمذى رقم [٦٠٧] . والحديث أورده الألبانى فى الضعيفة رقم [١٨٢١] ، وذكر طرقه وعلله ثم قال : وجملة القول : أن الحديث ضعيف لا حسن ولا موضوع ، وإليه مال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة . والله أعلم .

(٢) عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف ذلك فى وجهه. فقالت: يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن =

ونضرب لذلك مثلاً: هب أن هناك شخصًا مسجونًا، ويتمنى أن يشرب نقطة ماء، ثم طلب من الحارس أن يأتيه بكوب ماء ، فلبى طلبه وجاء إليه بالماء. فى لحظة مجئ الماء تزداد نفس الظمآن شوقًا إلى الماء. وعندما يقترب الكوب من فمه يزداد اطمئنانه ثم يحدث له أمر لم يكن يتوقعه. عندما يسقط الكوب من يد حامله ويسكب على الأرض. هنا تزداد حسرته أكثر وأكثر مما لو قال له الحارس: لن أجيئ لك بماء. لو رفض طلبه لما طمع فى الماء مثلما كان أمامه وحرم منه. إن الإياس بعد الإطماع عذاب فوق العذاب.

وهكذا نجد فى كل قصة من قصص لوط فى القرآن جانبًا جديدًا يكشف معنى آخر من معانى القصة. وصدق الله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٤-١٧٥].

= يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ؟ قالت : فقال : « يا عائشة ما يُؤمِّنِّى أن يكون فيه عذابٌ ؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا : ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ . أخرجه مسلم [٨٩٩/١٦] .

جعل الله عاليها سافلها

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢] قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى جاء أمر الله بالعذاب ، يدل على أن الأمر حين يصدر من الحق جل جلاله يستجيب كل شىء قهرًا. القرى التى كان يعيش فيها لوط وقومه خمس قرى. قرية اسمها دومة، وقرية اسمها سدوم، وقرية اسمها حيوان، وقرية اسمها عاموراء، وقرى أخرى. الله سبحانه وتعالى قال عن هذه القرى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ (١) أى انقلبت فأصبح أعلى مكان فيها هو الأسفل، والأسفل هو الأعلى ، واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] المؤتفكة: من الإفك ، والإفك هو الكذب المتعمد. أى أن تعرف الحقيقة وتقول ما يخالفها، هو نسبة كلامية تخالف الواقع، فإذا قلت: فلان فى البيت، فقد تقولها وأنت تحسب أنه فى البيت. ولكن عندما تقولها وأنت تعلم أنه ليس فى البيت ، تكون قد كذبت متعمدًا، أى وأنت تعرف الحقيقة.

إذن فالإفك هو كذب متعمد ، فإذا كان الواقع إيجابًا، والكلام نفى هذا الواقع ، فالكلام ليس موافقًا للواقع، وإذا كان العكس يكون غير

---

(١) قال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ؛حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على حوافى جناحه الأيمن،ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها .

[تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٦]

موافق للواقع أيضًا. فالمؤتفكة يعنى التى جعل عاليها سافلها[1] ؛ لأنك فى الإفك نقلت الحقيقة فقلبتها كذبًا ، فكأنك جعلت عاليها سافلها. انقلبت فيها الأوضاع. الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: ٨٢] أمطر تأتى دائمًا فى العذاب، وأمطرنا عليها حجارة يعنى نزلت كالمطر[2]. وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣٣] هل هى حجارة صلبة أم طين لين، نقول إن الطين الذى يمطره الله عليهم من السماء يكون أصلب من حجارة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ [هود: ٨٣] أى معلمة كل حجر ينزل على

---

(١) **قال السدى** : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل، فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك قوله :﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى ، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ . [تفسير ابن كثير : ٢/٤٣٦]

(٢) **قال قتادة وغيره** : بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها ، فضمها فى جناحه ، فحواها وطواها فى جوف جناحه ، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب ، وكانوا أربعة آلاف ألف ، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها حجارة من سجيل. [تفسير ابن كثير ٢/٤٣٦]

قلت : العرب قديما كانوا لا يعرفون فى العدد أكثر من الألف ، فإذا وصلوا إلى الألف وضعوا حصوة رمزا له ، ثم يعيدون العد من الأول حتى يصلوا إلى الألف وهكذا ، ثم إذا انتهوا عدوا الحصى ليعرفوا كم ألفا عدوا .

وعلى ذلك يكون قول قتادة : أربعة آلاف ألف يعنى : (٤,٠٠٠,٠٠٠) أى بحساب العصر أربعة ملايين .

صاحبه مثل الصواريخ الموجهة، كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنه. نحن البشر استطعنا أن نصنع صواريخ نوجهها للهدف الذى نريده. الله سبحانه وتعالى جعل هذه الحجارة كالصواريخ الموجهة، كل حجر منه يعرف صاحبه ويصيبه بدقة. قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من الله سبحانه وتعالى، متى أمر انهمرت، معدة من قبل وموجودة. على أنه فى آيات وردت: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]. وفى سورة الفيل قال الحق جل جلاله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٣-٤] وقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[1] مسومة يعنى معلمة يعنى، كل واحدة بعلامتها.

---

(١) **قال أبو الحسن النيسابورى فى قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾**: معلمة باسم من يُرمى به نقله ابن الجوزى فى زاد المسير [٤/ ١١٣] والفخر الرازى فى تفسيره [١٨/ ٣٩] عن الربيع وذكره الماوردى فى تفسيره [٢/ ٤٩٣] وابن عطية فى المحرر الوجيز [٣/ ١٩٨] والقرطبى فى تفسيره [٩/ ٨٣]، وابن كثير فى تفسيره [٢/ ٤٣٦] دون عزو.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: فى خزانته التى لا يملكها غيره، رجم بهذه الحجارة من غاب عن المؤتفكات.

وقيل: رُجموا أولا ثم قُلبت المدائن.

وفى الحديث: « أن جبريل عليه السلام أخذ بعُرْوتها الوسطى ثم حَرْجَمَ بعضها على بعض، ثم أتبع شذاذ القوم صخرا من سجيل ».

يقال: حَرْجَمَ الطعام: أكله بعنف.

وعن زيد بن أسلم: أن السِّجيلَ السماء الدنيا، والسِّجين الأرض السفلى.

وقال الشوكانى فى الفتح القدير: [٢/ ٥١٧]: « وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا فى كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة، وليس فى ذكرها فائدة، لا سيما وبين من قال بشىء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فى مثله إسناد صحيح، وذلك مأخوذ عن أهل الكتاب، وحالهم فى الرواية معروف، وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم ... ». [إيجاز البيان: ١/ ٤٢٢]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قلنا إن القصص القرآني قد جاء لتثبيت الرسول والمؤمنين بأنباء من سبق من الرسل. لذلك يقول الله سبحانه: ﴿كُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ولذلك يقص علينا القرآن الكريم أنباء المعارك التي قامت بين الرسل المؤيدين بمعجزات من الله، وبين الكافرين . وهذه القصص تنتهي دائمًا بانتصار المؤمنين على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين ، لم يكلفوا هم ومن آمن بهم أن يقاتلوا من أجل نصرة الإيمان ويحاربوا الكفر. ولذلك كان الله يعاقب المخالفين ويهلكهم. أما أمة الحبيب محمد رسول الله ﷺ ، فقد عافاها الله من الاستئصال ، أو أن يأخذهم ببركة دعاء نبينا الحبيب ﷺ (١) .

واقرأ قوله تعالى في سورة الفجر : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤] فكل من كفر وطغى وحارب الرسل،كان ينزل عليه عقاب الله، إلا أمة محمد ﷺ ؛ لأن

---

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها . . . . » الحديث بطوله أخرجه مسلم [٢٨٨٩] .

الإسلام هو الدين الخاتم ، وأهله مأمورون بإبلاغ هذا الدين إلى الدنيا كلها حتى تقوم الساعة. أى أن كل واحد من أمة محمد يعلم حكمًا من أحكام الله ، عليه أن يبلغ هذا الحكم للدنيا كلها ، كما كان رسول الله ﷺ يقوم بإبلاغ أحكام الله . واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ إذن فكل واحد من أمة محمد وبخاصة العلماء امتداد لرسالته ﷺ وعليهم إبلاغ الدين وليس فرضه بالقوة [1] ؛ لأن الإيمان لا يفرض ولا يكره عليه، فالذى يكره عليه هى الأمور الحسية، فأنت تستطيع أن تكره إنسانًا

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .
أخرجه أحمد [٥/١٩٦] واللفظ له ، وأبو داود [٣٦٤١] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٠٩٦] ، والترمذى [٢٦٨٢] وابن ماجه فى المقدمة [٢٢٣] والدارمى فى المقدمة [٣٤٧] وابن حبان فى صحيحه [٨٨ ـ الاحسان] . وقال الأرناؤط : حديث حسن ، إسناده ضعيف .
وعبارة « إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم ، من أخذه أخذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » . أوردها البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم ضمن عنوان باب العلم قبل القول والعمل .
قال الحافظ فى الفتح [١/٢١٦] : طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم مصححا من حديث أبى الدرداء .
وعن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس بالخيف يقول: «نضَّر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها لمن لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ...... » . الحديث بطوله أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ٨٢] وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٦٧٦٥] .

على أن يفعل أى شىء ، ولكنك لا تستطيع أن تكره إنسانًا على أن يحبك مهما أوتيت من قوة.

والإيمان هو حب القلوب لله والتزامها طاعته ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى لرسوله: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣-٤] ولكن الله لا يريد أعناقًا تخضع، ولكن يريد قلوبًا تخشع. ولذلك فرض على أمة محمد ﷺ أن تنقل رسالته إلى الأمم ، كل جيل ينقلها إلى الجيل الذى بعده. وجاهدت أمة محمد ﷺ فى إبلاغ الدعوة إلى الناس ، لم تفرض عليهم دينًا ولكنها تحمى اختيار الناس لدينهم. ولذلك فالذى يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف. نقول له لو: أن ذلك صحيح لكان كل بلد دخله المسلمون ما وجد به غير مسلم، ولكن البلاد التى دخلها الإسلام كان بها نصارى ويهود بل ومجوس، وظلوا على دينهم وأخذوا الحماية ، بل لو أن الله أمرنا بنشر الإسلام بالسيف ما فرضت الجزية، إنما الذى حدث أن الإسلام شرع السيف لحماية اختيار الإنسان لدينه ومن أجل حرية العقيدة ، فيعرض المسلمون دينهم ويبينونه للناس ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولكن الكفار قاوموا المسلمين ومنعوهم من إبلاغ الدين للناس، فكان لابد من أن يُحمل السيف لحماية حرية الاختيار، على أن هناك من يفسر قوله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بأنه لا يحض الناس على الصلاة، وغير ذلك من أحكام الدين. نقول: لا.. لا إكراه فى إيمان القمة، أنت حر فى أن تؤمن بالله سبحانه وتعالى أو لا تؤمن . ولكنك متى آمنت ودخلت فى عقد إيمانى مع الله خضعت لكل أحكام الله وحدوده.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ **حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ**

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] أى أن هذه الحجارة معلمة وموجهة ، ومساكن لوط قريبة من الكفار يستطيعون أن يذهبوا إليها ، ليروا آثار عذاب الله[١].

---

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ : اختلف أهل التأويل فى معنى سجيل ، فقال بعضهم : هو بالفارسية سِنْك وكل . وقال بعضهم : تحوّل اللام نونا، وقال آخر منهم : هو فعيل من قول القائل : أسجلته : أرسلته ، فكأنه من ذلك : أى مرسلة عليهم . وقال آخر منهم : بل هو من سجلت له سجلا من العطاء ، فكأنه قيل : منحوا ذلك البلاء فأعطوه ، وقالوا أسجله : أهمله . وقال بعضهم : هو من السِّجِلِّ ؛ لأنه كان فيها علم كالكتاب . وقال آخر منهم : بل هو طين يطبخ كما يطبخ الآجر ، وينشد بيت الفضل بن عباس :

مَنْ يُساجِلْنى يُساجِلْ ماجِدًا ... يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ

فهذا من سَجَلْت له سَجْلا : أعطيته .

والصواب من القول فى ذلك عندنا ما قاله المفسرون ، وهو أنها من طين ، وبذلك وصفها الله فى كتابه فى موضع ، وذلك قوله ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ وقد روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقول : هى فارسية ونبطية .

وأما قوله ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ : فإن قتادة وعكرمة يقولان فيه : مصفوفة . وقال بعضهم : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ : يتبع بعضه بعضًا عليهم ، قال : فذلك نضده .

والصواب من القول فى ذلك ما قاله الربيع بن أنس ، وذلك أن قوله ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ من نعت سجيل ، لا من نعت الحجارة ، وإنما أمطر القوم حجارة من طين ، صفة ذلك الطين أنه نضد بعضه إلى بعض ، فيصير حجارة ، ولم يمطروا الطين فيكون موصوفا بأنه تتابع على القوم بمجيئه ، وإنما كان جائزا أن يكون على ما تأوّله هذا المتأوّل لو كان التنزيل بالنصب منضودة فيكون من نعت الحجارة حينئذ .

وأما قوله ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ فإنه يقول : معلمة عند الله ، أعلمها الله ، والمسوّمة من نعت الحجارة، ولذلك نصبت ونعت بها .

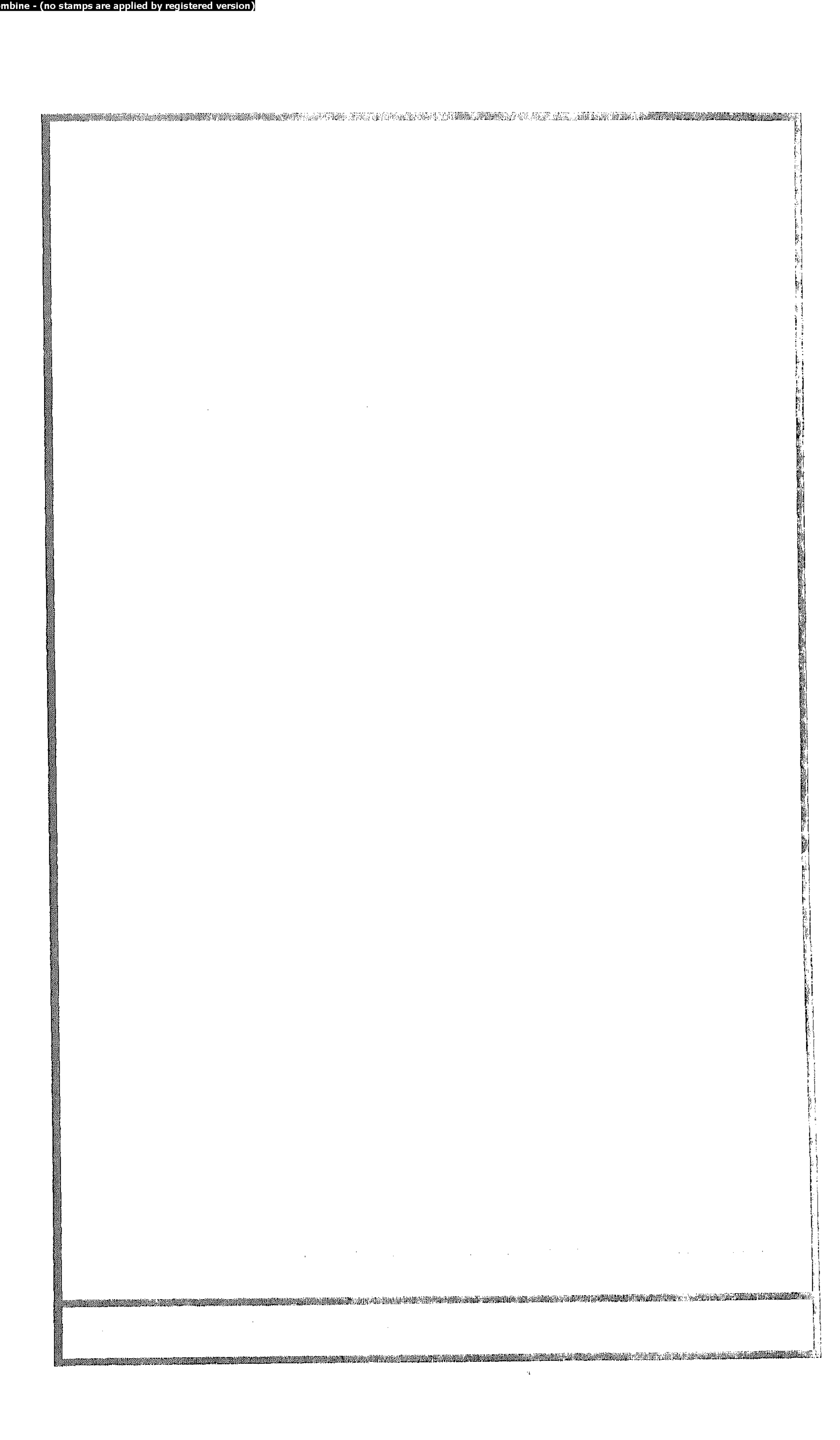
وبنحو الذى قلنا فى ذلك ، قال أهل التأيل . [تفسير الطبرى : ١٢/ ٩٣ _ ٩٥] =

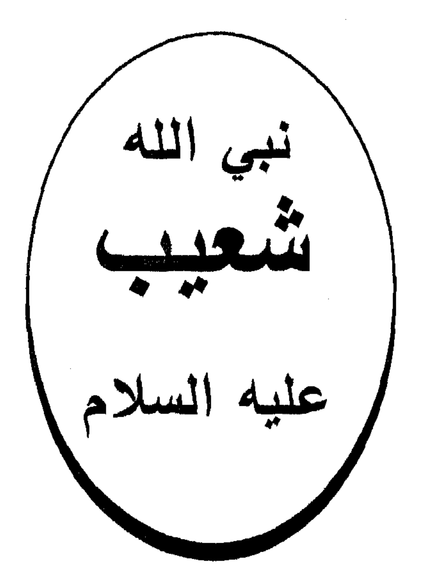
. . . .

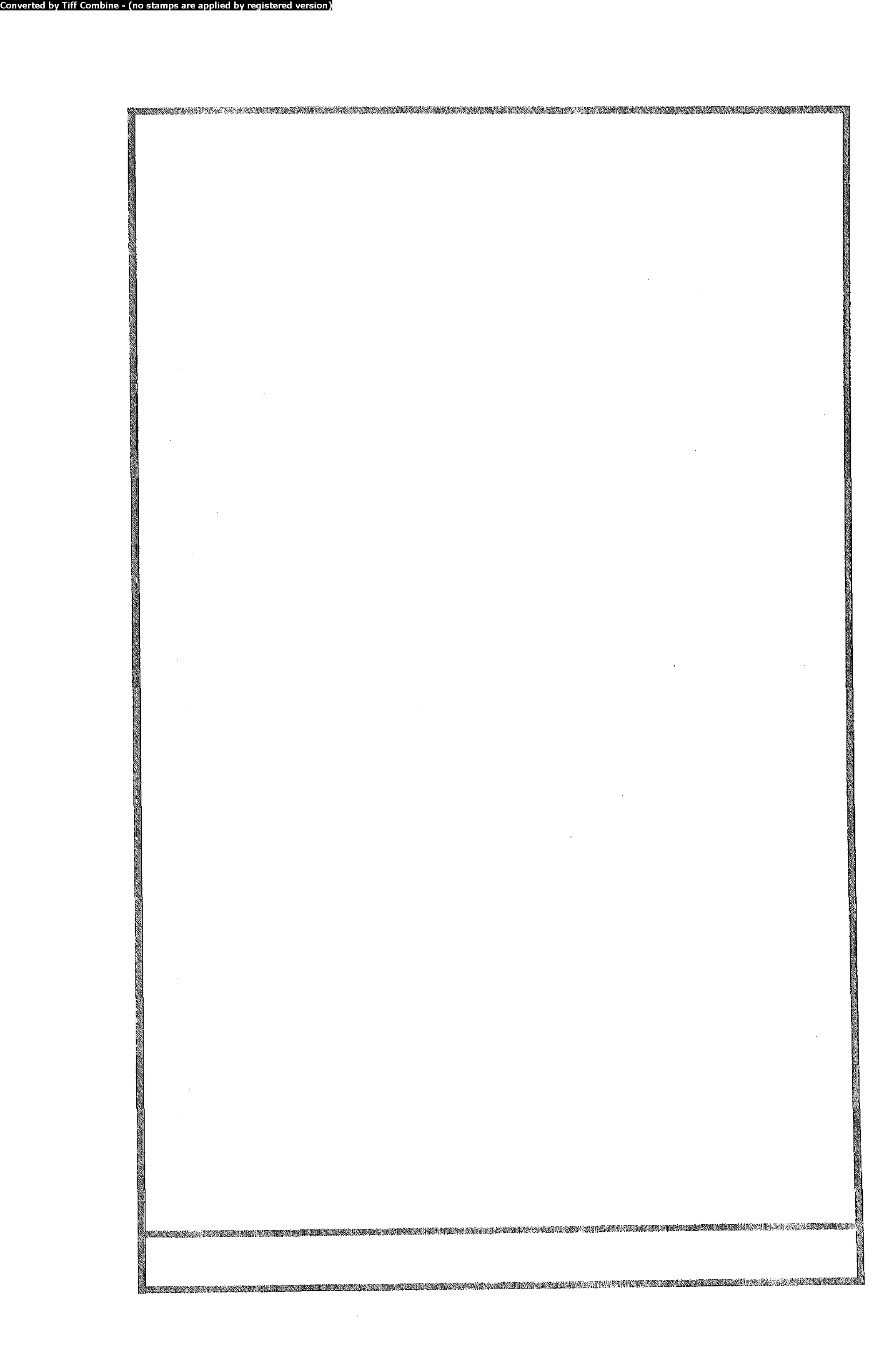
= **ويقول الدكتور محمد جميل غازى** : قوم لوط شذوا فى المعصية والفاحشة ، فلما شذوا عذبهم الله عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين فى مقابل جريمتهم التى لم يسبقهم بها من أحد من العالمين .

وقال الشوكانى : وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارف هذه الرذيلة الذميمة ، بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ويعذب تعذيبًا يكسر شهوة الفسقة المتمردين ، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يَصْلَى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم وقد خسف الله تعالى بهم واستأصل بذلك العذاب بِكْرَهم وثَيِّبهم» . [نيل الأوطار : ١١٨/٧]

« تمت قصة لوط عليه السلام »




نبي الله
شعيب
عليه السلام



* نبى الله شعيب عليه السلام(١) *

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٨٤] قصة أخرى من القصص التى أخبرنا بها الله تبارك وتعالى عن موكب الرسالات التى بدأت من عهد آدم عليه السلام، واختتمت برسالة النبى الخاتم محمد ﷺ.

(١) كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم « مدين » التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل .

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ، وذكره ابن إسحاق . قال : ويقال له بالسريانية « يترون » وفى هذا نظر . ويقال شعيب بن يشجر بن لاوى بن يعقوب، ويقال شعيب بن نويب بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، ويقال شعيب بن صيفور بن عيفا بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك فى نسبه .

قال ابن عساكر : ويقال جدته ، ويقال أمه بنت لوط . وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق .

وعن وهب بن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجر معه إلى الشام ، فزوجهما بنتى لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة.

وفى هذا كله نظر . . والله تعالى أعلم .

فلو صح هذا لدل على أن شعيبا صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل . . والله أعلم .

وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها . وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص .

[قصص الأنبياء لابن كثير: ٢٤٢ - ٢٤٤] =

كلمة ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم [(١)] .

فكأن خطاب الله تبارك وتعالى موجّه إلى أهل هذه القبيلة أو القرية، أما

= وقال ابن حجر فى الفتح [٧/١١٣] : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هو شعيب ابن ميكيل بن يشجر بن لاوى بن يعقوب ، كذا قال ابن إسحاق ولا يثبت . وقيل : يشجر بن عنقا بن مدين بن إبراهيم . وقيل : هو شعيب بن صفور بن عنقا ابن ثابت بن مدين . وكان مدين ممن آمن بإبراهيم لما أُحرق . وروى ابن حبان فى حديث أبى ذر الطويل : «أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ومحمد »[(١)] فعلى هذا هو من العرب العاربة ، وقيل إنه من بنى عنزة بن أسد ، ففى حديث سلمة بن سعيد العنزى : « أنه قدم على النبى ﷺ فانتسب إلى عنزة فقال : نعم الحى عنزة مبغى عليهم منصورون رهط شعيب وأختان موسى » . أخرجه الطبرانى وفى إسناده مجاهيل [(٢)].

(١) **قال صديق خان** فى قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ هو اسم ابن إبراهيم الخليل ، ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وهو المراد هنا .

وقيل هو فى الأصل اسم مدينة بناها مدين المذكور ، والتقدير إلى أهل مدين ، قال المقريزى فى الخطط : إن مدين أمة شعيب هم بنو مديان بن إبراهيم وأمهم قنطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم ، ومدين على بحر القلزم تحاذى تبوك على نحو ست مراحل ، وهى أكبر من تبوك وبها البئر التى استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت .

قال الفراء : مدين اسم بلد وقطر والجمهور على أن مدين أعجمى ، وقيل عربى ، فإن كان عربياً فإنه يحتمل أن يكون فعيلا من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر ، وقيل مهمل أو مفعلا أو دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال ، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة عجمياً أو عربياً اهـ . وبه قال النحاس .

[فتح البيان : ٦/٢٢٧ ، ٢٢٨]

---

(١) أخرجه ابن حبان [٣٦١] وقال الأرناؤط : إسناده ضعيف جدا .

(٢) قال ابن كثير : أخرجه الطبرانى فى الكبير [٦٣٦٤] ، والبزار ، كما فى المجمع [١٠/٥٤] وقال الهيثمى : رواه الطبرانى والبزار ، وفيه من لم أعرفهم .

[قصص الأنبياء : ٢٤٣]

نبيهم فهو شعيب عليه السلام، والله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب المكان ويقصد به المكين، المكان هو البقعة من الأرض التى يقع فيها الحدث، والمكين هم أولئك الذين يقيمون فى هذا المكان. ولذلك تجد مثلا فى سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف:٨٢] هل مطلوب منا أن نسأل القرية أو نسأل أهل القرية؟ وهل نسأل العير أو الذين قدموا بالعير؟ المفروض أن نسأل أهل القرية والذين قدموا بالعير.

إذن فقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أى: وإلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وشعيب عليه السلام ككل رسول جاء إلى قومه، اختير من أهله وعشيرته ؛ ليكون معروفا لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة، فيستطيعوا أن يشهدوا له قبل الرسالة بالخلق الكريم والصدق والأمانة، فيكون تكذيبهم له بعد الرسالة حجة عليهم وسببًا لهلاكهم ، وتسقط حجتهم فى عدم تصديقه.

شعيب جاء ككل رسول بقضية التوحيد، وهى أن اعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره. هذه هى قمة الدعوة الإيمانية .. وحدانية الألوهية التى جاء بها كل الرسل. ولذلك فإن الله جل جلاله يلفتنا فى قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾. [الشورى: ١٣] (١) .

(١) وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾.
وقوله تعالى : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

ولذلك فإن أول ما يدعو إليه الأنبياء هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى واحدا أحدا ، والله لم يكلف من لم يؤمن به . ولذلك تجد كل التكاليف مسبوقة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ١٠٤] أى يا من آمنتم بالله إلها واحدا التزموا بشرعه سبحانه وتعالى، ولكن هل من لا يؤمن يكلّفه الله؟ لا ؛ لأنه لم يؤمن بالله، وكل تكليف علّته هو من كلف به. ولذلك تجد الآن الحكم من المحكمة يصدر وفى أول كلمة منه حيثية تنفيذه، كأن يصدر باسم الأمة أو باسم الشعب أو باسم قيادة الثورة. أى أن القوة التى استند عليها القاضى في إصدار الحكم هى أن الدستور أو الشعب أو الأمة هى التى أعطته السلطة ليفعل. ولذلك فإن تكاليف الله سبحانه وتعالى فى منهجه تصدر باسم الله ؛ لأنه جل جلاله هو الذى شرع وهو الذى كلف، وهو الذى أوجد وهو الذى خلق، فإذا لم يكن المكلف مؤمنا بالله سبحانه وتعالى فإنه لا يكلفه. ولكن عندما يقول المؤمن آمنت بالله،يعنى آمنت والتزمت بكل ما يكلفنى به ولو لم أعلم العلة فى التكليف.

شعيب حين أُرسل لقومه قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . أى اعبدوا الحق سبحانه وتعالى، والعبادة ليست هى الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط. هذه هى أركان الإسلام، ولكن لا بد أن نتنبه إلى أن كل تكليف إيمانى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فالإقبال مثلا على أن يكون الإنسان نجارا أو خياطًا أو زارعا أو صانعا، كل هذه عبادات ؛ لأن الواجب لا يتم إلا بها، ولذلك فهى واجبة. إذن فالعبادة هى كل أمر تكليفى فيه « افعل ولا تفعل » .

ولقد سبق أن قلنا إن الصلاة وحدها ، تحتاج لكل هذه المهن. فالإنسان لكى يصلّى مطلوب منه شيئان . . أن يحصل على القوة أو القدرة للحركة

لكى يستطيع أداء التكليف، وأن يحصل على قطعة قماش يستر بها عورته لكى تصحّ الصلاة(1)، وبدون توافر هذين الأمرين لا يمكن للمؤمن أن

(1) **قال الدكتور وهبه الزحيلى** : العورة لغة : النقص ، وشرعا : ما يجب ستره وما يحرم النظر إليه ، والمعنى الأول : هو المراد هنا فى الصلاة . يشترط ستر العورة عن العيون ، ولو كان خاليا فى ظلمة عند القدرة فى رأى الجمهور . وقال الحنفية : يجب الستر بحضرة الناس إجماعا ، وفى الخلوة على الصحيح ، فلو صلى فى الخلوة عريانا ، ولو فى بيت مظلم ، وله ثوب طاهر ، لا يجوز . ويجب ستر العورة فى الصلاة وغيرها ولو فى الخلوة إلا لحاجة كاغتسال وتغوط واستنجاء .
والدليل على وجوب الستر : قوله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. قال ابن عباس : المراد به : الثياب فى الصلاة (1) .
وقوله ﷺ : « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار » (2). والخمار: ما يغطى به =

(1) الذى ورد عن ابن عباس هو فى الطواف ، أما فى الصلاة فهو قول مجاهد والزجاج .
[تفسير الماوردى : ٢/٥١٨ ، ٢١٩]
وأخرج مسلم [٣٠٢٨/٢٥] والنسائى فى المجتبى [٢٩٥٦] عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة وتقول : اليوم يبدو بعضه أو كله .... وما بدا منه فلا أحله .
فنزلت : ﴿يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . الآية .
وقال الدكتور محمد على السايس : وقال بعضهم : كانوا يتجرّدون من الثياب تفاؤلا بأن الله يجردهم من الذنوب ، وكانوا يقولون : ثياب أذنبنا فيها ، لا نلبسها فى طاعة الله، وكانوا لا يأكلون الطعام فى الحج إلا قوتا ، فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحق أن نفعل ذلك . فأنزل الله هذه الآية .
والمراد من الزينة التى أمر باتخاذها : الثياب ، وقد أجمع المفسرون على أن المراد من الزينة هنا لبس الثوب الذى يستر العورة ، والمراد من المسجد بالصلاة ، لأنها تكون فيه ، وإذ قد أمر الله باتخاذ ما يستر العورة عند المسجد الذى تكون الصلاة فيه أمر باتخاذ ما يستر العورة عند الصلاة ، ولولا ذلك ما كان لاتخاذها عند المسجد فائدة ، إذ ما الفرق بين المسجد وسائر الأماكن ، فدل هذا على أن المراد من الأمر باتخاذ الستره عند المسجد الأمر باتخاذها عند الصلاة . [تفسير آيات الأحكام . دار ابن كثير : ٢/٦٥١]
(2) أخرجه ابن ماجه [٦٥٥] عن عائشة وصححه ، وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٥٣٤] صحيح . المشكاة ٧٦٢ ، الإرواء ١٩٦ ، صحيح أبى داود [٦٤٨] ، الروض [١٠٢١] ، الثمر المستطاب . =

يؤدى الصلاة. ولنفرض أن المؤمن سينزل إلى أقل درجات التقشف، رغيف خبز ليأكله وقطعة قماش يستر بها عورته، ولكى يحصل على رغيف الخبز فإنه يذهب إلى بائع الخبز ليشتريه، والبائع يأتى به من المخبز، والمخبز يأتى به كدقيق من المطحن، والمطحن يأتى به كقمح من الحقل. ولا بد لكى ينبت القمح أن يتم شق الأرض وبذر الحب فيها وريّها، وتعهد الزرع بالرعاية ، وحمايته من الآفات إلى آخره. وقد لا يكون عندنا أرض زراعية فنأتى بالقمح من دول أخرى، وكذلك ما يحدث بالنسبة لقطعة القماش. إذن فأنت ترى كم صفة واجبة فى المجتمع لتؤدى بها الصلاة وحدها، العمل فى كل هذه الصناعات بإتقان عبادة ؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا نعرف أن حركة العمل الدنيوى الصالح الذى ينفع الناس كلها تدخل فى نطاق العبادة [1].

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤] يعنى إياك أن تأخذ

= رأس المرأة ، وقوله عليه السلام : يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » . [1] .

وأجمع العلماء على وجوب سترة العورة مطلقاً ، فى الصلاة وغيرها .

[الفقه الإسلامى : ١/٥٧٩] .

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . أخرجه أبو يعلى [٤٣٨٦] ، وذكره الهيثمى فى المجمع [٤/١٠١] وقال: رواه أبو يعلى ، وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة . وذكره الألباني فى الصحيحة [١١١٣] .

= وفى النهاية : أى التى بلغت سن المحيض وجرى عليها القلم . ولم يرد فى أيام حيضها لأن الحائض لا صلاة عليها .

(١) رواه أبو داود [٤١٠٤] وقال: هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضى الله عنها. وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٤٥٨] . وقال : قلت وسعيد بن بشير ضعيف كما فى التقريب للحافظ ابن حجر لكن الحديث قد جاء من طرق أخرى يتقوى بها. [راجع جلباب المرأة المسلمة للشيخ الألبانى ص ٥٧ : ٦٠] وإرواء الغليل [١٧٩٥].

الأمر بـ « افعل ولا تفعل » إلا من الله سبحانه وتعالى، فلا تكليف من أحد آخر ؛ لأن هناك إلها واحدا، وإياك أن تستدرك حكما على الله جل جلاله. وإلا فكأنك تقول: إن هذا الحكم فات على الله . . بمعنى أنه حكم جديد.

واعلم أنه إذا جاء الحكم من الله تبارك وتعالى مفصّلاً . . فخذه كما هو. وإذا جاء غير مفصل مجملا أو غير مبين، فانظر اجتهادك وماذا تفعل. ولذلك فرسول الله ﷺ قال لمعاذ لما أرسله إلى اليمن، بم تقضى بين الناس؟ قال: بكتاب الله، قال الرسول: فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال فبسنّة رسوله ﷺ. قال: فإن لم تجد فى سنة رسول الله؟ . . قال: أجتهد رأى[1].

إذن فالأمر الأول لكل رسالة هو التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ منذ آدم حتى خاتم المرسلين ﷺ ، الدين فى أصله واحد ، إلهنا إله واحد أحد، نتجه إليه جميعا. هذا هو جوهر الرسالات كلها والتى أكملتها وختمتها رسالة رسولنا محمد ﷺ. ولقد كانت المجتمعات فى الماضى منعزلة، وكان الاتصال بينها إن لم يكن مستحيلا فشاقا ويستغرق وقتا طويلا. ولذلك كان فى كل مجتمع داء مستقل يقتضى معالجة

---

(١) عن معاذ بن جبل : أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاءٌ ؟ » قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ » . قال : اجتهد رأيى ولا آلو . قال : فضرب رسول الله ﷺ على صدره ، وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى به رسولُ الله » . رواه الترمذى ، وأبو داود والدارمى. قال الألبانى : إسناده ضعيف وإن احتجوا به فى أصول الفقه فقد صرح بتضعيفه أئمة الحديث ، كالبخارى والترمذى ، والدارقطنى ، وعبد الحق الأشبيلى وابن الجوزى ، والعراقى ، وغيرهم ، وقد حققت القول فى ذلك فى « الأحاديث الضعيفة». [مشكاة المصابيح حديث رقم ٣٧٣٧]

مستقلة، فجاء الرسل كل ليعالج داء معينا. ولذلك تعددت الرسالات، وفى نفس الوقت تعددت أزمانهم ، بل إنه كان فى وقت واحد هناك رسولان هما : إبراهيم ولوط عليهما السلام، هذا يعالج داء وهذا يعالج داء آخر.

الآن العالم أصبح قرية واحدة صغيرة ، ما يقع هنا تجده بعد دقائق قد انتقل إلى مكان آخر ، الحدث الواحد يراه العالم كله فى وقت واحد. وحدة الأحداث اقتضت وحدة المعالجة، فجاء رسول الله محمد ﷺ بالدين الخاتم الذى يجمع الناس جميعا على عقيدة التوحيد ، ويظل دينه قائما حتى قيام الساعة(١).

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هَلاَّ وُضِعت هذه اللبنة ؟ » قال : « فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » . أخرجه البخارى [٣٥٣٥] واللفظ له. وأخرجه مسلم: [رقم ٢٢٨٦] .

*شعيب ينصح قومه بالعدل في التجارة *

أهل مدين إلى جانب أنهم لا يعبدون الله وحده كانوا يطففون فى الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤-٨٥]

حينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان، لم يفطنوا إلى الحكمة الحقيقية فى ذلك. إن الذى يحكم البائع والمشترى هو المكيال والميزان، فإنك إذا كنت مشتريا فالمطلوب من البائع أن يعطيك حقك، من جانبك عليك أن تعطيه حقه. إذن فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها، ولكنها قضية حقوق الناس، فيما بينهم فساعة ترى قضية المكيال والميزان قد اختلت فى مجتمع عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه، وأنه انصرف عن الحق، أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس، ذلك أن الأمر المشهود من العدل بين الناس فى البيع والشراء هو : الكيل والميزان. ولكن كل الأمور التى تحدث فى الحياة معنوية وليست مادية فقط، فلا بد أن يطبق عليها مقياس الكيل والميزان [١].

---

(١) عن وهب بن منبه قال : إن الله بعث شعيبا إلى أهل مدين ، وهم أصحاب الأيكة الشجر الملتف ، وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس فى المكاييل والموازين ، وإفساد لأموالهم ، وكان الله تعالى وسع عليهم فى الرزق ، وبسط لهم فى العيش استدراجا منه لهم مع كفرهم به ، فقال لهم شعيب : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

ولكى لا يأخذ أحدٌ حق غيره لا بد من ميزان لكل حركة الحياة ؛ حتى تأخذ الناس حقوقها بالكامل ؛ وحتى لا يقوم العالم على الظلم فينتشر فيه السحت وأكل أموال الضعفاء والفتن وغير ذلك ؛ ولأن الحياة كلها تمضى بميزان فالتعامل بين الناس غنيهم وفقيرهم ، جاهلهم ومتعلمهم لا بد أن يتم بميزان، ولو اقتنع كل إنسان أنه أخذ حقه تمامًا لاعتدل المجتمع بكل ما فيه. والكيل والميزان يكون بالزيادة وبالنقص. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٤-٨٥] وهذان أمران مختلفان ؛ لأن الكلام ليس فى المكيل أو الموزون،وإنما الكلام فى المكيال والميزان سواء وفيته أم لم توفه. فالآية الأولى تنص على عدم الإنقاص، والثانية تنص على الوفاء.

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ ما هو الخير فى هذه المعصية ؟ نقول: إنه لا خير فى معصية أبدا، ولكن: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم، وما يغنيكم عن سرقة غيركم، فاكتفوا بالخير الذى أمدكم الله به، وليأخذ كل واحد منكم حقه [1]. وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس، فالبائع.. يبيع صنفا

وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾. فكان من قول شعيب لقومه وجواب قومه له ، ما قد ذكر الله فى كتابه .
[أخرجه الحاكم فى المستدرك : ٥٦٨/٢]

(١) فى التفسير الوسيط : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ إنى أراكم فى سعة من الرزق والمال والولد فيجب أن نقابل هذه النعم بإعطاء الحقوق لا بالإصرار على الشر والفساد =

واحدا أو صنفين، فهو إن غش فى صنف أو صنفين، سيغشه غيره فى كل ما يَشترِى وهو كثير. فإذا كنت مثلا قَصَّابًا (١) تُنقص الوزن فى اللحم، فسوف ينقص لك كلٌّ من يبيعك كلما اشتريت تكون أنت الخاسر. فقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٢)

= وسلب حقوق العباد ؛ فيسلبكم الله نعمه. ا.هـ.

وقال ابن كثير : أى فى معيشتكم ورزقكم . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٣٧]

وقال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه رخص السعر ، قاله ابن عباس والحسن .

الثانى : أنه المال وزينة الدنيا ، قاله قتادة وابن زيد .

ويحتمل تأويلا ثالثا : أنه الخصب والكسب . [تفسير الماوردى : ٢/ ٤٩٥]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ : تعليل للنهى ، أى : لا تنقصوا المكيال والميزان لأنى أراكم بخير ، أى : بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها . [فتح القدير : ٢/ ٥٢٩]

(١) قصب الشيء يقصبه قصبًا ، واقتصبه : قطعه . والقاصب والقصَّاب : الجزار ، وحرفته القصابة . فإما أن يكون من القطع ، وإما أن يكون من أنه يأخذ الشاة بقصبتها أى بساقها ؛ وسمِّى القصَّاب قصَّابا لتنقيته أقصاب البطن .

[لسان العرب : ١/ ٦٧٥]

(٢) **قال القرطبى** فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا ؛ وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحّحوا له بغاية ما يقدرون ؛ فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيا عن التطفيف .

﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصا . ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط =

لأن حقوق الناس تضيع هنا، والله وكيل على حقوق عباده جميعا، لا يظلم أحدا ولا يتقرب إليه أحدٌ إلا بالتقوى. ولذلك فإذا اختلس منك أحد حقا من حقوقك فعاتبْه، وإذا بغى عليك وظلمك فحاسبْه. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] .

إذن فالمسألة أن الله يسمع ويرى، وأن الميزان فى الحياة إذا اختل فسدت الحياة وضاعت الثقة بين الناس، حتى يقال فى بنى فلان رجل أمين ،

= العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد ، أى شديد الحرارة . واختلف فى ذلك العذاب ، فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا. وقيل : غلاء السعر ، روى معناه عن ابن عباس .

وفى الحديث عن النبى ﷺ : « ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء » (1).

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمام . ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون ؛ لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان ؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود ، وكذا الصنجات . ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بين أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض . [تفسير القرطبى : ٩/ ٨٥ ، ٨٦]

---

(1) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب [٣/ ١٦٩ ، ١٧٠] بلفظ : عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم ، أوتدركوهن : ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان . . . » .

وانظر إلى الدول التى تتقدم فى الدنيا على إطلاقها لا تجد فيها دولة واحدة مؤمنة أو كافرة يختل فيها الميزان، هذه الدول لم تصل إلى هذه المنزلة إلا بعد أن مرت بتجارب مريرة، أكّدت أن ضياع الميزان فى الدنيا ضياع للدنيا كلها وفساد لها. ولذلك إذا ذهبت إلى المجتمعات الغربية المتقدمة تجد فيها مسألة عدالة الميزان معنويا وماديا مسألة خطيرة يحرص المجتمع على ضمانها ؛ حتى لا يتأخر وينهار، وكلما ضاع حق الناس فى المجتمع ضاع المجتمع كله.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى فى سورة الرحمن يقول : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ** ﴾ [الرحمن:١-١٠].

فى هذه الآيات البينات، يلفتنا الحق سبحانه إلى أن الكون كله لا يستقيم إذا اختل الميزان فيه، ولا يظن ظان أن المقصود هنا ميزان الجرام والدرهم فقط ؟ لا. إنما يقصد ميزان الحياة، فالعبرة بالميزان وليس بالموزون، فالميزان يجب أن يكون دقيقا فى كل الأمور(١).

---

(١) إن الله سبحانه وتعالى أقام خلقه جميعا بميزان العدل والحق فصار واستقر ، وكأن الله تعالى يقول للبشر جميعا فى كل زمان ومكان : إن أموركم لن تستقر إلا إذا أقمتم ميزان الحق والعدل والتزمتم به. وأن ظلم إنسان واحد فيه انهيار للمجتمع كله.
عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أُخذوا بالسنين ـ أى بالقحط ـ وشدة المئونة ، وجور السلطان عليهم . . . » .
الحديث بطوله أخرجه ابن ماجه [٤٠١٩] وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٤٦] : حسن ، وكذا رواه البزار والبيهقى.

الحق تبارك وتعالى حين يقول: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] أى عذاب يوم لن يفلت منه أحد ، فإذا أفلت فى الدنيا أو احتمى فيها بذى نفوذ، كان عذاب الله ينتظره فى الآخرة، فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه، ولكن فى الآخرة لن ينفع شيء من هذا .

الحق جل جلاله يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فى هذه الآية ، ويقول فى الآية السابقة: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[1] إذن قال الحق : ﴿وَلَا تَنقُصُوا﴾ و ﴿أَوْفُوا﴾ والاثنان

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ : فيه أربع مسائل :

الأولى : روى النسائى عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1].

قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هى أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة ، وكان هذا فيهم ؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا ، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا . وقال قوم : نزلت فى رجل يعرف بأبى جهينة ، واسمه عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما ، ويعطى بالآخر؛ قاله أبو هريرة رضى الله عنه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ﴾ أى شدة عذاب فى الآخرة . وقال ابن عباس : إنه وادٍ فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فهو قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أى الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم . =

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا. فأنزل الله سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

أخرجه ابن ماجه [٢٢٢٣] وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٨٠٨] : حسن ، والنسائى فى الكبرى [١١٦٥٤] ، وابن حبان فى صحيحه [٤٩١٩] وقال الأرناؤط : حديث حسن .

مطلوبان ؛ لأنه ليس المقصود هو المكيال وإنما الكيل بإطلاقه، وليس

= وروى عن ابن عمر قال : المطفف : الرجل يستأجر المكيال وهو يعلم أنه يحيف فى كيله فوزره عليه .

وقال آخرون : التطفيف فى الكيل والوزن الوضوء والصلاة والحديث .

وفى الموطأ قال مالك : ويقال لكل شىء وفاءٌ وتطفيف .

وروى عن سالم بن أبى الجعد قال : الصلاة بمكيال ، فمن أوفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله عز وجل فى ذلك: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

الثالثة : قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفيف ، وهو القليل ، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق ، فى كيل أو وزن . وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشىء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طفّ الشىء وهو جانبه . وطِفاف المكّوك وطفافه بالكسر والفتح : ما ملا أصباره ، وكذلك طف المكوك وطففه؛ وفى الحديث: «كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملئوه»[1]. وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل ؛ والمعنى بعضكم من بعض قريب ، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى . والطفاف والطفافة بالضم : ما فوق الميكال . وإناء طفاف : إذا بلغ الملء طفافه ؛ تقول منه : أطففت. والتطفيف : نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره ، أى جوانبه ؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أصبارها أى إلى رأسها .

وقول ابن عمر حين ذكر النبى ﷺ سبق الخيل : كنت فارسا يومئذ فسبقت الناس حتى طفف بى الفرس مسجد بنى زُرَيق، حتى كاد يساوى المسجد. يعنى: وثب بى.

الرابعة : المطفف : هو الذى يُخسر فى الكيل والوزن ، ولا يوفى حسب ما بيناه ؛ وروى ابن القاسم عن مالك : أنه قرأ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فقال : لا تُطفف ولا تخلب[2] ، ولكن أرسل وصب عليه صبا ، حتى إذا استوفى أرسل يدك =

(١) أخرجه أحمد فى المسند [١٥٨/٤] بلفظ : عن عقبة بن عامر الجهنى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم تملأوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا». وذكره الهيثمى فى المجمع [٨٦/٨ ، ٨٧] ، وقال : رواه أحمد والطبرانى ، وفيه أبى لهيعة وفيه لين ، وبقية رجاله وثقوا .

(٢) أى : لا تغش .

المقصود هو الموزون ولكنه الميزان بإطلاقه، فاعدل ولا تنقص ولا تزد، واقرأ قوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:١-٥] إذن فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط، لا زيادة ولا نقص، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. أى بالعدل .

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥] هذا كلام عام ليس فيه كيل ولا مكيال ولا ميزان ولاموزون، فى كل شيء خذ حقك وأعط الناس حقوقهم، ولا يتوقف الحق وتعاملك به على المؤمن فقط ، وتفرق بين مؤمن وكافر، فتحل لك سرقة الكافر مثلا وأخذ حقه.

وبخس الناس أشياءهم له عدة طرق: منها أن يأتيك إنسان بشيء ثمين ليبيعه لك، فتحاول أن تخفض له ثمنه، وتقول له إنه لا يساوى شيئا، حتى تأخذه بأقل من ثمنه وإن كان برضا البائع، أى تقدر الأشياء بأقل من ثمنها ولاضطرار البائع يقبل عرضك.

وسيلة أخرى هى السرقة وهذه يمكن أن تتم خفية، ويمكن أن تتم بالإكراه، وفى كل الحالات هى تتم بدون رضا صاحب الشيء.

وهناك الخطف كأن تكون جالسا أمام بضاعة ، ويأتى إنسان من مكان لا تستطيع أن تصل إليه منه ويخطف شيئا من بضاعتك ويهرب ، هذا تم

= ولا تُمسك. وقال عبد الملك بن الماجشون : نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف وقال : إن البركة فى رأسه . قال : وبلغنى أن كيل فرعون كان مسحا بالحديد .

[تفسير القرطبى : ١٩/ ٢٥٠ ، ٢٥١]

أمامك ولكن بدون رضاك أو لعجزك .

وهناك الاختلاس بأن يأتمنك إنسان على شيء فتختلسه .

إذن فمعنى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [هود:٨٥] البخس هو الضرر، إما بالنقص إذا كان للشيء وزن أو حجم أو كم أو كيل، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشيء ، والأشياء جمع شيء، والشيء يقولون عنه جنس الأجناس، فالثمرة الواحدة يقال لها شيء، والثمر الكثير يقال له شيء ، إياك أن يغريك شيء مهما كان كثيرا أو قليلا فتنقصه. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ والناس جمع، وأشياء جمع، وقسمة الجمع على الجمع تنتج الفرد، فلا تنقص الفرد من كل ما يقال له شيء [1].

لذلك يحكى أن رجلا استأجر دابة ليذهب بها إلى مكان ما، فلما ركب الدابة وسارت وقع منه السوط الذى يحرك به الدابة، كانت الدابة قد سارت قليلا، فترك الدابة مكانها وعاد وأخذ السوط، ثم عاد إلى الدابة وركبها، فقال له من معه: لماذا لم تعد بالدابة وتأخذ السوط؟. قال الرجل:

---

(١) البخس : النقص . بخسه حقه يبخسه بخسًا إذا نقصه . ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ : لا تظلموهم، والبخس من الظلم ، أن تبخس أخاك حقه فتنقصه ، كما يبخس الكيال مكياله فينقصه . وثمن بخس : دون ما يُحَبُّ وقوله عز وجل : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أى : ناقص دون ثمنه . والبخس : الخسيس الذى بخس به البائع . **قال الزجاج** : بخس أى : ظلم ؛ لأن الإنسان الموجود لا يحل بيعه . وبخس الميزان: نقصه . [لسان العرب : ٦/٢٤ ـ ٢٥]
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس: النقص. وهو يكون فى السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال فى التزيدّ فى الكيل والنقصان منه. وكلّ ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك مَنْهِىٌّ عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل وحسبنا الله ونعم الوكيل. [تفسير القرطبى /٢٤٨]

أنا استأجرتها لتوصلنى من هذا المكان إلى هذا المكان، ولن أظلمها بأن أزيد عملها أو أنقص أجرها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ من المعلوم أن الإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه، فإن استطعت أن ترقى به فافعل. وقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تدل على أن المجتمع مأمور كله بعدم الإفساد فى الأرض، وبذلك يكون على كل واحد منا أن ينفذ ذلك على نفسه وأهل ولايته، إنما الآفة أن كل واحد منا يريد أن ينفذه على غيره.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير من كل ما تحصلون عليه من حرام. وأنت تتوهم أنك عندما تحصل على مال من حرام قد ربحت، ولكنك فى الحقيقة أخذت من المال الحلال بركته، فلو أبقيت مالك كله حلالاً لكان خيرا لك من أن تضيف إليه حراما ؛ لأن الذى أخذ غير حقه من أى شىء يسلط الله عليه أبوابا تنهب منه الزائد الذى لم يأخذه حلالا.

ولذلك يقال إن الذى أنفق على أولاده من مال حلال، وربى أولاده على الدين والأمانة يعطى الله أولاده بالحلال أضعافا مضاعفة. ولذلك تجد أن كل من رزقُه حلال فإن ماله لا ينقص.. كيف؟ لأن الله يدخل الأمن والطمأنينة إلى قلبه، فيأخذ كل شىء باطمئنان الإيمان ، ويبارك الله له فى رزقه وأولاده وصحته . وهكذا فى كل شىء، لذلك تجد أن ما يتقاضاه من راتب على قلته يكفيه ويزيد.

أما الذى أخذ مالا حراما فيسلط الله عليه القلق والذعر دائما وينزع منه البركة. ثم يسلط الله عليه أو على أفراد أسرته مهلكات المال، وهى المخدرات والخمور وأماكن اللهو والفجور، حتى يضيع المال الحرام

ولا يبقى له إلا الذنب ينتظره يوم القيامة ، ما لم يعجل له فى الدنيا ولذلك تجد فى كثير من الأحيان الرجل يتقاضى مبلغا محدودا من المال يعيش مستريحا، وآخر راتبه أكبر عدة مرات، يشكو دائما الهم والفقر وكثرة الدَّين، ارجع إلى مصدر المال تعرف السبب.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) أى إن كنتم مؤمنين بأن الله رقيب عليكم، وأن الله قيوم، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا دُون أن يراكم فراقبوا الله فى أعمالكم، واقنعوا بما آتاكم حلالا (٢) .

---

(١) قوله عز وجل: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فيها ستة أقاويل:

أحدها: يعنى طاعة الله تعالى خير لكم، قاله مجاهد.

الثاني: وصية من الله، قاله الربيع.

الثالث: رحمة الله، قاله ابن زيد.

الرابع: حظكم من ربكم خير لكم، قاله قتادة.

الخامس: رزق الله خير لكم، قاله ابن عباس.

السادس: ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان خير لكم، قاله ابن جرير الطبرى. [تفسير الماوردى : ٢/ ٤٩٥ ، ٤٩٦]

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت عند رسول الله ﷺ هذه الآية :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال النبى ﷺ : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل الله منه عملا أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .
رواه الطبرانى فى الأوسط [٦٤٩٥] وابن مردويه. وذكره الألبانى فى الضعيفة [١٨١٢] بدون زيادة : « وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [1] أى أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار، بل كل واحد يحافظ على نفسه. ولذلك فإن كل عمل تعمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية، بل احرص على قيمته فى الآخرة. ومادمت قد رضيت ببقية من الله لها بركة. فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا الآخرة.

---

(1) قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ : قال القرطبى : أى رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ، أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذ بإيفاء الحق . [تفسير القرطبى : ٩/ ٨٦]

وقال ابن كثير : أى برقيب ولا حفيظ ، أى افعلوا ذلك لله عز وجل ، لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل لله عز وجل . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٧]

وقال الماوردى : يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: حفيظ من عذاب الله تعالى أن ينالكم.

الثانى: حفيظ لنعم الله تعالى أن تزول عنكم.

الثالث: حفيظ من البخس والتطفيف إن لم تطيعوا فيه ربكم.

[تفسير الماوردى : ٢/ ٤٩٦]

* الغش أهلك أمة *

ماذا كان داء قوم شعيب؟ الداء الذى كان منتشرا فيهم علمناه من قول الله تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

الكيل: ما يقدر به الشىء المكيل. ومثله «الكيلة» فى تقدير الحبوب. والميزان فى تقدير أوزان السلع والبضائع . هناك شىء يكال، وهناك شىء يوزن. ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ يعنى اجعلوا ما تكيلون به صحيحا ولا تغشوا فيه. ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ المخسر : هو الذى يُخَسِّر الذى يقابله، إن كان يشترى فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها. وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى. فالذى يقابله خسران سواء اشترى منه أو باع له، هو مخسر فى كلتا الحالتين.

قوله تعالى: ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ «زنوا» أى اجعلوا آلة الوزن مضبوطة. «القسطاس» هو العدل المطلق الذى فى قدرة البشر. لماذا جاء بالكيل والميزان؟ هل وسائل العيار أو البيع والشراء هى الكيل والميزان فقط؟ لا . . فهناك أشياء كثيرة يمكن قياسها بالمتر أو بالذراع . المهم هو العدل فى أداء الاستيفاء فى كل شىء له تقدير.

الآيات ذكرت الكيل والميزان فقط ؛ لأن الأمم فى ذلك الوقت كانت بدائية لا تعرف إلا هذين اللونين من التعامل. ونحن نعرف أن المبادلات كانت هى وسيلة البيع والشراء فى الأزمنة الماضية، ولذلك كان الإنسان

بائعا ومشتريا فى نفس الوقت، يعرض سلعة يملكها ويأخذ مقابلها سلعة يحتاجها، وبالتالى لا يكون البائع بائعا على حدة، ولا المشترى مشتريا على حدة. ولم يعرف الناس البيع والشراء بأثمان إلا بعد صكّ العملة.

والسلع التى فيها مقايضة كان فيها انتفاع مباشر، كل واحد يقايض بالسلعة التى يحتاج إليها. كل سلعة كان فيها بيع وشراء. ولذلك قال القرآن فى سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[يوسف:٢٠] القرآن قال ﴿وَشَرَوْهُ﴾ مع أنهم باعوه. وهكذا لو قدرت أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر لقلت: شرى وباع. هذا النوع من التعامل الذى كان سائدا فى زمن شعيب عليه السلام ورد ذكره بتفصيل أكثر فى سورة كاملة هى سورة «المطففين» وفيها يقول الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ اكتال عليه، وكال له.. ما الفرق بينهما؟ «كال» يعنى أعطى و«اكتال» أى أن غيره يعطيه. إذا كانت الآية وصفتهم بأنهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ فما ذنبهم؟

اللوم عليه؛ لأنه يستوفى عندما يكون الأمر لنفسه وعندما يكون لغيره يطفف، و «المطفف» هو الذى يأخذ شيئا طفيفا. فإذا كان الويل لمن أخذ شيئا يسيرا فكيف يكون عذاب من أخذ الكل ؟ إذن فالويل للقوم الذين أرسل إليهم شعيب؛ لأنهم كانوا يأخذون الوزن كاملا عندما يشترون لأنفسهم ويبيعونه بالنقص إذا كان لغيرهم. الأصل الشرعى فى البيع والشراء أن تعدل ، فتوفى لنفسك عندما تشترى من غيرك، وتوفى لغيرك عندما يشترى منك . والحديث الشريف يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (١) فلا تكن أنانيا تحب لنفسك الخير وتكرهه

---

(١) أخرجه البخارى : برقم [١٣]. ومسلم [٤٥]. وفى بعض رواية مسلم أوله : « والذى نفسى بيده . . . » .

لغيرك. هذا هو الحال المطلوب فى الأخذ والعطاء فى البيع والشراء. فما هو حال من يعطى أكثر، بمعنى إذا اشترى منه واحد قدرا معينا من السلع أعطى له زيادة عليه؟ مثل هذا أجره على الله ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١].

قول الحق سبحانه: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء:١٨٢] يدخل فيه ضرورة القياس المضبوط العادل أيضا. ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس معناه النقص. ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ حقوقهم.

الآيات تنهى عن النقص فى الكيل والميزان عند البيع والشراء. فما هو حال من يغتصب السلعة كلها؟ أو يتصرف فيها من غير أمر صاحبها؟ هذا كله يدخل فى إطار النهى عنه.

فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

إذن كل شىء ينقص بالأخذ منه، أو بغصبه، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه، كل ذلك يسمى بخسا للشىء.

كل شىء له صاحب لا تقترب منه واترك الحق لصاحبه. وانظر قول الله فى الزكاة: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. هو حق مقيد[1]،

---

(١) الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفرض من فروضه، وفرضت فى المدينة فى شوال السنة الثانية من الهجرة بعد فرض رمضان وزكاة الفطر، ولكن لا تجب على الأنبياء إجماعاً؛ لأن الزكاة طهرة لمن عساه أن يتدنس، والأنبياء مبرءون منه، ولأن ما فى أيديهم ودائع لله، ولأنهم لا ملك لهم، ولا يُورِّثون أيضاً، وقرنت بالصلاة فى القرآن الكريم فى اثنين وثمانين موضعًا، مما يدل على كمال الاتصال بينهما.
وهى واجبة بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة. =

زكاة الزروع إن كانت تروى بالمطر عليها «العشر» وإن كانت تروى بآلة عليها «نصف العشر». وإن كان عملا تجاريا يحتاج إلى حركة يومية قَلَّلها وجعلها (٢,٥) فى المائة. فالتشريع يراعى حركة الممول. كلما زادت حركته قل منه مطلوب الزكاة. ما سبب ذلك؟ لأن الشارع يريد أن يتحرك الناس فى الحياة ويزداد تعاملهم. إذا قارنا ذلك بقوانين البشر نجدها تعكس الآية، فكلما زادت حركة الممول زادت عليه الضرائب. وذلك يجعل الناس يخافون من الحركة ويزهدون فى العمل. لأن لسان حالهم يقول: لماذا أجهد نفسى ويأخذ غيرى ضريبة على عملى؟

شَرْعُ الإسلام ينصف الإنسان كلما ازدادت حركته فى الحياة. إن كنت تزرع وزراعتك تقتصر على بذر البذور والسماء تروى لك الأرض بالمطر. فالزكاة المستحقة على زراعتك هى العشر. وإن كانت حركتك فى الزراعة

= أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وآى سوى ذلك.

وأما السنة: فقوله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس.. منها إيتاء الزكاة»[1] وبعث النبى ﷺ معاذاً إلى اليمن، فقال: «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم»[2] وأخبار أخرى.

وأجمع المسلمون فى جميع الأعصار على وجوب الزكاة، واتفق الصحابة رضى الله عنهم على قتال مانعيها، فمن أنكر فرضيتها كفر وارتد إن كان مسلمًا ناشئًا ببلاد الإسلام بين أهل العلم، وتجرى عليه أحكام المرتدين ويستتاب ثلاثة، فإن تاب وإلا قتل. ومن أنكر وجوبها جهلا به إما لحداثة عهده بالإسلام، أو لأنه نشأ ببادية نائية عن الأمصار، عُرِّف وجوبها ولا يحكم بكفره؛ لأنه معذور.

[الفقه الإسلامى وأدلته: ٢/ ٧٣٣، ٧٣٤]

---

(١) أخرجه البخارى [٨]، ومسلم [١٦].

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى [٢٢١٥] وفى المجتبى [٥/ ٢: ٤] وابن ماجه [١٧٨٣] وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٢٨٤]، وصحيح ابن ماجه [١٤٤٢].

أنك تبذر وتروى فالزكاة المستحقة عليك نصف العشر أى «خمسة بالمائة». وإن كان العمل يقتضى حركتك طوال الوقت فالزكاة المستحقة عليك ربع العشر أى « ٢,٥٪ » . كلما ازدادت حركتك فى الحياة قلّت فريضة الزكاة المستحقة عليك . . لماذا؟ لأن الإسلام يريد أن تظل الحركة مرغوبا فيها لنفع المتحرك ولنفع المجتمع.

إذن معنى قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ . أى نصاب الزكاة الذى أشرنا إليه «العشر» و«نصف العشر» و«ربع العشر».

وفى آية أخرى قال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ . ولم يقل ﴿مَّعْلُومٌ﴾ هنا يعنى الصدقات ؛ لأن أساسها التطوع لا الفرض[1]. ولذلك تجد هذه الآية وردت فى سياق الحث على الإحسان أو وصف الإحسان وصورته أن تذهب إلى شىء أفضل من المطلوب منك.

السياق الذى وردت فيه هذه الآية هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ . قال محمد ابن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رَحِمًا ، أو يَقرى به ضيفا ، أو يحمل به كلاً ، أو يغنى محروما ، قاله ابن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ابن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة ؛ لقوله تعالى فى سورة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾[1] : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ والحق المعلوم هو الزكاة التى بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها ، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم ؛ لأنه غير مقدر ولا مجنس ولا موقت . [تفسير القرطبى : ١٧/٣٨]

---

(١) هى سورة : المعارج .

﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١) الآيات تبين أن المحسن هو الذى أدى الفرض وزاد عليه ، سواء فى الصلاة بأداء الصلوات الخمس المفروضة ثم الزيادة عليها بقيام الليل ، أو بالاستغفار فى الليل، أو بإخراج نصاب الزكاة المفروضة ثم التصدق زيادة عليها(٢) .

وهكذا الإسلام ينهاك عن أخذ حق غيرك، ويعاقبك على ذلك ؛ لأنه بخس للناس فى أشيائهم. ويزين لك الإكثار من فعل الخير، ويجزل لك الثواب عليه. فالفقير حقه فى مال الغنى معلوم، فإن نقصت منه فذلك بخس منهىٌّ عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وإن حولته منه إلى غيره، فذلك بخس أيضا.

---

(١) ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ . الذى لا يسأل حياءً (١). وقيل المُحَارَف(٢) الذى نبا عنه مكسَبُه .
[إيجار البيان : ٢/ ٧٦٥]

(٢) مقام الإحسان مقام عظيم وقد ورد معناه : « . . . أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . » . وهو جزء من حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى [٤٧٧٧]، ومسلم [٨/ ١] عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعن أبى هريرة رضى الله عنهم .

---

(١) أخرج الطبرى هذا القول فى تفسيره [٢٦/ ٢٠٢] عن قتادة والزهرى .
ونقله البغوى فى تفسيره [٤/ ٢٣١] عن قتادة والزهرى ، وكذا ابن الجوزى فى زاد المسير [٨/ ٣٢] ، والقرطبى فى تفسيره [١٧/ ٣٨] .

(٢) قال ابن قتيبة فى تفسير غريب القرآن [٤٢١] : « وهو المقتر عليه فى الرزق».
وقيل : الذى لا سهم له فى الغنائم .
وعقب الطبرى ـ رحمه الله ـ على الأقوال التى قيلت فى«المحروم» بقوله: «والصواب من القول فى ذلك عندى أنه الذى قد حرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة، ويكون بأنه لا سهم له فى الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول فى ذلك أولى بالصواب من أن تعم، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ .ا.هـ.

زكاة المال نصيب الفقير فيها «٢,٥» فى المائة. ويتبقى لصاحب المال «٩٧,٥٪» بعض الناس لا يكتفون بسبعة وتسعين ونصف. ويطمعون فى ربع العشر، فتراهم ينفقون زكاة المال فى غير المصارف المخصصة لها.

من صور صرف زكاة المال فى غير ما هو مخصص لها : أن المزكى يعطيها لأقاربه غير الفقراء ليرفع مستواهم. أو يعطى الخادمة ولسان حاله يقول حتى لا تطمع فى زيادة أجرها.

ومن صورها إنفاق أموال الزكاة فى بناء المساجد أو المدارس أو المستشفيات. أقول لهؤلاء «٢,٥٪» تحملونها كل هذه الأوجه فى الإنفاق وتتركون ال «٩٧,٥٪» لماذا لا يبنى الأغنياء المستشفيات والمساجد والمدارس من ال«٩٧,٥٪». ما أشقى قيمة ربع العشر المستحقة للفقير فى أموال الأغنياء؟!.

الذى جعلنا نقول: إن بناء المستشفيات والمدارس والمساجد لا يجوز من أموال الزكاة هو أن هذه المشروعات ينتفع بها الأغنياء قبل الفقراء. ولنفترض أن الفقراء والأغنياء ينتفعون بها معا. فذلك مخالف لمصارف الزكاة ؛ لأن الأصل فيها أن ينتفع بها الفقراء وحدهم ولا ينتفع منها الأغنياء بأى حال. وما نراه من إنفاق الزكاة فى غير المصارف المخصصة لها، وهو سد حاجة الفقراء يعتبر من بخس الناس أشياءهم [١].

---

(١) **قال الدكتور الزحيلى** : نصت الآية القرآنية (٦٠) من سورة التوبة على أصناف ثمانية تستحق الزكاة وهى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ فدلت على أنه تصرف الزكاة إلى الأصناف الثمانية.

وروى الجماعة عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن «. . فإن هم أطاعوك لذلك ـ أى الإقرار بوجوب الزكاة عليهم ـ فأعلمهم =

= أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقراءهم..»[1] دل على أن الزكاة تؤخذ من قبل الإمام من أغنياء المسلمين، وتصرف فى فقرائهم، وكونها فى فقرائهم استدل به لمذهب مالك وغيره بأنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد.

قال الشافعية: يجب صرف جميع الصدقات الواجبة سواء الفطر وزكاة الأموال إلى ثمانية أصناف، عملاً بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ .....﴾ أضافت الآية جميع الصدقات إلى هذه الأصناف بلام التمليك، وشركت بينهم بواو التشريك، فدلت على أن الصدقات كلها مملوكة لهم، مشتركة بينهم. فإن كان الذى يفرق الزكاة هو الإمام، قسمها على ثمانية أسهم، منها سهم العامل، وهو أول ما يبدأ به؛ لأنه يأخذه على وجه العوض، وأما غيره فيأخذه على وجه المواساة. وإن كان مفرق الزكاة هو المالك أو وكيله سقط نصيب العامل، وصرفت إلى الأصناف السبعة الباقية إن وجدوا، وإلا فللموجودين منهم، والمستحب أن يعم كل صنف إن أمكن، ولا يجوز أن يصرف لأقل من ثلاثة من كل صنف؛ لأن أقل الجمع ثلاثة، فإن دفع لاثنين ضمن نصيب الثالث إلا العامل، فإنه يجوز أن يكون واحداً إن حصلت به الكفاية.

والغالب وجوده الآن فى البلاد أربعة: الفقير والمسكين والغارم وابن السبيل. وأجاز جمع من الشافعية دفع زكاة الفطر لثلاثة فقراء أو مساكين، واختار الرويانى من الشافعية: صرف الزكاة إلى ثلاثة من أهل السهمان، قال: وهو الاختيار من حيث الفتوى لتعذر العمل بمذهبنا.

ومذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة): جواز صرف الزكاة إلى صنف واحد، وأجاز الحنفية والمالكية صرفها إلى شخص واحد من أحد الأصناف. وندب عند المالكية صرفها إلى المضطر أى أشدهم حاجة على غيره. ويستحب صرفها فى الأصناف الثمانية خروجاً من الخلاف وتحصيلاً للإجزاء يقيناً، ولا يجب الاستيعاب.

ودليلهم أن الآية تعنى عدم جواز صرفها لغير هذه الأصناف، وأما فيهم فهى تدل على التخيير، أى إنها لبيان الأصناف التى يجوز الدفع إليهم، لا لتعيين الدفع فيهم.

وأما دليل جواز الاقتصار على شخص واحد من أحد الأصناف فهو أن الجمع =

---

(١) ـ أخرجه النسائى فى الكبرى [٢٢١٥]، وفى المجتبى [٥/٢:٤]، وابن ماجه [١٧٨٣]، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى[٢٢٨٤]، وصحيح ابن ماجه [١٤٤٢].

= المعرف بأل«الفقراء . .» ينبغى حملها على المجاز، وهو جنس الفقير، الذى يتحقق بواحد، لتعذر حملها على الحقيقة: وهو الاستغراق، أى الشمول لجميع الفقراء ، إذ يصير المعنى : أن كل صدقة لكل فقير، وهو غير معقول.

وقال : اتفق جماهير فقهاء المذاهب على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى غير من ذكر الله تعالى ، من بناء المساجد والجسور والقناطر والسقايات وكرى الأنهار وإصلاح الطرقات، وتكفين الموتى، وقضاء الدين، والتوسعة على الأضياف، وبناء الأسوار وإعداد وسائل الجهاد، كصناعة السفن الحربية وشراء السلاح، ونحو ذلك من القرب التى لم يذكرها الله تعالى مما لا تمليك فيه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر والإثبات، تثبت المذكور وتنفى ما عداه، فلا يجوز صرف الزكاة إلى هذه الوجوه؛ لأنه لم يوجد التمليك أصلاً.

لكن فسر الكاسانى فى البدائع سبيل الله. بجميع القُرب، فيدخل فيه كل من سعى فى طاعة الله وسبيل الخيرات إذا كان محتاجًا؛ لأن ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عام فى الملك، أى يشمل عمارة المساجد ونحوها مما ذكر، وفسر بعض الحنفية ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بطلب العلم ولو كان الطالب غنياً.

قال أنس والحسن: «ما أعطيت فى الجسور والطرق، فهى صدقة ماضية».

وقال مالك: سبل الله كثيرة، ولكنى لا أعلم خلافاً فى أن المراد بسبيل الله ههنا الغزو. [الفقه الإسلامى وأدلته : ٨٦٧ ـ ٨٧٦]

❄ سؤال قوم شعيب ❄

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم؟ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ هنا نلاحظ أن قوم شعيب لم يقولوا له أإلهك أو أدينك يأمرك، وإنما قالوا أصلاتك تأمرك.. لماذا؟ لأن الصلاة هى الركن الدائم فى الإسلام الذى لا يسقط أبدا. فالإسلام بنى على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا[1].

إيتاء الزكاة يشترط فيه وجود فائض من المال، ولذلك فإن الزكاة تسقط عن الفقير، وصوم رمضان يشترط فيه الصحة وعدم السفر، فالمريض لا يصوم وكذلك المسافر لا يصوم[2]. وحج البيت يشترط فيه الاستطاعة، فغير المستطيع يسقط عنه الحج.

---

(١) لما ورد فى الحديث : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان ». أخرجه البخارى [٨].

(٢) لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ .

وفى كتاب فقه الصوم للدكتور : سيد بن حسين العفانى :

قال ابن رشد فى بداية المجتهد [٢/ ١٦٥] : المفطرون فى الشرع على ثلاثة أقسام:

(١) صنف يجوز له الفطر والصوم بإجماع .

(٢) وصنف يجب عليه الفطر على اختلاف فى ذلك بين المسلمين . =

. . . .

= (٣) وصنف لا يجوز له الفطر .

وكل واحد من هؤلاء تتعلق به أحكام .

أما الذين يجوز لهم الأمران :

أ ـ فالمريض : باتفاق .

ب ـ والمسافر : باختلاف .

ج ـ والحامل والمرضع.

د ـ والشيخ الكبير .

وهذا التقسيم كله مجمع عليه .

أما المسافر فالنظر فيه فى مواضع :

(١) هل إن صام أجزأه صومه أم ليس يجزئه ؟

(٢) هل إن كان يجزىء المسافر صومه ، الأفضل له الصوم أو الفطر أو هو مخير بينهما ؟

(٣) وهل الفطر الجائز له هو فى سفر محدود أم فى كل ما ينطلق عليه اسم السفر فى وضع اللغة ؟

(٤) ومتى يفطر المسافر ؟

(٥) ومتى يمسك ؟

(٦) وهل إذا مرّ بعض الشهر له أن ينشىء السفر أم لا ؟

(٧) ثم إذا أفطر ما حكمه ؟

وأما المريض فالنظر فيه أيضًا فى تحديد المرض الذى يجوز له فيه الفطر ، وفى حكم الفطر .

المسألة الأولى إن صام المريض أو المسافر هل يجزيه ؟

إن صام المريض والمسافر هلى يجزيه صومه عن فرضه ، أم إنهم اختلفوا فى ذلك؟.

فذهب الجمهور إلى أنه إن صام ، وقع صيامه وأجزأه ، وذهب أهل الظاهر إلى أنه « لا يجزيه ، وأن فرضه أيام أخر » .

قال ابن عبد البر فى التمهيد [٢٢/٤٨] : قالوا : المسافر لا يصوم فى سفره ؛ لأن الله أراد منه صيام أيام أُخر ، وهذا قول يروى عن عبيدة وسويد بن غفلة . ثم رد عليه رحمه الله . =

= **قال النووى فى المجموع** [٦/٢٦٩ ـ ٢٧١] : فى مذاهب العلماء فى جواز الصوم والفطر فى السفر : مذهبنا جوازهما وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد ، والجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال العبدرى : هو قول العلماء .

وقال الشيعة : لا يصح وعليه القضاء ، واختلف أصحاب داود الظاهرى ، فقال بعضهم : يصح صومه ، وقال بعضهم : لا يصح .

وقال ابن المنذر : كان ابن عمر وسعيدبن جبير يكرهان صوم المسافر ، قال : وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « إن صام قضاه » ، قال : وروى عن ابن عباس قال : « لا يجزئه الصيام » وحكى أصحابنا بطلان صوم المسافر عن أبى هريرة وأهل الظاهر والشيعة .

قال ابن حجر فى الفتح [٤/٢١٦] : اختلف السلف فى هذه المسألة ، فقالت طائفة: لا يجزىء الصوم فى السفر عن الفرض ، بل من صام فى السفر وجب قضاؤه فى الحضر لظاهر قوله تعالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ، ولقوله ﷺ : « ليس من البر الصيام فى السفر »[1] ومقابلة البر الإثم ، وإذا كان آثمًا بصومه لم يجزئه، وهذا قول بعض أهل الظاهر ، وحكى عن عمر وابن عمر وأبى هريرة والزهرى وإبراهيم والنخعى وغيرهم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قالوا ظاهره فعليه عدة أو فالواجب عدّة ، وتأوله الجمهور بأن التقدير فأفطر فعدة .

قال ابن رشد : « وهذا الحذف فى الكلام هو الذى يعرفه أهل صناعة الكلام بلحن الخطاب » .

ودليل من ذهبوا إلى أن الصوم فى السفر لا يصح ما رواه مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ : « ليس البر أن تصوموا فى السفر » .

وروى مسلم عن جابر أيضًا : أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة فى رمضان ، حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس ، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب ، فقيل بعد ذلك أن بعض الناس قد صام ، فقال : « أولئك =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٩٤٦] بلفظ : « ليس من البر الصوم فى السفر»، ومسلم [١١١٥] بلفظ : « ليس من البر أن تصوموا فى السفر » عن جابر .

. . . .

= العصاة ، أولئك العصاة » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يقى الشمس بيده ، فسقط الصوام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » (١) . وفى حديث آخر « إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٢) .

واحتج الجمهور بأحاديث منها :

عن عائشة رضى الله عنها : أن حمزة بن عمرو الأسلمى قال للنبى ﷺ : أأصوم فى السفر ؟ ـ وكان كثير الصيام ـ فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر»(٣) .

وعن حمزة بن عمرو رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله أجد بى قوة على الصيام فى السفر فهل علىّ جناح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » . رواه مسلم .

وعن أبى الدرداء رضى اللهعنه قال : « خرجنا مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فى يوم حار ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ وما فينا صائم ، إلا ما كان النبى ﷺ وابن رواحة » . رواه البخارى ومسلم .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنا نسافر مع النبى ﷺ ، فلم يعب =

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد فى المسند [٢/١٠٨] بلفظ : « إن الله يحب . . . » ، وابن خزيمة وابن حبان [٣٥٤] بلفظ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » . والبيهقى فى شعب الإيمان وصححه ابن خزيمة ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع [١٨٨٦] وصححه الشيخ شاكر [٥٨٦٦] .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد فى المسند [٢/١٠٨] بلفظ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته » . والبيهقى فى سننه عن ابن عمر ، والطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وعن ابن مسعود ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع [١٨٨٥] .

(٣) أخرجه البخارى [١٩٤٣] واللفظ له ، ومسلم [١١٢١] .

. . . .

= الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » رواه الشيخان .

وعن أبى سعيد الخدرى وجابر رضى الله عنهما قالا : « سافرنا مع رسول الله ﷺ فيصوم الصائم ويفطر المفطر ، ولا يعيب بعضهم على بعض » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفًا فأفطر فإن ذلك حسن » رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سافر رسول الله ﷺ فى رمضان فصام حتى بلغ عسفان ، ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهارًا ليراه الناس ، فأفطر حتى قدم مكة ، فكان ابن عباس يقول : صام رسول الله ﷺ فى السفر وأفطر ، فمن شاء صام ومن شاء أفطر » رواه البخارى .

وعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فقال لرجل : « انزِلْ فاجْدَح لى » قال : يا رسول الله الشمس . قال : « انزلْ فاجدح»[1]، قال : يا رسول الله الشمس قال : « انزل فاجدح لى » ، فنزل فجدح له فشرب ، ثم رمى بيده هنا ، ثم قال : « إذا رأيتم الليل أقبل من هاهنا فقد أفطر الصائم » فهو ظاهر فى أنه ﷺ كان صائمًا .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ فى عمرة فى رمضان فأفطر رسول الله ﷺ وصمت ، وقصّر وأتممت ، فقلت : بأبى وأمى أفطرت وصمت ، وقصرت وأتممت فقال : « أحسنت يا عائشة » [2] .

ورد الجمهور على استدلال المانعين الصوم فى السفر بحديث جابر « خرج النبى ﷺ فى رمضان من المدينة ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين ، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة ، فسار ومن معه من المسلمين يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد فأفطر وأفطروا » [3]. =

(١) الجدح : تحريك السويق ونحوه بالماء بعود يقال له المجدح مجنح الرأس .

(٢) أخرجه الدارقطنى [٢٢٧٠] وقال : إسناده حسن ، المجموع [٦/ ٢٧٠] .

(٣) أخرج نحوه البخارى [١٩٤٤] ، ومسلم [١١١٣] من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

= **قال الزهرى** : وإنما يؤخذ بالآخرة فالآخرة من أمره ﷺ وهذه الزيادة التى فى آخره من قول الزهرى ، وقعت مدرجة عند مسلم ولفظه « حتى بلغ الكديد فأفطر قال وكان صحابة رسول الله ﷺ يتبعون الأحدث فالأحدث من أره » . وجزم البخارى فى الجهاد أنها من قول الزهرى ، وفى رواية عند مسلم : « فلما بلغ الكديد بلغه أن الناس يشق عليهم الصيام ، فدعا بقدح من لبن ثم أمسكه بيده حتى رآه الناس وهو على راحلته ثم شرب فأفطر » فمن أخذ بظاهر الحديث ظن أن الصوم فى السفر منسوخ وأنه ﷺ أفطر بعد أن صام ، ونسب من صام إلى العصيان ، ولا حجة فى شيء من ذلك ؛ لأن مسلمًا أخرج من حديث أبى سعيد أنه ﷺ صام بعد هذه القصة فى السفر ولفظه :

« سافر مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام ، فنزلنا منزلا ، فقال النبى ﷺ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا ، فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ : إنكم مصبحو عدوكم فالفطر أقوى لكم فأفطروا ، فكانت عزيمة فأفطرنا . ثم لقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك فى السفر » وهذا الحديث نص فى المسألة ، ومنه يؤخذ الجواب عن نسبته ﷺ الصائمين إلى العصيان ؛ لأنه عزم عليهم فخالفوا ، وهو شاهد لمن قال إن الفطر أفضل لمن شق عليه الصوم ، ويتأكد ذلك إذا كان يحتاج إلى الفطر للتقوى على لقاء العدو .

وروى الطبرى فى تهذيبه من طريق خيثمة سألت أنس بن مالك عن الصوم فى السفر فقال : لقد أمرت غلامى أن يصوم ، قال فقلت له : فأين هذه الآية ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فقال : إنها نزلت ونحن نرتحل جياعًا ، وننزل على غير شبع ، وأما اليوم فنرتحل شباعًا ، وننزل على شبع . فأشار أنس إلى الصفة التى يكون فيها الفطر أفضل من الصوم .

أما الجواب عن قوله ﷺ : « ليس من البر الصيام فى السفر » فسلك المجيزون فيه طرقًا :

فقال بعضهم قد خرج على سبب فيقصر عليه ، وعلى من كان فى مثل حاله ، وإلى هذا جنح البخارى فى ترجمته « باب قول النبى ﷺ لمن ظُلِّلَ واشتد عليه الحر « ليس من البر الصوم فى السفر » . =

. . . .

= وساق الطبرى سبب وروده الحديث ولفظه عنده من رواية كعب بن عاصم الأشعرى: « سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن فى حر شديد ، فإذا رجل من القوم قد دخل تحت ظل شجرة وهو مضطجع كضجعة الوجع ، فقال رسول الله ﷺ ما لصاحبكم، أى وجع به ؟ فقالوا ليس به وجع ، ولكنه صائم وقد اشتد عليه الحر ، فقال النبى ﷺ حينئذ : « ليس من البر أن تصوموا فى السفر ، عليكم برخصة الله التى رخّص لكم» ثم قال الطبرى بعده: فكان قوله ﷺ ذلك لمن كان فى مثل هذه الحال.

قال ابن دقيق العيد : أخذ من هذه القصة أن كراهة الصوم فى السفر مختصة بمن هو فى مثل هذه الحالة ممن يجهده الصوم ، ويشق عليه أو يودى به إلى ترك ما هو أولى من الصوم من وجوه القرب ، فينزل قوله : « ليس من البر الصوم فى السفر » على مثل هذه الحالة . ثم قال ابن دقيق العيد : والمانعون فى السفر يقولون إن اللفظ عام، والعبرة بعمومه لا بخصوص السبب ، قال : وينبغى أن يتنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام وعلى مراد المتكلم ، وبين مجرد ورود العام على سبب ، فإن بين العامين فرقًا واضحًا ، ومن أجراهما مجرى واحدًا لم يصب، فإن مجرد ورود العام على سبب لا يقتضى التخصيص به كنزول آية السرقة فى قصة سرقة رداء صفوان ، وأما السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم ، فهى المرشدة لبيان المجملات وتعيين المحتملات .

وقال ابن المنير : هذه القصة تشعر بأن من اتفق له مثل ما اتفق لذلك الرجل ، أنه يساويه فى الحكم ، وأما من سلم من ذلك ونحوه ، فهو فى جواز الصوم على أصله والله أعلم .

وحمل الشافعى نفى البر المذكور فى الحديث على من أبى قبول الرخصة فقال : معنى قوله « ليس من البر » أن يبلغ رجل هذا بنفسه فى فريضة صوم ولا نافلة ، وقد أرخص الله تعالى له أن يفطر وهو صحيح وجزم ابن خزيمة وغيره بهذا المعنى.

وقال الطحاوى : المراد بالبر الكامل الذى هو أعلى مراتب البر ، وليس المراد به إخراج الصوم فى السفر ، عن أن يكون برًا ؛ لأن الإفطار قد يكون أبرّ من الصوم إذا كان للتقوى على لقاء العدو مثلا ، وهو نظير قوله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف » الحديث ، فإنه لم يرد إخراجه من أسباب المسكنة كلها ، وإنما أراد أن المسكين الكامل المسكنة الذى لا يجد غنى يغنيه ويستحيى أن يسأل ولا يفطن له . =

. . . .

= **المسألة الثانية : هل الصوم فى السفر أفضل أم الفطر ؟**

قال ابن رشد فى بداية المجتهد [٢/١٦٧ ـ ١٦٨] : إذا قلنا أنه [(١)] من أهل الفطر على مذهب الجمهور ، فإنهم اختلفوا فى ذلك على ثلاثة مذاهب :

فبعضهم رأى الصوم أفضل ، وممن قال بهذا القول مالك وأبو حنيفة .

وبعضهم رأى أن الفطر أفضل ، وممن قال بهذا القول أحمد وجماعة .

وبعضهم رأى أن ذلك على التخيير ، وأنه ليس أحدهما أفضل .

ذهب أكثر العلماء إلى أن الصوم أفضل لمن قوى عليه ، ولم يشق عليه وأطاقه بلا ضرر .

وبه قال حذيفة بن اليمان وأنس بن مالك وعثمان بن أبى العاص رضى الله عنهم ، وعروة بن الزبير والأسود بن يزيد وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وسعيد بن جبير والنخعى والفضيل بن عياض ومالك وأبو حنيفة والثورى وعبد الله بن المبارك وأبو ثور وآخرون . وبه قال الشافعى . وهو مذهب الجمهور .

وقال كثير منهم الفطر أفضل عملا بالرخصة .

وهو قول ابن عباس وابن عمر وابن المسيب والشعبى والأوزاعى وأحمد وإسحاق وعبد الملك بن الماجشون المالكى .

وقال آخرون أفضهلما أيسرهما وأسهلهما عليه ، وهذا قول مجاهد وعمر بن عبد العزيز وقتادة واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ** ﴾ فإن كان الفطر أيسر عليه فهو أفضل فى حقه ، وإن كان الصيام أيسر كمن يسهل عليه حينئذ، ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك ، فالصوم فى حقه أفضل والراجح : قول الجمهور .

قال ابن حجر فى الفتح [٤/٢١٦] : الحاصل أن الصوم لمن قوى عليه أفضل من الفطر ، والفطر لمن شق عليه أو أعرض عن قبول الرخصة أفضل من الصوم ، وأن من لم يتحقق المشقة يخير بين الصوم والفطر . ثم قال بعد ذلك : والذى يترجح قول الجمهور .

المسألة الثالثة : هل الفطر الجائز للمسافر هو فى سفر محدود أم غير محدود ؟

قال ابن رشد [٢/١٦٩] : وهل الفطر الجائز للمسافر هو فى سفر محدود أو فى سفر غير محدود ؟ =

---

(١) أى المسافر .

= فإن العلماء اختلفوا فيها :

فذهب الجمهور إلى أنه إنما يفطر في السفر الذي تقصر فيه الصلاة ، وذلك على حسب اختلافهم في هذه المسألة . وذهب قوم إلى أنه يفطر في كل ما ينطلق عليه اسم سفر وهم أهل الظاهر .

والسبب في اختلافهم معارضة ظاهر اللفظ للمعنى ، وذلك أن ظاهر اللفظ أن كل ما ينطلق عليه اسم مسافر ، فله أن يفطر لقوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وأما المعنى المعقول من إجازة الفطر في السفر فهو المشقة ، ولما كانت لا توجد في كل سفر ، وجب أن يجوز الفطر في السفر الذي فيه المشقة ، ولما كان الصحابة كأنهم مجمعون على الحد في ذلك ، وجب أن يقاس ذلك على الحد في تقصير الصلاة .

قال النووي في المجموع [٦/ ٢٦٩] : فرع في مذاهب العلماء في السفر المجوز للفطر:

مذهبنا أنه ثمانية وأربعون ميلا بالهاشمي ، لا يجوز إلا في سفر يبلغ ثلاثة أيام ، كما قال في القصر ، وقال قوم : يجوز في كل سفر وإن قصر .

المسألة الرابعة : متى يفطر المسافر ومتى يمسك ؟

قال ابن رشد في بداية المجتهد [٢/ ١٧٠ - ١٧١] : متى يفطر المسافر ومتى يمسك ؟ فإن قوما قالوا : يفطر يومه الذي خرج فيه مسافرا ، وبه قال الشعبي والحسن وأحمد. وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك ، وبه قال فقهاء الأمصار . واستحب جماعة العلماء لمن علم أنه يدخل المدينة أول يومه ذلك أن يدخل صائما ، وبعضهم في ذلك أكثر تشديدا من بعض ، وكلهم لم يوجبوا على من دخل مفطرا كفارة .

واختلفوا فيمن دخل وقد ذهب بعض النهار ، فذهب مالك والشافعي إلى أنه يتمادى على فطره . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يكف عن الأكل ، وكذلك الحائض عنده تطهر تكف عن الأكل .

قال ابن عبد البر في التمهيد [٢٢/ ٤٩ - ٥٤] : [مالكي] اتفق الفقهاء في المسافر في رمضان أنه لا يجوز له أن يبيت الفطر ؛ لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنية ، وإنما يكون مسافرا بالعمل والنهوض في سفره ، ويعمل عمل المسافر ويبرز عن الحضر ، فيجوز له حينئذ تقصير الصلاة وأحكام المسافر ؛ ولا خلاف بينهم في الذي يؤمل =

= السفر ، أنه لا يجوز له أن يفطر فى الحضر حتى يخرج .

واختلف أصحاب مالك فى هذا إن أفطر قبل أن يخرج ، فذكر ابن سحنون عن ابن الماجشون أنه قال : إن سافر فلا شيء عليه من الكفارة ، وإن لم يسافر فعليه الكفارة. قال : وقال أشهب : لا شيء عليه من الكفارة سافر أو لم يسافر ، وقال سحنون : عليه الكفارة سافر أو لم يسافر ، ثم رجع إلى قول عبد الملك .

وقال ابن حبيب : إن كان قد تأهب لسفره وأخذ فى الحركة فلا شيء عليه . وحكى ذلك عن أصبغ وعن ابن الماجشون ، فإن عاقه عن السفر عائق ، كان عليه الكفارة، وحسبه أن ينجو إن سافر .

وروى عيسى عن ابن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم ؛ لأنه متأول فى فطره .

واختلف الفقهاء فى الذى يصبح فى الحضر صائما فى رمضان ، ثم يسافر فى صبيحة يومه ذلك ، وينهض فى سفره : هل له أن يفطر ذلك اليوم أم لا ؟

فذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، إلى أنه لا يفطر ذلك اليوم بحال .

وهو قول الزهرى ويحيى بن سعيد والأوزاعى وبه قال أبو ثور .

واختلفوا إن فعل فكلهم قال يقضى ولا يكفر ، وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضى ويكفر ، وهو قول ابن كنانة والمخزومى ، وليس قولهما هذا بشيء ؛ لأن الله قد أباح له الفطر فى الكتاب والسنة ، وإنما قولهم لا يفطر استحبابا لتمام ما عقده ، فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لها ، ومن أوجبها فقد أوجب ما لم يوجبه الله .

وروى عن ابن عمر فى هذه المسألة أنه يفطر إن شاء فى يومه ذلك إذا خرج مسافرا ، وهو قول الشعبى ، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق : قال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت [(١)] ، وقال إسحاق : يفطر حين يضع رجله فى الرحل وهو قول داود.

وقال الحسن البصرى : يفطر فى بيته إن شاء يوم يريد أن يخرج [(٢)].

قال أبو عمر :

قول الحسن شاذ ، ولا ينبغى لأحد أن يفطر ، وهو حاضر لا فى نظر ولا فى أثر ، وقد روى عن الحسن خلاف ذلك . =

---

(١) وهو مروى عن عبد الله بن عمر والشعبى .

(٢) وهو قول أنس .

= ذكر عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن يقول : لا يفطر ذلك اليوم إلا أن يشتد عليه العطش ، فإن خاف على نفسه أفطر .

وقال إبراهيم : لا يفطر ذلك اليوم .

واختلفوا فى الذى يختار الصوم فى السفر فيصوم ثم يفطر نهارا من غير عذر ، فكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفارة عليه ـ وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك ـ فإنه قال : إن أفطر بجماع كفّر ؛ لأنه لا يقوى بذلك على سفره ولا عذر له ، وعلى ذلك مذاهب سائر الفقهاء بالحجاز والعراق ؛ أنه لا كفارة عليه .

وروى البويطى عن الشافعى قال : إن صح حديث الكديد [1] لم أر بأسا بفطر المسافر بعد دخوله فى الصوم فى سفره .

وروى المدينى عنه كقول مالك أنه لا يرى الكفارة على من فعل ذلك .

قال أبو عمر : الحجة فى سقوط الكفارة واضحة من جهة النظر ؛ لأنه متأول غير هاتك لحرمة صومه عند نفسه ـ وهو مسافر قد دخل فى عموم إباحة الفطر ، ومن جهة الأثر أيضا . ثم ساق الأحاديث وقال : فهذه الآثار كلها تبين لك أن للصائم أن يفطر فى سفره بعد دخوله فى الصوم مختارا له فى رمضان .

واختلفوا فى المسافر يكون مفطرا فى سفره ، ويدخل الحضر فى بقية يومه ذلك : قال مالك والشافعى وأصحابهما ـ وهو قول ابن علية وداود فى المرأة تطهر والمسافر يقدم ـ وقد أفطروا فى السفر : أنهما يأكلان ولا يمسكان .

قال مالك والشافعى : ولو قدم مسافر فى هذه الحال فوجد امرأته قد طهرت ، جاز له وطؤها ، وقال الشافعى : أحب لهما أن يستترا بالأكل والجماع خوف التهمة .

وروى الثورى عن جابر بن زيد أنه قدم من سفر فى شهر رمضان ، فوجد المرأة قد اغتسلت من حيضتها فجامعها .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : من أكل أول النهار فليأكل آخره .

قال سفيان : هو كصنيع جابر بن زيد ، ولم يذكر سفيان عن نفسه خلافا لهما . =

(١) أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ الكديد أفطر فأفطر الناس .

قال أبو عبد الله والكديد ماء بين عسفان وقديد . [٥١] . وهى موضعان قريبان من مكة . وكان ذلك فى غزوة الفتح .

. . . .

= وقال ابن عليه : القول ما قال ابن مسعود : من أكل أول النهار فليأكل آخره .

وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح وعبيد الله بن الحسن فى المرأة تطهر فى بعض النهار ، والمسافر يقدم وقد أفطر فى سفره أنهما يمسكان بقية يومهما ـ وعليهما القضاء واحتج لهم الطحاوى بأن قال : لم يختلفوا أن مَنْ غم عليه هلال رمضان فأكل ، ثم علم أنه يمسك عما يمسك عنه الصائم .

وفرّق ابن شبرمة بين الحائض والمسافر : فقال فى الحائض : تأكل ولا تصوم إذا طهرت بقية يومها ، والمسافر إذا قدم ولم يأكل شيئا يصوم يومه ويقضى . ا.هـ .

قال ابن رشد رادا على الطحاوى فى قياس السفر على يوم الشك وأنه يشبهه من لم يشبهه به قال : « لا يمسك عن الأكل ؛ لأن الأول أكل لموضع الجهل ، وهذا أكل لسبب مبيح أو موجب للأكل » .

فائدة :

سنة ميتة فتمسك بها :

عن محمد بن كعب قال : أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد سفراً ، وقد رحلت راحلته ولبس ثياب السفر ، فدعا بطعام فأكل فقلت : سنّة ؟ قال : سنة ثم ركب (١) .

وعند الدارمى والبيهقى والدارقطنى بلفظ « أتيت أنس بن مالك فى رمضان وهو يريد السفر ، وقد رحلت دابته ولبس ثياب السفر ، وقد تقارب غروب الشمس فدعا بطعام فأكل منه ، ثم ركب فقلت له سنة ؟ قال : نعم » .

عن جعفر بن جبر قال : كنت مع أبى بصرة الغفارى صاحب النبى ﷺ فى سفينة =

---

(١) أخرجه الترمذى [٧٩٩] واللفظ له ، والضياء المقدسى فى « المختارة » والدارمى ، والبيهقى فى سننه ، والدارقطنى ، والطبرانى فى « المعجم الأوسط » . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٦٤١] .

وصحح الحديث : الترمذى وابن العربى والضياء المقدسى وابن القيم فى زاد المعاد ، وأبو المحاسن المقدسى فى « مختصر أحاديث الأحكام » والألبانى فى رسالته القيمة « تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره بعد الفجر والرد على من ضعفه » طبع المكتب الإسلامى .

وقال الألبانى : ويمكن أن يضم إليهما : الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه فإنهما أخذا بالحديث وعملا به ذلك ، دليل على أن الحديث ثابت عندهما .

= من الفسطاط فى رمضان ، فرفع ، ثم قرب غداه ، قال جعفر فى حديثه : فلم يجاوز البيوت حتى دعا بالسفرة ، قال : اقترب ، قلت : ألست ترى البيوت ، قال أبو بصرة: أترغب عن سنة رسول الله ﷺ ؟ قال جعفر فى حديثه ، فأكل (1) .

عن دحية بن خليفة رضى الله عنه أنه خرج من قريته إلى قريب من قرية عقبة فى رمضان ، ثم إنه أفطر وأفطر معه ناس ، وكره آخرون أن يفطروا ، قال : فلما رجع إلى قريته ، قال : والله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظن أن أراه ! إن قوما رغبوا عن هدى رسول الله ﷺ وأصحابه ! يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم اقبضنى إليك (2) .

عن اللجلاج وغيره قالوا : كنا نسافر مع عمر رضى الله عنه ثلاثة أميال فيتجوز فى الصلاة ويفطر (3) .

وعن أنس قال : قال لى أبو موسى : ألم أنبأ أنك إذا خرجت خرجت صائما ، وإذا دخلت دخلت صائما ؟ فإذا خرجت فاخرج مفطرا . وإذا دخلت فادخل مفطرا(4) .

وعن ابن عمر أنه خرج فى رمضان فأفطر » (5) .

وعن ابن عباس قال : إن شاء صام وإن شاء أفطر » (6) .

وعن مغيرة قال : خرج أبو ميسرة فى رمضان مسافرا فمرّ بالفرات ، وهو صائم ، فأخذ منه حسوة فشربه وأفطر (7) . =

---

(1) أخرجه أبو داود [٢٤١٢] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٠٩] .

(2) أخرجه أحمد وأبو داود : قال الألبانى : رجاله ثقات محتج بهم فى الصحيحين غير منصور الكلبى قال فيه العجلى فى « كتاب الثقات » مصرى تابعى ثقة ، ووثقه ابن حبان وقال ابن المدينى مجهول وهذا هو الراجح عندى ، وقال الحافظ فيه : مستور .

(3) رواه ابن أبى شيبة فى « المصنف » [٢/ ١٥١/ ٢] بإسناد حسن أو قريب منه كما قال الألبانى فى « تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره » ص ٣١ .

(4) رواه الدارقطنى والبيهقى بإسناد صحيح على شرط الستة .

(5) قال الألبانى : رواه ابن أبى شيبة بإسناد رجاله ثقات .

(6) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف [٢/ ٤٣١] بإسناد رجاله ثقات .

(7) أخرجه ابن شيبة فى المصنف [٢/ ٤٣٦] بإسناد صحيح ، ثم روى هو والبيهقى بسند آخر عنه مختصراً وهو صحيح أيضًا .

. . . .

= وعن سعيد بن المسيب والحسن البصرى قالا يفطر إن شاء [(١)] .

وفى كتاب « المسائل » لإسحاق بن منصور المروزى ما نصه : قلت (يعنى للإمام أحمد) : إذا خرج مسافرا متى يفطر ؟ قال : إذا برز عن البيوت ، قال إسحاق (يعنى ابن راهوية) : بل حين يضع رجله فله الإفطار ، كما فعل أنس بن مالك وسنّ النبى ﷺ ، وإذا جاوز البيوت قصر .

يقول الألبانى حفظه الله : « ولقد أنصف الإمام ابن العربى رحمه الله تعالى ، فإنه ذهب إلى العمل بالحديث فى هذه المسألة خلافا لكثير من علماء المالكية ، وتبعه على ذلك القرطبى وغيره ، وسبقهم إلى الجهر بذلك الحافظ ابن عبد البر .

قال ابن العربى فى « عارضة الأحوذى » [٤/١٣ ـ ١٦] تعليقا على الحديث : وهذا صحيح ، لم يقل به إلا أحمد بن حنبل ! فأما علماؤنا ـ يعنى المالكية ـ فمنعوا منه، لكنهم اختلفوا إذا أكل هل عليه كفارة أم لا ؟ فقال مالك فى « كتاب ابن حبيب » لا كفارة عليه . . . وهو يقتضى جواز الفطر مع أهبة السفر .

وقال القرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » [٢/٢٧٨ ـ ٢٧٩] بعد أن حكى الخلاف الذى ذكره ابن العربى : قلت : قول أشهب فى نفى الكفارة حسن ؛ لأنه فعل ما يجوز له فعله ، والذمة بريئة ، فلا يثبت فيها شىء إلا بيقين ، ولا يقين مع الاختلاف ، ثم إنه مقتضى قوله تعالى : ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وقال أبو عمر ابن عبد البر : هذا أصح أقاويلهم فى هذه المسألة ، ولو كان الأكل مع نية الفطر يوجب عليه الكفارة ، لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه ، فتأمل ذلك تجده كذلك ، إن شاء الله تعالى .

وهذا هو الذى استظهره العلامة الصنعانى فى « سبل السلام » [٢/٩٢٦] ، وهو الذى نقطع به لهذا الحديث الصحيح فإنه نص فى المسألة لا يقبل التأويل ، مع تأيده بظاهر القرآن والآثار الصحيحة عن السلف رضى الله عنهم » [(٢)] .

المسألة الخامسة : هل يجوز للصائم أن ينشىء سفرا ثم لا يصوم فيه ؟

قال ابن رشد [٢/١٧١ ـ ١٧٢] : هل يجوز للصائم فى رمضان أن ينشىء سفرا، ثم لا يصوم فيه؟ فإن الجمهور على أنه يجوز ذلك له . وروى عن بعضهم وهو عبيدة =

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف [٢/٤٣٦] وسنده صحيح .

(٢) رسالة « تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره بعد الفجر والرد على من ضعفه » (للشيخ الألبانى ـ طبع المكتب الإسلامى) .

= السلمانى وسويد بن غفلة وابن مجلز ، أنه إن سافر فيه صام ولم يجيزوا له الفطر .

والسبب فى اختلافهم : اختلافهم فى مفهوم قوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ .

وذلك أنه يحتمل أن يفهم منه ، أن من شهد بعض الشهر فالواجب عليه أن يصومه كله ، ويحتمل أن يفهم منه أن من شهد أن الواجب أن يصوم ذلك البعض الذى شهده ، وذلك أنه لما كان المفهوم باتفاق أن من شهده كله فهو يصومه كله ، كان من شهد بعضه فهو يصوم بعضه ، ويؤيد تأويل الجمهور إنشاء رسول الله ﷺ السفر فى رمضان .

يريد الله بكم اليسر

هذه هى القاعدة الكبرى فى تكاليف هذه العقيدة كلها ، فهى ميسرة لا عسر فيها ، وهى توحى للقلب الذى يتذوقها ، بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها ، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التى لا تكلف فيها ولا تعقيد .

سماحة تؤدى معها كل التكاليف ، وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة ، وكأنما هى سيل الحياة الجارى ، ونمو الشجرة الصاعدة فى طمأنينة وثقة ورضاء ، مع الشعور الدائم برحمة الله ، وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين .

إن علينا أن نأخذ هذا الدين كما أراده الله ـ بتكاليفه كلها ، طاعة وتقوى ، وأن نأخذه جملة بعزائمه ورخصه ، متكاملا متناسقا فى طمأنينة إلى الله ، ويقين بحكمته ، وشعور بتقواه .

والأحاديث بمجموعها تساعد على تصور ما كان عليه السلف الصالح من إدراك للأمر وصورة سلوك أولئك السلف رضوان الله عليهم أملاً بالحيوية ، وألصق بروح هذا الدين وطبيعته من البحوث الفقهية ، ومن شأن الحياة معها وفى جوها أن تنشىء فى القلب مذاقًا حيًا لهذه العقيدة وخصائصها .

صيام المريض

اختلفوا فى المرض الذى يجيز الفطر : =

. . . .

= فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة : هو المرض الذى تلحقه المشقة إن صام فيه أو يخاف زيادته .

وقال أحمد هو المرض الغالب .

وقالت الظاهرية : إذا انطلق عليه اسم المريض أفطر .

وسبب اختلافهم : هل المراد بالآية مطلق المرض أم المرض الذى تلحق صاحبه المشقة أو المرض المتعارف بين الناس أنه يقال لصاحبه مريض .

والراجح : ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ .

يقول الشيخ عمر الأشقر : يجب أن نعلم أن المرض الذى يجوز الفطر به هو المرض الذى يزيد بالصوم ، أو يتأخر برؤه به ، أما المرض الذى لا يؤثر فيه الصوم فلا يجوز لصاحبه الفطر .

قال ابن حجر فى فتح البارى [٨/٢٨] : « اختلف السلف فى الحد الذى إذا وجده المكلف جاز له الفطر ، والذى عليه الجمهور أنه المرض الذى يبيح له التيمم مع وجود الماء ، وهو إذا خاف على نفسه لو تمادى على الصوم ، أو على عضو من أعضائه أو زيادة فى المرض الذى بدأ به أو تماديه .وعن ابن سيرين : متى حصل للإنسان حال يستحق بها اسم المرض فله الفطر ، وقال عطاء : يفطر من المرض كله، وعن الحسن والنخعى : إذا لم يقدر على الصلاة قائما يفطر » .

الأمراض المبيحة للفطر :

١ ـ أمراض القلب كالجلطة الحديثة ـ والذبحة الصدرية غير المستجبة للعلاج ـ وقصور الشرايين التاجية ـ وهبوط القلب والحمى الروماتيزمية ـ واضطراب النبض .

٢ ـ أمراض الصدر : الالتهاب الرئوى الشعبى ـ حالات الدرن الحاد ـ حساسية الصدر ـ النزلة الشعبية الحادة .

٣ ـ أمراض الجهاز الهضمى : تليف الكبد ـ القرحة الحادة المزمنة فى المعدة أو الإثنى عشر ـ مرض الإسهال الحاد ـ أو المزمن .

٤ ـ الحميات : كالحمى التيفودية ـ الحمى المالطية ـ الالتهاب الكبدى ـ الالتهاب السحائى ـ الحصبة ـ الجدرى الكاذب ـ حمى النفاس ـ التهاب الغدد اللمفاوية .

٥ ـ أمراض الكلى : التهاب الكلى ـ البولينا . =

إذن فالزكاة قد تسقط، والصوم قد يسقط، والحج قد يسقط، وقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر، ولم يبق من أركان الإسلام إلا الصلاة. الركن الذى لا يسقط أبدا. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين من أقامها أقامه ومن تركها ترك الدين» (1) والصلاة هى الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه خمس مرات كل يوم، ودوام الولاء لله لا يتوقف. فالمؤمن يصلى قائما، فإن عجز يصلى قاعدا، فإن عجز يصلى مضطجعا، فإن عجز عن الحركة يصلى إيماءً بعينيه وبرمش عينيه، ويجرى الصلاة على قلبه . حتى فى حالة الحرب والقتال دائر لا تسقط الصلاة ولكن تقام

= ٦ ـ الأمراض النفسية : الصرع ـ الفصام .

٧ ـ أمراض النساء والولادة : الحمل .

٨ ـ أمراض العيون ، (الجلوكوما) أو المياه الزرقاء ـ مريض الشبكية السكرى .

[فقه الصوم : ٢/ ٦٥٢ ـ ٦٧٠]

(١) رواه البيهقى وأبو نعيم عن ابن عمر ، ورواه الطبرانى والديلمى عن على ورمز السيوطى لضعفه ، وفى رواية لأبى نعيم عن الفضل بن دكين عن عمر « الصلاة عمود الدين »، ورمز السيوطى لحسنه وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع [٣٥٦٧].

وقد وردت أحاديث صحيحه .. فى خطورة ترك الصلاة منها : عن جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » . أخرجه مسلم [١٣٥/٨٣] .

وعن بريدة أن رسول الله ﷺ قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة . فمن تركها فقد كفر » . أخرجه الترمذى [٢٦٢١] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١١٣] ، وصحيح ابن ماجه [٨٨٤] .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ . أنه ذكر الصلاة يوما فقال : « من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة . وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف ». أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ١٦٩].

صلاة الخوف [1] .

إذن فقولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأن الصلاة هى الركن الدائم الذى لا يسقط أبدا، أعطاها الله سبحانه فى التشريع، ما يناسب كل تكليفات الإسلام. وكان دين الله من أوله إلى آخره، بوحى من الله لجبريل، ثم ينزل جبريل بالوحى إلى رسول الله ﷺ، إلا الصلاة استدعى الله نبيه عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة، وهناك عند سدرة المنتهى كلف الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصلاة، فكانت وحدها بالتكليف المباشر لأهميتها ؛ لأننا إذا أردنا ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نريد أن نتم أمرا محدود الأهمية، نتركه يتم بالطريق الروتينى العادى، فإذا كان له أهمية أرسلناه باليد أو مع مخصوص. فإذا كان به أهمية أكبر اتصلنا تليفونيا وتتبعناه، أما إذا كان الأمر له أهمية قصوى استدعى الوزير أو المسئول من بيده القضية إلى مكتبه وأمره أن يتمها فورا، وهذا دليل على الأهمية البالغة [2].

---

(١) عن جابر قال : غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جهينة . فقاتلونا قتالا شديدا . فلما صلينا الظهر قال المشركون : لو ملنا عليهم ميلة لاقتطعناهم . فأخبر جبريل رسول الله ﷺ ذلك. فذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ قال وقالوا: إنه ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولاد . فلما حضرت العصر ، قال صفنا صفين . والمشركون بيننا وبين القبلة . قال فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا . وركع فركعنا . ثم سجد وسجد معه الصف الأول . فلما قاموا سجد الصف الثانى ، ثم تأخر الصف الأول وتقدم الصف الثانى . فقاموا مقام الأول . فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا . وركع فركعنا . ثم سجد وسجد معه الصف الأول . وقام الثانى . فلما سجد الصف الثانى ، ثم جلسوا جميعا ، سلم عليهم رسول الله ﷺ . أخرجه مسلم [٨٤٠/٣٠٨].

(٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال فى حديث الإسراء الطويل : « .... حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاةً على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال : عهد إلىّ =

فالصلاة لأهميتها البالغة فرضت بالوحى المباشر من الله ؛ لأنها أولا : لا تسقط أبدا، ولأنها ثانيا : فيها كل أركان الإسلام، فيها الزكاة وفيها الصوم وفيها الحج. . كيف؟ الزكاة أساسها المال، والمال أساسه العمل، والعمل أساسه الوقت، ولكى تكسب لابد أن تقوم بعمل يستغرق وقتا، الصلاة جاءت وأخذت وقتا من أصل الزكاة . إذن فهى أوسع دائرة من الزكاة ، والصوم أنت تصوم عن شهوتى البطن والفرج، وإنما تتكلم وتتحرك وتضحك وتفعل ما بدا لك. ولكنك فى الصلاة تصوم عن كل هذا، فلا تأكل ولا تتكلم ولا تضحك، ولا تفعل أى أمر من أمور الدنيا، فكأن الصلاة أكبر دائرة من الصوم، وفى الحج أنت تذهب إلى بيت الله الحرام مرة فى العمر، ولكنك فى الصلاة تتجه إلى بيت الله الحرام خمس مرات فى اليوم والليلة.

سؤال قوم شعيب: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ نعم الصلاة تأمر ؛ لأنك إن أثبت لشىء حكما فإنك أثبت له مقابله، والله سبحانه وتعالى يقول عن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] ومادام الشىء له نهى فله أمر، إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلابد أنها تأمر بالإيمان وبالالتزام وبالمعروف، ولابد أنها تأمر بالخير والبر (١).

= خمسين صلاةً كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار ، فقال وهو مكانه: يارب خفف عنا ، فإن أمتى لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردِّده موسى إلى ربه ، حتى صارت إلى خمس صلوات. . .». الحديث بطوله أخرجه البخارى [٧٥١٧].

(١) قال أبو حيان: لما أمرهم شعيب بعبادة الله وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان ردوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزء بقولهم: أصلاتك، وكان كثير الصلاة، وكان إذا صلى تغامزوا وتضاحكوا أنترك ما يعبد آباؤنا مقابل لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم

الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن قوم فرعون وكيف أنهم حرموا من النعمة، يقول جل جلاله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾. [الدخان: ٢٥ـ٢٩]

إذن فالله تبارك وتعالى نفى أن السماء بكت على قوم فرعون، ومادامت السماء لم تبك على قوم فرعون فلابد أنها تبكى على أقوام آخرين، وإلا لما نفى الله سبحانه وتعالى أنها بكت على قوم فرعون، إنها لو لم تبك على الكل لكان الكلام بلا معنى. إذن فهناك من تبكى عليهم السماء والأرض، السماء والأرض مسخرة مقهورة مسبحة، ألم يقل الله جل جلاله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾. [العنكبوت:٧٢] إذن فالسماء والأرض اختارتا أن تكونا مسخرتين ومقهورتين، ومادامتا مسخرتين ومقهورتين فهما مسبحتان لله سبحانه وتعالى. فإذا رأت مسبحا مثلها مصلّيا عابدًا لله تحبه، وإذا

﴿مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء مقابل لقوله: ﴿وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ وكون الصلاة آمرة هو على وجه المجاز، كما كانت ناهية فى قوله: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أو يقال: إنها تأمر بالجميل والمعروف أى: تدعو إليه وتبعث عليه. إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز(١)، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته. والمعنى: فأمرك بتكلفينا أن نترك، فحذف المضاف؛ لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. والظاهر أنه أريد بالصلاة الصلاة المعهودة فى تلك الشريعة. وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. وقيل: أريد قراءتك. وقيل: مساجدك. وقيل: دعواتك.

[تفسير البحر المحيط : ٦/١٩٧]

---

(١) طنز يطنز طنزًا كلمه باستهزاء، فهو طنّاز. قال الجوهرى: أظنه مولدا أو معربا. والطنز: السخرية. [لسان العرب : ٥/٣٦٠٩]

رأت كافراً غير مؤمن يبارز الله بالمعاصى تكرهه، عندما يفارق الإنسان الحياة، الإنسان المسبح المؤمن تبكى عليه السماء والأرض ؛ لأنه كان منسجماً فى عبادته لله سبحانه وتعالى وتسبيحه له. والإنسان الكافر الملحد لا تبكى عليه السماء والأرض لأنهما تكرهانه. على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضعه فى الأرض فمصلاه أو موضع سجوده الذى كان يصلى فيه . ملائكة المكان والأرض التى حرمت من سماع صلاته وتسبيحه تحزن عليه وتبكيه، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله، أى المكان الذى كان يصعد منه عمله إلى الله سبحانه وتعالى[1] .

إذن فقول قوم شعيب : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ كان لابد أن يقول لهم نعم صلاتى تأمرنى، إن أردت بالصلاة عماد الدين ورمزه،وبماذا تأمره الصلاة فى هذه الحالة؟تأمره بألا يقلد آباءه ويقلد الناس تقليدا أعمى؛لأن إيمان المقلد لا ينفع.

قولهم : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ هى رد على قول شعيب : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وقولهم : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ رد على قول شعيب : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ والله سبحانه وتعالى قد حدد حركة الحياة التى تفسد فى الأرض، فلو أنه أباح الربا مثلا . . لازداد الغنى غنى ، وازداد الفقير

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ .

أخرجه الترمذى [٣٢٥٥] واللفظ له وقال : غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه ، وأبو يعلى فى مسنده [٤١٣٣] ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٦٤١] .

فقرا، وهذا ما نراه فى عالمنا اليوم، فالدول الغنية تزداد غنى، والدول الفقيرة تزداد فقرا، مما خلق فجوة كبيرة فى العالم تهدد الكتلتين: الغنية والفقيرة ، وبدأت المؤتمرات فى محاولة للوصول إلى حل وسط ، هذا إحدى نتائج الربا : الغنى الفاحش والفقر المدقع الذى يخل بميزان الحياة ، وتنشأ عنه الحوادث والكوارث والإرهاب والعداء المستحكم بين الشعوب والأفراد. ولذلك قيد الله حركة المال هنا. كذلك تقييد حركة المال فى الميزان حتى لا ينتشر الفساد فى المجتمع ، وتبنى العمارة فتسقط فوق ساكنيها، وتفسد المرافق ويعانى الناس. إذن فقوانين الله سبحانه وتعالى فى حكم المال وحركته فى الحياة هى لصالح البشر، وكان يجب عليهم أن يطالبوا بها.

وكلام قوم شعيب هنا : ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود:٨٧] موجودة هنا على شكل تهكم[١]، فالمنافقون مثلا كما قال عنهم الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

(١) قال فى التفسير الوسيط :

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى قال قوم شعيب - ساخرين مستهزئين - ردًا على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل فى المعاملات ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأوثان التى توارثنا عبادتها عن آبائنا، إننا ننكر عليك ذلك ولن نترك عبادتها . وإنما خصُّوا الصلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها ؛ لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه فى صلاته بأنها وسوسة خاطر ، وليست وحيا من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل . أ هـ .

وقال المراغى فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى أصلاتك التى هى من نِتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ما سار عليه آباؤنا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام، وإنما جعلوه مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع؛ لأنه عليه السلام لم =

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] كيف يكذب المنافقون وقد شهدوا أن محمداً رسول الله ؟ ، الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن المنافقين ينطقون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فهم بألسنتهم يشهدون لمحمد ﷺ بالرسالة، ولكن هذا الكلام لا يوافق ما فى قلوبهم من كفر .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] ومادام قوم شعيب يعترفون بأنه الحليم الرشيد، كان من الأولى أن يتبعوا آياته ؛ لأنه جاءهم بالحق، ولكنهم لا يريدون الحق ؛ لأنهم يريدون أن يوافقهم على عبادة غير الله ونقص المكيال والميزان، ويتعجبون كيف يأمرهم بترك هذا وهو الحليم والرشيد.

وأسلوب التهكم يأتى كثيراً فى القرآن الكريم ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى عن عذاب ذلك الرجل ، الذى طغى وتجبر وماذا يحدث له فى الآخر، الملائكة يقولون لهذا الرجل وهم يعذبونه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] أيذيقونه كل هذه الذلة، ثم يقولون له أنت العزيز الكريم.

وفى موقف آخر عن أهل النار : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف:٢٩] فكأنهم يبشرونهم بأنهم مادامو قد استجاروا ، واستغاثوا من العذاب ، فإن الله سيغيثهم ، ثم يأتى الغوث، واقرأ قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف:٢٩] إذن فهم استغاثوا من العذاب،

= يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحى من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك، وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات؛ لأنه كان كثير الصلاة معروفًا بذلك، حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا، فكانت هى من بين الشعائر ضُحْكَةً لهم.
[تفسير المراغى : ١٢/ ٧٢ ، ٧٣]

فجاءتهم الإغاثة أشد من العذاب .

وقول قوم شعيب : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] هم يتهكمون، فلو كانوا يؤمنون فعلا بأنه حليم ورشيد لاتبعوه وعلموا أنه لا يمكن أن يأتى بافتراءات أو أكاذيب (١).

---

(١) قال القرطبى فى قوله : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ : يعنون عند نفسك بزعمك، ومثله فى صفة أبى جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أى عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشى: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجون، ومنه قول خزنة جهنم لأبى جهل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وقال سفيان بن عيينة: العرب تصف الشىء بضده للتطيّر والتفاؤل، كما قيل للصلاة مفارة. وقيل: هو تعريض أرادوا به: السبّ، وأحسن من هذا كله، ويدل ما قبله على صحته، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقًا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد اباؤنا؟ ويدل عليه: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته وإنه حليم رشيد ، بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد اباؤهم . [تفسير القرطبى : ٩/ ٨٧]

* إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت *

بماذا كان رد شعيب عليه السلام على قومه ؟ ، وماذا قال لهم! : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ** ﴾ [هود: ٨٨] أى يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربى، وأعطانى الخير كله من رزق وعلم، وأعطانى قبل ذلك كله النبوة. ثم جاء شعيب بالحجة الدامغة لصاحب المذهب الحق، صاحب الرسالة الصحيحة: ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود: ٨٨] ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه، يأمرهم مثلا بأن يتبرعوا بأموالهم للفقراء ثم يأخذها هو ليصبح غنيًا ، يأمرهم بأن يقاتلوا ويختبئ هو فى مكان أمين، فإذا انتصروا خرج وأخذ الغنائم بلا قتال. وهكذا كل أوامره لا ينفذها هو، وكل نواهيه يفعلها هو، فكأن شعيبًا يقول لقومه : أنا آمركم ألا تنقصوا المكيال والميزان، ثم بعد ذلك أحله لنفسى .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ هناك خالفه إلى كذا وخالفه عن كذا، فهنا أنا لا أريدكم أن تتركوا نقص المكيال والميزان لأذهب أنا إليه. فمثلاً إذا وجدت إنساناً يشرب الخمر، ونهيته ثم شربت أنت، فأنت خالفته إلى ما نهيت عنه. ولكن إذا قمت وتوضأت وأذن للصلاة وفات الوقت ولم تصل، ثم جئت إلى رجل تأمره بالصلاة،

قال لك تأمرنى بأمر وأنت لا تفعله. إذن فالمخالفة هنا عن أن تأمره به.

شعيب يقول: الله سبحانه وتعالى اصطفانى بالنبوة وتلقيت الوحى منه، وربى كلفنى بإبلاغ المنهج وسأكون أول مطبق له، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله [1].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ أى لا أريد إلا الصلاح.. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ** ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى: أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقا بين العمل وبين أن توفق فى العمل، قد تشغل

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ المعنى: لست أريد أن أفعل الشىء الذى نهيتكم عنه، من نقص الكيل والوزن وأستأثر بالمال، قاله: ابن عطية. وقال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه. وقال صاحب الغنيان: ما أريد أنْ أخالفكم فى السرّ إلى ما أنهاكم عنه فى العلانية. ويقال: خالفنى فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مولّ عنه، وخالفنى عنه: إذا ولّى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء، فتسأله عن صاحبه فتقول: خالفنى إلى الماء. تريد أنه قد ذهب إليه وارداً، وأنا ذاهب عنه صادراً. والمعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم، فعلى هذا الظاهر أن قوله: أن أخالفكم فى موضع المفعول لأريد، أى وما أريد مخالفتكم، ويكون خالف بمعنى خلف نحو: جاوز وجاز، أى: وما أريد أن أخلفكم، أى: أكون خلفاً منكم. وتتعلق إلى بأخالفكم، أو بمحذوف أى: مائلاً إلى ما أنهاكم عنه، ولذلك قال بعضهم: فيه حذف يقتضيه إلى تقديره: وأميل إلى، أو يبقى أن أخالفكم على ظاهر ما يفهم من المخالفة، ويكون فى موضع المفعول به بأريد، وتقدر: مائلاً إلى، أو يكون أن أخالفكم مفعولاً من أجله، وتتعلق إلى بقوله وما أريد بمعنى، وما أقصد أى: وما أقصد لأجل مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه؛ ولذلك قال الزجاج: وما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه. [تفسير البحر المحيط: ٦/١٩٨، ١٩٩]

جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله سبحانه وتعالى، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ؛ لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص لله (١) .

وقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ حين تسمع إنساناً يقول: على الله توكلت، قل له: أتوكلت على الله وحده؟ فإن قال لك: وعليك أيضاً، فاعلم أن مسألته لن تقضى، أما إذا توكل على الله وحده فلابد أن يقضى الله حاجته (٢) ، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد ؛ لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا، ساعة يحدث هذا يجب أن تقول له إن الله لن يقضى هذا الأمر، تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت، جاء يبحث عنها فى المسجد، فقال له رسول الله ﷺ ما معناه : لا رد الله عليك ضالتك. (٣) والذى جاء لعقد

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلي ما هاجر إليه » . أخرجه البخارى [١] واللفظ له ، ومسلم [١٩٠٧] .

(٢) عن ابن عباس ، قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، قال : « جعلت لله ندًا؟ ما شاء وحده » . أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٧٨٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد [٦٠١] وأخرجه أحمد فى المسند [١/ ٢٤١] بلفظ : عن ابن عباس أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال له النبى ﷺ : «أجعلتنى والله عدلا ؟ بل ما شاء الله وحده » . وصححه الشيخ شاكر [١٨٣٩] .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد ، فليقل : لا ردها الله عليك . فإن المساجد لم تبن لهذا » . أخرجه مسلم [٥٦٨] واللفظ له ، وأبو داود [٤٧٣] ، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٢] . وفى حديث بريدة رضى الله عنه أن النبى ﷺ لما صلى ، قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر؟ (١) فقال النبى ﷺ: « لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له ». أخرجه مسلم [٥٦٨] .

---

(١) من دعا إلى الجمل الأحمر : أى من وجد ضالتى ، وهو الجمل الأحمر ، فدعانى إليه .

صفقة فى المسجد قال له عليه الصلاة والسلام ما معناه : لا اربح الله لك صفقتك [1] اتسحب الدنيا معك داخل المسجد؟

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ غير قول : «توكلت عليه» فإذا قلت توكلت على الله ، قد تعنى أنك توكلت على الله وعلى فلان وعلى فلان. ولكن قولك عليه توكلت أى لا أتوكل على أحد غيره[2] . ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. أى أرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم فى البداية ثم إليه مرجعنا جميعا فى النهاية .

ومادامت المسألة أن التوفيق بيد الله ، وعليه التوكل وإليه العودة، فأنت غير محتاج إلى غير الله جل جلاله، ولذلك فإن رسول الله ﷺ علمنا أن نقول ما معناه : اللهم إنى أستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك . أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلا [3].

يقول شعيب لهم : ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ .

---

(١) وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد قولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا: لا ردَّ الله عليك ضالتك » . أخرجه الترمذى [١٣٢١] وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم فى المستدرك [٢/٥٦] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٠٦٦].

(٢) عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصا ، وتروح بطانا » . أخرجه ابن ماجه [٤١٦٤] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٣٥٩] .
(تغدو) : أى تخرج من أول النهار . خماصا : أى جياعًا .
تروح : أى فى الرواح آخر النهار . بطانًا : أى ممتلئة الأجواف .

(٣) عن الأغرّ المزنى أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » . أخرجه مسلم [٢٧٠٢] .

قوله : ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يعنى لا يجعلنكم تجرمون . أى : عداوتكم لى واختلافكم معى لا يجعلكم تنحرفون إلى الإجرام ؛ لأن عداء قد نشب بينى وبينكم، أنى جئتكم بمنهج من الله وأنتم تريدون منهجاً من عند أنفسكم، فالعداوة من هنا بدأت، لأنكم تريدون عبادة الأصنام ونقصا فى المكيال والميزان وإفسادا فى الأرض؟!. الخلاف واضح بين المنهجين وشعيب يحذر قومه: لا تقفوا من منهج الله موقف العداء ؛ لأن الذين سبقوكم عندما فعلوا ذلك أنزل الله عليهم العذاب، منهم من أغرقوا بالطوفان، ومنهم أهلكوا بالصاعقة ومنهم أخذتهم الصيحة، لا تغريكم العداوة لى أن تجرموا جرماً يصيبكم به مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

ويذكرهم : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] أى أن قوم لوط قريبون منكم مكاناً وزماناً، ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدتم إلى الله تبارك وتعالى[1]، ذلك أنه إذا كان العبد مصراً على شيء من المعصية، فالله

---

(١) قال فى التفسير الوسيط :

قال شعيب لقومه على طريقته فى التلطف فى خطابهم ، حرصا منه على هدايتهم: يا قوم لايحملنكم شقاقى ومعاداتى أن يصيبكم بسبب ذلك مثل ما أصاب الأمم التى كذبت رسلها من قبل كقوم نوح ، فقد أهلكهم الله بالطوفان ، وما أصاب عاداً حين كذبوا هودا ، فقد أهلكهم الله بريحٍ صرصرٍ عاتية ، وما أصاب ثمود حينما كذبوا صالحا فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة لإصرارهم على الكفر والفساد .

وإن لم تعتبروا بهؤلاء المذكورين فما قوم لوط ببعيدين منكم ، فقد عوقبوا بقلب ديارهم، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل ، وقد رأيتم ديارهم وما أصابها ؛ فاعتبروا بحالهم واحذروا أن يحل بكم من العذاب ما حل بهم ، وهذه سنة الله فيمن كذب رسله ولن تجدوا لسنة الله تبديلا . ا هـ .

وقال ابن كثير : يقول لهم ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب =

لا يغلق أمامه باب التوبة أبداً. يكون العبد عاصياً ولكن كما أخبرنا رسول الله ﷺ : «إن الله أفرح بتوبة العبد من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة» (١) وانظر إلى الصورة جيداً لتتأمل عمقها، عندما يكون هناك إنسان معه بعير «جمل» وعليه كل ما يملك، طعامه وماله وملابسه وشرابه، ثم يتوه منه البعير فى صحراء قاحلة ليس فيها أى شيء، ويبحث الرجل عنه فلا يجده، وينام ثم يستيقظ فيجد البعير الذى عليه كل ما يملكه واقفا إلى جواره، كيف تكون فرحته بعودة هذا البعير إليه؟ الله سبحانه وتعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من صاحب هذا البعير بعودة بعيره.

= قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب ، وقال قتادة ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول لا يحملنكم فراقى، وقال السدى عداوتى، على أن تمادوا فى الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقال ابن أبى حاتم ثنا ابن عوف الحمصى ثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ثنا ابن أبى عيينة حدثنى عبد الملك ابن أبى سلمان عن ابن أبى ليلى الكندى قال: كنت مع مولاى أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ يا قوم لا تقتلونى إنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا وشبك بين أصابعه.

وقوله ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قيل المراد فى الزمان، قال قتادة يعنى إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل فى المكان ، ويحتمل الأمران .

[تفسير ابن كثير : ٢/٤٣٨ ، ٤٣٩]

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

أخرجه مسلم [٧/٢٧٤٧] ، وأخرج بنحوه الترمذى [٣٥٣٨] ، وابن ماجه [٤٢٤٧] كلاهما من حديث أبى هريرة .

ولذلك يقول شعيب لقومه كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(١) [هود:٩٠] أى رغم كل ما فعلتموه فإن باب التوبة مفتوح، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه. ومادمتم طلبتم المغفرة فسيقبلكم فتوبوا إليه، أى استغفروا من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبداً. والله تبارك وتعالى رحيم ودود، لا يرد من يقف ببابه، رحمته سبقت عذابه، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً. والله رحيم واسع المغفرة، ودود محب لعباده(٢) .

كان المفروض وقد لفتهم شعيب إلى الطريق إلى الله سبحانه وتعالى والعودة إليه أن يعودوا ؛ لأن الله تبارك وتعالى محب لهم عطوف عليهم. وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «يابن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى باقياً فسلطانى لا ينفد أبداً. يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً. يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب وضمنت لك رزقك فلا تتعب . فوعزتى وجلالى إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محموداً. وإن لم ترض بم قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرية. ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك. يا ابن

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب ، يرحمه فيغفر له ، ويتقبل توبته ويحبه ، ومعنى الودود من أسمائه تعالى ، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، فهو «فعول» بمعنى «فاعل» ومعنى «مفعول» . [تيسير الكريم الرحمن : ١/ ٨١٤]

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه : إنَّ رحمتى تغلب غضبى » .
أخرجه الترمذى [٣٥٤٣] وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه [٤٢٩٥] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٨٠٥] .

آدم خلقت السموات والأرض ولم أعى بخلقهن أيعييني رغيف عيش أسوقه لك. يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما لم أطلب منك عمل غد. يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محباً» (١) .

(١) لم أقف عليه فيما عندى من مراجع . وفى معناه عند أحمد [٨٦٨١] : بإسناد صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال النبى ﷺ : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » . والترمذى [٢٤٦٦] بمثله إلا أنه قال : « إلا تفعل ملأت يديك شغلا » ، وابن حبان فى صحيحه [٣٩٣] وقال الأرناؤط : إسناده حسن ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير [١٩١٤] معزوا لأحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح ، كما ذكره فى السلسلة الصحيحة [١٣٥٩] وعدد طرقهم قال : ووجدت للحديث شاهدًا قويا عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول ربكم تبارك وتعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقاً ، يا ابن آدم ! لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلا » . أخرجه الحاكم [٤/٣٢٦] من طريق سلام بن أبى مطيع ثنا معاوية ابن قرة عنه . وقال : «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى ، وهو كما قالا .

* ولولا رهطك لرجمناك! *

عندما لفت شعيب قومه إلى أن الله سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم، ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود:٩١]

لا نفقه أى لا نفهم، فعندما يكون القلب مشغولاً بالكفر لا يوجد فيه مكان للإيمان، ولكى يدخل الإيمان إلى القلب لابد أن يخرج منه الكفر أولاً. ولذلك فإن الإنسان المشحون قلبه بالكفر لا يدخل قلبه الحق، فهم قالوا لشعيب: إننا لا نفهم شيئاً مما تقوله، ثم أضافوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى أنت ضعيف لا قوة لك بحيث تستطيع أن تتحمل هذا الرجم، وهذا إقرار بإعجار النبوة ؛ لأنه مع أن شعيبًا ضعيف وهم أقوياء، إلا أنهم لم يقدروا عليه، فالضعيف يصرخ فى وجوههم بالحقيقة، والأقوياء يقولون: أنت ضعيف ولكنهم لا يفعلون شيئاً، بل يتعللون .

ولذلك قالوا: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود:٩١] رهطك يعنى أهلك، والرهط: الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ، ورهط الرجل : قومه وقبيلته . لماذا يخشى قوم شعيب أهل هذا النبى ويمتنعون عن قتله؟ إما أن يكون هؤلاء الأهل مع الكفار، ولذلك فهم يخافون إن اعتدوا على شعيب أن يغضب قومه الذين هم مع الكفار ويعلنوا إيمانهم، وحينئذ يقوى جانب شعيب وقد يتبعه آخرون[1]. والله سبحانه وتعالى

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أى ما نفهم؛ =

يسخر الكفر دائما لخدمة الإيمان[1]، عم رسول الله ﷺ الذى كفله ورباه هو أبو طالب، الذى ظل على كفره ومات كافراً، ولكنه قال لابن أخيه: قل ما شئت من الدعوة وأنا معك[2]، ورغم أن أبا طالب وقف حامياً

= لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضا عن سماعه، واحتقارا لكلامه؛ يقال: فقِه يفقَه إذا فهم فِقْها. وحكى الكسائى: فَقُه فَقَها وفقْها إذا صار فقيها. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصابا ببصره؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة. وقيل: كان ضعيف البصر؛ قاله الثورىّ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حِميْر تقول للأعمى ضعيفا؛ أى قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له ضرير؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له: مكفوف؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره. قال الحسن: معناه مهين. وقيل: المعنى ضعيف البدن؛ حكاه علىّ ابن عيسى. وقال السدى: وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا. وقيل: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها. و«ضعيفا» نصب على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفع بالابتداء، ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم؛ ومنه الرّاهِطَاء لجُحر الرَّبُوع؛ لأنه يَتوثق به ويخبأ فيه ولده. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك بالرّجم، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لشتمناك؛ ومنه قول الجعدى:

تَراجَمْنا بمُرِّ القولِ حتى ... نصير كأنّنا فرَسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن؛ ومنها الشيطان الرجيم. [تفسير القرطبى ٩/ ٩١]

(١) عن النعمان بن عمرو بن مقرن قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله عز وجل ليؤيد الدين بالرجل الفاجر » . أخرجه الطبرانى فى الكبير [١٧/ ٨١] ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير [١٨١٣] .

(٢) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [٢/ ٤٣٦] فى مشى قريش إلى أبى طالب ليكف عنهم رسول الله ﷺ: ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًا وإن لك شرفًا ومنزلةً فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. أو كما =

لرسول الله ﷺ من أذى كفار مكة وعلى رأسهم قريش، فإنه ظل على دينه ومات كافراً .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى نحن لا نفهم ما تقوله والحقيقة أنهم لا يريدون أن يفهموا، ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لا تتحمل وقوفا أمامنا. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أى لولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى أنت لا تعز علينا، ليس لك منعة عندنا ولا عزة، نستطيع أن نأتى بك فى أى وقت، وأن نفعل بك ما نشاء [1].

ماذا كان جواب شعيب؟ هل خاف وهرب وهو الضعيف الواقف وحده وهم الأقوياء بعددهم وبتضامنهم وبقدرتهم ؟ .

= قالوا له. ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ إليهم ولا خذلانه ، فأرسل خلفه فقال : يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا . للذى كانوا قالوا له . فأبقْ على نفسك وعليَّ ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خاذله ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . فقال له رسول الله ﷺ : « يا عمِّ والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر ـ أى دمعت عيناه ـ رسول الله ﷺ . فلما ولَّى ناداه أبو طالب اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

(١) **قال ابن كثير فى قوله تعالى** ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ : أى ليس عندنا لك معزة .
[تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٩]

وقال القرطبى : أى وما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .
[تفسير القرطبى : ٩/ ٩١]

وقال الطبرى : يعنون : ما أنت ممن يكرم علينا ، فيعظم علينا إذلاله وهوانه ، بل ذلك علينا هين . [تفسير الطبرى : ١٢/ ١٠٦]

❊ أرهطى أعز عليكم من الله ؟! ❊

قام شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [هود:٩٢] أى إنكم تخافون عائلتى وهم عدة أفراد، فتمتنعون عن إيذائى خوفاً منهم، ولكنكم لا تخافون الله القادر على أن يهلككم بينما أنا رسول الله ، يحمينى الله بقوته وقدرته. كان المفروض أن يتذكروا الله أولاً، وكان قوم شعيب يعتقدون أنهم ماداموا قد قالوا: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ فإنه سيحتمى برهطه ؛ لأنهم هم الحماية له، ولكن الذى قال: على الله توكلت لا يحتمى بأحد غير الله سبحانه وتعالى، بل إنه يلوم قومه، كيف يخشون قوة عدد محدود من الرجال ولا يخشون قوة الله؟! .

وقوله تعالى: ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [هود:٩٢] أى أنتم جاملتم رهطى، وإكراماً لهم لم ترجمونى، ولكنكم نسيتم الله سبحانه وتعالى، الذى تأتى منه العزة جميعاً، وقال : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ ساعة تقول: أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك يعنى أنك جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث، ولم تحسب له حساباً ولم تخشه، شعيب يقول لهم: أنتم لم تأبهوا بعزة الله سبحانه وتعالى، وبحماية الله وبقدرة الله ، ولكنكم التفتم إلى خلق لا حول لهم ولا قوة [1]، ثم يلفتهم إلى أن الحق

---

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ : يقول تعالى ذكره : قال شعيب لقومه : ياقوم أعززتم قومكم ، فكانوا أعزّ عليكم من الله ، =

سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً فيقول : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شىء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ قلنا إن هناك عملاً وهناك فعلا، العمل يطلق على ما يحدث، أى شىء يحدث يقال له عمل، وجوارح الإنسان كثيرة اختص الله سبحانه وتعالى منها اللسان بالقول

= واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره ولا تخافون عقابه، ولا تعظمونه حق عظمته، يُقال للرجل إذا لم يقض حاجته الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره: أى تركها لا يلتفت إليها، وإذا قضاها قيل: جعلها أمامه ونصب عينيه، ويقال: ظهرت بحاجتى، وجعلتها ظِهرية: أى خلف ظهرك كما قال الشاعر:

وجدنا بنى البر صاء من ولد الظَّهْر (١)

بمعنى أنهم يظهرون بحوائج الناس فلا يلتفتون إلَيها. [تفسير الطبرى : ١٢/١٠٦]

وقال الشوكانى: إنما قال: أعز عليكم من الله، ولم يقل : أعز عليكم منى؛ لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه، وألزمهم مالا مخلص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى. [فتح القدير : ٢/ ٥٣١]

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ : يقول : إن ربى محيط علمه بعملكم ، فلا يخفى عليه منه شىء ، وهو مجازيكم على جميعه عاجلا وآجلا . [تفسير الطبرى : ١٢/١٠٨]

وقال الماوردى : فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : حفيظ .

الثانى : خبير .

الثالث : مجازٍ . [تفسير الماوردى : ٢/ ٥٠٠ ، ٥٠١]

---

(١) هذا عجز بيت لأطارة بن سهية (اللسان: ظهر) وصدره:

فمن مبلغ أبناء مُرَّة أننا

والجوارح كلها بالفعل، فالقول هو عمل اللسان، والفعل هو عمل كل الجوارح. عمل العين وعمل الأذن وعمل اليد وعمل القدم وكل شيء. ولكن إذا طابق القول الفعل، أى عندما نقول قولا يقابله فعل يكون هذا عملاً [(١)]. ولذلك نجد قول الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣] وهكذا فصل الحق سبحانه وتعالى بين الفعل والقول، ولكن لماذا اختص الحق تبارك وتعالى اللسان بالقول وكل الجوارح بالفعل؟ لأن القول هو وسيلة الإعلام الأولى عن الله جل جلاله.

ثم يقول شعيب لهم كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا

---

(١) كلمة : « العمل » تشمل القول والفعل ، وإن كان القول يدل على حركة اللسان كقوله تعالى حكاية عن آدم وحواء : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] . ويدل الفعل على حركة باقى الجوارح كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] .

ومما يدل على أن العمل يشمل القول والفعل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف:٣٠]. ، وفى الحديث : « إن الأعمال ترفع يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » . أخرجه البيهقى فى الشعب عن أسامة بن زيد ، وصححه الألبانى فى الإرواء [٩٤٩].

وكذا فى الحديث : « إنما الأعمال كالوعاء ، إذا طاب أسفله طاب أعلاه ، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه » . أخرجه ابن ماجه [٤١٩٩] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٣٨٥] ونظائره كثير فى القرآن الكريم والسنة المطهرة . فالله تبارك وتعالى يثيب المؤمنين على أعمالهم التى تشمل الأقوال والأفعال .

عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود:٩٣] نلاحظ هنا أن شعيباً قد أخذ لهجة التهديد . . لماذا؟ لأنهم خافوا من أهله ونسوا الله ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة، وهى التى خلقت هذا الكون، وهو يأوى إلى هذا الركن الشديد. وكأنه يقول لهم افعلوا ما تستطيعون، افعلوا ما فى وسعكم، وسأفعل أيضاً ما فى وسعى، فأنا آخذ أوامرى من الله الذى بعثنى، وأنتم بشر ضعاف من خلقه والله هو القوى. ولذلك فأنا مستغيث به، اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم على قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطيكم بأسبابها، وأنا سأعمل، سأعمل ماذا؟ سيبشر بالمنهج وبما جاءه من الله ، ولن أسكت عن الدعوة، وسوف تعلمون قريباً من يأتيه العذاب والخزى فى الدنيا والآخرة. سيبين لنا الزمن المستقبل من الذى يأتيه العذاب والخزى، ومن الذى يكون له النصر [١] .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ : لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم وغاية استطاعتهم، يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له، ثم بالغ فى التهديد والوعيد بقوله : ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده ، وقد تقدم مثله فى الأنعام: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: ﴿مَن﴾ فى محل نصب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أى سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار. ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ معطوف على: ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ ، والمعنى: ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب؟ وفيه تعريض بكذبهم فى قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. وقيل: إن ﴿مَن﴾ مبتدأ وما بعدها صلتها، والخبرمحذوف، والتقدير: من هو =

والخزى هو الفضيحة بين الخلق، وإصابة النفس بالهوان هى الفضيحة فى ذات النفس. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾. أى من الذين سيأتيهم العذاب الذى سيفضحهم، ومن هو الكاذب ومن هو الصادق. وشعيب يقصد هنا طبعاً أن هؤلاء الذين رفضوا الإيمان وكذبوه سوف يأتيهم العذاب، وأنهم سيعلمون من هو صادق ومن هو كاذب، فهم سيسلط الله عليهم عذابا يفضحهم بين الخلق ويهينهم فى أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ . كان المنطق أن يقال ومن هو صادق. ولكن الحق سبحانه وتعالى جاراهم فى منطقهم، فلم يقل ومن هو صادق، ولكنه قال: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. وذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كيف يمكن أن يقال للقوم الكافرين : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. كيف هذا ؟ إن رسول الله ﷺ ومن معه يقينا على الهدى، والمسألة لا تحتاج إلى تشكيك، إنما هذا اسمه مجاراة الخصم. يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول: إن الضلال والهدى لا يجتمعان أبداً. ونحن مختلفون لا نجتمع على رأى، فلابد أن أحدنا على هدى والآخر على ضلال،

= كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره. قال الفراء: إنما جاء « بهو » فى ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ لأنهم لا يقولون: من قائم، إنما يقولون: من قام، من يقوم، ومن القائم، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولى إلى الثريا فإنى ... ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أى انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا.

[فتح القدير : ٢/٥٣١]

وسنترك الزمن يكشف لنا من على هدى ومن على ضلال[1] .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة؛ كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادّين، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن ، والآخر ضالّ وهو أنتم؛ فكذّبهم بأحسن من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض. ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ معطوف على اسم ﴿إِنَّا﴾ ولو عطف على الموضع لكان « أو أنتم » ويكون ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ للأول لا غير، وإذا قلت: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ كان للثانى أوْلى، وحذفت من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيار المبرد، قال: ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة: أحدنا كاذب، قد عرف المعنى، كما تقول: أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطىء، وقد عرف أنه هو المخطىء ، فهكذا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ، و ﴿أَوْ﴾ عند البصريين على بابها وليست للشك، ولكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة والفراء: هى بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم فى ضلال مبين. وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارس أو رياحاً ... عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا

يعنى أثعلبة ورياحا، وقال آخر:

فلما أشتد أمر الحرب ... فينا تأمّلنا رياحا أو رزاما

[تفسير القرطبى : ١٤/٢٩٨ ، ٢٩٩]

❄ الترغيب والترهيب لقوم شعيب ❄

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦] الحق سبحانه وتعالى يحذر هنا غير المؤمنين الذين كذبوا الرسول، ولم يؤمنوا بمنهج الله ، وانطلقوا وراء شهواتهم، يقول لهم لا تزيدوا عذابكم ولا غضب الله عليكم، وكفاكم وزرا أنكم لم تؤمنوا، فلا ترتكبوا وزرا آخر بأن تضلوا غيركم ؛ لأنكم فى هذه الحالة ستحملون أوزاركم ومعها أوزار الذين تضلون[1]. فبعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن عدم الإفساد فى

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥] .

وقال الطبرى : يعنى بقوله ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾: ولاتجلسوا بكل طريق وهو الصراط، توعدون المؤمنين بالقتل، وكانوا فيما ذكر يقعدون على طريق من قصد شعيبا ، وأراده ليؤمن به ، فيتوعدونه ويخوّفونه ويقولون: إنه كذّاب.

عن أبى هريرة أو غيره، شكّ أبو جعفر الرازى ، قال : « أتى النبى ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلاشقته، ولا شيء إلا خرقته ، قال : ما هذا يا جبرْيلُ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ » . وهذا الخبر الذى ذكرناه عن أبى هريرة يدل على أن معناه كان عند أبى هريرة أن نبىّ الله شعيبا إنما نهى قومه بقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ فجاز ذلك كما جاز أن يقال: قعد له بمكان كذا، وعلى مكان كذا، وفى مكان كذا، وقال ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ ولم يقل: تعدون؛ لأن العرب كذلك تفعل فيما أبهمت، ولم تفصح به من الوعيد، تقول: =

الأرض، أراد أن يبين لنا أن هناك أكثر من طريق للإفساد . هناك طريق الإفساد المادى بأن نأتى للصالح فى الدنيا فنفسده ، كأن نردم بئرا يشرب منها الناس، أو نحرق زرعا يقتات منه الناس، وهناك إفساد فى المنهج بأن يترصد الكفار أولئك الذين يبحثون عن منهج الإيمان ويحاولون أن يبعدوهم عن الهداية . يجلس الكفار مثلا على الطرق المؤدية إلى بيت رسول الله ﷺ [1] ، وكلما وجدوا إنساناً ذاهباً إلى رسول الله يطلب الهداية تعرضوا له، وحاولوا منعه واقناعه بألا يفعل، وهؤلاء هم شياطين الإنس ؛ لأن إبليس قال : ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الأعراف:١٦] فكأن كل من يقف أمام هداية مسلم ويحاول أن يأخذه إلى الإثم إنما هو من جنود إبليس على أننا نلاحظ أن قوله :

= أوعدته بالألف وتقدّم منى إليه وعيد، فإذا بينتُ عما أوعدت وأفصحت به، قالت: وعدته خيرا، ووعدته شراً بغير ألف، كما قال جلّ ثناؤه ﴿ **النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ .

وأما قوله ﴿ **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ فإنه يقول: وتردّون عن طريق الله، وهو الردّ عن الإيمان بالله، والعمل بطاعته من آمن به ، يقول: تردّون عن طريق الله من صدّق بالله ووحده ، ﴿ **وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ يقول: وتلتمسون لمن سلك سبيل الله، وآمن به، وعمل بطاعته عوجا عن القصد والحقّ، إلى الزّيغ والضلال. [تفسير الطبرى : ٨/٢٣٨ ، ٢٣٩]

(١) **قال ابن إسحاق** : وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه . وجعلت قريش ـ حين منعه الله منهم ـ يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

ثم ساق قصة إسلام الطفيل بن عمرو وكيف حاولت قريش منعه من تصديق رسول الله ﷺ ، وقصة أعشى بنى قيس بن ثعلبة فى تصدى قريش له ومحاولة منعه من تصديق رسول الله ﷺ .

[سيرة ابن هشام : ١/٤٧٦] [وسبل الهدى والرشاد : ٢/٥٤٨]

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بينما الصراط المستقيم واحد، وفى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٠٨] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ إذن فتعدد السبل أو الطرق نعرف منه أنها سبل الشيطان، أما الطريق المستقيم فهى طريق واحدة(١). وهنا يريد أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن طرق إغواء الشيطان للناس متعددة، فهذا يغويه بالمال، وهذا يغويه بالمرأة، وهذا يغويه بالترف أو بالجاه. إذن فقوله

---

(١) الطريق : السبيل ، تُذكّر وتؤنّث ، تقل الطريق الأعظم ، والطريق العظمى .
[لسان العرب : ١٠/ ٢٢٠]
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هذه الآية الكريمة تأتى بعد الحديث عن الحيوانات من الأنعام وغيرها التى يركبها الناس ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، وهو حديث عن طرق المواصلات ، ثم شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه سبحانه وتعالى وأنها طرق متعددة ، فبين أن الحق منها ما هى موصلة إليه مباشرة ، فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ فهو سبيل واحد معروف، وأما باقى السبل أو الطرق فهى طرق جائرة وحائدة وزائلة عن الحق فقال : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ . وأرشد الله تعالى عباده إلى الصراط وهو الطريق وهو السبيل المستقيم المؤدى إليه مباشرة فقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه » .
ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الآية: أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٤٣٥] وصححه الشيخ شاكر [٤١٤٢] والنسائى فى الكبرى [١١١٧٥] ، وقال الحاكم [٢/٣١٨] : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأخرجه بنحوه ابن ماجه [١١] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١١].

تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ معناه لا تقدموا الغواية بطرق مختلفة إلى الناس مستخدمين فى ذلك الغواية أو التهديد، وكل قصدكم من ذلك هو أن تقنعوا الناس بعدم اتباع شريعة الله. كأن يأتى إنسان ليقول لك: لماذا حرم الله الخمر مع أنها تجعلك مسرورا ومنسجما[1]، ويظل يزين لك الخمر حتى تقع فى المعصية، أو يقول لك إن الربا يزيد مالك وينميه فلماذا حرمه الله ؟ وهكذا يحاول الشيطان أن يبين للناس أن الطرق المعوجة هى التى فيها فائدتهم، وينفر الناس من الطريق المستقيم، مع أن سبيل الله هو الذى فيه الخير، وكل ما حرمه الله هو شر كبير للإنسان كما.

وفى لفتة أخرى يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦] وفى هذا الحق سبحانه وتعالى يبين لنا أن كل عمل لابد أن يكون له ناحيتان: ناحية ترغب فيه وناحية تحذر من العاقبة، فأنت إذا كنت تريد لابنك أن ينجح تقول له: إذا ذاكرت سأعطيك كذا وكذا، وإذا لم تذاكر فسترسب وتفصل من الدراسة ويضيع مستقبلك .

ومادام الناس صالحين لعمل الخير وعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم من الله . إذن فلابد لأى منهج أن يرغب فى الخير ويرهب من الشر. والحق سبحانه وتعالى يذكر هنا الناس ويرغبهم فى الخير فيذكرهم بنعمة الله أنهم بعد أن كانوا قليلين فى العدد كثرهم، فالأب أنجب أولاداً، والأولاد أنجبوا أولادا. وهكذا زاد عددهم فأخذوا القوة بعد أن كانوا ضعافا، وأخذوا الغنى بعد أن كانوا فقراء .

ولذلك فإن قوله تعالى : ﴿ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٦]

---

(١) أصل الكلمة : سَجَمَ : وسَجَمَتْ العين الدمع ، والسحابة الماء سجمًا وسجوما ، وسجمانًا : وهو قطران الدمع وسيلانه : إلى أن قال . . . وانسجم الماء والدمع ، فهو منسجم ، إذا انسجم أى انصب . [لسان العرب ١٢/ ٢٨١]

لا ينطبق على العدد فقط، ولكنه يشمل نعم الله كلها، كنتم قليلين فى العدد فأصبحتم كثرة. وكنتم قليلين فى المال فأغناكم، وكنتم قليلين فى القوة فأعطاها لكم [1]. فكأن فى هذا تذكيراً بنعم الله . والله سبحانه وتعالى فعل بكم هذا، فعل بكم الخير. . ومادام قد أعطاكم خيراً فهو يريد لكم الخير فأطيعوه . . هذا هو الترغيب . ويأتى بعد ذلك الترهيب. . إذا لم تعبدوا الله سبحانه وتعالى طمعا فى خيره فاعبدوه خوفا من بطشه وانتقامه، واذكروا ما حدث لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط الذين عصوا الله فأهلكهم بذنوبهم .

والحديث هنا لقوم شعيب . . إذن فهو يذكرهم بالأقوام الأربعة الذين سبقوهم وما حدث لهم، قوم نوح أخذهم الغرور ولم يكن قبلهم قوم أصيبوا بالعذاب فلم يرتدعوا حتى جاءهم الطوفان. ثم جاء بعد ذلك أقوام آخرون لم يهتدوا وأصروا على العصيان فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، إذا لم تكن نعم الله قد أوجبت عليكم عبادته فخافوا عاقبة الذين أفسدوا فى الأرض أن يصيبكم مثل ما أصابهم، وهنا يكون قد تم الترغيب والترهيب من الله على لسان رسوله شعيب [2].

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ حكى الزجاج فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: كثر عددكم بعد القلة ، قال ابن عباس: وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها.

والثانى: كثركم بالغنى بعد الفقر.

والثالث : كثركم بالقوة بعد الضعف.

وذكر بعض المفسرين وجهاً رابعاً: أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل.

[تفسير الماوردى: ٢/ ٢٣٩].

(٢) قال الطبرى فى قوله تعالى : ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: =

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧] الحق سبحانه وتعالى قسم المخاطبين إلى طائفتين.. طائفة آمنت وطائفة لم تؤمن، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ ، وهنا تظهر دقة القرآن فى الأداء، وعظمته فى البيان، وبلاغته فى التعبير، فقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرُوا﴾ لم يبين لنا من المأمور بالصبر، الذين آمنوا أم الذين لم يؤمنوا، والحقيقة أن الطائفتين مأمورتان بالصبر، طائفة المؤمنين وغير المؤمنين . فقول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَاصْبِرُوا﴾ بالنسبة للمؤمنين هو لحملهم على الصبر؛ لأن الكفار هم المترفون والعالون فى الأرض، والمؤمنون يصيبهم أذى على أيدى الكفار. فالحق سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين: اصبروا على ما تلاقون ؛ لأن هؤلاء سيصيبهم من العذاب ومن الهوان الكثير. وأنتم ستصبرون عليهم سنوات معدودة ولكنهم سيخلدون بعد ذلك فى النار، وحين يعرف المؤمن ذلك تشتد عزيمته ويهون عليه كل ما يلقاه، ويقوى على الصبر فلا ييأس ولا يستسلم .

أما بالنسبة للكافرين فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَاصْبِرُوا﴾ معناه انتظروا قليلاً فما هى إلا فترة محدودة، ثم يأتى أجلكم وتردون إلى الله ، وحينئذ تلقون جزاء كفركم وصدكم عن سبيل الله .

= وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يهلك بعضهم غرقا بالطوفان؟ وبعضهم رجما بالحجارة؟ وبعضهم بالصيحة؟ .

والإفساد فى هذا الموضع معناه: معصية الله . [تفسير الطبرى : ٨/ ٢٣٩]

إذن فقول الحق : ﴿فَاصْبِرُوا﴾ الأمر للاثنين معا ، للمؤمن والكافر. والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ المؤمن والكافر أن هذا الصبر ليس بلا نهاية ، ولكن له نهاية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى حتى يصبح الأمر كله لله بلا اختيار بشرى فى أن يفعل الإنسان أولا يفعل، وذلك حين تأتى لحظة الاحتضار، ففى هذه اللحظة تخمد بشرية الإنسان وينتهى اختياره ويصبح مقهوراً، ويصبح الأمر كله لله. إذن فنهاية الصبر تأتى مع الأجل حين يصبح الأمر كله لله [1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لماذا قال الحق ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ؛ لأن الله حين يحكم بيننا فنحن جميعاً أمامه سواء، فلا أحد مقرب إلى الحق سبحانه وتعالى بنسب، فالله لم يتخذ ولدا، ولا أحد مقرب له بهوى . فالحق سبحانه وتعالى لم يتخذ صاحبة[2]. إذن فنحن أمامه جميعاً سواء، فلذلك هو خير الحاكمين ؛ لأن حكمه عدل، ولأنه سبحانه وتعالى غنى عنا جميعاً، ولذلك فهو لا ينظر إلى ما فى أيدينا [3].

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من الأحكام التى شرعها الله لكم. ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ منكم ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر، وحكم الله بين الفريقين، هو نصر المحقين على المبطلين. ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أو هو أمر للمؤمنين بالصبر، على ما يحل بهم من أذى الكفار، حتى ينصرهم الله عليهم. [فتح القدير: ٢/ ٢٣٤]

(٢) قال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

(٣) قوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ : قال البقاعى : لأنه يفصل النزاع على أتم=

❄ تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين ❄

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترغيب وهذا الترهيب من الله؟، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ الملأ الذين استكبروا هم السادة والأعيان والمترفون الذين يقفون أمام كل دعوة حق ؛ لأنها ستسلبهم الميزات التى يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم. ماذا قال الذين استكبروا؟ قالوا : لنخرجنك يا شعيب من قريتنا . وهكذا ارتكبوا نفس المعصية التى ارتكبها قوم لوط حين قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل:٥٦] [(١)] وكلمة قرية قد أخذت الآن معنى غير معناها

= وجه وأحكمه . [نظم الدرر : ٧/ ٤٦٣]

وقال الطبرى : يقول : والله خير من يفصل وأعدل من يقضى ؛ لأنه لا يقع فى حكمه ميل إلى أحد ، ولا محاباة لأحد . والله أعلم . [تفسير الطبرى : ٨/ ٢٤٠]

وقال ابن كثير : فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .
[تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٢٢]

(١) وهكذا كل ملل الكفر واحدة ، فما من أمة كافرة إلا وقالت هذه المقولة الخطيرة والسمجة لرسلهم حينما دعوهم إلى الإيمان والهداية ، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] . =

الحقيقى، فهى الآن البلدة الصغيرة التى يسكنها عدد محدود من الناس. ولكن القرية فى اللغة معناها: المكان الذى تتوافر فيه كل متطلبات الحياة، بدليل أننا نقول على مكة المكرمة أم القرى (1) .

ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذى تتوافر فيه كل متطلبات الحياة إلى مكان قفر لا يصلح للحياة، فكأن المترفين من الذين يقاومون المنهج قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين. إما أن يعودوا كفاراً أو يخرجوا من القرية، وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف:88]

= والنبى الخاتم محمد ﷺ لم يسلم من ذلك ، ففى حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة - إلى أن قالت - فانطلقت به خديجة رضى الله عنها ، حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان امرءًا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة: يا ابن عمٍّ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟. فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزَّل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجىَّ هم ؟ » قال: نعم . . » . الحديث بطوله أخرجه البخارى [3].

(1) **قال الجوهرى**: القرية معروفة، والجمع القرى على غير قياس. والقرية من المساكن والأبنية والضياع، وقد تطلق على المدن.

وأمُّ القُرى: مكة، شرفها الله تعالى ؛ لأن أهل القُرى يَؤُمُّونها أى يقصدونها وفى حديث على، كرم الله وجهه: أنه أُتى بضَبٍّ فلم يأكله وقال إنه قَرَوِيٌّ أى من أهل القُرى، يعنى إنما يأكله أهل القُرى والبَوادى والضِّياع دون أهل المدن. قال: والقَرَوِى منسوب إلى القَرْيَة على غير قياس، وهو مذهب يونس، والقياس قَرْئِيٌّ. والقَرْيَتَين، فى قوله تعالى: ﴿ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ مكة والطائف.

[لسان العرب: 15/ 177, 178]

معناه أن الذين آمنوا بشعيب كانوا يعتنقون ملة أهل القرية ، ثم خرجوا منها وآمنوا بالله وبرسالة شعيب، وهم يريدونهم أن يعودوا إلى الكفر .

ولكن لابد أن نتنبه هنا إلى أن الخطاب موجه لشعيب ؛ لأن الخطاب أخذ شعيبا والذين آمنوا معه . ومن آمن مع شعيب من الجائز أنه كان على ملة القوم أولاً ثم آمن، ويطلبون منه أن يعود مرة أخرى إلى ملتهم، أما شعيب نفسه فلا يعقل أنه كان على ملة القوم. ولكن الخطاب هنا هو تغليب للكثرة، فالكثرة من المؤمنين مع شعيب كانوا فى ملة القوم، ثم آمنوا ويطلبون منهم العودة، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وهنا لابد أن نتنبه إلى قول الحق: ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فعندما كان هؤلاء فى الظلمات لم تكن قد بلغتهم الرسالة، فكيف يصفهم الله سبحانه وتعالى بالذين آمنوا أى نفى عنهم الكفر، ثم يقول إنه أخرجهم من الظلمات إلى النور . نقول إن التكليف بالنسبة للإنسان موجود فى خلقه مختاراً .

فالإنسان مادام قد خلق مختاراً فهو يستطيع أن يتبع سبيل الإيمان أو أن يتبع سبيل الكفر، وكونه يختار اتباع الإيمان يكون قد ترك اتباع الكفر، فكأنه خرج من قدرة اختياره لسبيل الكفر واتبع قدرة اختياره لطريق الإيمان. ومن هنا فإن خروج الإنسان من الظلمات إلى النور لا يعنى بالضرورة أنه كان كافراً، إنما يعنى أنه خرج من قدرته على اختيار سبيل الكفر، إلى قدرته على اختيار طريق الإيمان. وهنا يستقيم المعنى ويصبح المقصود بالنسبة لشعيب: أنه خرج من القدرة على اختيار سبيل عدم الإيمان إلى القدرة على اختيار طريق الإيمان[1]، وهذا ما يحدث بالنسبة للمؤمنين.

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى :

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أى قال الأشراف المستكبرون: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا

شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾. لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا وأشرا إلى توعد نبيهم، ومن آمن به، بالإخراج من قريتهم، أو عوده هو ومن معه فى ملتهم الكفرية، أى لابد من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء. يقال: عاد إليه من فلان مكروه، أى صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب، بالعود إلى ملتهم..

وجملة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر. والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود والواو للحال، أى أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا للعود إليها ؟ أو أتخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها؟ أو فى حال كراهتنا للأمرين جميعًا ؟ والمعنى: إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين، ولا يصح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له، ولا تعد موافقته مكرها موافقة، ولا عوده إلى ملتكم مكرها عودا، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام. [فتح القدير: ٢/ ٢٣٥]

ويقول الدكتور محمد جميل غازى رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣].

هنا سؤال سأله المفسرون : هل كان الرسل على دين الكفر وعلى ملة الكفر ، وأنهم خرجوا منها ؟ .

هذا مستحيل ؛ لأن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ما شاركوا فى كفر ، ولا عبدوا صنما أبدا ، ولا شاركوا فى أخلاق الجاهلية حتى قبل أن يبعثوا .

والسؤال هو : لماذا قال الكافرون : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ؟ المفسرون قالوا : المقصود: أتباع الأنبياء أن يعودوا إلى ملة الكفر .

وبعض المفسرين قالوا : الكافرون كاذبون دائما ، وهذا من أكاذيبهم ، إذ يدعون أن رسل الله كانوا فى ملتهم ، وذلك كذب منهم واختلاق ، فلا ينبغى تصديقهم .

والبعض الآخر قالوا : إن الرسل قبل أن يرسلوا كانوا ساكتين فظن الكافرون أنهم =

. . . .

= ملتزمون بملتهم ، فلما نطقوا قالوا لهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾.لكن الآية لا تحتاج إلى هذا كله ، لأن قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ معناه : أو لتدخلن في ملتنا. لماذا ؟ . لأن كلمة : ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ تتعدى بـ «إلى» وليس بـ «فى» فكان المقرر أن يقولوا لهم: أو لتعودن إلى ملتنا . . يرجعون إلى الملة التى كانوا فيها . .

ولكن قولهم: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾. دعوة للرسل أن يدخلوا فى ملتهم .

إذن هناك دعوة تحارب دعوة . . دعوة الكافرين ودعوة الرسل ، فالرسل يدعون الكافرين للدخول فى ملتهم ، والكافرون يدعون الرسل للدخول فى ملتهم ، وأن يدخلوا فى الكفر الذى استمرأوه ويعيشون فيه .

[تفسير القرآن الكريم ـ شريط رقم ٢٢٨]

❊ شعيب يحتكم إلى الله ❊

بماذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين : ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . نلاحظ هنا أن شعيبا والمؤمنين معه قد أعلنوا كراهيتهم للعودة إلى الكفر، ونلاحظ أيضاً أن الكفار فى كلامهم قد نسوا الله ، فخيروا شعيبا بين أن يعود لملتهم أو يخرج من قريتهم . ونسوا أن الله سبحانه وتعالى قد قسم شيئاً غير هذين الاختيارين ، كأن يكون قد قسم أن يهلك هؤلاء الكافرين ويبقى المؤمنون فى القرية، فلا يخرج المؤمنون من القرية ولا يعودون إلى ملة الكافرين(١) .

وقول شعيب : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأعراف:٨٩] أى أننا ضيقنا النطاق على قدرة الله سبحانه وتعالى ، فالكذب هو أن تقول كلاما غير الواقع ، فإذا كنت لا تعرف الحقيقة فهذا مطلق كذب، وإذا كنت تعرف الحقيقة فهذا افتراء كذب، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] نقول: إن المنافقين كذبوا حين قالوا: نشهد إنك لرسول الله ، والشهادة هى أن يوافق اللسان ما فى القلب. والمنافقون شهدوا ولكن قلوبهم منكرة لهذه الشهادة، فهم يقولونها باللسان وقلوبهم منكرة لها فقد كذبوا حين قالوا نشهد .

---

(١) كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

إذن فقوله تعالى : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٩] دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دين الله هو الحق. ولذلك إذا عادوا لملة الكافرين يكونون قد افتروا الكذب ؛ لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها. وقول الحق : ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أى أن اختيارنا كان إلى جانب الحق فنجونا. أما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٩] هذا الكلام يذكرنا الحق فيه بطلاقة القدرة لله ، فالله يفعل ما يشاء متى شاء ولا قيد على قدرته، ورسول الله ﷺ قال : «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن». [(١)] والخليل إبراهيم قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ فكأنه سلم للحق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة فى كونه، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن [(٢)].

---

(١) عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها » .

أخرجه أحمد [٢٥٧/٣] بلفظ : « إن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها » ، والحاكم [٢٨٨/٢ ، ٢٨٩] بنحوه عن جابر رضى الله عنه، ذكره الألبانى فى صحيح الجامع [١٦٨٥] .

(٢) قال الماوردى : قوله عز وجل : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ الفرق بين الملة والدين أن الملة ما شرعه الله، والدين ما اعتقده الناس تقرباً إلى الله، فصار كل دين ملة وليس كل ملة ديناً.

فإن قيل: فالعود إلى الشيء الرجوع إليه بعد الخروج منه ، فهل كان شعيب على ملة قومه من الكفر حتى يقول: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾. ؟

فى الجواب عنه ثلاثة أوجه:

أحدها : أن هذه حكاية عمن اتبع شعيبا من قومه الذين كانوا قبل اتباعه على ملة الكفر.

الثانى : أنه قال ذلك على التوهم أنه لو كان عليها لم يعد إليها . =

وقول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أعطى طلاقة القدرة للحق سبحانه وتعالى وفى نفس الوقت الله

= والثالث : أن يطلق ذكر العود على المبتدىء بالفعل وإن لم يسبق منه فعل مثله من قولهم: قد عاد عليّ من فلان مكروه وإن لم يسبقه بمثله كقول الشاعر :

لَئِنْ كَانَت الأَيَّامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أَتَى دُونَ حُلْوِ الْعَيْشِ شيْءٌ أمرُّهُ كُرُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ كُرُوبُ

ثم قال : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن نعود فى القرية إلا أن يشاء الله ، قاله بعض المتكلمين .

والثانى : وهو قول الجمهور أن نعود فى ملة الكفر وعبادة الأوثان .

فإن قيل فالله تعالى لا يشاء عبادة الأوثان فما وجه هذا القول من شعيب ؟

فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قد كان فى ملتهم ما يجوز التعبد به .

والثانى : أنه لو شاء عبادة الوثن لكانت عبادته طاعة ؛ لأنه شاءه كتعبده بتعظيم الحجر الأسود .

والثالث : أن هذا القول من شعيب على التعبيد والامتناع كقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وكقولهم : حتى يشيب الغراب .

[تفسير الماوردى : ٢/ ٢٣٩ ، ٢٤٠]

وقال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إياس من العود إلى ملتهم. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: أى إلا بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة؛ أى وما يقع منا العَوْد إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك. فالاستثناء منقطع. وقيل: الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل؛ كما قال:﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾. والدليل على هذا أن بعده ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ . [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٥٠]

سبحانه وتعالى لا يشاء العودة للكفر لمعصوم، وقول الحق : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يتم وما يقع الآن من المستكبرين. وإذا كان مع هؤلاء المترفين قوة الدنيا فإن شعيبا والذين آمنوا معه قد توكلوا على الله وأسلموا أمرهم له. ومادام معهم الله فشعيب والمؤمنون هم الأقوى . . وهم المنصورون .

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على الله : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حينما نسمع كلمة فتح نفهم أن هناك شيئاً مغلقا ونريد أن نزيل إغلاقه وأن نفتحه. والحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة يوسف عندما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وهم يحملون البضائع التى أحضروها : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ومعنى فتح المتاع هنا أنهم أزالوا كل ما كانوا يحيطون به أمتعتهم من سلاسل وأحبال ، هذا فتح حسى. ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ . ومادام هناك أبواب يكون الفتح حسيا .

ولكن هناك فتحا معنويا فى قوله تعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة:٧٦] وهذا حديث اليهود ليخفوا عن المسلمين ما أنزل الله فى التوراة، فكأنما إنزال التوراة من الله فتح ولكنه فتح معنوى، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:٢] وقوله جل جلاله : ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] وكان القاضى فيما مضى يسمى الفاتح لأنه يزيل الإشكالات. ولكن قول شعيب وقومه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى

اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا ﴾ أى يارب احكم بيننا وبين قومنا وأنت لا تحكم إلا بالحق : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١).

ماذا رد الكافرون من قوم شعيب ؟ ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٠] الخطاب هنا من الكافرين لمن؟ للذين آمنوا أم للذين كفروا، مادام المتحدثون هم الكفار، ومادام المؤمنون قد اتبعوا شعيبا وآمنوا به يكون الخطاب هنا من أئمة الكفر لأتباعهم، فلابد أن الكافرين قد وجدوا أتباعهم بدأوا يميلون إلى الإيمان مما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين معه. ولذلك حذرهم سادتهم بقولهم:

---

(١) **قال الماوردى:** ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: اكشف بيننا وبين قومنا، قاله قتادة.

والثانى: احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين. وذكر الفراء، أن أهل عُمان يسمون القاضى الفاتح والفتاح. وقال غيره: إنه لغة مراد، قال الشاعر (١)

أَلا أَبْلغْ بَنِى عُصَمَ رَسُولاً ... بِأَنِّى عَنْ فَتَّاحِكُمُ غَنِى

وقد قال ابن عباس: كنت لا أدرى ما قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حتى سمعت بنت ذى يزن تقول: تعالى أفاتحك، يعنى أقاضيك.

وقيل: إنه سمى بذلك ؛ لأنه يفتح باب العلم الذى قد انغلق على غيره.

فإن قيل: فما معنى قوله : ﴿ بِالْحَقِّ﴾ ومعلوم أن الله لا يحكم إلا بالحق؟.

ففى الجواب عنه أربعة أوجه:

أحدها: أنه قال ذلك صفة لحكمه لا طلباً له.

والثانى: أنه سأل الله أن يكشف لمخالفه من قومه أنه على حق.

الثالث: أن معناه احكم بيننا الذى هو الحق، قاله ابن بحر.

الرابع: احكم الدنيا بنصر الحق، قاله السدى . [تفسير الماوردى: ٢/ ٢٤٠ ، ٢٤١]

---

(١) البيت فى اللسان: [٢/٥٣٨] منسوباً للأشعر الجعفى، شاهداً على أن الفتاحة بكسر الفاء وضمها بمعنى الحكم بين خصمين.

﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ نلاحظ هنا استخدام اللام الشرطية، وعندما تستخدم اللام الشرطية لابد أن يأتى جواب الشرط، وجواب الشرط هنا ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ماذا سيخسر هؤلاء الأتباع، سيخسرون إيواء السادة لهم وسيخسرون نزواتهم التى يقيدها المنهج[1] .

---

(١) قال فى التفسير الوسيط :

وقال الرؤساء المستكبرون الذين أصروا على الكفر من قوم شعيب عليه السلام بعدما أيقنوا بصلابته ومن آمن معه فى الإيمان وإصرارهم عليه ، وخافوا من إقبال الناس على دعوته . اتجهوا إلى تخويف عامة الناس من قبول دعوته بقولهم : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ . أى لئن أطعتم شعيبا فدخلتم فى دينه وتركتم ملة آبائكم إنكم حينئذ لخاسرون دينكم الذى أنتم عليه ، وخاسرون دنياكم بفقدان مزاياكم التى تتمتعون بها بيننا من المسالمة والتبادل التجارى ، والرضا عنكم ، والإخلاص لكم ، وفقدان المكاسب التى تحصلون عليها بالبخس وتطفيف الكيل والميزان وغير ذلك . أ هـ .

وقال الطبرى: يقول تعالى ذكره: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب، وهم الملأ الذين جحدوا آيات الله وكذّبوا رسوله، وتمادوا فى غيهم لآخرين منهم: لئن أنتم اتبعتم شعيبا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوته ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ يقول: لمغبونون فى فعلكم، وترككم ملتكم التى أنتم عليها مقيمون إلى دينه الذى يدعوكم إليه، وهالكون بذلك من فعلكم. [تفسير الطبرى : ٩/ ٣]

قوم شعيب يستعجلون العذاب

بعد أن فَصَّلَ شعيب عليه السلام لقومه ما هو مطلوب منهم، ماذا كان ردهم على نبيهم؟ قال تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ نحن قلنا: المسحر هو من سحره سواه، وهذه مبالغة فى الفعل لأن الفعل سحر مفعوله مسحور. لكن سَحَّرَ «بتشديد الحاء وفتحها» مفعولها مسحر وهى للمبالغة فى السحر. والمعنى أنهم يصفون رسولهم بأن عقله مختل وأن الناس قد سحروه. ومادمت مسحورا فلن نسمع لكلامك لأنه كلام مجنون. وقولهم : ﴿وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. قوم صالح عليه السلام قالوا له : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤] .

وقوم شعيب قالوا له هنا : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦] فزادت هنا الواو فى قولهم : ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين بأنهم مسحورون وأنهم مثلهم[1]. ومادام مسحرا فلن يسمعوا له لأنه مجنون، ومادام بشرا

---

(١) قال القرطبى : فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السحر فى قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوى. أى أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدّع الرسالة دوننا. وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبى وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبى. وهو على هذا القول من السِّحر وهو الرئة أى بشر لك سَحْر أى رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال لبيد [1] : =

---

(١) فى نسخ الأصل: امرؤ القيس، والتصويب من ديوان لبيد.

مثلهم فلماذا يتميز عليهم بالرسالة ؟ هم كانوا يقولون لأنبيائهم ذلك ويطلبون منهم الآيات الدالة على صدق رسالتهم. ولذلك قالوا لشعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين. وإن كنت صادقا فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء.

قال تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فهم يستعجلون نزول العذاب عليهم، والعجيب أن كل قوم كذبوا رسولهم واستعجلوا نزول العذاب عليهم، وحينما يحل بهم العذاب يدعون الله أن يكشفه عنهم أو أن ينظرهم إلى وقت آخر أو يعطيهم الفرصة للتوبة. والكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة، وكلمة كسف جاءت على لسان جميع الذين كذبوا الرسل، فالكفار في مكة قالوا لرسول الله ﷺ مثل ذلك : واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ

= فإن تسألينا فيمَ نحن فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس:

ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرَابِ (١)

[تفسير القرطبي: ١٣/ ١٣١]

وقال أبو الحسن النيسابوري: ﴿ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ : المسحورين مرة بعد أخرى، وذكره الزجاج في معانيه[٤/ ٩٧] فقال: «وجائز أن يكون من المسحرين، «من المفعلين» من السحر، أي ممن قد سُحِر مرة بعد مرة». [إيجاز البيان: ٢/ ٦٢٥]

(١) صدرُ البيت: أرانا موضعين لأمر غيب

موضعين : مسرعين. وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب.

تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾[1] [الإسراء:٨٩-٩٢] وفى آية أخرى قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢] وهذا دليل على حماقتهم ؛ لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، واستعجلوا العقوبة[2] .

---

(١) الكِسْف والكِسْفة والكَسِيفة : القطْعة مما قطَعْت . وهى جمع كِسْفة للقطعة من الشىء. وكسَّف السحاب وكِسَفُه : قِطَعُه ، وقيل إذا كانت عريضة فهى كِسْف .وفى التنزيل : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ الفراء فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ قال : الكِسْفُ والكِسَفُ وجهان ، والكِسْفُ : الجِماعُ ، قال : وسمعت أعرابيا يقول أعطنى كِسْفة من ثوبك يريد قِطْعة ، كقولك خِرْقة ، وكُسِفَ فعل ، وقد يكون الكِسْف جماعا للكسفة مثل عَشْبة وعُشْب ؛ وقل الزجاج: قرىء كِسْفا وكِسَفا ، فمن قرأ كِسَفا جعله واحدا ، قال : أو تسقطها طَبَقا علينا ، واشتقاقه من كسَفا جعلها جمع كِسْفة وهى القِطْعة ، ومن قرأ كِسْفا جعله واحدا ، قال : أو تسقطها طَبَقا علينا ، واشتقاقه من كَسَفْت الشىء إذا غطَّته .

[لسان العرب : ٩/٢٩٩]

(٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال أبو جهل : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الأنفال:٣٣-٣٤] .

أخرجه البخارى [٤٦٤٩] ، وأخرجه مسلم [٢٧٩٦]

وقال الأعمش عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ ﴾ الآية ، قال : هو النضر ابن الحارث بن كلدة ، قال: فأنزل الله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ [المعارج:١،٢] وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدى أنه النضر بن الحارث . [تفسير ابن كثير : ٢/٢٩١ ، ٢٩٢]

ولكن ماذا كان رد نبى الله شعيب عليهم؟ : ﴿**قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الشعراء:١٨٨] أى ربى يعلم أحوالكم ومطلع على سرائركم، فإن كان سبحانه يعلم أن فى قلوبكم خيرا، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه سيؤخر عنكم العذاب ويحفظكم منه، وإذا علم أنكم مستمرون على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والاستئصال. فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى، ولكنى أكل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم. ولكن ماذا كان موقفهم؟ استمروا فى تكذيبهم (١) .

---

(١) **قال البقاعى** : ﴿**وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ أى : فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك، والدليل على أن عطف ذلك أبلغ من إتباعه. من غير عطف جزمهم بظن كذبه فى قولهم: ﴿**وَإِن**﴾ أى وإنّا ﴿**نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ أى العريقين فى الكذب - هذا مذهب البصريين فى أن ﴿**وَإِن**﴾ مخففة من الثقيلة، والذى يقتضيه السياق ترجُّح الكوفيين هنا فى أن ﴿**وَإِن**﴾ نافية فإنهم أرادوا بإثبات الواو فى ﴿**وَمَا**﴾ المبالغة فى نفس إرساله بتعداد ما ينافيه، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير الكذب، وهو أبلغ من إثبات الظن به ، ويؤيده تسبيبهم عنه سؤاله استهزاء به وتعجيزا له إنزال العذاب بخلاف ما تقدم عن قوم صالح عليه السلام، فقالوا : ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا**﴾ بإسكان السين على قراءة الجماعة وفتحها فى رواية حفص، وكلاهما جمع كسفة، أى قطعا ﴿**مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ أى السحاب، أو الحقيقة، وهذا الطلب لتصميمهم على التكذيب،ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا عن طلبه ولا سيما كونه على وجه التهكم، ولذلك قالوا : ﴿**إِن كُنتَ**﴾ أى كونا هو لك كالجبلة ﴿**مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ أى العريقين فى الصدق المشهورين فيما بين أهله ، لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب من التهديد بالعذاب، وما أحسن نظره إلى تهديده لهم بما لله عليهم من القدرة فى خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة وإهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسله . ولما كان عذاب العاصى يتوقف على العلم المحيط بأعماله، والقدرة على =

❊ مجيئ أمر الله لقوم شعيب ❊

مضى كل جانب يرتقب . . شعيب والذين آمنوا معه يرتقبون نزول العذاب والخزى بالكافرين. والذين كفروا ينتظرون الفرصة المواتية ؛ ليقضوا على شعيب ومن آمن معه . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود:٩٤] نلاحظ أن هذه الآية جاءت مع أربعة رسل[١] ، إلا أنها فى اثنين منهم جاءت : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود:٨٢] وفى الاثنين الآخرين جاءت: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وفى سورة هود جاءت : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ والفاء كما نعلم تقتضى الترتيب والتعقيب بسرعة، أى أن الفعل يحدث بعد الفاء مباشرة، ولذلك فاسمها فاء التعقيب، أى : التعقيب وبدون مسافة، أى : لا يمر وقت إلا ويحدث ما حذر الله تبارك وتعالى منه أو ما توعد به، بينما الواو فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ﴾ تقتضى التعقيب أيضًا ولكن بعد فترة من

= نكاله، استأنف تعالى الحكاية عنه فى تنبيه لهم على ذلك بقوله: ﴿ قَالَ ﴾ مشيرا إلى أنه لا شىء من ذلك إلا إلى من أرسله، وهو متصف بكلا الوصفين، وأما هو فإنه وإن كان عالما فهو قاصر العلم فهو غير قادر: ﴿ رَبِّى أَعْلَمُ ﴾ أى منى ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لأنه محيط العلم فهو شامل القدرة، فهو يعلم استحقاقكم للعذاب، ومقدار ماتستحقون منه ووقت إنزاله، فإن شاء عذبكم، وأما أنا فليس علىَّ إلا البلاغ وأنا مأمور به، فلم أخوفكم من نفسى ولا ادعيت قدرة على عذابكم، فطلبكم ذلك منى ظلم منكم مضموم إلى ظلمكم بالتكذيب. [نظم الدرر : ٨٩ ـ ٩١]

(١) هم : شعيب ، وهود ، وصالح ، ولوط . فجاءت مع شعيب وهود قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وجاءت مع صالح ولوط قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾.

الوقت. ولكن الواو قد تأتى ولا تفيد تعقيبا ، وأما ﴿ثُم﴾ فهى تقتضى التعقيب مع التراخى أى بعد فترة من الوقت [1] .

واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ لأن نزول القبر يأتى بعد الموت مباشرة، بمجرد أن يموت الإنسان يحمل إلى القبر، وبعد ذلك نجد : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ لأن النشور أو البعث أو يوم القيامة ، يأتى بعد فترة طويلة.

نأتى بعد ذلك إلى الآيتين اللتين فيهما ﴿فَلَمَّا﴾ فى الآية الأولى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٦٦] وكان هذا مع قوم صالح، حينما قال لهم نبيهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥] ذلك ؛ لأن الوعد هنا ثلاثة أيام محددة، ولابد أن تأتى.

وفى الآية الثانية : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢] ولقد جاءت هذه الآية الكريمة فى قصة لوط عليه السلام، بعد أن قال له ملائكة العذاب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

---

(١) قال البقاعى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالفاء لما مضى فى قصة صالح عليه السلام من التسبيب والتعقيب ، أى : فلما خرج منها لوط بأهله جاءها أمرنا ، ولما جاء أمرنا الذى هو عذابنا ، ولما كان كأنه قيل : فأخذوا الكلام على ظاهره ولم ينتفعوا بصادع وعيده وباهره ، فاستمروا على ما هم عليه من القبيح إلى أن جاء أمرنا فى الأجل المضروب له، قال عاطفا عليه ، وكان العطف بالواو ؛ لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين ـ كما فى قصتى صالح ولوط عليهما السلام ـ يتسبب عنه المجئ ويتعقبه : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى : تعلق إرادتنا بالعذاب .

[نظم الدرر : ٩/٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧]

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:٩٤] الأمر يقتضى آمرا ويقتضى مأمورا ويقتضى مأمورا به، لم يقل: وإنما جاء العذاب على يديه، أى لم يعط الأمر بالتعذيب ولكنه تم على يديه، لما جاء العذاب الذى قضى به الله على أهل مدين. جاء الأمر . . ولكن هل من الضرورى أن كل أمر يأتى بعده المأمور به ؟ نعم إذا كان الآمر قادرا على إنفاذ الأمر، ويكون هناك تسخير ويحدث الأمر، إنما يتباطأ المأمور به عن الآمر إذا كان الآمر يقول والسامع يطيع أولا يطيع . ولكن مع الله سبحانه لا يوجد شىء فى الكون إلا ويسارع لتنفيذ أمر خالقه. ومادام الكون يأتمر بأمر خالقه ينفذ العذاب مباشرة، إنما ذلك الذى يصدر أمرا والمأمور ينفذه أو لا ينفذه، يكون هذا من صفات تنفيذ أوامر غير القادر، وغير الأصيل فى الكون.

الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى العذاب، والعذاب يأتى بمجرد الأمر ؛ لأن الكون كله مسخر لتنفيذ أوامر الله . واقرأ قوله سبحانه وتعالى فى قصة أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص:٧] بعض الناس يتساءل هل هذا منطق ؟ إذا خافت الأم على ابنها من القتل تلقيه فى البحر؟ تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟!، نقول: ساعة سمعت أم موسى أمر الله جاءها دون معارض فى الذهن، فساعة يلقى الله إلهامه للمقربين لا يناقش الذهن ماذا قال مادام قد قال ، ولا يأتى أى نوع من الهواجس فى النفس البشرية، حتى ولو كانت هذه الهواجس قد تختلف مع إلف العادة عند الإنسان ؛ ولذلك تجد فى قوله تعالى إلى أم موسى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه:٣٨-٣٩]. كلها أوامر من الله سبحانه وتعالى تنفذ دون أى معارضة، ويتم تنفيذها على الفور.

هود عليه السلام عندما قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ لابد أن الذين سمعوا هذا المقال خصوصا إذا كانوا أقوياء وكانوا كثرة. لابد أنهم ينتظرون ليروا ماذا يفعل، فلو تخلف أمر كونى عن أمر قرآنى لهان أمر الأنبياء. ولذلك فمادام الذى يقول فى الكون هو الذى يقول فى تشريعات الكون، فلابد أن تتفق الكلمتان .

فعندما يقول الحق تبارك وتعالى حكما من الأحكام ويسجله فى قرآنه الكريم، فلابد أنه حادث لا محالة ؛ لأن الله يريد أن يزيد الإيمان، فلو أن الله جل جلاله قال قولا فى قضية كونية ، ثم جاء الكون فلم يأت بها ماذا يكون موقف المؤمنين؟ إذن فلابد فى أى قضية كونية أن تتفق الأحداث مع الكون ، لذلك عندما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] فلابد أن يغلب جنود الله جل جلاله، ماداموا يقاتلون فى سبيل الله،فإذا غلبوا أو انهزموا ، يكون هدفهم من الجندية والقتال ليس هو نصرة دين الله ونصرة حق الله ، إنهم يحاربون من أجل المال أو نفاقا أو من أجل الغنائم، وهم يدعون كذبا أنهم جند الله . نقول لهم لا . . مادمتم قد انهزمتم فلستم من جند الله ، لقد خالفتم الله ورسوله .

ونضرب لذلك مثلا : بعض الناس يقول لك، كيف ينهزم رسول الله ﷺ والمسلمون فى معركة أحد؟ نقول إن هذه ليست هزيمة، إنه نصر للدين وانتصار للرسالة، ذلك أن رسول الله ﷺ ، وقبل أن تبدأ المعركة جاء بالرماة ، رماة السهام، ووضعهم فى أماكنهم عند سفح جبل أحد. وقال لهم : لا تتبعونا، إن رأيتمونا منتصرين فلا تلحقوا بنا، وإن رأيتمونا منهزمين فلا تنزلوا إلينا فى الوادى، وعندما بدأ القتال انهزم الكفار ، وبدأوا يفرون من أرض المعركة تاركين الغنائم، حينئذ طمع الرماة فى

الغنائم ، فأسرعوا تاركين أماكنهم ، ليلحقوا بأكبر عدد من الغنائم، حينئذ لاحظ خالد بن الوليد أن مؤخرة المسلمين أصبحت مكشوفة، فدار حول الجبل وفاجأهم من الخلف فهزمهم [1] .

---

(١) غزوة أحد :

عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذى وقعت عنده ، ويقع فى شمال المدينة وكان يرتفع ١٢٨ متراً أما الآن فيرتفع ١٢١ متراً فقط بسبب عوامل التعرية ويبعد عن المسجد النبوى خمسة أكيال ونصف الكيل [1] بدءاً من باب المجيدى أحد أبواب المسجد النبوى ، ويتكون أُحُد من صخور جرانيتية حمراء وله رءوس متعددة ، ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى « عينين » وهو الذى عرف بعد المعركة بجبل الرماة ، وبين الجبلين واد عُرِف بوادى قناة .

وقد وقعت هذه المعركة نتيجة هجوم شنته قريش على المدينة ولم يمر على غزوة بدر سوى سنة واحدة وشهر ، واستهدفت الثأر لقتلاها ببدر ، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر .

وقد اتفق كتاب السيرة على أن أُحد كانت فى شوال فى السنة الثالثة من الهجرة ، واختلفوا فى اليوم الذى وقعت فيه ، وأشهر الأقوال أنها فى يوم السبت للنصف من شوال [2] . [السيرة النبوية الصحيحة : ٢/٣٧٨]

أسباب غزوة أحد :

لما أصيب من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع ـ بعد غزوة بدر ـ فَلُّهم [3] إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعير التجارة ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم =

---

(١) الكيل مصطلح أطلقه المجمع العلمى العربى بدمشق على الكيلو متر . وانظر عن تقدير المسافة ، العياشى : المدينة بين الماضى والحاضر ص ١٢ .

(٢) روى ذلك خليفة بن خياط بإسناد فيه مجهول عن الزهرى ويزيد بن رومان . تاريخ خليفة [٩٧] والطبرى ـ بإسناد فيه حسين بن عبد الله الهاشمى وهو ضعيف ـ عن عكرمة ، تفسير الطبرى [٧/٣٩٩] وهو أصح ما فى الباب على ضعفه .

(٣) « فَلَّ » الجيشَ : هزمه ، وبابه ردّ يقال : « فَلَّه فانفلَّ » أى كسره فانكسر .

[مختار الصحاح: ص ٥١٢]

. . . .

= وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة. وكانت تلك العير موقوفة فى دار الندوة لم تعط لأربابها [(١)] ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب وأصحاب العير بأحابيشها [(٢)] ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة [(٣)] .

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى قد مَنَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر ، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة ، وكان فى الأسارى فقال : إنى فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامنن علىّ صلى الله عليك وسلم ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ . فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا ، فقال: إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك الله علىّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة فى تهامة يدعو بنى كنانة .

وخرج مع مسافر بن عبد مناف بن وهب بن حذافة الجمحى إلى بنى مالك بن كنانة، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ [(٤)] . =

(١) سيرة ابن هشام : ٣/ ٦٠ ـ بتصرف يسير .

(٢) الأحابيش : الجماعة أيا كانوا . وأحابيش قريش : بطن اختلف فيه فقال ابن قتيبة : هم بنو المصطلق والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهون بن خزيمة . اجتمعوا بذنب حبش ، وحبش: بالضم جبل بأسفل مكة ـ فتحالفوا بالله أن اليد على غيرنا ، ما سجى ليل وأوضح نهار . وقال حماد الراوية : إنما سموا بذلك لاجتماعهم . والتحابش : هو التجمع فى كلام العرب [المعارف ص ٢٦٩] . وقال الجوهرى : بطن من قريش . وقال أبو الفداء : هم بطون من كنانة من خزيمة ، ثم قال : وليسوا من الحبشة كما يتوهم البعض . [انظر القاموس المحيط : ٢/ ٢٦٧] ، وتاج العروس ـ فصل الحاء من باب الشين، مادة حبش : [٤/ ٢٩٣] ، و[معجم قبائل العرب : ١/ ٥] .

(٣) سيرة ابن هشام : [٣/ ٦١] .

(٤) سيرة ابن هشام : ٣/ ٦١ . وانظر مرويات غزوة أحد ـ رسالة ماجستير ـ للطالب أحمد الباكرى : ص ٤٦ .

= **أحداث غزوة أحد :**

خرجت قريش بكل طاقاتها ، ومعها أحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجت معهم النساء التماس الحفيظة (١) .

وبلغ عدد جيش قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس جعلوا على ميمنتها خالد ابن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل وكان فيهم سبعمائة دارع (٢) .

وقد علم المسلمون بقدوم جيش المشركين لغزو المدينة ، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق وهى من الوحى - حكاها لأصحابه فقال : « رأيت فى رؤياى أنى هززت سيفاً فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان ، فإذا هو ما جاد الله به من الفتح واجتماع المؤمنين ، ورأيت فيها بقراً - والله خير - فإذا هم المؤمنين يوم أحد (٣) .

الموقف فى المدينة المنورة :

شاور النبى ﷺ أصحابه فى البقاء فى المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين .

وكان رأى النبى ﷺ البقاء فى المدينة وقال : « أنا فى جُنَّة حصينة » وكان رأى عبد الله بن أبى بن سلول مع رأى رسول الله ﷺ ، إلا أن رجالا من المسلمين ممن كان فاته بدر ، قالوا : يا رسول الله ، أخرج بنا إلى أعدائنا ، قال ابن إسحاق : « فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته ، فلبس لأمته (٤)) .

فتلاوم القوم فقالوا : عرض نبى الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة فقل لنبى الله ﷺ : «أمرنا لأمرك تبع » فأتى حمزة فقال له : يا نبى الله إن القوم قد تلاوموا ، فقالوا : أمرنا لأمرك تبع ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس لنبى إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل) (٥) . =

(١) سيرة ابن هشام : ٣/٦٢ .

(٢) المجتمع المدنى فى عصر النبوة : ص ٦٦ .

(٣) أخرجه البخارى [٤٠٨١] واللفظ له ، ومسلم [٢٢٧٢] .

(٤) سيرة ابن هشام : ٣/٦٣ . واللأمة : الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب .

(٥) تاريخ الطبرى : ٢/٥٠٣ ، ٥٠٤ .

. . . .

= **انسحاب المنافقين :**

وفى منتصف المسافة بين المدينة وأُحد ، انسحب عن النبى ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الجيش ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيْب (١) .

وصول المسلمين إلى أحد :

قال ابن إسحاق : « ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعْب من أُحد فى عَدْوة الوادى إلى الجبل » (٢) .

وجعل النبى ﷺ خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير فوق جبل عينين المقابل لأُحد لحماية المسلمين وقال لهم : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم » (٣) .

أحداث المعركة :

اشتد القتال بين الجيشين وتراجع المشركون إلى معسكرهم فقد أبدى المسلمون بطولة فائقة ، فهذا رسول الله ﷺ يأخذ سيفاً فيقول : « من يأخذ منى هذا ؟ » فبسطوا أيديهم ، كل إنسان منهم يقول : أنا ، أنا ، قال : « من يأخذه بحقه ؟ » قال : فأحجم القوم ، فقال أبو دجانة : أنا آخذه بحقه ، قال : فأخذه ففلق به هام المشركين (٤) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطاة بن شرحبيل ، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء ، ثم مر به سباع بن عبد العزى وكان يكنى بأبى نيار ، فقال له حمزة: هلم إلىّ يابن مقطعة البظور ، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله (٥) . =

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣/ ٦٤ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٣/ ٦٥ .

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٠٣٩] بلفظ : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

(٤) أخرجه مسلم [٢٤٧٠] .

(٥) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٠٧٢] بلفظ : « ... ياسباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور ، أتحادّ الله ورسوله ﷺ ... » .

= وكان وحشى مولى جبير بن مطعم [1] قد وعده مولاه أن يعتقه إن قتل حمزة ، وكان حمزة قد قتل عمه طعيمة بن عدى ببدر .

قال وحشى : فخرجنا مع الناس ، وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قل ما أخطىء بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس كأنه جمل أورق يهد الناس بسيفه ما يبقى منه شىء .

فوالله إنى لأتهيأ له أريده ، وأستتر منه بشجرة أو حجر إذ تقدم منه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال : « هلم إلىَّ يا ابن مقطعة البظور أتحادّ الله ورسوله ؟» .

قال وحشى : وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها نحوه فوقعت فى ثُنَّته [2] حتى خرجت بين رجليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ، ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه [3] .

واستشهد آخرون فى هذه المرحلة الأولى من القتال منهم حامل الراية مصعب ابن عمير [4] .

قال خباب : « هاجرنا مع النبى ﷺ نحن نبتغى وجه الله ، فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مضى ـ أو ذهب ـ لم يأكل من أجره شيئاً كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة (أى : كساء) كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غطى بها رجلاه خرج رأسه .

فقال لنا النبى ﷺ : « غطوا بها رأسه واجعلوا الإذخر ، أو قال : ألقوا على رجليه من الإذخر » [5] . =

---

(١) جبير بن مطعم بن عدى القرشى ، كان من زعماء قريش فى الجاهلية ، أسلم وحسن إسلامه ، وكان أنسب قريش لقريش ، والعرب قاطبة ، روى له البخارى ومسلم ستين حديثاً ، توفى رضى الله عنه عام ٥٩ هـ . (انظر الإصابة : ١/ ٢٢٥) .

(٢) ثُنَّة بضم المثلثة وتشديد النون ، هى العانة ، وقيل : ما بين السرة والعانة . [انظر فتح البارى : ٧/ ٣٧٠] .

(٣) انظر تفصيل القصة فى صحيح البخارى [٨/ ١١٥] ، وانظر سيرة ابن هشام : [٣/ ٧٠] .

(٤) انظر سيرة ابن هشام :[٣/ ٧٣] .

(٥) أخرجه البخارى [٤٠٨٢] بلفظ : « غطوا بها رأسه ، واجعلوا على رجليه الإذخر ـ أو قال ـ ألقوا على رجليه من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته ، فهو يهد بها » .

. . . .

= ولما استشهد مصعب بن عمير أخذ على بن أبى طالب اللواء ، ولما رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبد الله بن جبير : (الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟) فقال عبد الله بن جبير : « أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة » (١) ثم انطلقوا يجمعون الغنائم .

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيالة المشركين ـ الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين من جهتين ، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى ، وأخذوا يقاتلون دون تخطيط ، بل لم يعودوا يميزون بعضهم ، فقد قتلوا اليمان ـ والد حذيفة بن اليمان ـ وهو شيخ كبير وابنه يصيح فيهم : أبى ! فأجهزوا عليه فقال حذيفة : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) .

وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء فى الميدان ، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قد قتل (٣) .

وفر كثير من المسلمين من ميدان القتال وانتحى بعضهم جانباً فجلس دون قتال ، فى حين آثر آخرون الموت على الحياة بعد أن شاع خبر مقتله ﷺ منهم أنس بن النضر ، وكان أول من عرف بأن الرسول ﷺ حى هو كعب بن مالك فنادى فى المسلمين يبشرهم فأمره الرسول ﷺ بالسكوت لئلا يفطن له المشركون .

ودعا النبى ﷺ أصحابه إلى الالتفاف حوله ، وقد سجل القرآن ذلك فى قوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وخلص بعض المشركين إلى الرسول ﷺ نفسه وهو فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فقال : « من يردهم عنا وهو رفيقى فى الجنة » فقاتلوا عنه واحداً واحداً حتى استشهد الأنصار السبعة (٤) ، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله قتالا مشهورا حتى شلت يده بسهم أصابها . وقاتل سعد بن أبى وقاص بين يدى رسول الله ﷺ =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٠٣٩] .

(٢) تاريخ الطبرى : [٢/ ٥٣٠] .

(٣) انظر فتح البارى [٧/ ٣٦٠] .

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٧٨٩] بلفظ : « من يردهم عنّا وله الجنة ، أو رفيقى فى الجنة؟ » .

. . . .

= وهو يناوله السهام ويقول : « ارم فداك أبى وأمى » . وكان سعد من مشاهير الرماة. ودافع أبو طلحة الأنصارى عن رسول الله ﷺ وكان راميا ، فكان النبى ﷺ يشرف على القتال ، فيقول له أبو طلحة : « لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك» وكان إذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول الرسول : « انثرها لأبى طلحة » [1] .

وأصيب الرسول ﷺ إصابات كثيرة فكسرت رباعيته وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الإسلام »[2] ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

واستشهد حنظلة بن أبى عامر ، وثابت بن وقش ، وقتل فى أحد مخيرق وكان من اليهود .

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد منهم أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التى اضطرت للقتال دفاعا عن رسول الله ﷺ حتى جرحت جراحا كثيرة . وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقى العطشى وتداوى الجرحى . وثبت أن أم سليط كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين .

وصح أن عائشة رضى الله عنها وأم سليم قامتا بسقى الجرحى بعد تراجع المسلمين[3] .

واستمر القتال بين الطرفين حتى أجهد الجانبين ، وبدأ الرسول ﷺ بالانسحاب نحو شعاب أحد وقد لحق به المسلمون حتى صعد فى أحد شعابه وتمكن المسلمون من صد المشركين عنه .

تأييد الله عز وجل لرسوله ﷺ والمؤمنين بأمور منها :

١ ـ أمد الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بملائكة يدافعون عنه ويقاتلون جاء ذلك =

---

(١) أخرجه البخارى [٤٠٦٤] .

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٠٢٧] بلفظ : « ... بالدم وهو يدعوهم إلى الله ؟ » . وأحمد فى المسند [٣/١٧٩] بلفظ : « ... بالدم وهو يدعوهم إليربهم عز وجل » . وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٢٥٣] : صحيح .

(٣) انظر صحيح البخارى [٤٠٦٤] .

= في صحيح البخارى [1] ومسلم [2] ـ واللفظ لمسلم ـ : عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله ، يوم أحد ، رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ـ يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام ـ . .

٢ ـ إنزال النعاس على المؤمنين : كان المسلمون مغتمين لما أصاب الرسول ﷺ فأنزل الله تعالى عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا وقد زال عنهم الخوف وامتلأت نفوسهم طمأنينة، قال أبو طلحة الأنصارى : « كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفى من يدى مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط فآخذه»[3].

وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٤]. وهذه الطائفة التى أهمتها نفسها دون أن تفكر بمصاب المسلمين ومصير الإسلام هى المنافقون الذى قال قائلهم : ﴿ **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا** ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ومن الذين قتلهم بيده الشريفة أبى بن خلف الجمحى وقد حلف أن يقتل رسول الله ﷺ فرماه الرسول بحربة فجرحه فرجع إلى أصحابه ومات فى طريق عودتهم من أحد .

نهاية المعركة :

يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم ، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفوا عن مقاتلة المسلمين فى شعاب أحد .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان بن حرب ، حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال : أنعمت فعال ، وإن الحرب سجال يوم بيوم ، أُعْلِ هبل ، أى ظهر دينك ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عمر فأجبه ، فقل : الله أعلى وأجل لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فلما أجاب عمر =

(١) أخرجه البخارى [٤٠٥٤] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٣٠٦/٤٧] .

(٣) أخرجه البخارى [٤٠٦٨] .

= أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : هلم إلىّ يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : « ائته فانظر ما شأنه » ، فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر (١) .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه ، نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : « قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد » (٢) .

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، فقال : « اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل (٣) وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده ، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم » . قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

وأمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء سبعين شهيداً ولم يؤسر أحد من المسلمين ، أما قريش فقد قتل منها اثنا وعشرون رجلاً وأسر منهم أبو عزة الشاعر فقتل صبراً لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لايقاتل ضده عندما منّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل بأحد .

وقد صح أن الرسول ﷺ جمع بين الرجلين من الشهداء فى ثوب واحد ، وقدم عند الدفن أكثرهم حفظاً للقرآن ، وأمر بدفنهم فى دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة » (٤) .

نتائج غزوة أحد :

غزوة أحد لها نتائج كثيرة نذكر من أهمها :

١ ـ استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون ، ولم يؤسر أحد من المسلمين ، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون .

٢ ـ أظهر المنافقون واليهود بالمدينة فرحهم وفارت المدينة بالنفاق ، فقال اليهود : =

---

(١) سيرة ابن هشام [٣/ ٩٤] .

(٢) سيرة ابن هشام [٣/ ٩٤] .

(٣) جنبوا الخيل : قادوهغا إلى جنوبهم . [هامش سيرة ابن هشام : ٣/ ٩٤] .

(٤) أخرجه البخارى [٤٠٧٩] .

هذا هو ما حدث يوم أُحد، وكان هناك أمران، إما أن يخالف المسلمون أوامر رسول الله ﷺ ، ويتركوا أماكنهم عند سفح الجبل فينتصروا، وفى هذه الحالة يكون المسلمون قد خالفوا رسول الله ﷺ ، وخالفوا أوامر دينهم وانتصروا ؛ فيستهينون برسول الله عليه الصلاة والسلام وبأوامر الدين، وتضيع قضية الدين كله ؛ لأنهم خالفوا الرسول فى أمر المعركة وانتصروا، فلماذا لا يخالفونه فى كل شىء حتى فى أوامر الدين ماداموا ينتصرون .

ولكن قضية الدين كانت تقتضى فى هذه اللحظة بالذات ، اللحظة التى خالف فيها المسلمون أوامر رسول الله ﷺ ، كانت قضية الإيمان والدين تقتضى أن ينهزموا حتى لا يخالفوا أوامر رسول الله ﷺ بعد ذلك أبداً،

= لو كان نبياً ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ولكن طالب ملك تكون له الدولة وعليه. وقال المنافقون : لو كنتم أطعتمونا لما أصابكم ما أصابكم (١) .

٣ ـ كانت أُحد ابتلاء من الله ، فقد جرت حكمة الله عز وجل أن الرسل تبتلى ، ثم تكون العاقبة لهم ، ولو انتصروا دائما لدخل فى المسلمين من ليس منهم ، ولا يسمى ما وقع فى أحد هزيمة فقد سماها القرآن الكريم قرحا (٢) وسماها إصابة (٣) ، قال الشيخ محمد أبو زهرة: إن تسمية ما أصاب المسلمين بأُحد هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق إنما تكون الهزيمة إذا كان جيش الإيمان قد فر فراراً والآخر تبعه فى فراره حتى داهم المدينة (٤) .

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ : ١/١٥١ ـ ١٦١]

وللحديث عن غزوة أُحد بقية إن شاء الله تعالى وقدر فى كتاب « السيرة النبوية » لسماحة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى .

---

(١) مرويات غزوة أحد ص ٣٧٣ . وانظر السيرة النبوية لابن كثير : ٣/٩٦ .

(٢) جاد ذلك فى قوله تعالى : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ .

(٣) جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ .

(٤) خاتم النبيين : للشيخ محمد أبو زهرة : ٢/٢٢١ ـ بتصرف يسير .

ويعلموا أنهم إن خالفوها فإن البؤس والشقاء والهزيمة ستلحقهم، وهذا ما حدث. ولذلك لم تكن أُحد هزيمة فى معركة، ولكنها كانت انتصاراً إيمانيا لله ورسوله ومنهجه ؛ ليعلم المسلمون جميعاً أن العزة باقية لهم ماداموا فى طاعة الله ورسوله وكتابه ومنهجه، وأنه فى اللحظة التى يتخلى فيها المسلمون عن طاعة الله ورسوله يتخلى الله عنهم، فيتبدل عزهم ذلا وقوتهم ضعفاً .

هذا هو الدرس الإيمانى الذى نأخذه من غزوة أحد، فإن جاءك من يقول إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧٣] نقول: نعم بشرط أن يكونوا جند الله حقا، لا زيفا ولا نفاقا ولا رياء. ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٧] إذن فالقضية القرآنية لا يمكن أن تتصادم مع القضية الكونية، فجند الله غالبون ماداموا هم جند الله حقيقة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ماذا كان أمر الله ؟ الله سبحانه وتعالى سمى هذا الأمر: ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ فى سورة الأعراف، وسماه ﴿ الرَّجْفَةُ ﴾ فى سورة الأعراف، وسماه «خسفًا» فى سورة القصص، وسماه ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ فى سورة الحاقة، أسماء كثيرة قرأناها لأمر الله المتوعد به قوم مدين، كيف يمكن أن يستقيم وصف الصيحة والريح الصرصر ، والرجفة ، وغير ذلك ؟ (١)

---

(١) قال ابن كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

نقول: إن هذه عظمة التوجيه، مما يدل على أن جندية الكون لله سبحانه وتعالى مرتبة بقدرات الله . فالرجفة جاءت والصيحة جاءت والصاعقة جاءت. هذه أصابت من كتب لهم أن تصيبهم، وهذه أصابت من كتب لهم أن تصيبهم ، كل إنسان جاءه نوع العذاب الذى قدره الله له أن يعذب به، أما الذين لم يكتب عليهم العذاب، أولئك المؤمنون الناجون من الموت أو العذاب فلم يصبهم شيء[1].

وإذا أردنا أن نضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان - ولله المثل الأعلى -

---

مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وقوله جاثمين أى هامدين لا حراك بهم ، وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ففى الأعراف لما قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ ناسب أن يذكر هناك ﴿الرَّجْفَةُ﴾ فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ذكر ﴿الصَّيْحَةُ﴾ التى استلبثتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال : ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة .

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٩]

(١) أمر الله تعالى لا يتخلف ولا يتأخر ، فإذا جاء نجَّى الله تعالى رسوله والمؤمنين معه ، وأهلك الكافرين المكذبين المعاندين وإن جمعه زمان ومكان واحد .

كيف ذلك ؟ . نقول : قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٦-٦٧] .

فالله القوى الغالب دائما ، العزيز الذى لا يغلب ، قادر على أن ينجى من يشاء ، وأن يعذب من يشاء ، وإن جمعهما مكان وزمان واحد .

=

نقول: هب أننا نهاجم جيشاً أو مدينة بالأسلحة الحديثة المتنوعة ، الأسلحة كلها تنطلق، صائدات الدبابات تفجر الدبابات ، ومفجرات الألغام تنسف الألغام والتى تحدث خسائر كبيرة فى الأفراد توجه إلى الأفراد، كل واحدة منها تذهب إلى هدفها. فإذا كان هذا فى قدرة الإنسان الضعيف المتغير، فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى .

أما أولئك الناجون وسط هذه الأسلحة الفتاكة الموجهة إلى الكفار فهذه معجزة أخرى، عظمة التوجيه من الله سبحانه وتعالى الذى يقول للشىء كن فيكون ، والله ينجى ويهلك بالشىء الواحد .

إذن فكل قضايا الكون التى يكشفها لنا العلم ؛ إنما جاءت لتبين لعقولنا ما تستطيع أن تستوعبه من عظمة الله ، وسيطرته على كونه، وقدرته سبحانه على أن ينجى ويهلك بالشىء ، فنجد أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه فانشق، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء:٦٣] أى أن الماء خرج عن قانونه، وهو السيولة والاستطراق، وأصبح يخضع لقانون اليابسة، كل ناحية من البحر كالجبل العظيم، موسى عليه السلام نزل هو وقومه إلى البحر ومشوا فيه حتى وصلوا إلى الشاطئ الثانى من البحر، نظر موسى من الشاطئ الثانى، فرأى فرعون ووراءه جنوده يريدون أن ينزلوا إلى البحر

= بعض الجهال بقدرة الله تعالى إذا مات لهم ميت كبير بالغ ، وتصادف لهم موت طفل صغير لم يبلغ الحلم قالوا ندفن هذا الطفل إلى جوار هذا البالغ ، حتى يرحمه وحتى يكون القبر روضة من رياض الجنة ، لا حفرة من حفر النار ، وكأنهم بجهلهم يعجزون الله عز وجل إنهم بفكرهم العقيم هذا ما قدروا الله حق قدره ، فالله عز وجل ، قادر على أن يجعل قبر من يستحق حفرة من حفر النار وأن يجعل ذلك القبر لمن يستحق روضة من رياض الجنة فى آن واحد وفى قبر واحد . ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** ﴾ .

ليعبروه، ويلحقوا بموسى وبنى إسرائيل، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى ؛ ليعود إلى استطراقه وسيولته ، فلا يستطيع قوم فرعون أن يعبروه بخيولهم. فماذا كان ؟ جاءه الأمر من الله تعالى : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾. أى اترك البحر كما هو عليه يابسا، ليتسنى لفرعون وجنوده أن يعبروا ، وعندما أصبح أول جنود فرعون عند شاطئ البحر وآخر جنوده قد نزل إلى البحر مغادراً الشاطئ الآخر. أمر الله سبحانه وتعالى البحر أن يعود إلى طبيعته وقانون سيولته، فغرق فرعون وجنوده جميعاً. وبذلك يكون الله سبحانه وتعالى قد أهلك وأنجى بالشيء الواحد، وهذا مالا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى [1].

---

(١) قال القرطبى : أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى فى البقرة قصة هذا البحر . ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم. والطود الجبل ، ومنه قول امرئ القيس :

فبينا المرءُ فى الأحياءِ طَوْدٌ   رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا

وقال الأسود بن يعفر :

حَلُّوا بأنقرةٍ يَسيلُ عليهمُ   ماءُ الفُراتِ يجئُ من أطْوَادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا فى البحر يَبَسًا ، فلما خرج أصحاب موسى ، وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم فى « يونس » انصب عليهم وغرق فرعون ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق ، فقالا له افعل ما أمرك الله فلن يخلفك، ثم ألقيا أنفسهما فى البحر تصديقا له ، فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . [تفسير القرطبى : ١٣/١٠٦ ، ١٠٧]

حينما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ نجينا .. النجاة تقتضى أن يكون هناك منجى، أى من ينجى. ويبدو أن عداوة الماء للبشر حين يطغى أقوى من عداوة النار للبشر. ولذلك هاجر كثيرون من العرب من اليمن إلى الجنوب والشمال حينما انهدم سد سبأ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [1] حدث هذا بأن جعل الله تبارك وتعالى الفأر يخرب السد فانفرج الماء منه، وكما يقول العرب فرقتهم أيدى سبأ، فروا من اليمن خوفاً من الماء، فذهب كل واحد منهم إلى مكان، وظلوا كارهين الاقتراب من مناطق المياه خوفاً من طغيان الماء ، والماء هو سر الحياة، ومنه خلق كل شىء حى، ساعة يرى العرب الماء يخافون، وقالوا: نجلس فى الصحراء لا توجد فيها وفرة ماء، ونتعب فى استخراج قليل من الماء يكفينا للشرب أفضل من أن يهلكنا الماء بطغيانه، « ونجا » معناها ذهب إلى منطقة مرتفعة لا يصل إليها هذا الماء الطاغى، وقد

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ . دل على أنه إرسال عذاب ، بعد مظهر العظمة بأداة الاستعلاء ، فقال : ﴿عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أى سيح المطر الغالب المؤذى الشديد الكثير ، الحاد الفعل المتناهى فى الأذى الذى لا يرده شىء ولا تمنعه حيلة بشد ولا غيره ، من العرامة وهى الشدة والقوة فأفسد عليهم جميع ما ينتفعون به . قال أبو حيان : سلط الله عليهم الجرذ فأرا أعمى توالد فيه ، ويسمى الخلد ، فخرقه شيئا بعد شىء ، فأرسل الله سيلا فى ذلك الوادى ، فحمل ذلك السد فروى أنه كان من العظم وكثرة الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين ، وحمل الجنان وكثيرا من الناس ممن لم يمكنه الفرار . ولما غرق من غرق منهم ونجا من نجا ، تفرقوا وتمزقوا ، حتى ضربت العرب المثل بهم فقالوا : « تفرقوا أيدى سبأ » أو «أيادى سبأ» .
[نظم الدرر : ١٥/٤٧٨ ، ٤٧٩]

أصبحت هذه الكلمة ، « نجا » أى اتخذ مكاناً عالياً هى العلامة على النجاة من كل طغيان، سواء كانت هذه النجاة من الماء أو من النار أو من العذاب أو من غير ذلك، ومعناها اتخذ مكانا عالياً ليحميه. ويقال أنجاه، ويقال نجينا .

إذن فنجى بذاته وأنجاه غيره، ونجاه غيره إذا كان فى النجاة صعوبة، فإذا أسند الفعل لله سبحانه وتعالى قيل ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ ، فاستخدام صفة الجمع هنا تأتى دائما فى كل فعل من الله يحتاج إلى صفات متعددة، فى سورة القدر يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ذلك أن إنزال القرآن الكريم يقتضى صفات متعددة، بينما حين يتحدث الله عن الذات يقول : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى ﴾ .

شعيب قال لقومه : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ ، ولكن لا عمل شعيب ولا عمل قومه فيهما أساس النجاة. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ لأن الله جل جلاله هو الذى نجى شعيبا وقومه ، فلا توجد عزيمة لشعيب ولا لقومه ؛ لأن الله كفاهم هذا كله. لذلك : الحق سبحانه وتعالى يريد منا النية الصادقة إليه، يريدنا أن نتوكل عليه لأن كل شيء عنده. فبمجرد الإيمان بالله والاتجاه إليه بصدق وإخلاص يكون مفتاح خيرى الدنيا والآخرة فى يدك، ألم يقل الحق تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه. ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً. ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة» (١) .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب منى شبرا ، تقربت إليه =

فالحق سبحانه وتعالى يريدك أن تذكره فى نفسك ليذكرك فى نفسه وأن تتقرب إليه شبراً ليتقرب إليك ذراعاً، وأن تتقرب إليه ذراعاً ليتقرب إليك باعاً، وأن تأتيه ماشياً فيأتيك هرولة . الله تبارك وتعالى أعطانا المفتاح فى أيدينا. إن أخلصنا لله كنا بمعيته سبحانه وتعالى يتصدق علينا من صفات جلاله وجماله .

وانظر إلى رسول الله ﷺ وأبى بكر فى الغار، . . أبو بكر ينظر إلى رسول الله ﷺ وسلم ويقول . . لو نظر أحدهم موضع قدميه لرآنا، فيرد رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» (1) أبو بكر يتكلم عن القانون الكونى، ورسول الله ﷺ يتكلم عن قانون الخالق الأعظم ، أبو بكر يقول بقوانين الكونيات: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، ورسول الله ﷺ يتحدث عن ثقته بربه فيقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما» لأنهما ماداما فى معية الله . الله سبحانه وتعالى خالق الأبصار ، وماداما فى معيته سبحانه ، فلا أحد يستطيع رؤيتهما ، يعطل جل جلاله قانون الرؤية عند غيرهم فلا يبصروهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ كلمة

= ذراعا، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت منه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ».
أخرجه مسلم [٢٦٧٥] واللفظ له وابن ماجه [٣٨٢٢] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٠٨٠] .

(1) عن أنس ، قال : حدثنى أبو بكر رضى الله عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار، فرأيت آثار المشركين قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا . قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» . أخرجه البخارى [٤٦٦٣]. وأخرجه مسلم [٢٣٨١] بلفظ : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، قال نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار ، فقلت: يا رسول الله ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال: « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

﴿نَجَّيْنَا﴾ قلنا: إن نجا بذاته وأنجى بالتعدية مرة واحدة، و ﴿نَجَّيْنَا﴾ معناها معالجة أى أنه كان محشوراً فى العذاب فقضى الله له بالرحمة، والرحمة هى ألا يصيبك مكروه.

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ الشفاء هو معالجة الداء أو المرض والرحمة ألا يصيبك المرض مرة أخرى. ولذلك فإن النجاة هنا لم تحدث كعلاج وإنما حدثت كرحمة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ هذا قسم النبوة [1] .

---

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره :ولما جاء قضاؤنا فى قوم شعيب بعذابنا نجينا شعيبا رسولنا ، والذين آمنوا به ، فصدّقوه على ما جاءهم به من عند ربهم مع شعيب ، من عذابنا الذى بعثنا على قومه ، برحمة منا له ، ولمن آمن به ، واتبعه على ما جاءهم به من عند ربهم ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء أخمدتهم فأهلكتهم بكفرهم بربهم ، وقيل : إن جبريل عليه السلام ، صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ على ركبهم وصرعى بأفنيتهم . [تفسير الطبرى : ١٢/١٠٨]

❋ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ❋

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤] وفى آية أخرى يقول الحق : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود:٦٧] بدون تاء التأنيث ، نقول: إن القرآن جاء على لغة قريش، وليس هذا لعلو قريش، ولكن لأن لغة قريش مصفاة من لغات جميع القبائل ؛ لأن القبائل كلها كانت تأتى للأسواق والحج، فتأخذ قريش صفوة اللغة. ولكن ليس معنى هذا أن اللغات الأخرى تطمس ، لا . . فيؤتى من كل لغة بكلمة أو كلمات حتى لا تأخذ قريش سيادة إسلامية بلغة القرآن كما كان لها سيادة جاهلية ، فتأتى مرة تاء التأنيث فى المؤنث الحقيقى، فيقال : الصيحة ، والغرفة ، والحجرة هذا مؤنث صحيح، مؤنث حقيقى مثل المرأة، وهناك مؤنث مجازى، أى يتجاوزون فيه فمرة تأتى تاء التأنيث ومرة لا تأتى، فصل بين التاء وبين الفاعل، الفاصل يكون قائماً مقام التأنيث، فمرة يقول : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ ومرة يقول : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[1].

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة، صيح بهم فماتوا، وذكّر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غيرحقيقى. قيل:صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا. [فتح القدير: ٢/ ٥٢٠]

وقال البقاعى: ثم بين إيقاعه بأعدائه بعد إنجائه لأوليائه، فقال معظماً للأخذ بتذكير الفعل: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وأشار إلى عظمة هذه الصيحة بإسقاط علامة التأنيث. وقال فى قوله تعالى : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أى: أوقعوا =

قول الحق : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ كلمة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ تدل دائماً على العذاب. ولذلك نجد فى آية : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ وفى آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣٨] وفى آية أخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:٥٨] ووقت الصبح هو وقت الهجعة بالنسبة للغافل النائم طوال الليل، ومازال ناعساً فى نومه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ كان من المفروض أن يقول: دارهم وليس ديارهم . ولكن القرآن احتاط أن يكون واحد منهم فى مكان آخر أو فى عمل أو فى زيارة. ولذلك قال ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾، ولقد كان أحدهم فى مكة فلم تصبه الحجارة ؛ لأن الله جعل بيته آمنا، وعندما عاد كانت تنتظره ، فكأنها كانت تتبعهم أو تنتظرهم[1]. وقوله تعالى : ﴿جَاثِمِينَ﴾ الجيم والثاء حينما يوجدان ، بصرف النظر عن الحرف الثالث الموجود فى الوسط، مثل جدث الجيم والثاء تعنى شيئاً من الهلاك أو شيئاً من المصائب. فقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ . أى ملقون على

= الظلم وكأنها كانت دون صيحة ثمود؛ ؛ لأنهم كانوا أضعف منهم، فلذلك أبرز علامة التأنيث فى هذه دون تلك . [نظم الدرر : ٩/ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٦٧]

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أى صيحة جبريل. وأنث الفعل على لفظ الصيحة، وقال فى قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ فذكّر على معنى الصياح. قال ابن عباس: ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب، أهلكهم الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم. [تفسير القرطبى: ٩/ ٩٢]

(١) حدث هذا بالنسبة لقوم لوط عليه السلام ، حينما أمطرهم الله تعالى بحجارة من سجيل، وقد أشرنا إلى ذلك فى موضعه من قصة لوط ، فأغنى عن إعادته هنا .

بطونهم ليس بهم حراك (١).

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية:٢٨] أى على ركبتيها دليل الذل والخضوع، والجثة لا تقال إلا للميت، وكل إنسان يكون له شأن فى الدنيا. ولكن فى اللحظة التى يموت فيها، ينسى كل شىء حتى اسمه، ويلقب بالجثة، فيقال غسلوا الجثة، كفنوا الجثة، ادفنوا الجثة .. انتهى من الدنيا فإذا وضع فى النعش سمى الخشبة. فإذا وضع فى القبر نسيه الناس، لا تقبله إلا أمه الأرض، تمتص كل ما ينزل منه من صديد وروائح كريهة، كل الناس تتأبى عليه إلا أمه الأرض ، هى التى تتقبل منه كل شىء ، والإنسان وهو حى مادام فيه الروح يكون إنسانا. فإذا مات وخرجت

---

(١) جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والخشْف والأَرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجثُوماً، فهو جاثِم: لزِم مكانه فلم يَبْرَح أى تَلَبَّد بالأرض، وقيل: هو أن يَقَعَ على صدره؛ قال الراجز:

إذا الكُماةُ جَثَمُوا على الرُّكَبْ   ثَـبَجْتَ ياعَمْرو ثُبُوجَ المُحْتَطِبْ

قال: وهى بمنزلة البُروُك للإبل؛ ومنه الحديث: فلزِمها حتى تَجَثَّمَها تَجَثُّمَ الطير أُنْثاه إذا عَلاها للسِّفاد .

الليث: الجاثمُ اللازمُ مكانه لا يَبْرح. الليث: الجاثمَةُ واللِّبَدُ الذى لا يَبْرحُ بيتَه؛ يقال: رجل جُثَمةٌ وجَثَّامة للنَّؤوم الذى لا يسافر. ويقال: إن العسَل يَجْثُم على المَعدة ثم يَقْذِف بالداء، وفى بعض الكلام: إذا شربت العسَل جَثَم على رأس المَعِدة ثم قَذف الداء ، وجمعُ الجاثِم جُثوم.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى أجساداً مُلقاةً فى الأرض ، وقال أبو العباس: أى أصابهم البلاءُ فبَرَكوا فيها، والجاثمُ: البارِك على رجْليه كما يَجْثِم الطيرُ، أى أصابهم العذاب فماتوا جاثمين أى بارِكين.

[لسان العرب : ١٢/ ٨٢ ، ٨٣]

وقال **البقاعى** : ولما ذكر الصيحة ذكر ما تسبب عنها فقال : ﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ أى : فى الوقت الذى يتوقع فيه الإنسان السرور ، وكل خير ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ : أى : ساقطين لازمين مكانهم .   [نظم الدرر : ٩/ ٣٦٧]

الروح يصبح جثة .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى كأنهم لم يوجدوا فيها، تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] أى كأن لم يعش فيها أحد من قبل ذلك، كل شىء يختفى تماماً وينتهى (١).

---

(١) **قال الزجاج** : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ : كأن لم ينزلوا فيها ، يقال : غنينا المكان إذا أنزلنا به . [معانى القرآن وإعرابه : ٣/ ٧٥]

قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : كأن لم يعش قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذابه، حين أصبحوا جاثمين فى ديارهم قبل ذلك، ولم يغنوا من قولهم: غنيت بمكان كذا: إذا أقمت به، ومنه قول النابغة:

غَنِيَتْ بذلكَ إذْ هُمُ لى جِيرَةٌ مِنْها بعَطْفِ رِسالَة وتَوَدُّد (١)

[تفسير الطبرى: ١٢/ ١٠٩]

وقال البقاعى : ولما كان الجثوم قد لا يكون بالموت، أوضح المراد بقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى لم يقيموا فى ديارهم أغنياء متصرفين مترددين مع الغوانى لاهين بالغناء؛ ولما كان مضمون ذلك الإبعاد أكده بقوله: ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ بعدا مع أنه بمعنى ضد القرب معه هلاك، فهو من بعد ـ بالكسر، وأيد ما فهمته من أن أمرهم كان أخف من أمر ثمود بقوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ . [نظم الدرر: ٩/ ٣٦٧]

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى وهو السابع من داليته المطولة فى وصف المتعبردة . « مختار الشعر الجاهلى بشرح مصطفى السقا طبعة الحلبى ص ١٧٣» وغنيت: أقامت وعاشت. يقول: أقامت على مودتك وهى جارة لك فكانت تتودد إليك، وتعرض لك، وتعطف رسائلها عليك. والرواية فيه «لك جيرة» بالخطاب، على طريق التجريد، وهى رواية فى البيت.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

﴿أَلَا﴾ عندما تسمعها فى القرآن أو أى كلام عربى، أداة استفتاح يفتتح بها الكلام وليس لها دلالة، وإنما هى لتنبيه السامع، والمتكلم قبل أن يتكلم تكون هناك نسبة ذهنية فى عقله. فإذا بدأ الكلام فإنه متنبه لما يقول، ولكن السامع قد يكون فى عقله شىء آخر، أى لا يكون متنبها لما سيقال. ولذلك فعندما يبدأ المتكلم الكلام ينبه السامع بكلمة ﴿أَلَا﴾. ولذلك تجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة على هذا النحو منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢] كلها لتنبيه السامع، خشية أن يكون فى غفلة عما يريده المتكلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود:٩٥] كلمة ﴿أَلَا بُعْدًا﴾، معناها أنك تدعو عليه بالبعد، أى أنهم مروا وهلكوا وانتهوا، فبعدا لكل ما كان منهم. مادة الباء والعين والدال، تستعمل استعمالين: مرة تريد بها الفراق مثل لقاء لا تحب أن يقع فتقول: بعدا، وفى الموت تقول: بعدا: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى أن الذى أخفى ثموداً، وما فعلت وما حدث لها، يخفى قوم شعيب ويبعدهم عنا فى الدنيا والآخرة [1].

---

(١) **قال القرطبى**: حكى الكسائىّ أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ بضم العين، قال النحاس: المعروف فى اللغة إنما يقال بعد يَبْعَدُ بَعَدًا إذا هلك. وقال المهدوى: من ضم العين من«بعدت» فهى لغة تستعمل فى الخير والشر، ومصدرها البعد؛ وبعدت تستعمل فى الشر خاصة؛ يقال: بَعِد يَبعَدَ بَعَدًا فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنة؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما فى المعنى؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعانى. [تفسير القرطبى: ٩/ ٩٢، ٩٣]

نلاحظ هنا فى عهود هذه الرسالات أن العالم كان منعزلا حتى أنه تم إرسال رسولين فى وقت واحد، هما إبراهيم ولوط عليهما السلام، وكان كل منهما يعالج داء من الداءات فى وقت واحد. ولكن سبق فى علم الله أن العالم سيتوحد، وبالتالى ستصبح الأمراض والداءات واحدة. ولذلك جاءت وحدة المعالجة ممثلة فى رسالة رسول الله ﷺ . ونحن نرى الآن كيف أن العالم يصبح أصغر فأصغر كل يوم ، لا من ناحية الحجم، ولكن من ناحية وحدة الداءات ووحدة المعالجة .

ويقول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [الأعراف:٩١] و ﴿ **الرَّجْفَةُ** ﴾ هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجا، و ﴿ **جَاثِمِينَ** ﴾ أى جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعانا فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء، تماما كما تأتى ساعة الموت للظالم فيبحث عمن ظلمهم ويطلب منهم بذلة أن يسامحوه وهو الذى كان يتجبر عليهم.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف:٩٢] أى أن القرية التى كانت غنية بمن كذبوا شعيبا، وغنى بالمكان أى أقام فيه مدة طويلة. و ﴿ **كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى خسروا كل شىء ، جاه الدنيا ونعيم الآخرة، ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ الله الكافرين بالعذاب، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف:٩٣] فكأن شعيبا قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة: أنه قد أبلغهم رسالة الله ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم فهو لم يقصر فى حقهم . ولذلك فهم لا يستحقون الشفقة ؛

لأنهم أصروا على الكفر [1] .

(١) قال الشوكاني : فى قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى: شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم. ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى﴾ التى أرسلنى بها إليكم ، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم، ودنياكم ، ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أى أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ بالله، مصرين على كفرهم، متمردين عن الإجابة .

والأسى: شدة الحزن، أسى على ذلك فهو آس. قال شعيب هذه المقالة؛ تحسّرا على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه: كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله، وعدم قبولهم لما جاء به رسوله. [فتح القدير: ٢/٢٣٦]

وقال البقاعى: ولما صارت تلك الدار محل الغضب، سبب ذلك أن هاجر عنها كما كانت عادة من قبله من الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد نزول العذاب وقبله عند رؤية مغايله ذاهبا إلى مكان غيره، يعبد ربه فيه ﴿وَقَالَ﴾ متأسفا على ما فاته من هدايتهم ﴿يَا قَوْمِ﴾ أى ياعشيرتى وأقرب الناس إلىّ ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ ولعله جمع لأجل كثرة ما أتاهم به من المعجزات فقال: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّى﴾ أى المحسن إلىّ بالنجائى ومن تبعنى من عذابكم لتوفيقه لنا إلى ما يرضيه ﴿وَنَصَحْتُ﴾ أى و أوقعت النصح ﴿لَكُمْ﴾ أى خاصة .

ولما كان هذا مفهما لما طبع البشر من الأسف على أهله وعشيرته، سبب عنه منكرا على نفسه قولَه: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أى أحزن حزنا شديدا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أى عريقين فى الكفر، فعرف أنه أسف عليهم من أجل قربهم وفوات الإيمان لهم غير آسف عليهم من أجل كفرهم ، وتخصيصُ تكرير هذه القصص الخمس على هذا الترتيب فى كثير من سور القرآن - دون قصة إبراهيم عليه السلام وهو أعظمهم - لانتظامهم فى أنهم أقرت أعينهم بأن رأوا مصارع من خالفهم .

[نظم الدرر : ٨/٨ ، ٩]

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر:٧٨] الأيكة مفرد أيك، والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر(١). ثم يقول: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٩] انتقل إلى قصة أخرى وهى قصة شعيب عليه السلام، وشعيب أُرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة. مدين بلد، أما أصحاب الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم وبين البحر، وكان فيها الشجر الملتف. فشعيب أُرسل لهؤلاء وهؤلاء. ولذلك ربنا سبحانه قال عن «سدوم» وهى بلد قوم لوط: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦] ولكن هنا قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قد يقول قائل: من أين جاءت هذه التثنية مع أنه يتحدث عن أصحاب الأيكة فقط؟ نقول: إنه ضم إليها مدين أيضا (٢).

---

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتف، وقيل: هى الغيضة تُنبت السِّدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وخص بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه، وقيل: الأيكة جماعة الأراك، وقال أبو حنيفة: قد تكون الأيكة الجماعة من كل الشجر حتى من النخل. قال: والأول أعرف. [لسان العرب: ١٠/ ٣٩٤]

(٢) قال فى التفسير الوسيط: قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. مرتب على ظلمهم الذى تجاوز كل ظلم. وإبهام نوع الانتقام هنا ثم تفسيره فى سورة الشعراء بعذاب يوم الظلة دليل على شدة هوله وعظمه. وقد قلنا مرارا إن الكتاب العزيز يفسر بعضه بعضا.

وضمير التثنية فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: إنه يعود إلى الأيكة =

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر:٧٩] الإمام هو ما يؤتم به فى الحركات والسكنات، وما يؤتم به فى الفتيا وفى الرأى. وكذلك يطلق على الطريق المؤدى إلى الغايات المختلفة «إمام» لأنه يدلنى على الأماكن التى أريدها. وله بدء وله منتهى، يبدأ من أول «من» وينتهى عند «إلى» وفى كل جزئية منه «من» و «إلى» التى نرقمها الآن بالكيلو مترات. ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أى مدين وأصحاب الأيكة، ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى طريق واضح، هذا الطريق الواضح يأتم به السائر، ليصل من أى «من» إلى أى «إلى» [(١)].

= ومدين . لأنه لما كان رسولهما واحدا هو شعيب عليه السلام كان ذكر أحدهما منبهًا على الآخر . والظاهر أنه يعود إلى مسكنى قوم لوط وأصحاب الأيكة ، قال الآلوسى : وإلى ذلك ذهب الجمهور . أ.هـ.

ويؤيده أنهما تقدما فى الذكر .وقد أضمر سابقا إلى قرية قوم لوط بضمير المفرد فى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ وأضمر لها وللأيكة هنا بضمير المثنى حيث قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ . ولعل هذا لتكرير العبرة والعظة بما يصيب القوم المجرمين . والإمام المبين هو الطريق البيِّن الواضح الذى يأتم به ويهتدى به الغادى والرائح .

(١) **قال البقاعى:** ولما ذكر هذه القصة، ضم إليها ما هو على طريقها ، مما عذب قومه بنوع آخر من العذاب ، يشابه عذاب قوم لوط فى كونه نارا من السماء، فقال مؤكدا لأجل إنكار الكفار أن يكون عذابهم لأجل التكذيب، أو عدًا لهم ـ لأجل تماديهم على الغواية مع العلم به ـ عداد المنكرين : ﴿ وَإِن ﴾ أى وإنه ﴿ كَانَ ﴾ أى جبلة وطبعا ﴿ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة: الشجرة ـ عن الحسن : وجمعه الأيك كشجرة وشجر ، وقيل: الأيكة : الشجر الملتف ﴿ لَظَالِمِينَ ﴾ أى العريقين فى الظلم ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أى بسبب ذلك ، ثم أخبر عن البلدين ؛ لتقاربهما فى العذاب والمكان ، وكونهما على طريق واحدة ، من طرق متاجر قريش فقال : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أى قرى قوم لوط ومحال أصحاب الأيكة =

. . . .

= ﴿لَبِإِمَامٍ﴾ أى طريق يؤم ويتبع ويهتدى به ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح لمن أراده، بحيث أنه من شدة وضوحه موضح لعظمة الله ، وانتصاره لأنبيائه ممن يكذبهم، وهو مع وضوحه مقيم فى مكانه لم تندرس أعلامه، ولم تنطمس آثاره، فالآية من الاحتباك: ذكر فى الأولى ﴿مُّقِيمٍ﴾ دلالة على حذف مثله ثانيا، وفى الثانية ﴿مُّبِينٍ﴾ دلالة على حذف مثله أولا. [نظم الدررك : ١١/٧٩ ، ٨٠]

وقال الشوكانى فى قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ «إن» هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، أى وإن الشأن كان أصحاب الأيكة. والأيكة: الغيضة ، وهى جماع الشجر. والجمع: الأيك. ويروى أن شجرهم كان دومًا. وهو المقل، فالمعنى: وإن كان أصحاب الشجر المجتمع. وقيل: الأيكة: اسم القرية التى كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة، وليكة: مدينتهم كمكة وبكة. وأصحاب الأيكة: هم قوم شعيب ـ وقد تقدم خبرهم. واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق، والضمير فى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط، ومكان أصحاب الأيكة، أى وإن المكانين لبطريق واضح. والإمام: اسم لما يؤتم به، ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك. قال الفراء والزجاج: سمى الطريق إماماً؛ لأنه يؤتم ويتبع. وقال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده. وقيل: الضمير للأيكة ومدين؛ لأن شعيباً كان ينسب إليهما. [فتح القدير: ٣/ ١٤٢]

* قصة شعيب مع أصحاب الأيكة(1) *

وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم

(١) اختلف المفسرون فى قصة أصحاب الأيكة ، فمن قائل : إن أصحاب الأيكة هم أهل مدين وأنهم أمة واحدة . ومن قائل إن أصحاب الأيكة غير أهل مدين وأن شعيبا أرسل إلى كل من أهل مدين وأصحاب الأيكة ، ومن وقف موقف الحياد . وممن قال بالرأى الأول ابن كثير ، قال : هؤلاء ـ يعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة ، وقيل : شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها ؛ فلهذا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٧].
فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسبًا ، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء ، وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .
وقال الشنقيطى : وعلى القول بأن شعيبا أرسل إلى أمتين : مدين وأصحاب الأيكة ، وأن مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة : فلا إشكال . وقد جاء ذلك فى حديث ضعيف عن عبد الله بن عمرو وقتادة وعكرمة وإسحاق بن بشر.
[أضواء البيان : ٦/ ٣٧٩]
وقال الخازن فى تفسيره ـ [ـ٢ / تفسير الشعراء] : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لم يقل لهم أخوهم ؛ لأنه لم يكن منهم وإنما كان من مدين وأرسل إليهم .
وقال النسفى فى تفسيره على هامش الخازن : لم يقل هنا أخوهم شعيب لأنه لم يكن من نسبهم ؛ بل كان من نسب أهل مدين، ففى الحديث أن شعيبا أخا مدين =

لرسولهم وتمسكوا بضلالهم وكفرهم عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، وهو عذاب مشهور حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام . وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر، فالتمسوا غمامة تظلهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم نارا أحرقتهم وأبادتهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وعذاب يوم الظلة كان عذابا عظيما ليس لقوته وإحاطته بهم فقط، ولكن لأنه عذاب جاء بعد طمع فى راحة ؛ لأنهم ظنوا أن هذا السحاب سيظلهم وينزل منه المطر الذى يرويهم ويرطب أجواءهم فكان منه العذاب الذى أحرقهم وأبادهم.

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٠] وقلنا كلمة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من مواكب الرسل الذين ذكرتهم الآيات السابقة وهم سبعة من الرسل عليهم وعلى نبينا الصلاة

= أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

وروى الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٦٩] : عن جرير بن حازم أنه سمع قتادة يقول : بعث الله شعيب النبى ﷺ ، إلى أمتين : إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، فكانت الأيكة من شجر ملتف ، فلما أراد الله أن يعذبهم بعث الله عليهم حرا شديدا ، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة ، فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم نارا . وقال : فذلك قوله عز وجل : ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء : ١٨٩]. وسكت عنه الذهبى.

وممن وقف موقف الحياد وعرض الرأيين : صاحب الكشاف والتفسير الوسيط .

والسلام وهم : الخليل إبراهيم وما حدث بينه وبين قومه، وموسى ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم الصلاة والسلام. فمعنى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى ما حدث للرسل وما حدث لأممهم.

رسل الله نصروا وأعداؤهم هزموا، فلتأخذوا يا من بُعث فيكم محمد عليه الصلاة والسلام عبرة من هذه الأحداث والمواقف . فإن كنا تركنا رسولاً للمكذبين به وتخلينا عنه ـ وهذا لم يحدث ـ فستترك هذا الرسول ولكنكم علمتم أننا لم نسلم رسولا للمكذبين به ؛ بل نصرناهم وأيدناهم وهزمنا أعداءهم . قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] فالمعنى: أن فى ذلك الذى حدثتم به من قصص الأنبياء السابقين مع أممهم وما آلوا إليه من نصر الأنبياء ودحر الكافرين عبرة لكم ؛ لأن معنى «آية» أى عبرة، ونحن قلنا كلمة عبرة أى تعبر من شىء إلى شىء ، فهم قوم عندهم لدد وخصومة؛ فحتى يعتبروا ، عليهم أن يعبروا من هذا الموقف المعادى إلى الإيمان . ولذلك نقول : «نحن نعبر الطريق» لأننا ننتقل من مكان إلى مكان . فالعبرة أن تنتقل من حال أنت عليها من لدد وجحود وكبرياء عن اتباع الرسل إلى الإيمان [1].

---

(١) **قال أبو حيان:** وكرر ما كرر فى أوائل هذه القصص، تنبيهاً على أن طريقة الأنبياء واحدة لا اختلاف فيها، وهى الدعاء إلى توحيد الله وعبادته ورفض ما سواه، وأنهم ورسول الله ﷺ مشتركون فى ذلك، وإن ما جاء به ﷺ هو ما جاءت به الرسل قبله، وتلك عادة الأنبياء.

قال ابن عطية: وجاءت الألفاظ فى دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها ، إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه.

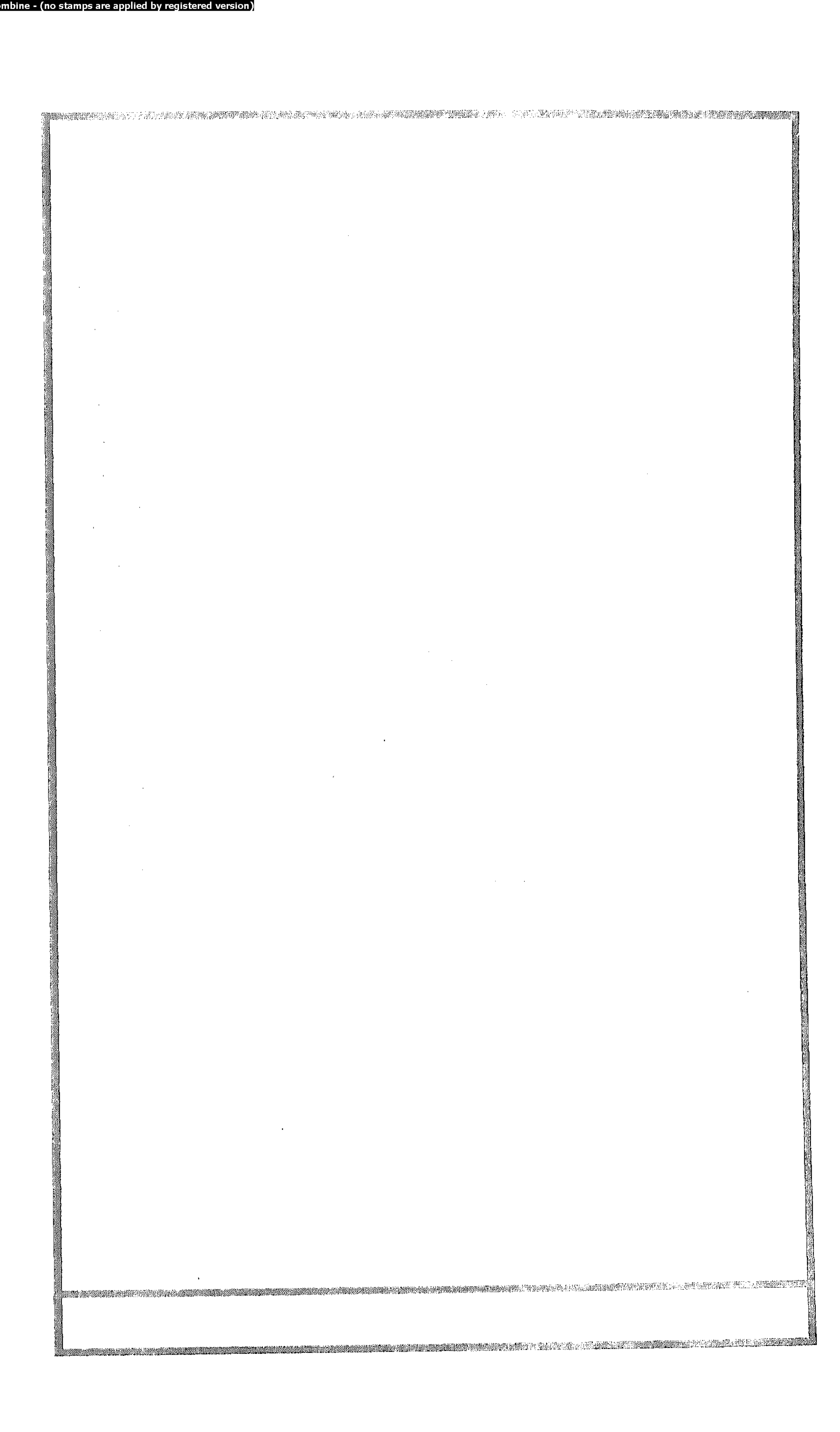
وقال الزمخشرى : فإن قلت: كيف كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها ما كرر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها. =

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٠] حماية لأن منهم من قد يهتدى إلى طريق الحق ويؤمن .

= فكانت كل واحدة منها تدلى بحق، إلى أن تفتتح بمثل ما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بمثل ذلك مما اختتمت به. ولأن التكرير تقرير للمعانى فى النفوس، وتثبيت لها فى الصدور، ولأن هذه القصص طرقت بهذا آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فأوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير.
[البحر المحيط: ٨/ ١٨٧ ، ١٨٨]

« تمت قصة شعيب عليه السلام »


نبي الله
يعقوب
عليه السلام



❋ نبى الله يعقوب عليه السلام ❋

قال ابن كثير : ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت بتواييل فى حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولهما اسمه «عيصو» وهو الذى تسميه العرب «العيص» وهو والد الروم. والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل.

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب ، لأنه بكره ؛ وكانت أمهما «رفقا» تحب يعقوب أكثر ؛ لأنه الأصغر.

قالوا : فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً ، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعو له ، وكان العيص صاحب صيد ، فذهب يبتغى ذلك ، فأمرت «رفقا» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك. فلما جاء به وقربه إليه قال : من أنت؟ قال : ولدك. فضمه إليه وجَسَّه [1] وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرًا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره والده فقربه إليه ، فقال له ، ما هذا يا بنى؟ قال : هذا الطعام الذى اشتهيته ، فقال : أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك ، فوجد فى نفسه عليه وجدًا كثيرًا.

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، أن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم.

فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب ، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب =

(١) الجسُّ : اللمس باليد ، والمراد هنا : ضمه إليك والمسه بيدك حتى تعرفه .

= إلى أخيها «لابان» الذى بأرض حران ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له. ففعل.

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه، وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه، ويقول له إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبدًا لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عشره. ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به ، وسمى ذلك الموضع: «بيت إيل» أى بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى.

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران، إذا له ابنتان : اسم الكبرى: «ليا» واسم الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما ، فخطبها من خاله فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين. فلما مضت المدة على خاله «لابان» صنع طعامًا وجمع الناس عليه، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرى «ليا» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هى «ليا» فقال لخاله غدرت بى؟ وأنت إنما خطبت إليك راحيل. فقال : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها.

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها. وكان سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة. وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته ؛ لأنه معصوم، ووهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب «إليا» جارية اسمها زلفى ووهب لـ «راحيل» جارية اسمها «بلهى» .

وجبر الله تعالى ضعف «ليا» بأن وهب لها أولادًا، فكان أول من ولدت ليعقوب، روبيل، ثم شمعون، ثم لاوى، ثم يهوذا، فغارت عند ذلك «راحيل» وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت، وولدت له غلاماً سمته «دان» وحملت وولدت غلاماً آخر سمته «نيفتالى» فعمدت عند ذلك «ليا» فوهبت جاريتها «زلفى» =

. . . .

= ليعقوب عليه السلام فولدت له: جاد، وأشير، غلامين ذكرين ثم حملت«ليا» أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته «إيساخر» ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته «زابلون» ثم حملت وولدت بنتاً سمتها«دينا» فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم دعت الله تعالى «راحيل» وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها، فحملت من نبى الله يعقوب، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته «يوسف».

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصار مدة مقامه عشرين سنة.

فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت. فقال: تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أَبْقَع[1] وكل حمل مُلْمع[2] أبيض بسواد، وكل أملح ببياض، وكل أَجْلَح[3] أبيض من المعز.

فقال: نعم.

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم.

قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قطبان رطبة بيض من لوز ولب، فكان يقشرها بلقًا وينصبها فى مساقى الغنم من المياه، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها، فتصير ألوان حملانها كذلك.

وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم فى سلك المعجزات.

فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد، وتغير له وجه خاله وبنيه، وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه، =

---

(١) ابقع : أى خالط بياضه لون آخر .

(٢) ملمع : أى مشرق الضرع مستعد للحمل .

(٣) أجلح : أى ذهب شعره من مقدمة الرأس وهو مرحلة قبل الصلع . أما الأملح فهو صاحب الشعر الأسود الذى يخالطه بياض .

. . . .

= فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها.

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم، لحقهم«لابان» وقومه فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه، وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول، وحتى يودع بناته وأولادهن. ولم أخذوا أصنامه معهم؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً، وكانت راحيل قد جعلتهن في برذعة الجمل وهى تحتها، فلم تقم، واعتذرت بأنها طامث. فلم يقدر عليهن.

فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها«جلعاد» على أنه لا يهين بناته، ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر، لا لابان ولا يعقوب، وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم.

فلما اقترب يعقوب من أرض«ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم. وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له. فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل.

فخشى يعقوب من ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له، وتضرع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذى وعده به. وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي: مائتا شاة، وعشرون تيساً،ومائتا نعجة، وعشرون كبشاً، وثلاثون لقحة، وأربعون بقرة، وعشرة من الثيران، وعشرون أتانا، وعشرة من الحمر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده. وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقل: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدى العيص، وليقل الذى بعده كذلك، وكذلك الذى بعده وكذلك الذى بعده، ويقول كل منهم: وهو جاء بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدى له ملك من الملائكة فى صورة رجل، فظنه يعقوب رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب ، فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم =

= إلا إسرائيل. فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما اسمك فذهب عنه. فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء!

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل، فتقدم أمام أهله. فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان. وكان مشروعاً لهم، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه له كما سيأتى.

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى، ورفع العيص عينيه ، ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له. ودنت«ليا» وبنوها فسجدوا له، ودنت«راحيل» وابنها يوسف فخرا سجدًا له. وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها.

ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأغنام والمواشى والعبيد قاصدين جبال «ساعير».

فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً، ولدوابه ظلالاً، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثم مذبحاً فسماه «إيل» إله إسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه. وهو بيت المقدس اليوم، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام. وهو مكان الصخرة التى علمها بوضع الدهن عليهما قبل ذلك، كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة«دينا» بنت يعقوب بنت«ليا» وما كان من أمرها مع شخيم ابن جمور الذى قهرها على نفسها، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان يوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافاً إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو «بنيامين» إلا أنها جهدت فى طلقها به جهدًا شديدً وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب فى «أفراث» وهى بيت لحم، وصنع يعقوب على =

. . . .

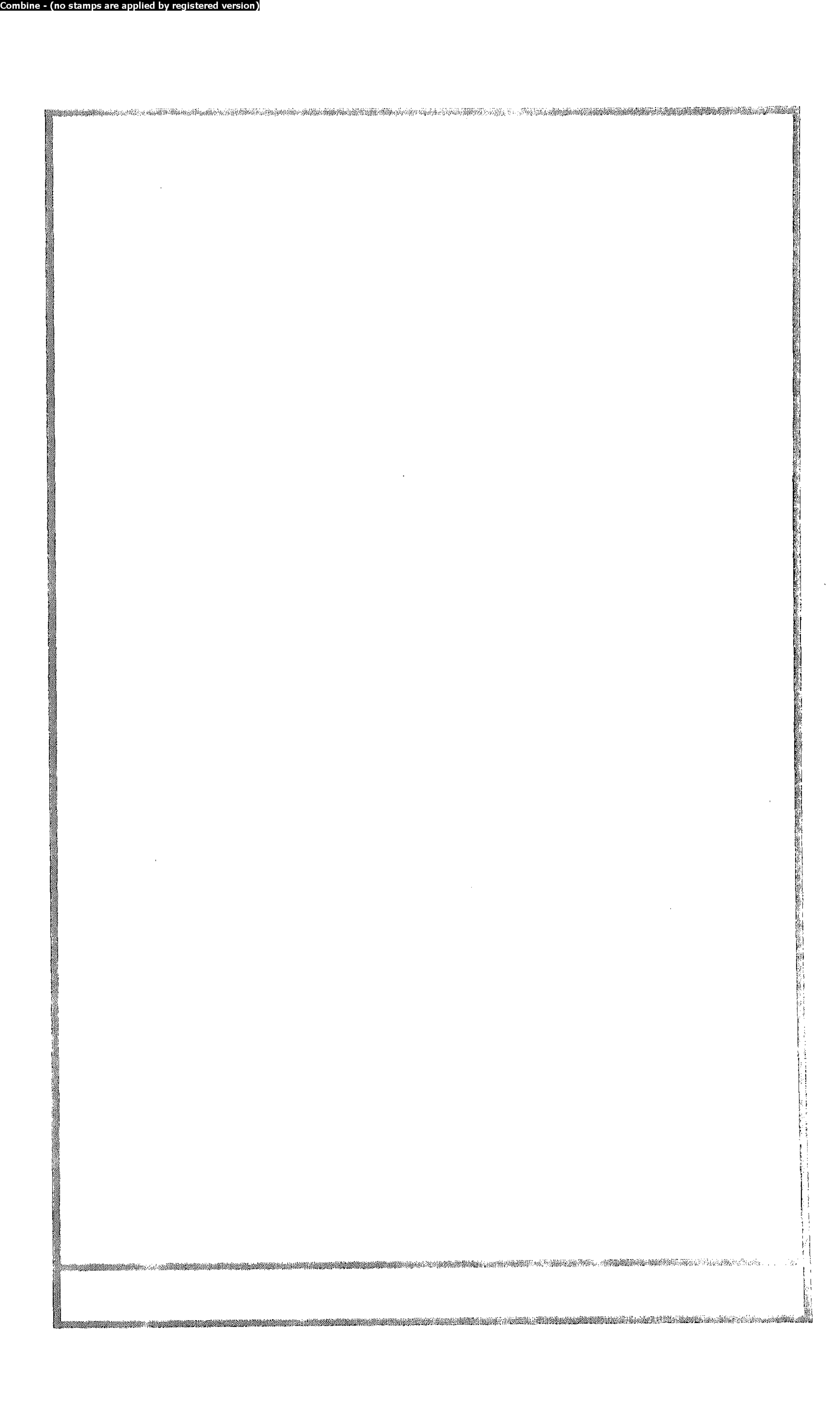
= قبرها حجراً، وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم، وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً، فمن «ليا» روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخر وزابلون. ومن «راحيل»: يوسف وبنيامين. ومن أمة «راحيل» دان ونفتالى، ومن أمة «ليا» جاد وأشير عليهم السلام.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها. كما قدمنا.

[قصص الأنبياء : ٢٥٩ ـ ٢٦٤]

« تمت قصة يعقوب عليه السلام »


نبي الله
يوسف
عليه السلام



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* يوسف فى القرآن والكتب السابقة *

قصة يوسف جاءت بالشخص وهو يوسف عليه السلام[1] ، تدور حوله أحداث كثيرة : رأى الشمس والقمر والنجوم تسجد له ، تآمر عليه إخوته وألقوه فى الجب، شراه السيارة بثمن بخس وباعوه للعزيز . امرأة العزيز أعجبت به وراودته عن نفسه ، دخل السجن ، ثم أصبح حاكمًا لمصر ، إذن فهو شخص دارت حوله أحداث ، وفى نفس الوقت هى أحداث دارت حولها أشخاص إخوته وماذا فعل الحقد بهم . امرأة العزيز وكيف كادت له ، أبوه وكيف واجه فقده . الصراع حول السلطة والنفوذ ، كل هذا موجود فى قصة يوسف فهى جاءت بشخص حوله أحداث وبحدث حوله أشخاص .

وقصة يوسف عليه السلام تكلمت عنها الكتب التى سبقت القرآن الكريم، ولكن عندما جاءت القصة فى القرآن، ترك علماء اليهود كتبهم وأخذوا يقرأونها فى القرآن الكريم ؛ لأن القصة فى القرآن فيها إعجاز صياغة الأداء والقدرة على هز ما هو داخل النفس ، وإظهار المواقف المختلفة فى النفس البشرية ، كل هذا فى قمة أداء البيان فهى أحسن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قيل : يا رسول الله ! من أكرم الناس ؟ . قال : « أتقاهم » ، فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فيوسف نبى لله ابن نبى لله ابن نبى الله ابن خليل الله » .أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ، ومسلم [٢٣٧٨] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام..». أخرجه البخارى [٣٣٩٠].

القصص؛ لأن الكل يعرف تاريخها وأحداثها؛ لأنها نزلت فى الكتب السابقة .

ثم هى أحسن القصص، لأنها اشتملت على عبر متعددة، فى الطفولة وفى الشباب وفى الشيخوخة، والحقد بين الأخوة والتمرد على الأب وخداعه ، وحب كل من ربى يوسف له ، ودخوله السجن مظلومًا ومع ذلك لم يهتز ، ثم بعد ذلك عفو يوسف عن إخوته .

ولذلك فهى أحسن القصص تزيح غطاء الصدور وتعرفنا ماذا يدور فى القلوب. وهى تعرض للنفس البشرية فى العمر الزمنى والعمر العقلى والعمر العاطفى . وأطوار الإنسان حينما يكون مغلوبًا على أمره ، وحينما يكون قويا يستطيع أن يسيطر .

وهى أحسن القصص لأنها رويت بأشكال مختلفة ، ولكن القرآن جاء بها بإعجاز فى البلاغة ، والقصة إعجاز لا يقدر عليه أسلوب البشر .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [يوسف: ٣] ومعنى من قبله أى من قبل أن يوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن . كان ﷺ معروفًا بالصفات الخلقية العالية ، وهى الصدق والأمانة ، والوصفان مطلوبان فى الرسالة؛ لأنه مادام لا يكذب على الناس فإنه لا يكذب على الله ، ومادام أمينًا فإنه لن يخون الرسالة وسينقلها بصدق وأمانة ، وقد كان أبو بكر الصديق والمؤمنون إذا قال رسول الله ﷺ شيئًا يقولون: إن كان قد قال فقد صدق .

وعندما حدثت معجزة الإسراء والمعراج ، وقفت بعض العقول مشدوهة أمام هذه المعجزة، وإذا بأبى بكر الصديق يقول دون أن يناقش الوقائع:

«إن كان رسول الله ﷺ قال فقد صدق» وعندما قيل لأبى بكر: كيف تقول صدق ؟ قال: «أنصدقه فى خبر السماء ونكذبه فى هذا؟»(١) .

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. الغافل لا يُتهم؛ لأنه لا يعلم القضية فهو ﷺ لم يقرأ كتابًا ولم يجلس إلى معلم فمن أين يعرف قصة يوسف؟ (٢) ، ومن بين معجزات رسول الله ﷺ أن

---

(١) عن ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقى فيه إبراهيم وموسى وعيسى ، وإنه أتى بقدحين : قدح من لبن، وقدح من خمر ، فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن ، فقال جبريل : أصبْتَ هُديتَ للفطرة، لو أخذت الخمر لَغوَتْ أمتك ، ثم رجع رسول الله ﷺ ، إلى مكة فأخبر أنه أسرى به فافتتن ناس كثيرة كانوا قد صلوا معه .

وقال ابن شهاب : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : فتجهز ناس من قريش إلى أبى بكر، فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ، ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة . فقال أبو بكر رضى الله عنه أوقال ذلك ؟ . قالوا : نعم. قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : فتصدقه بأن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟! . قال : نعم .إنى أصدقه بأبعدَ من ذلك ، أُصدِّقه بخبر السماء قال أبو سلمة : فيها سمى أبو بكر الصديق رضى الله عنه . » . [الحديث بطوله رواه البيهقى [٢/ ٣٦٠] فى دلائل النبوة]

وفى حديث أنس رضى الله عنه ، جاء فيه : « ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر ! هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، لنصدقه على خبر السماء . . . » . الحديث بطوله رواه ابن أبى حاتم .

والحديثان ذكرهما ابن كثير فى تفسيره . [٣/ ٨ ، ١٠] . وانظر صحيح السيرة النبوية [٢/ ١٧٤]

(٢) **قال الإمام أبى جعفر النحاس**: أى لمن الغافلين عن قصة يوسف؛ لأنه لم يقرأ كتابًا قبل ذلك، وإنما علمها بالوحى. [معانى القرآن للنحاس : ٣/ ٣٩٦ ، ٣٩٧]

وهو ما ذهب إليه الإمام الزجاج فى كتاب معانى القرآن وإعرابه [٣/ ٨٨].

اليهود قالوا للكفار اسألوه عن: إخوة يوسف، وقوم يعقوب عندما خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر ، وعندما سألوه هذا السؤال أنزل الله سبحانه وتعالى عليه آيات قصة يوسف، فدهشوا وقالوا: هذا لم يقرأ ولم يكتب فمن علَّمه؟[1] .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الوحى إعلام بخفاء بحيث لايفهم إلا الموحى والموحى إليه ، والله سبحانه وتعالى يوحى للملائكة وللرسل وللمؤمنين ، ويوحى للأرض وللسماء وللنمل وللنحل، ولكن الوحى الشرعى أى الوحى المتعارف عليه هو وحى أخذ بمعناه الشرعى وحى من الله لرسله[2] .

(١) عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانًا، فقالوا : يا رسول الله لو قصصْتَ علينا . فأنزل الله ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الآية ـ فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا. فأنزل الله : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، كل ذلك يؤمرون بالقرآن » . قال خلاد: وزاد فيه حين قالوا: يارسول الله ذكرنا فأنزل الله ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ [الحديد: ١٦].

[أخرجه ابن حبان [٦٢٠٩] وقال الأرناؤط: إسناده قوى]

(٢) أى بوَحْيِنَا إِلَيْكَ هذا القرآنَ. القراءةُ نصبُ القرآنِ ويجوز الجرُّ والرَّفْعُ جميعاً، ولا أعلم أحداً قرأ بهما. فأما الجرُّ فعلى البدل من قوله: ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، فيكون المعنى نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، ولا تَقْرأنَّ بها. والرفع على ترجمة مَا أَوْحَيْنا إليك، كأن قَائلاً قال: ما هو؟ وما هذا؟ فقيل هذا القرآن، ولاتقرأن بها أيضاً. [معانى القرآن وإعرابه ٣/ ٨٨]

❋ رؤيا يوسف للكواكب ❋

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] كلمة يا أبت أصلها يا أبى ، ولكن يقال فى اللغة العربية يا أبى ويا أبت وياأبتاه [١].

---

(١) قال الزجاج فى قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ قراءتان: يَا أَبَتِ إنى، ويَا أَبَتَ إنى بالخفض والنصب. وأجاز بعض أهل العربية يا أبةُ إنى. فمن قرأ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ - بكسر التاء - فعلى الإضافة إلى نفسه وحذف الياء؛ لأنّ ياء الإضافة تحذف فى النداء، وقد ذُكِرَ ذَلِكَ فيما سلف من الكتاب، وأما إدْخَالُ التَّأنيثِ فى الأب فإنما دخلت فى النداء خاصة، والمذكر قد سمّى باسمٍ لمؤنَثٍ فيه عَلاَمَةُ التَّأنيثِ، ويُوصَفُ بما فيه هاء التأنيث. فأما المذكر الذى يسمى بمؤنث فقولهم عين ونفس يراد به الرجل، وأما الصِّفة فقولهم غلام يَفَعَةٌ، ورَجُلٌ رَبْعَةٌ. والتاء كثرت ولزمت فى الأب عوضاً من تاء الإضافة. والوقف عليها يا أبَهْ وإن كانت فى المصحف بالتاء، وزعم الفراء أنك إذا كسرت وقفت بالتاء لا غير، وإذا فتحت وقفت بالتاء والهاء، ولا فرق بين الكسروالفتح .

وزعم قطرب أن الفتح على جهات: إحداها أنك أردت يا أبة ثم حذف التنوينَ، وعلى يَاأَبَتاه وَعَلَى قولِ قولُ الطرماح:

يا دارَ أقوتْ بعد أصْرَامها عامًا وما يَعْنِيكَ مِنْ عامها

وهذا الذى قاله قطرب خطأ كله. التنوين لا يحذف من المنادى المنصوب؛ لأن النصب إعرابُ المنادى، ولا يجوز معرَب منصرف غير منون فى حال النصب وأما قوله: يا دارَ أقوت، بنصب الدَّارِ فلم يَرْوِه أَحَدٌ من أصحابنا ولا أعْرِفُ لها وجهًا. أنشد سيبويه والخليل وجميع البصريين يَادَارُ أقْوتْ، بضَم الراء، وأما يا أبتاه، فالندبة ههنا لا معنى لها.

ولكنَّ الفَتْحَ يجوزُ على أنّه أبدل من تَاء الإضافة ألفاً ثم حذف الألف وبقيت الفتحة، كما تحذف بالإضافة. وأَمَّا«يَا أبةُ إنى» بالرفع فلا يجوز إلا على ضعف؛ لأن الهاء ههنا جعلت بدلاً من ياء الإضافة. [معانى القرآن وإعرابه ٣/ ٨٨: ٩٠]

ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجاز؛ لأننا جميعًا نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشىء العجيب فى هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معًا ! نقول: إنه لا القمر ولا النجوم نراها مع الشمس. فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا [1].

شئ آخر فى هذه الرؤيا: أن يوسف رأى أحد عشر كوكبًا وعرف عددها، ومعنى ذلك أنها واضحة. إذن فالإعجاز الأول اجتماع الشمس والقمر معًا، والإعجاز الثانى رؤيته لأحد عشر كوكبًا من دون الكواكب التى تملأ السماء[2]، ولم يقل يوسف عليه السلام رأيتهم ساجدين أى الشمس والقمر والكواكب ،وإنما قال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فكأنه

---

(١) **قال النحاس**: قال قتادة والضحاك وهذا لفظ قتادة: الأحد عشركوكبًا: إخوته، و ﴿ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ : أبوه وأمه.

قال معمر وقال غير قتادة: أبوه وخالته.

وقال غيره: أوّلَ ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ أحد عشر رجلاً، يُستضاء بهم كما يُستضاء بالكواكب، وأوّلَ القمر أباه، وأوّل الشمس أمه أو خالته.

وقال عبد الله بنُ شدّاد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا. [معانى القرآن الكريم ٣/ ٣٩٧]

(٢) **قال الزجاج**: فقد فَسَّر لَهُ يَعْقوبُ الرؤيا، والتأويل أنه لما قال له إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشَّمْس والقَمَرَ رَأَيْتُهم لى سَاجدين، فتأوّلَ الأحَدَ عَشَرَ كوكبًا أحد عشر نفْساً لَهُم فَضْلٌ وأنهم يُسْتَضَاءُ بهم؛ لأنَّ الكَواكِب لاَ شَيْءَ أَضوأ منْهَا وبها يُهْتَدَىَ. قال الله جلّ وعزّ: ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾. فتأول ﴿ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أَبَويْه. فالقمرُ الأبُ والشمسُ الأم والأحد عَشَرَ كَوْكَبًا إخْوَتُه، فتأوّل له أنه يكون نَبيا، وأن إخوته يكونون أنبياء؛ لأنه أعْلَمَهُ أن الله يُتمُّ بنعمتَه عَلَيْه وَعَلَى إخْوَته، كما أَتَمّها على أَبَوَيْه إبراهيمَ وإسحاقَ، فإتمام النِّعمَة عَلَيهم أن يكونوا أَنْبيَاءَ، إذ قال: ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾. [معانى القرآن وإعرابه ٣/ ٩٢]

رآها أولاً ، ثم رآها مرة ثانية وهى تسجد له ذلك لأنك إذا قلت: هذا الشئ سجد لى، فلابد أن ترى هذا الشئ قبل أن يسجد ثم تراه ساجداً ؛ لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين فقد يكون هذا وصفهم، وليس هناك سجود ولكنه لابد أنه رآهم بدون سجود ، ثم رآهم يسجدون له [(١)].

ولقد تكررت كلمة رأى فى قوله تعالى: ﴿**إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾ وفى قوله جل جلاله : ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾ وتكرار كلمة رأى هنا أظهر لنا أنه رأى الشمس والقمر والكواكب أولاً ، وقام بِعَدِّ الكواكب حتى عرف أن عددها أحد عشر كوكبًا، تدل على أن الكواكب تميزت من دون كواكب السماء ، وقوله تعالى : ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾ لها معنى: فهو لم يرهم ساجدين على إطلاقها فقد تكون ظاهرة طبيعية أو أى شئ من الظواهر الفلكية ، ولكن يوسف عليه السلام قال إنهم كانوا ساجدين له، فلابد أنه رأى فيهم من مظاهر الخضوع لذاته ما جعله يتأكد أن السجود له أو أنهم يسجدون له، و ﴿**سَاجِدِينَ**﴾ جمع مذكر سالم ولا يجمع المذكر السالم إلا إذا كان للعاقل ، والشمس والقمر والكواكب ليسوا عاقلين نقول: أرآهم يوسف يسجدون له، ولا يكون عندهم عقل؟[(٢)] .

---

(١) **وقال الإمام محمود بن أبى الحسن الينسابورى** : وأعاد ﴿**رَأَيْتُهُمْ**﴾ لأنها رؤية سجودهم له، والأولى رؤيته إياهم.

وقال محققه الدكتور حنيف بن حسن القاسمى: نص هذا القول فى تفسير الماوردى: [٢/ ٤٥]، وذكره - أيضًا - الفخر الرازى فى تفسيره: [١٨/ ٨٩] وظاهر هذا القول أن الرؤية تكررت، وسياق الآية لا يدل عليه، وإنما إعادة الفعل لتأكيد المعنى ؛ لأنه إخبار عن رؤية منامية، فلئلا يتوهم الغلط والنسيان أكد الفعل ولم يعطف.

قال أبو حيان [البحر المحيط: ٥/ ٢٨٠]: « والظاهر أن ﴿**رَأَيْتُهُمْ**﴾ كرر على سبيل التوكيد للطول بالمفاعيل. . . » . وينظر الدر المصون: [٦/ ٦٣٤، ٧٣٤].

(٢) والسجود: الخضوع، والسجود من أفعال ذوى العقل فجاء ﴿**سَاجِدِينَ**﴾ فيمن =

ما هى مهمة العقل ؟ أن يختار بين البدائل ويرى مصالح الدين ومصالح الدنيا، وأسمى آيات الخضوع فى الدين هو السجود ، ولكن هل سجدت الشمس والقمر والكواكب ليوسف من نفسها أو بأمر يوسف ؟ لا ، بل سجدت بأمر الله سجود التكريم، لا سجود العبادة تمامًا كسجود الملائكة لآدم ، وما داموا قد سجدوا فعبر عنهم بصيغة سجود العقلاء ، وهم ليسوا عاقلين لك أنت ،ولكن عاقلين عن ربهم .

واقرأوا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢] أذنت من الإذن أى سمعت من الله، فمبجرد أن سمعت أطاعت وعقلت ، وانشقت ؛ والكون كله مكون من عوالم الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ . ونحن البشر مع أننا نتفاهم بلغة اللسان ، ولكن إذا التقى اثنان منا لا يتكلمان لغة واحدة ،لا يتفاهمان إلا بواسطة مترجم يعرف اللغتين ، هذا فى لغة الإنسان اللغة اللسانية ، فإذا كانت اللغة ليست لغة لسان فمن المستحيل أن تفهمها، ولذلك فنحن لا نفهم لغة الحيوان ولا لغة النبات ولا لغة الجماد ،إلا إذا أفهم الله سبحانه بعض خلقه هذه اللغات .

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] والجبال تسبح مع داود ومع غير داود فهى مسبحة دائمًا، ولكن الله أفهم داود تسبيح الجبال وجعل تسبيحها يوافق تسبيحه ، فكل ما فى هذا الكون من أعلى الكائنات إلى أدنى الكائنات

= لا يعقل على صيغة العقل، كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ .
[إيجاز البيان عن معانى القرآن ١/ ٤٣٠]

مسبح لله، ولكننا لا نفهم تسبيحهم ، فإن علمنا الله نفهم ، وإن لم يعلمنا لا نفهم .

الله سبحانه وتعالى علم سليمان منطق الطير فكأن للطير منطقًا ، ألم يبتسم سليمان عندما سمع النملة تتكلم كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٨ ، ١٩] إذن فكل شئ له لغة والذى يفهم كل هذه اللغات هو خالقها وخالق لغاتها. إذن فسجود الشمس والقمر والكواكب كما رآها يوسف فى المنام سجود تكريم وليس سجود عبادة ، وسجود لأمر الله وليس سجودًا لأمر يوسف.(١)

---

(١) قال الإمام محمد ابن أبى بكر الرازى: فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ؟ ولم يقل، ثلاثة عشر كوكبًا، وهو أوجزُ وأخصرَ؟ والذى رآه: أحد عشر كوكبًا غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصاً لهما بالذكر، وتفضيلاً لهما على سائر الكواكب؛ لِمَا لهما من المَزِيّة والمرتبة على الكُلّ. ونظيره تأخير جبريل وميكال عن الملائكة، ثم عطفهما عليهم إن قلنا إنهما غير مُرَادَيْن بلفظ الملائكة. وكذا قولهُ تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ إن قلنا إنها غير مُرادة بلفظ الصَّلوات.

فإن قيل: ما فائدة تكرار ﴿رَأَيْتُ﴾ ؟

قلنا: قال الزّمخشرى: ليس ذلك تكرارًا، بل هو كلام مستأنف وقع جوابًا لسؤال مقدّر من يعقوب عليه السلام، كأنه قال له بعد قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها، فقال مُجيبًا له: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾.

وقال الزّجّاج: إنما كرّر الفعل توكيدًا لَمّا طالَ الكلام كما فى قوله تعالى:﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، و﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ . وقال غيره: إنّما كرر =

ويعقوب عليه السلام أبو يوسف قال له: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ ومعناها يا ابنى وعندما تخاطب ابنك تقول له يا بنى؛ لأن الخطاب للابن يخرج من القلب، وإذا كان الخطاب ليوسف وهو صغير السن تكون العاطفة فيه أكبر، وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف التى أثارت حقد أولاده، واقرأ قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ إذن فيوسف قال يا أبت ويعقوب قال له يا بنى دليل على قوة العاطفة التى تربط بينهما، وكلما أصاب الإنسان شىء مفزع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث، وقال الأب يابنى وهو لفظ مملوء بالحنان والعطف، يعطينا الإحساس بأن يوسف ما زال صغيراً وأنه ليس له ذاتية ولكنه محتاج إلى حكمة الأب ونصيحته.

الأب الممتلئ قلبه حنانًا ،خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه؛ لذلك أسرع يقول له: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] كلمة ﴿رُؤْيَاكَ﴾ لفتتنا إلى أنها رؤيا؛ لأن يوسف رأى الشمس والقمر والكواكب ساجدين له، والشمس والقمر والكواكب لا تسجد لأحد.

= تفخيماً للرؤية وتعظيمًا لها.

فإن قيل: كيف أجريت مَجرىَ العقلاء فى قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وفى قوله ﴿سَاجِدِينَ﴾، وأصله رأيتها ساجدة؟

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السَّجود، أجرى عليها حكمه كأنها عاقلة، وهذا شائعٌ فى كلامهم، أن يلابس الشىء الشىء من بعض الوجوه، فيعطى حكمًا من أحكامه؛ إظهارًا لأثر الملابسة والمقارنة. ونظيره قوله تعالى ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾. وقوله تعالى فى وصف السماء والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. [تفسير الرازى: ٢٢٢، ٢٢٣]

وقوله تعالى : ﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ ﴾ تلفتنا إلى أنها رؤيا منام ؛ لأن اللغة من دقتها تجعل رأى واحدة، ولكن يختلف المصدر فيها باختلاف من يرى، أرأيت وأنت مستيقظ أم وأنت نائم؟ إن رأيت وأنت مستيقظ تقول : رأيت رؤية ، وإن رأيت وأنت نائم فقل: رأيت رؤيا ، الأولى بالتاء المربوطة والثانية بالألف .(١)

والرؤيا هى مصدر رأى فيها اتفاق، فأنت رأيت فى المنام كما ترى فى اليقظة هذا رأى وهذا رأى . إذن فهناك التقاء فى أنه رأى، ولكن الاختلاف فى حالة الرائى أهو يقظان أم نائم ؟ ولقد فرق الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بين الرؤيا فى المنام والرؤية فى اليقظة، إلا فى آية واحدة عندما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى سدرة المنتهى .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهذه الآية كانت مثار جدل، يستشهد بها من قال إن الإسراء والمعراج تم فى المنام؛ لأن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه رؤيا ، وقالوا لو كان فى اليقظة لقال رؤية بالتاء . نقول لمن يروج هذا الكلام: أنت لم تفهم عن ربك؛ فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن ما رآه رسول الله ﷺ رؤية العين فى معجزة الإسراء والمعراج شئ عجيب، لا يحدث حتى فى الأحلام، ولكنها ليست أحلامًا بدليل أن الله تعالى قال: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ .

وهل إذا حدّث إنسان إنسانًا آخر بأنه رأى فى المنام كذا وكذا أيكون هذا فتنة لأى شخص آخر؟ هل إذا قال الإنسان إنه رأى فى المنام أشياء لا يصدقها

(١) قال الزجاج: الرؤيا فيها أربع لغات. رويا بالهمز، ورؤيا بالواو بلا همز، وهاتان يقرأ بهما. وريَّاك بالإدغام، ورِياك بكسر الراء- ولا تقرأ بهاتين.
[معانى القرآن وإعرابه ٣/ ٩٢].

عقل أيكذبه أحد؟ طبعًا لا . إذن فما دامت ﴿ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ فلابد أن تكون رؤية يقظة .[1]

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ .

أى يعقوب يقول ليوسف: أنا مأمون عليك ،ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك، إذا رويتها لى أرشدتك للصالح فيه ، وإذا رويتها لإخوتك حقدوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لإخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكراهيتهم له ، ويعقوب بما آتاه الله من علم يعرف أن هذه الرؤيا ستتحقق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وإخوة يوسف وهم أولاد يعقوب هم أسباط[2] ولا نأخذ موقفهم من يوسف ليكون فى قلوبنا شيء ضدهم؛ لأن هؤلاء من خيار البشر، ولكنهم لم يكونوا أشرارًا ؛ لأن الشرير هو من يتصاعد عنده السوء ، فإذا كان هناك شرير غضب على إنسان فإنه يقول: عندما أقابله سأضربه ثم يقول: سأحطم عظامه من الضرب ثم يتصاعد فى الشر ، ولا يقول: أقتله، ثم يقول: سأضربه ثم يقول: سأوبخه أو سأعفو عنه .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ الآية ، قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام .
[فتح القدير : ٣/ ٢٤٦]

(٢) السِّبْطُ: الشجرة ذات أصل واحد، ولها أغصان كثيرة، ونقل ذلك مجازا إلى الشجرة النسب. فالسبط: القبيلة المتفرعة من أصل واحد، والأسباط: هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام، هم اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

[القاموس القويم للقرآن الكريم]

وقال فى مختار الصحاح: السِّبْط واحد الأسباط وهم ولد الولد. والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب. [٢٨٣]

إخوة يوسف قالوا: اقتلوا يوسف، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا: اطرحوه أرضًا يعيش فى الصحراء بعيدًا ، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا: ألقوه فى غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة . إذن فهم ليسوا أشرارًا .

الحق سبحانه يقول: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ معنى الكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته، إذن فلا يكيد إلا الضعيف ، أما القوى فإنه يواجه[1] .

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ : فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى:﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أى يحتالوا فى هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر، فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ. واللام فى ﴿لَكَ﴾ تأكيد، كقوله : ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ .

الثانية: الرؤيا حالة شريفة، ومنزلةرفيعة؛ قال ﷺ : « لم يبق بعدى من المبشّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له » [1].

وقال: « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » [2].

وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [3]، وروى « من سبعين جزءا من النبوّة ».

وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « جزءا من أربعين جزءا من النبوّة »[4]. =

---

(١) عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «لم يبق من النبوة إلا المبشرات » قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة. . . . » . جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٩٩٠] .

(٢) عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا اقترب الزمان ، لم تكد رؤيا المسلم تكذب ، أصدقكم رؤياأصدقكم حديثا . . . ». جزء من حديث أخرجه مسلم بطوله [٢٢٦٣].

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » . أخرجه البخارى [٦٩٨٨] ، ومسلم [٢٢٦٣].

(٤) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءًا من النبوة». أخرجه مسلم [٢٢٦٥] .

. . . .

= ومن حديث ابن عمر « جزء من تسعة وأربعين جزءا ».
ومن حديث العباس « جزء من خمسين جزءا من النبوّة » .
ومن حديث أنس « من ستة وعشرين » وعن عُبادة بن الصّامتٌ من أربعة وأربعين من النبوة » .
والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين .
ولم يخرّج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطّال.
قال أبوعبد الله المازرّى : والأكثر والأصح عند أهل الحديث« من ستة وأربعين ».
قال الطّبرى: والصواب أن يقال إن عامة الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله: « إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة » فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان.
وأما قوله: « إنها من أربعين ـ أو ـ ستة وأربعين » فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ أنه كان بها، فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السَّبَرات، والصبر فى الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة ـ إن شاء الله ـ جزء من أربعين جزءا من النبوة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين : ما بين الأربعين إلى الستين ، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين.
وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف متضاد متدافع ـ والله أعلم ـ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد ، فمن خلصت نيته فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .
قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه، ذكره أبو سعيد الأَسْفاقُسِى عن بعض أهل العلم : قال معنى قوله: =

= « جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة » فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ فى النبوّة ثلاثة وعشرين عاما - فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما، وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛ وإلى هذا القول أشار المازَرى فى كتابه: « المعلم » ، واختاره القونوىّ فى تفسيره من سورة يونس عند قوله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. وهو فاسد من وجهين: **أحدهما**: ما رواه أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدة الوحى كانت عشرين سنة، وأن النبى ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشرسنين؛ وهو قول عروة والشعبى وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس، وإذاً ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل .

الثانية: أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شىء من علم الغيب، كما قال عليه السلام: « إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم ». الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوّة؛ قال ﷺ: « الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان»(١) وأن التصديق بها حقّ، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأى والأثر، ولاينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكذاب والمحلِّط(٢) أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى =

---

(١) أخرجه البخارى [٦٩٨٦] بلفظ : عن أبى قتادة عن النبى ﷺ قال : « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم فليتعوذ منه ، وليبصق عن شماله فإنها لا تضره » . ومسلم [٢٢٦١] بلفظ : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان . . . » .

(٢) حلط حلطا وأحلط واحتلط : حلف ولجّ وغضب واجتهد . الجوهرى : أحلط الرجل فى اليمين : إذا اجتهد . قال الأزهرى : والاحتلاط الاجتهاد فى مَحْلٍ ولجاجة . الجوهرى : الاحتلاط : الغضب والضجر . ابن سيدة : وحلط علىّ حلطا واحتلط : غضب ، وأحلطه هو أغضبه . الأزهرى عن ابن الأعرابى : الحلْط الغضب من الحلط القسم .

[لسان العرب : ٧/ ٢٧٦]

= دينه منامات صحيحة صادقة ، كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين فى السجن، ورؤيا بُخْتُنَصَّر ، التى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى ﷺ، ومنام عاتكة عمة رسول الله ﷺ فى أمره وهى كافرة، وقد ترجم البخارى: باب رؤيا أهل السجن . فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة؛ إذ ليس كل من صدق فى حدث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة، وقد تقدّم فى الأنعام أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء، قال المهلب: إنما ترجم البخارى بهذا الجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوّة.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هى التى خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما فى اللوح المحفوظ، والتى هى من خبر الأضغاث هى الحُلْم، وهى المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضِغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة ، قال معناه المهلّب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساما تغنى عن قول كل قائل؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان لُيحزِن ابن آدم ومنها مايهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة »(1). قال قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ .

السادسة: قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى فى المنام ، رؤيا على وزن فُعلى كالسقيا والبُشْرى ؛ وألفه للتأنيث، ولذلك لم ينصرف ، وقد اختلف العلماء فى حقيقة الرؤيا ؛ فقيل: هى إدراك فى أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا فى آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائى علمًا ناشئا، ويخلق له الذى يراه على =

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٦٣] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، وفيه :
« ... والرؤيا ثلاثة : فرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه ... » .

. . . .

= ما يراه ليصح الإدراك ، قال ابن العربيّ : ولا يرى فى المنام إلا ما يصح إدراكه فى اليقظة، ولذلك لا يرى فى المنام شخصا قائما قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن لله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوُجُود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة، وفى الحالتين تكون مُبشّرةً أو مُنذرة؛ قال ﷺ فى صحيح مسلم وغيره : « رأيتُ سوداء ثائرةَ الرأسِ تَخرج من المدينة إلى مَهْيَعة فأوّلتها الحُمّى » (١). و « رأيت سيفى قد انقطع صدرُه وبَقَرا تُنْحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتى يُقتل والبقر نفر من أصحابى يقْتلون » (٢). و « رأيت أنى أدخلت يدى فى درعٍ حصينة فأولتها المدينة » (٣). و « رأيت فى يدىّ سُوَارين فأولتُهما كذابيْن يَخرجان بعدى » (٤). إلى غير ذلك مما ضربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلا فأولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا، فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، فأولها بإخوته وأبويه. =

---

(١) أخرجه البخارى [٧٠٣٩] بلفظ : عن عبد الله بن عمر فى رؤيا النبى ﷺ فى المدينة: «رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة ، حتى نزلت بمهيعة فتأولتها أن وباء نقل إلى مهيعة ، وهى الجُحفة ».

(٢ ، ٣) جزء من حديث أخرجه مسلم بطوله [٢٢٧٢] : عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هى فى المدينة يثرب . ورأيت فى رؤياى هذه أن هززت سيفًا ، فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان . فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين . ورأيت فيها أيضًا بقرًا ، والله خير، فإذاهم النفر من المؤمنين يوم أحد . . . ».
ومعنى وهلى : همى واعتقادى .

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم بطوله [٢٢٧٤] بلفظ : عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « بينا أنا نائم أتيت خزائن الأرض ، فوضع فى يدى أسوارين من ذهب . فكَبرُوا علىّ وأهمانى ، فأوُحى إلى أن أنفخهما ، فنفخهما فذهبا ، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة ».

= **السابعة**: إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: ﴿**لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ**﴾ ؟ فالجواب أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقى فى اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام، وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه، وأنها وُجدت كما رأى فلا اعتراض، روى أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتى عشرة سنة.

الثامنة: هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لايحسن التأويل فيها، روى أبو رَزِين العقيلى أن النبىّ ﷺ قال: « الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوّة » و « الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو مُحبا أو ناصحا ». أخرجه الترمذىّ وقال فيه: حديث حسن صحيح(1)؛ وأبو رَزِين اسمه لَقِيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوّة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت، قيل: فهل يعبّرها على الخير وهى عنده على المكروه ؟ لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوّة.

التاسعة: وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يُحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب ـ عليه السلام ـ قد حذّر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا، وقال النبىّ ﷺ : « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » (2). وفيها أيضا دليل واضح على =

---

(1) أخرجه الترمذى [٢٢٧٨] بلفظ : « رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءًا من النبوة ، وهى على رجل طائر ما لم يحدِّث بها ، فإذا تحدَّث بها سقطت » قال : وأحسبه قال : « ولا يحدث بها إلا لبيبًا أو حبيبًا » . وقال حديث صحيح ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٨٥٨] : صحيح .

(2) أخرجه الطبرانى فى الكبير [٢٠/١٨٣] بلفظ : « استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان . . » عن معاذ بن جبل . وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٩٤٣] .

والله سبحانه وتعالى قال عن النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ومعنى ذلك أن كيد بعضهن أعظم لأن ضعفهن أعظم ، ولذلك فالضعيف إذا تمكن من خصمه قضى عليه.

الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ ولم يقل فيكيدوك ما هو الفرق ؟ إذا قلت: يكيدوك أى يفعلوا بك شراً ، وإذا قلت: فيكيدوا لك أى أنهم سيفعلونها شراً من جهتهم،ولكنها ستكون خيراً لك ولمصلحتك.

= معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة فى هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غيرأنبياء فى ذلك الوقت، ووقع فى كتاب الطبرى لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوى، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر فى قتله، ولا التفات لقول من قال إنهما كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلةّ نبىّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدّم ويأتى.

العاشرة: روى البخارىّ عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات » قالوا: وما المبشِّرات؟ قال : « الرؤيا الصالحة ». وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة؛ ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأوّلها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدّم فى يونس فى تفسير قوله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخارىّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

[تفسير القرطبى : ٩/١٢٢: ١٢٧]

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ . أى كدنا لصالحه ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ والعداوة بين الشيطان والإنسان معروفة منذ خلق الله آدم . ورسول الله ﷺ يقول: «كل إنسان له شيطان يوسوس له بالسوء» . قالوا: حتى أنت يا رسول الله ؟ قال : « حتى أنا ولكن الله أعاننى على شيطانى فأسلم » (١) والشيطان عدوٌّ مبين للإنسان ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى عن توعد الشيطان للإنسان : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ هذه هى الإحاطة ، ولم يقل لآتينهم من أسفلهم ولا من أعلاهم، لأن الأسفل مكان السجود والعبودية لله، والأعلى مكان رفع العمل الصالح إلى الله ، وكلتا الجهتين لا يأتيهما الشيطان أبداً .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ . قال : «وإيَّاى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » .أخرجه مسلم [٢٨١٤] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [١/ ٣٨٥ ، ٤٠١].
وعن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ ، حدثته أن رسول الله ﷺ ، خرج من عندها ليلاً،قالت:فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع . فقال: «مالك يا عائشة أغرت ؟». فقلت : وما لى لا يغار مثلى على مثلك ؟.
فقال رسول الله ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟» . قالت : يا رسول الله أومعى شيطان؟ قال : « نعم » . قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : « نعم » . قلت : ومعك يا رسول الله ؟ . قال : « نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم » . أخرجه مسلم [٢٨١٥] .

* من نعم الله على يوسف *

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف:٦] ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما أراك ربك هذه الرؤيا التى أنبأتك بأنه سيكون لك شأن عظيم بالنسبة لإخوتك . ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ أى ينزل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد إخوتك ، بل يجعل هذا الكيد لصالحك أى لصالح يوسف عليه السلام فيعلمه تأويل الأحاديث ، ويجعل أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان يلتفتون له ، ثم بعد ذلك يصير حفيظًا لخزائن الأرض حين يعم الجدب والمجاعة ، ثم يصبح عزيز مصر وحاكمها .

وقول الحق تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ وتمام النعمة ليس بنعم الدنيا ولكن بالنعمة الكبرى، بأنه سيكون رسولاً وهذه النعمة هى نعمة الرسالة لا تسلب منه أبدًا ؛ لأننا نعيش فى عالم متغيِّر ، هناك أشياء تأتى ثم تُنزع ولكن الرسالة والملك الذى سيأتى ليوسف عليه السلام لن ينزع منه .

والله سبحانه وتعالى سيتم نعمته عليه، بأن يصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة ، فهو مُنَعَّمٌ فى دنياه ، وفى الآخرة من الرسل أصحاب المقام العالى ، فكما أنعم الله عليه بالرؤيا ليجتبيه ويحميه من كل سوء ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أتم عليه النعمة بالرسالة.

ومعنى تأويل الشيء معرفة معناه أو ما سيؤول إليه[1] ، والإنسان حينما

(١) أوَّلَ الكلام وتأوله : دبَّره وقدره ، وأوله وتأوله : فسره . وقوله عز وجل : =

يرى رؤيا فى المنام تأتى فى كثير من الأحيان بشكل غير مفهوم، بحيث يحتار من رآها فى تفسيرها ، بالنسبة ليوسف عليه السلام تأتى بإلهام من الله تعالى ، ولذلك لا يأتى بشر ويقول: إنه يستطيع أن يعلمك علم تفسير الأحلام أو أن هناك علمًا خاصًا بتفسير الأحلام ، فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهامًا من الله سبحانه وتعالى أو شفافية خاصة ولكنها ليست علمًا بشريا" (١) .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت يوسف إلى أن ما سيفعله به إخوته ليست عداوة بينهم وبينه ، بل هى زلة ستنتهى، وسيعود الإخوة متحابين وستعمهم جميعًا نعمة الله .

ولذلك قال : ﴿ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [يوسف:٦] **قوله تعالى:** ﴿**عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ أى أن الله أعلم حيث يجعل رسالته (٢) ،

= ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى لم يكن معهم علم تأويله . وفى حديث ابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين وعلمّه التأويل»(١) قال ابن الأثير : هو من آل الشىء يؤول إلى كذا أى رجع وصار إليه والمراد بالتأويل : نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلى إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ . [لسان العرب ١١/٣٣]

(١) عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ». أخرجه البخارى [٦٩٨٩] ، ومسلم [٢٢٦٣] عن ابن مُسْهِر . وتقدم كلام الإمام القرطبى فى الرؤيا . [ص ٨٧٣]

(٢) العليم : المحيط علمه بكل شىء ، فهو العليم الذى أحاط علمه بالعالم العلوى والسفلى، لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان . ولا يعذب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . [شرح أسماء الله الحسنى : ٨٨]

---

(١) أخرجه البخارى [١٤٣] بلفظ : عن ابن عباس أن النبى ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً . قال. قال : « من وضع هذا ؟ » فأخبر ، فقال : « اللهم فقهه فى الدين » وأخرجه مسلم [٢٤٤٧] بلفظ : « اللهم فقهه» .

وحكيم كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة [1] .

---

(١) الحكيم : الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات ، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادىء الأمور وعواقبها ، واسع الحمد ، تام القدرة ، عزيز الرحمة فهو الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها فى خلقه وأمره. [شرح أسماء الله الحسنى : ١٠٠]

* فى يوسف وإخوته آيات السائلين *

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى كان فى أمر يوسف وإخوته؛ لأن ﴿فِي﴾ تدل على الظرفية فكأن القصة ستدور حول يوسف ؛ موضوعها وأحداثها هو يوسف وإخوته . ويوسف اسم أعجمى وليس عربيا ؛ فهو ممنوع من الصرف لو كان اسمًا عربيا لقال الله سبحانه: « فى يوسف » لأن ﴿فِي﴾ حرف جر ،ولكن يوسف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة[1] .

فقوله تعالى : ﴿آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] والآيات جمع آية . والآية هى الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظر فيه لوجد فيه أشياء كثيرة [2] .

إن كلمة «آية» ترد فى القرآن بثلاثة معان: آيات كونية، وآيات هى المعجزات التى يؤيد الله سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاغهم عن الله، وآيات القرآن وهى التى تحمل لنا أحكام المنهج .

---

(١) قرأ الجمهور يوسف بضم السين وقرئ بكسرها مع الهمز مكان الواو ، وحكى الهمز وفتح السين وهو اسم عبرانى غير منصرف للعلمية والعجمة ، وقيل هو عربى ، والأول أولى بدليل عدم صرفه . [فتح البيان : ٦/ ٢٨٧]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿آيَاتٌ﴾ : موعظة ، وقيل : عبرة ، وروى أنها فى بعض المصاحف : عبرة ، وقيل : بصيرة ، وقيل عجب ؛ تقول : فلان آية فى العلم والحُسن، أى عجب . [تفسير القرطبى : ٩/ ١٣٠]

فالآيات الكونية هى :

قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله جل جلاله : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] .

وقوله عز وجل : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] .

هذه بعض الآيات التى تحدثت عن العجائب فى الكون ، والآيات الكونية هى الرصيد الموجود فى الإيمان، ساعة تراها تلفتك إلى عظمة الخلق ودقة صنع الله تعالى، وتجعلك تؤمن أن هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون خالقه إلهًا عظيمًا قادرًا حكيمًا. إنها الطريق الأول للإيمان بالتأمل فى عجائب الكون وما خلق الله فيه من إعجاز.

أما الآيات التى يؤيد بها الله رسله فهى آيات تخرق قوانين الكون مثلاً:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ والله سبحانه وتعالى هو خالق النار، وهو الذى أعطاها خاصية الإحراق ، فعندما يشاء يسلبها هذه الخاصية فلا تحرق وينجى إبراهيم من النار . والله سبحانه وتعالى هو خالق الماء وجعل قوانينه السيولة والاستطراق، ولكن عندما يريد أن ينجى موسى وقومه، يأمره بأن يضرب البحر بعصاه فيجمد الماء كأنه جبل، ويصبح هناك طريق يابس وسط البحر ، واقرأ قوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] هذه بعض الآيات التى أيد الله سبحانه وتعالى بها رسله؛ دليلاً على صدق بلاغهم عن الله .

أما آيات القرآن الكريم فاقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ . هذا

هو معنى الآيات فى القرآن الكريم يحملن منهج الله إلينا .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ . أى نوع من الآيات مذكور فى هذه الآية الكريمة ؟ .

إن الآيات الموجودة فى سورة يوسف من آيات العجائب، التى تثبت القدرة لله تعالى، وأنه جل جلاله هو الخالق والفاعل والمسيطر ، فيوسف عليه السلام يلقى فى الجب، ربما كان المقصود بهذا أن ينتهى أمره بالنسبة لأبيه وإخوته ، ولكن إلقاءه فى الجب جعله الله سببًا لكى يأخذه عزيز مصر ؛ ليُربى فى أعز بيت فى مصر ثم يصير له شأن فى الحكم .

إن إخوة يوسف كانوا يكيدون له لكى يبعدوه عن أبيهم، فنصره الله عليهم وأعاده إلى أبيه ، ولقد جاءت قصص الأنبياء ؛سلوى لرسول الله ﷺ وتثبيتًا له .

فكان رسول الله ﷺ يقول : « إنهم قومى ويكذبوننى » (1) فقص الله

---

(1) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لما كذبنى قريش قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .
أخرجه البخارى [٣٨٨٦، ٤٧١٠].

- **وقال عبد الرحمن هوساوى** فى كتابه: [منهج القرآن الكريم فى تثبت الرسول ﷺ وتكريمه: ٢٧٨]: إن الله لم يأمر رسوله - ﷺ بالاقتداء بالأنبياء فى خُلق على وجه التعيين إلا بالصبر ، نعم لقد أمره بالاقتداء بهم على وجه العموم فى قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] إلا أن تخصيص الصبر هنا يدل على صعوبته مع شدة الحاجة إليه ، إذ بدون الصبر لا يمكنه أداء مهمته الموكولة إليه كما يجب ؛ لهذا نهى الله رسوله محمداً ﷺ عن الاقتداء بيونس، عليه السلام فى استعجاله على قومه، وعدم صبره على تكذيبهم وخروجه مغاضباً لهم قبل أن تنتهى مهمته ، قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. ولقد قصَّ الله على رسوله ﷺ مواقف الأنبياء وأتباعهم ؛ لأجل أن يقتدى هو وأتباعه بهم فى صبرهم وتحمّل الأذى والاستهزاء.

عليه قصة يوسف وما فعله به إخوته ثم كيف نصر الله يوسف وجعله حاكمًا . وجاء إخوته ليحتموا به ويعيشوا فى ظلال نفوذه ، فإذا كان محمد ﷺ كذبه قومه فله سلوى فيما فعله إخوة يوسف مع أخيهم ، وإذا كان الوقت يمر بلا نصر حاسم، مما قال الله سبحانه وتعالى عنه:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] ولذلك يجب ألا نتعجل نصر الله، فيوسف عليه السلام جاءه النصر بعد أربعين سنة من إلقائه فى الجب عانى خلالها ودخل السجن ثم انتصر على إخوته ولكن بعد أربعين سنة [1].

---

(١) **قال عبد الرحمن هوساوى :** من أنواع الفتن التى يتعرض لها المسلم تأخر نصر الله تعالى فى مقابل تمادى أهل الباطل فى إيذاء المؤمنين ، مما يحمله على استبطاء النصر مع تحققه[1]. =

---

(١) ذكر سيد قطب رحمه الله - حكماً لتأخر النصر فقال :
والنصر قد يبطىء ؛ لأن بُنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ولم تحشد بعد طاقاتها.
وقد يبطىء النصر؛ حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما فى طوقها من قوة ، بحيث لا يبقى شىء تملكه عزيزاً ولا غالباً إلا بذلته رخيصاً فى سبيل الله .
وقد يبطىء النصر ؛ حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ؛ لتدرك أن القوى المادية لاتكفل لها النصر ، بل النصر من عند الله تعالى .
وقد يبطىء النصر ؛ لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله .
وقد يبطىء النصر ؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد من حظوظ نفسها .
وقد يبطىء النصر ؛ لأن الشر الذى تكافحه الأمة المؤمنة فيه بقايا خير ، يريد الله أن يستخلص هذا الخير ليهلك بعد ذلك الشر المحض .
وقد يبطىء النصر ؛ لأن الباطل لم ينكشف زيفه أمام الناس ، والله يريد إظهار الباطل عارياً للناس ؛ حتى لا ينخدع به أحد بعد ذلك .
وقد يبطىء النصر؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل، الذى تمثله الأمة المؤمنة . [فى ظلال القرآن - باختصار : ١/٣٥٩-٣٦٠]

وموسى عليه السلام حين دعا وقال كما يقص علينا القرآن الكريم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن

= قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومن هنا جاءت توجيهات الله لرسوله فى عدة آيات بالصبر، مقترناً بتأكيد الوعد له بالنصر .

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥].

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧].

ففى هذه الآيات الثلاث أكد الله لرسوله تحقيق النصر له بقوله: ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهذا الوعد هو المذكور فى الآيات السابقة لهذه الآيات .

ففى سورة الروم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

يقول أبو حيان – رحمه الله: والآية جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلية له ، ووعداً بالنصر ، ووعيداً لأهل الكفر (١).

وفى سورة غافر قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

يقول الرازى – رحمه الله : والآية وعد من الله تعالى لرسوله بأنه ينصره على أعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. (٢). [منهج القرآن الكريم : ٢٧٦ ، ٢٧٧]

---

(١). البحر المحيط [٧/ ١٧٨].

(٢) التفسير الكبير [٢٧/ ٧٥].

سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] وكان بين الإجابة وتحقيق الدعوة أربعون سنة ، ولذلك فإن رؤيا الخير يطول أمد حدوثها ، ورؤيا الشر سريعة الحدوث .

وهذا من رحمة الله تعالى؛ لأن رؤيا الشر تجعل الإنسان يعيش فى تعاسة وهو يعلم أن شرا سيحدث له ، ولذلك يجعلها الله تحدث بسرعة وتنتهى ؛ لأنها لو بقيت فترة طويلة سيتخيل الإنسان الشر بكل صوره وفى كل يوم ، أما الخير فهو يضع الأمل فى النفس، ويجعل الإنسان يعيش سعيدًا وهو يعلم أن خيرًا ينتظره أو سيقع له؛ ولذلك يطيل الله أمد الخير ليقوم الإنسان كل يوم وهو يتوقع الخير فيعيش فيه طويلاً .

الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾. أى ليست آية واحدة ولكنها آيات وإن كانت هناك قراءة تقول: «آيَةٌ للسائلين » لأن القصة كلها عجيبة ، والقراءتان صحيحتان؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] مع أنهما اثنان ولكل منهما آيات ولكن قصتهما فى مجموعها آية عجيبة شاملة .

❊ سؤال اليهود عن أمر يوسف ❊

وقوله تعالى : ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] تدل على أن هناك من سأل ؟ فمن الذى سأل ؟ إنهم اليهود بعثوا من قريش من يسأل محمدًا عليه الصلاة والسلام عن قصة يوسف وإخوته. وهم لثقتهم أن رسول الله ﷺ لم يقرأ شيئًا ولم يجلس إلى معلم وهو أمى ، اعتقدوا أنهم لو سألوه مثل هذا السؤال لأحرجوه ، ولقال لا أعرف شيئًا أو أتى بقصة من خياله ، تختلف مع ما ذكر فى الكتب السابقة(١) .

---

(١) **قال القرطبى** : قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آيةٌ» على التوحيد ؛ واختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع ؛ قال : لأنها خير كثير . قال النحاس : و«آية » هنا قراءة حسنة، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية خبروا به ؛ لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجّهَ اليهود إليهم من المدينة يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة يوسف جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكل ذلك آية للنبيّ ﷺ ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت .

[تفسير القرطبى : ٩/ ١٢٩، ١٣٠].

وقال العلامة صديق حسن خان : لقد كان فى يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود ؛ فإنه روى أنه قال جماعة منهم وهو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى ، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجّهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ؛ فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة. ا . هـ . [فتح البيان : ٦/ ٢٩٢]

ولكنهم تعجبوا عندما نزلت سورة يوسف تحكى كل شىء بالتفصيل وبإتقان وإحكام ، وهى تروى لهم العجائب التى حدثت ليوسف وإخوته.

والقصة من أولها إلى آخرها، قد تستغرق ساعة أو أكثر فى قراءتها . رسول الله ﷺ عندما نزل عليه الوحى بالسورة رواها للصحابة، وطلب منهم أن يحفظوها ويكتبوها، ثم تمر سنة ويأتى رسول الله ﷺ ليقرأ قصة يوسف فلا يغير فيها حرفًا واحدًا .

ولو أنك طلبت من إنسان أن يردد ما قاله بعد يوم واحد ما استطاع أن يأتى بنفس الألفاظ ولا بنفس الكلام . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال لرسوله : ﴿ **فَلَا تَنسَىٰ** ﴾ . فمعنى ذلك أنه لن ينسى ولا حرفًا واحدًا [١] .

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ** ﴾ أى : يا محمد ﴿ **فَلَا تَنسَىٰ** ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ، ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ وهذا اختيار ابن جرير ، وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئًا إلا ما شاء الله ، وقيل المراد بقوله ﴿ **فَلَا تَنسَىٰ** ﴾ طلب وجعل معنى الاستثناء على هذا، ما يقع من النسخ أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه ، فلا عليك أن تتركه. [تفسير ابن كثير : ٤/٥٠١]

* إيثار يعقوب ليوسف وأخيه *

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف: ٨] فلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ وقبل ذلك قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] إن الإخوة ثلاثة أقسام : قسم قد يكون من ناحية الأب والأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأب دون الأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأم دون الأب .

قوله تعالى : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ ، فلابد أنهما شقيقان: والباقون أولاد زوجة أو زوجات أخريات ، ولقد قالوا: إن أولاد يعقوب كانوا اثنى عشر . اثنان منهم أخوان شقيقان هما يوسف وأخوه ، والباقون أولاد الزوجات الأخريات فيكون مجموعهم اثنى عشر ، ستة إخوة من واحدة، وأربعة من سريتين هما زلفة وبلهة. ولما ماتت ليا زوجته الأولى تزوج بأختها أراحيل، وأنجب منها يوسف وبنيامين[1] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ اللام موطئة للقسم، أى أنهم

---

(١) **قال القرطبى** : وأسماؤهم يعنى إخوة يوسف وهم أحد عشرة : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ، ولاوى ، ويهودا ، ريالون ، ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين- زلفة وبلهة- أربعة نفر وهم : دان ، نفتالى ، وجاد ، وآشر. ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين؛ فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً. [تفسيرالقرطبى :٩/ ١٣٠]

يقولون: والله ليوسف ، فاللام دلت على القسم ، والمعنى والله ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، لماذا أتى بالقسم ؟ القسم لا يأتى إلا بصدد إنكار؛ لأن هذه القضية قضية الحقد على يوسف ومحاولة التخلص منه، الإخوة اختلفوا فيها : واحد قال نقتله، والثانى قال: نطرحه فى الصحراء، والثالث قال: نلقيه فى الجب يلتقطه بعض السيارة .

كل هذا مجمعه أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ، وهنا لابد أن يأتى القسم ليؤكد هذا الحب، ولكنهم لم يقولوا: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾، ولكن من غفلتهم البشرية قالوا: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وكان هذا هو السبب فى حب الأب ليوسف وأخيه ؛ لأنهما صغيران .

وهذه مسألة أوجدها الله فى قلوب البشر، دون اختيار منهم حتى فى الحيوانات، مادام الابن صغيراً وضعيفًا وفى حاجة إلى الرعاية، فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر ، ولذلك عندما سألوا المرأة الأنمارية : أى أولادك أحب إليك ؟ قالت: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . قالوا لها : فمن تحبين أكثر؟ قالت: الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فالضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها فى واقع الحياة ، والابن الصغير أحب دائمًا إلى أبويه عمن هم أكبر منه. ويقولون: إن هذا من عدل الله سبحانه وتعالى، ذلك أنه مهما عاش الولدان مع أبيهما فإن الصغير قد تمتع بخير أبيه سنوات أقل من الكبير؛ فيعوضه الله سبحانه وتعالى بزيادة الحنان عن قصر المدة . وإذا كانت امرأة لها ولدان : ولد غنى يقوم بحاجتها وولد فقير لا يأتى بشئ فقلبها يكون مع الفقير ، والحب مسألة عاطفية لا تقنين لها ولا تكليف فيها، ولذلك نجد القرآن الكريم يجردنا من هذه العاطفة فى الحكم بين الناس ، يقول ربنا سبحانه

وتعالى : ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ألا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فالله سبحانه وتعالى حرص فى هذه الآية الكريمة لا على أن يقول أبغض من تحب، أو أحب من تبغض، وإنما طلب منا الحق سبحانه أن لا نجعل عواطفنا تتدخل فى العدل فى الحكم بين الناس . قد يعترض البعض ويقول إن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (١). نقول له: إن عمر قال: يا رسول الله إنى أحبك عن ولدى وعن مالى، أما عن نفسى فلا. ولكن رسول الله ﷺ كرر نفس الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

فرأى عمر فى تكرار الحديث إلزام عقيدة وتكليف؛ فأدرك أنه ليس حب العاطفة وإنما هو حب العقل، فقال: يا رسول الله الآن أحبك أكثر من نفسى فقال له رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » (٢). أى الآن فهمت أن هناك حبا عقليا وحبا عاطفيا، فالحب العقلى أن تؤثر النافع على الضار، فتحب الدواء المر وإن كانت عاطفتك لاتقبله ولكن عقلك يحبه ؛ لأنه الطريق إلى الشفاء . هذا حب العقل . فرسول الله ﷺ حينما قال لم يكن يتحدث عن حب العاطفة.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين مر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب، قال له رجل: يا عمر هذا هو قاتل أخيك، فقال له : وماذا

---

(١) عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ». أخرجه البخارى [١٥] ، ومسلم [٤٤] .

(٢) عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام ، قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر: يا رسول الله ! لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال النبى ﷺ: « لا . والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلىّ من نفسى. فقال النبى ﷺ : « الآن يا عمر » . أخرجه البخارى [٦٣٣٢] .

أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟ ثم لفت وجهه عنه، فقال له الرجل: أتلفت وجهك عنى ؟ فقال له عمر: نعم ؛ لأننى لا أحبك. فقال له الرجل: أو عدم حبك لى يمنعنى حقا من حقوقى؟ فقال عمر: لا، فقال له الرجل: إنما يبكى على الحب النساء .

كان يجب على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب أبيهم ليوسف وأخيه انفعال طبيعى لا يسيطر عليه الأب، ولكنهم لم ينتبهوا إلى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ ، يفهم منه أن المؤامرة ستكون ضد يوسف وأخيه بنيامين ولكن انتقامهم انصب على يوسف، مع أن أخا يوسف أحب إلى أبيهم منهم . ولكنهم ربما عرفوا عن الرؤيا التى رآها يوسف، فقالوا : إن يوسف هو الذى سيأتى منه الخطر؛ فقرروا أن يبدأوا به ، ومن العجيب أنهم يقولون : ونحن عصبة ولم ينتبهوا إلى أن العصبة من عشرة فأكثر [1] ، وهم عصبة متكاتفة متعصبة يقضون مصالح بعض ويعينون بعضهم ، وهم يباشرون كل شىء وأبوهم شيخ كبير لا يباشر شيئًا . نقول لهم : كونكم عصبة يجعل حب الأب لمن ليسا عصبة أكثر ؛ لأنهما ضعيفان صغيران ، وهذا أمر طبيعى.

ثم نأتى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨] نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ؛ لأن يوسف وأخاه صغيران، وأنتم عصبة

---

(١) العُصْبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين . وفى التنزيل العزيز ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ قال الأخفش :العُصبَة والعُصابة : جماعة ليس لها واحد .
[لسان العرب ١/ ٦٠٥]

وقال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ : أى أشداء فى أنفسنا أو يشد بعضنا بعضاً ، أما هما فصغيران لا كفاية عندهما ، والعصبة من العشرة إلى الأربعين . [نظم الدرر : ١٠/ ٢٢]

فى غنى عن الأب وعطفه فكيف تقولون : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ نقول : إن الناس تأخذ كلمة ضلال على المعنى الواسع ، وهناك ضلال مقصود ؟ طبعاً لا ، ولكن أن تعرف الحق وتذهب إلى الباطل فهذا ضلال مقصود مذموم، وقد يوجد الضلال غير المقصود ؛ لأن الإنسان لا يعرف الحق أو لأنه نسى مثلاً [1] .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فالضلال هنا ليس متعمداً ،ولكنه عن نسيان [2].وفى قول الحق سبحانه

---

(١) قال العلامة صديق حسن خان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى لفى ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا ، وإيثارهما دوننا ، مع استوائنا فى الانتساب إليه . ولا يصح أن يكون مرادهم أنه فى دينه ضلال ، إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ، قال ابن زبير : أى لفى خطأ من رأيه. [فتح البيان : ٦/ ٢٩٣]
وقال ابن كثير : يعنون فى تقديمهما علينا ومحبته إياهما أكثر منا لله [٢/ ٤٥٠].

(٢) قال العلامة صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل تنسى أى لنقص عقلهن وضبطهن،والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها .
وذكر جزء ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ﴾ أى الذاكرة ﴿الأخرى﴾ أى الناسية ، قرىء ﴿فتذكر﴾ بالتخفيف ومعناها تزيدها ذكراً وقراءة الجماعة بالتشديد أى تنبهها إذا غفلت ونسيت، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد فى النساء ، أى فليشهد رجل ولتشهد امرأتان عوضاً عن الرجل الآخر؛ من أجل تذكير إحداهما الأخرى إذا ضلت، وعلى هذا فيكون فى الكلام حذف، وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضاً عن الرجل الواحد ، فقيل وجهه ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ .
والعلة فى الحقيقة هى التذكير ، ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته وأبهم الفاعل فى تضل وتذكر ، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان ، فالمعنى إن ضلت =

وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧] خصوم الإسلام أخذوا هذه الآية الكريمة، وأخذوا يشككون فيها بأن رسول الله ﷺ قد ضل [١]. نقول لهم أنتم لا تعرفون اللغة العربية.

= هذه ذكرتها هذه، وإن ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين أى إن ضلت إحدى المرأتين ذكرتها الأخرى . وإنما اعتبر فيهما التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال، وقد يكون الوجه فى الإبهام أن ذلك يعنى الضلال والتذكير يقع بينهما متناوباً ،حتى ربما ضلت هذه عن وجه ، وضلت تلك عن وجه آخر ، فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها . [فتح البيان ٢/ ١٥١]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] .
أى غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك : أى أرشدك ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله جل ثناؤه : ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أى لا يغفل ، وقال فى حق نبيه : ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقال قوم : ﴿ضَالًّا﴾ لم تكن تدرى القرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ على ما بينا فى سورة الشورى. وقال قوم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أى فى قوم ضلال ، فهداهم الله بك. هذا قول الكلبى والفراء . وعن السدى نحوه ،أى ووجد قومك فى ضلال ، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن الهجرة ،فهداك إليها، وقيل: ﴿ضَالًّا﴾ أى ناسياً شأن الاستثناء،حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح،فأذكرك،كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ . وقيل : ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها، بيانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب. وقيل : ووجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك ، فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى التحير ؛ لأن الضال متحير وقيل: ووجدك ضائعًا فى قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع ، وقيل : ووجدك محبا للهداية ، فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى فى محبتك . قال الشاعر : =

رسول الله ﷺ لم يكن يعرف أين طريق الحق وأين طريق الباطل، إلى أن هداه الله إلى الحق، فاتبعه فالهداية جاءت هنا هداية دلالة إلى طريق .

= هذا الضلال أشاب منى المفرقا العارضَيْنِ ولم أكن متحققا
عجبا لعزةَ فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : ﴿ ضَالاً ﴾ فى شِعاب مكة ، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب ، قال ابن عباس: ضل النبىّ ﷺ وهو صغير فى شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ، فمن الله عليه بذلك ، حين ردّه إلى جده على يدى عدوّه ، وقال سعيد بن جبير : خرج النبىّ ﷺ مع عمه أبى طالب فى سفر ، فأخذ إبليس بزمام الناقة فى ليلة ظَلْماء ، فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل عليه السلام ، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة ؛ فمنّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن حليمة لما قضت حق الرضاع ، جاءت برسول الله ﷺ لتردّه على عبد المطلب ، فسمعت عند باب مكة : هنيئا لك يا بطحاء مكة ، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال ، قالت : فوضعته لأُصلِح ثيابى ، فسمعت هدّة شديدة ، فالتفت فلم أره ، فقلت : مَعْشَرَ الناس ، أين الصبى ؟ فقالوا : لم نر شيئًا؛ فصحت : وامحمداه ! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه ، فقال: اذهبى إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أن يردّه عليك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم ، وقبل رأسه وقال : يارب ، لم تزل منتك على قريش ، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل ، فردّه إن شئت . فانكب هُبَلُ على وجهه ، وتساقطت الأصنام ، وقالت : إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدى محمد . فألقى الشيخ عصاه ، وارتعد وقال : إن لابنكِ ربا لا يضيعه، فاطلبيه على مَهَل . فانحشرت قريش إلى عبد المطلب ، وطلبوه فى جميع مكة، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا ، وتضرع إلى الله أن يردّه ، وقال:

. يا ربِّ رُدَّ ولدى محمدا اردده يا ربى واتخـــذ عندى يدا
رب إنْ محمدٌ لم يُوجـــــــدا فشمل قومى كلهم تبدّدا

فسمعوا مناديا ينادى من السماء : معاشَر الناس لا تضِجوا ، فإن لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمدا بوادى تِهامة عند شجرة السَّمُر . فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل ، فإذا النبىّ ﷺ قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان وبالورق، وقيل: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً ﴾ ليلة المِعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت=

الحق؛ لذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾(١)

= لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش وقال أبو بكر الورّاق وغيره : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً﴾ : تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك. وقال بسام بن عبد الله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً﴾ بنفسك لا تدرى من أنت ، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى : ووجدك متحيرا فى بيان الكتاب ، فعلمك البيان ، بيانه : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية . ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق ، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً ﴾ أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فَهَدَيتُ بك الخَلقَ إلىّ.

قلت : هذه الأقوال كلها حِسان ، ثم منها ما هو معنوىّ ، ومنها ما هو حِسىّ . والقول الأخير أعجب إلىّ ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليه ، لا يُظهر لهم خلافا على ظاهر الحال ، فأما الشرك فلا يُظَنُّ به ، بل كان على مراسم القوم فى الظاهر أربعين سنة ، وقال الكلبى والسدّىّ: هذا على ظاهره ، أى وجدك كافراً والقوم كفار فهداك . وقد مضى هذا القول والردّ عليه فى سورة الشورى . وقيل : وجدك مغمورا بأهل الشرك ، فميزك عنهم . يقال: ضل الماء فى اللبن ؛ ومنه : أئذا ضَلَلنا فِى الأرضِ ، أى لحقنا بالتراب عند الدفن ، حتى كأنا لا نتميز من جملته . وفى قراءة الحسن « ووجدك ضالٌّ فهدى » أى وجدك الضال فاهتدى بك، وهذه قراءة على التفسير. وقيل : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً﴾ لا يهتدى إليك قومك ، ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك .
[تفسير القرطبى : ٢٠/٩٦:٩٩]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَاالْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى: قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك روحًا أى نبوة ، قاله ابن عباس ، الحسن وقتادة : رحمة من عندنا. السدّى : وحيًا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : =

. . . .

= هو القرآن . وهو قول مالك بن دينار . وسماه روحا ؛ لأن فيه حياة من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ على القرآن أيضا ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى يسألونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ، ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ، فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانية: قوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القُشَيْرى : وهو من مجوّزات العقول ، والذى صار إليه المعظم أن الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكمٌ ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به. قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف ، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك فى شيء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ، كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه ،قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : ألِلعب خُلقت ! وقيل فى قوله : ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه ، وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله : ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ على قراءة من قرأه «مَنْ تَحْتَها » ، وعلى قول من قال : إن المنادى عيسى ونص على كلامه فى مهده فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ . قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقد ذكر من حكم سليمان =

= وهو صبى يلعب ، فى قصة المرجومة وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل ، وقال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى هديناه صغيرا ، قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل إبداء خلقه ، وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكاً يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه، فقال : قد فعلتُ ،ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار محنته كانت وهو ابن لست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[1] . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ما هم إخوته بإلقائه فى الجُبّ بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ الآية ، إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا ﷺ ولد حين ولد باسطا يديه فى الأرض، رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه ﷺ : « لما نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان وبُغِّض إلىَّ الشعر ولم أهُم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد» . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم ، حتى يصلوا الغاية ، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل الخصال الشريفة النهاية، دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّىء واصْطُفِى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

قال القاضى : وأنا أقول إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد فى شىء من ذلك تعييراً لواحد منهم، برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه فى معبوده =

---

(١) هذا خطأ فاحش فالذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

= محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ، أفظع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم ، وما كان يعبد آباؤهم من قبل ، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه،كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ كما حكاه الله عنهم .

الثالثة : وتكلم العلماء فى نبينا ﷺ : هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْى أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا ، قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرف تابعا، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى : بالوقف فى أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشىء فى ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها فى أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبى المعالى ، وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ، ثم اختلف هؤلاء فى التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ، فلا يجوز أن يكون النبى على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء ، وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لابد أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هى أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوز ذلك كله. والذى يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء، نسبة تقتضى أن يكون واحدا من أمته ومخاطباً بكل شريعته ، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جل وعز، وأنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر،ولا شهد السامر(١) ولا حضر حلف المطر ولا حلْفَ المطيبين(٢) ،بل نزهه الله وصانه عن ذلك . فإن قيل : فقد روى عثمان =

(١) الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه .

(٢) المطيب ، قال ابن الأثير : أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات، فذلك التى ورد النهى عنه فى الإسلام بقوله صلوات الله عليه : « لا حلف فى الإسلام » ، وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام، كحلف المطيبين وما جرى مجراه،فذلك الذى =

. . . .

= ابن أبى شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبى ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع ملَكَين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : اذهب حتى تقوم خلفه ، فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد ؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جداً وقال : هذا موضوع أو شبيه بالموضوع . وقال الدَّارَقُطْنى : إن عثمان وَهَم فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ، والمعروف عن النبى ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله : « بُغضت إلىّ الأصنام» وقوله فى قصة بحيرا حين استحلف النبىّ ﷺ باللات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام فى سَفْرته مع عمه أبى طالب وهو صبى ، ورأى فيه علامات النبوّة فاختبره بذلك ؛ فقال له النبىّ ﷺ : « لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ بُغْضَهُمَا » فقال له بَحيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال : « سل عما بدا لك » . وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام، وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبؤته يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلفة فى الحج ، وكان يقف هو بعرفة ؛ لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقال : ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقال : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾ الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبدا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين ؛ على ما تقدم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله : « ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾ والحمد لله . =

= قال فيه الرسول ﷺ: «وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق ، وبذلك يجتمع الحديثان،وهذا هو الحق الذى يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام .ويلاحظ أنه قال ﷺ : « شهدت غلاما مع عمومتى حلف المطيبين » . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم فى دار ابن جدعان فى الجاهلية ، وجعلوا طيبا فى جفنة وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم ؛ فسموا المطيبين . وقال عليه السلام : « شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفا لو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » . قال ابن الأثير : يعنى حلف الفضول . [النهاية لابن الأثير مادة حلف ، طيب ، فضل]

فالضلال المذموم هو أن تعرف الحق ثم تذهب إلى الباطل. وإخوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل،ومن هنا وصلوا إلى نتيجة أن أباهم كان يجب أن يحبهم أكثر،والنتائج الضارة لا تنشأ إلا من مقدمات باطلة،ولو أن كل مقدمة بحثت مع الحق لخرجت

= الرابعة : إذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه، ذكره الثعلبى ، وقيل : تفاصيل هذا الشرع أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل، ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ذكره القشيرى . وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية. وقال أبو بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام، قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ، فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة ، وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ، أى مَن الذى يؤمن ؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن على بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ، وهو محتمل ، وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما: أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته ، والثانى : أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة .

قلت : الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدم ، وقيل : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أى كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ، وهو كقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما .

[تفسير القرطبى : ١٦/ ٥٤ : ٦٠]

النتائج ، فكأن قولهم : ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مقدمة خطأ ؛ لأنهم ما كان يجب أن ينظروا إلى حب أبيهم ليوسف وأخيه ، وإنما كان يجب أن ينظروا إلى أنهم عصبة ، وأن كل ما يملكه أبوهم فى أيديهم ، ولكنهم تركوا هذا واتجهوا إلى حب أبيهم ليخطئوه .

ثم ماذا فعلوا ؟ بدأوا يتآمرون على يوسف وقالوا : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ إذن فهم يقدرون أنهم سيفعلون ذلك ، ثم يتوبون فيتقبل الله توبتهم ويكونون قوماً صالحين، ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا (١) .

وقوله تعالى : ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ الوجه المقصود به المواجهة والابتسام والحنان ، والانفعال كله يظهر على الوجه فهم يريدون أن يقولوا: إن وجه أبيهم سيصفو لهم بالحب والحنان بعد ذلك، كأنهم يقولون : عندما ننتهى من قتل يوسف أو طرحه أرضاً نرتاح مع أبينا وينتهى كل شىء .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] الجب هى البئر المطوية ، التى تحفر لكى يتجمع فيها الماء من باطن الأرض (٢).

والبئر المطوية يأتيها استطراق الماء من أسفل ، إذن ففى غيابة الجب أى فى فجوة من الجب حتى لا يراه أحد ، وكلمة غيابة أى المنطقة الخفية من الجب، فالجب مخفى بالنسبة للواقف على سطح الأرض ، ولكن كونهم يريدون أن يخفوه ولا يراه أحد لا يتلاءم مع قوله تعالى : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] فأضمروا التوبة قبل الذنب . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥١]

(٢) قال ابن كثير: غيابة الجب هو أسفله، قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس [٢/ ٤٥١].

السَّيَّارَة ﴾ ولقد قلنا إن الشر عند الأخيار يتناقص ؛لذلك بدأوا بالقتل ثم قالوا : اطرحوه أرضًا أخف من القتل، فقد ينجو وقد تفترسه الوحوش ، ثم قالوا : ضعوه فى الجب عملية أقل ضررًا ، على الأقل يجد الماء الذى يشرب منه ويحفظ حياته مدة طويلة ، ثم يقولون : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَة ﴾ .

والله تعالى لم يقل لنا من الذى قال : ﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ وإنما قال : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لأن الله تعالى لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهلة [1] ، وقوله تعالى أى أن هناك أملاً ألا يفعلوا ويتراجعوا عن هذا كله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف: ١١] .

ساعة تسمع ﴿ قَالُوا ﴾ ، والكلام لواحد من الجماعة تعرف أنهم تحدثوا معًا واتفقوا على الكلام الذى يقال ، ثم قام واحد منهم بالكلام نيابة عنهم، فكأنهم تكلموا جميعًا ؛ لأنهم اتفقوا ووافقوا على ما سيقال ، لماذا؟ لأن المؤمن أحد الداعين . ومر فى قصة موسى عليه السلام فى

---

(١) قال ابن جماعة فى قوله : ﴿ قَالَ قَائِلٌ ﴾ هو يهوذا. [غرر التبيان : ٢٨٤]

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يهوذا ، قاله أبوصالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبه ، والسدى ومقاتل .

الثانى : أنه شمعون ، قاله مجاهد .

والثالث : روبيل ، قاله قتادة ، وابن إسحاق . [زاد المسير : ٤/ ١٤٢، ١٤٣]

دعائه على فرعون قال كما قص علينا القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ .

من الذى دعا ؟ إنه موسى ، ولكن الله تعالى قال :﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩] فكأن موسى دعا وهارون قال آمين ، فالمؤمن أحد الداعين ، كذلك فى قوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ اتفقوا عليه فكأنهم جميعًا قالوا (١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وما داموا قالوا لا تأمنا فكأن هناك محاولات سابقة منهم أن يأخذوا يوسف ولكن أباهم رفض .

وقوله تعالى :﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف :١١] أى سينصحونه ولن يأتيه شر .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى حكاية عنهم : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف: ١٢] ولماذا قالوا لا يرتع ويلعب ؟ لأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ، ولابد أن يجدوا حجة ليأخذوا بها يوسف، فهو لا يصلح للرعى ولا العمل ، ولكنه سيرتع ويلعب، واللعب وقت الطفولة مسموح به ؛ لأنه ليس هناك تكليف بعد ، واللعب أن تنشغل بمباح بقصد انشراح النفس .

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك ببنى يعقوب! ولهذا قيل : الأب جلاّب والأخ سلاّب، فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال ، وقالوا ليعقوب ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقيل : لما تفاوضوا افترقوا على رأى المتكلم الثانى، عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول . وفيه دليل على أنهم سالوه . قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف ، فأبى .

[تفسير القرطبى : ١٣٨/٩]

والشرع لا يمنع اللعب بشىء قد يطلبه الجد مستقبلاً ، كتعلم السباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل .

أمر يمكن أن ينفعه فى المستقبل وهذا هو اللعب ، أما اللهو فهو شغل يلهى عن واجب مثل ألعاب التسلية التى تضيع الوقت، وتأخذهم عن الصلاة وعن ذكر الله، هذا لهو ولو أنهم بمجرد سماع الأذان قاموا إلى الصلاة وتركوا ما فى أيديهم لا يكون هذا لهواً ولكنه تسلية [1].

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ هذا جواب الأمر ، قرأ أهل البصرة وأهل مكة ، وأهل الشام بالنون وإسكان العين ، كما رواه البعض عنهم ، وقرؤوا أيضًا بالاختلاس ، وقرأ الباقون بالنون وكسر العين ، والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب: رتع الإنسان أو البعير : إذا أكل كيف شاء ، أو المعنى : نتسع فى الخصب ، وكل مخصب راتع ، قال الشاعر : فارعى فزارة لا هناك المرتع

ومنه قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت … فإنما هى إقبال وأدبار [1]

والقراءة الثانية مأخوذة من رعى الغنم ، وقرأ مجاهد وقتادة : « يرتع ويلعب» بالتحتيه فيهما ، ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف ، وقال القتيبى : معنى ﴿يَرْتَعْ﴾ نتحارس ونتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ، من قولهم : رعاك الله أى حفظك و ﴿يَلْعَبْ﴾ من اللعب . قيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء ، فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد به : اللعب المباح من الأنبياء ، وهو مجرد الانبساط . وقيل : هو اللعب الذى يتعلمون به الحرب ، ويتقوون به عليه كما فى قولهم : ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا : « ونلعب » ، ومنه قوله ﷺ لجابر : « فهلاً بكرا تلاعبها وتلاعبك» [2] [فتح القدير :٣/١١، ١٢]

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخراً .

(٢) أخرجه البخارى [٢٠٩٧ ، ٢٣٠٩ ، ٢٩٦٧ ، ٦٣٨٧] ، ومسلم [٧١٥/٤٥-٨٥] ، وأبو داود [٢٠٤٨] ، والترمذى [١١٠٠] ، والنسائى فى الكبرى [٥٣٢٨ ، ٥٣٣٦] ، وابن ماجه [١٨٦٠] .

قولهم : تقول : ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا﴾ تقول:(مالك) حينما تريد أن تعرف السبب ، وقولهم كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢، ١٣] إذن فالمسألة من يعقوب ليست مجرد خوف على يوسف، ولكن فراق يوسف يحزن يعقوب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] ولقد قال بعض الناس إن يعقوب نبه أذهان أولاده إلى مسألة الذئب، فاستخدموها كذبًا[1]

---

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: اعتذر لهم يعقوب بشيئين: أحدهما : عاجل فى الحال، وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقته وكان لا يصبر عنه. والثانى: خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ، أو بقلة اهتمامهم بحفظه وعنايتهم ، فيأكله ويحزن عليه الحزن المؤبد . وخص الذئب ؛ لأنه كان السبع الغالب على قطره ، أو لصغر يوسف فخاف عليه هذا السبع الحقير ، وكان تنبيهًا على خوفه عليه ما هو أعظم افتراسًا . ولحقارة الذئب خصه الربيع بن ضبع الفزارى فى كونه يخشاه لما بلغ من السن فى قوله :

والذئب أخشاه إن مررت به   وحدى وأخشى الرياح والمطرا

وكأن يعقوب بقوله : وأخاف أن يأكله الذئب، لقنهم ما يقولون من العذر إذا جاؤوا وليس معهم يوسف، فلقنوا ذلك وجعلوه عدة للجواب. وقرأ زيد بن على ، وابن هرمز، وابن محيصن: ليحزنى بتشديد النون ، والجمهور بالفك. و﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ مضارع مستقبل لا حال ؛ لأن المضارع إذا أسند إلى متوقع تخلص للاستقبال؛ لأن ذلك المتوقع مستقبل وهو المسبب لأثره ، فمحال أنْ يتقدم الأثر عليه ، فالذهاب لم يقع ، فالحزن لم يقع . [البحر المحيط : ٦/٢٤٦]

وقال المراغى فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ . أى قال مجيبا لهم: إنى ليحزننى ويقض على مضجعى أن =

ولذلك عندما جاءوه بقميص يوسف ، وقالوا : إن الذئب قد أكله قال يعقوب: هذا ذئب حليم رحيم أكل يوسف ولم يمزق قميصه ! أى عرف الكذب .

وهم الذين سبق أن قالوا : ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أى أن يعقوب قال لهم : إنى أخاف أن يأكله الذئب ليس وأنتم منتبهون ، ولكن أنتم عنه غافلون ، وهو بذلك يريد أن ينبههم إلى أنهم بشر تأخذهم الغفلة ، ولم يستطيعوا أن يردوا عليها فقالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أى لا يكون عندنا أى نوع من الرجولة إن أكله الذئب ونحن مجموعة من الرجال .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ دليل على أن المسألة كانت أخذًا ورداً فيما بينهم، إلى أن قرروا أن يلقوه فى الجب ، وفى هذه اللحظة لحظة الضيق وإخوة يوسف يخلعون عنه قميصه ويلقونه فى الجب .

جاء الوحى من الله تعالى؛ ليثبت يوسف قبل أن يصل إلى مبلغ التكليف بالرسالة، جاءه وحى من الله بأنه سيبلغهم ما فعلوه فيه وهم لا يشعرون، بأن أخاهم يأتيه وحى من الله بأنه سيقص عليهم نبأ ما فعلوه به .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بعضهم قال إنهم لا يشعرون

= تذهبوا به معكم إلى الصحراء؛ خيفة أن يأكله الذئب وأنتم لا تشعرون به ؛ لاشتغالكم عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، ولعله لو لم يذكر هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولكن شدة الحذر والاحتياط هو الذى جعله يقول ذلك .

[تفسير المراغى : ١٢/ ١٢٠]

بالوحى أو بما يوحى ليوسف ، وبعضهم قال : إنهم لم يشعروا بأن أخاهم قد علم شيئًا ، ولكنهم لم يشعروا بالوحى ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء، ولذلك لم يشعروا بأن يوسف قد أعلمه الله بأنهم سيأتون إليه للحصول على الميرة [1] وأنه سيخبرهم . والله سبحانه وتعالى أبلغ يوسف بما سيحدث .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ وأوحينا إليه أى ألهمه الله ؛ حتى يؤنسه وهو يواجه هذه المحنة التى يلقى فيها فى البئر ، يواجه مصيراً مجهولاً ، والتى يبعد فيها عن حنان أبيه وأنس أخيه ، والتى يفارق فيها بلده وأهله وكل من عاش معهم .

إنها لحظة صعبة على النفس والإنسان يترك كل ما أحب ليواجه مصيراً مجهولاً ، ولهذا كان لابد أن يلهمه الله أن هؤلاء الذين ألقوه فى الجب سيأتونه وهو عزيز ؛ ليعترفوا بخطئهم وذنبهم، ويطلبوا منه أن يدعو الله سبحانه ليغفر لهم . إن هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بك هذا سيأتون إليك؛ ليطلبوا أقواتهم وستعرفهم وستنبئهم بما فعلوه معك [2].

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان . ابن سيدة : الميرة جلب الطعام ، وفى التهذيب : جلب الطعام للبيع ، وهم يمتارون لأنفسهم ويميرون غيرهم ميرًا، وقد مار عياله وأهله يميرهم ميرًا وامتار لهم . الأصمعى : يُقال : ماره يمور إذا أتاه بميرة أى بطعام ، ومنه يقال : ما عنده خير ولا مير . [لسان العرب : ٥/ ١٨٨]

(٢) **قال القرطبى** فى قوله تعالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيرا له بالسلامة .

الثانى: أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ؛ فعلى هذا يكون الوحى قبل إلقائه فى الجب إنذارًا له ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ، وذلك أن الله تعالى أمره =

والله سبحانه وتعالى فى المواقف التى تحيط بها الظلمات بالنبى يعطيه الأمل ويبشره بالنصر ؛ أنزل عليه فى مكة الآية الكريمة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] وساعتها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى جمع هذا ونحن قلة وأذلة ؟ إلى أن جاءت غزوة بدر وهزم أئمة الكفر، وفروا هاربين فبكى عمر بن الخطاب وقال : صدقت يا رب [١] .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] هذا التثبيت من الله كان بالنسبة ليوسف عليه السلام ، أما إخوته الذين ألقوه فى البئر وانصرفوا، فقد أرادوا أن يبرئوا أنفسهم أمام أبيهم بأنهم لم يتآمروا على يوسف .

= لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه ، وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقيل : « الهاء» ليعقوب، أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرفهم بأمره ، و﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . [تفسير القرطبى : ٩/ ١٤٢، ١٤٣]

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو فى قبة يوم بدر « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك وهو يثبت فى الدرع، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أخرجه البخارى [٤٨٧٥].

وقال الحافظ فى الفتح [٨/ ١٦] : وفى رواية أيوب عن عكرمة عن ابن عباس : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قال عمر : أى جمع يهزم ؟ قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثبت فى الدروع ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أخرجه الطبرى وابن مردويه .

* وجاءوا أباهم عشاء *

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] نلاحظ أن القرآن قد صور بدقة الانفعالات التى توجد داخل النفس البشرية، إخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى الجب ، وهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان لا يأمنهم عليه، فكيف يواجهونه ؟ لابد أن يواجهوه بانفعال نفسى كاذب ، ولابد أن يكون الانفعال الكاذب مستوراً بظلام الليل ؛ حتى لا يكتشف الأب بما أودعه الله من نور فى قلبه الانفعال المصطنع على وجه أولاده ، ولذلك جاءوا وقت العشاء ؛ ليستر الظلام وجوههم؛ حتى لا تفضحهم انفعالاتهم المصطنعة، فاتفقوا على أن يعودوا إلى أبيهم وقت العشاء ، وبكاؤهم كان بكاء مصطنعاً .

فالانفعال الطبيعى فى البكاء أو الضحك غريزى، ليس لإنسان اختيار فيه؛ لذلك فإنك ترى إنساناً يريد أن يخفى حزنه وبكاءه أمام الناس، ويتظاهر بالتجلد ، ولكن دموعه تفضحه ، وإنساناً آخر فى موقف لا يصح الضحك فيه ولكنه يضحك رغمًا عنه، فالضحك والبكاء هما انفعالان وغريزتان من الله،ولذلك يقول تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] إذن فالإنسان يستطيع أن يفتعل البكاء والضحك ، ولكنه لا يملك الضحك الطبيعى والبكاء الطبيعى[١].

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى، فلا فاعل إلا هو، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: لا والله ما قال رسول الله قط إن الميِّت يعذَّب ببكاء أحد ، ولكنه=

= قال : « إنّ الكافرَ يزيدهُ الله ببكاء أهله عذابًا، وإن الله لهو أضحك وأبكَى وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (١) .

وعنها قالت : مَرَّ النبىُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون ، فقال: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » (٢) فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد ! إن الله يقول لك: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾. فرجع إليهم فقال: « ما خطوت أربعين خطوة، حتى أتانى جبريل فقال ايتِ هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول : «هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » أى قضى أسباب الضحك والبكاء .

وقال عطاء بن أبى مسلم : يعنى أفرح وأحزن ؛ لأن الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء ، وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى .

وقد تقدم هذا المعنى فى النمل و براءة . قال الحسن : أضحك الله أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سَرَّه ، وأبكى من شاء بأن غَمَّه .

الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، وقيل : أضحك الأشجار بالنوار ، وأبكى السحاب بالأمطار .

وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته .

وقال سهل بن عبد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط .

وقال محمد بن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيا .

وقال بسام بن عبد الله :أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ ... وإنما ضِحْكُهــا زُورٌ ومُختَلَقُ

يارُبَّ باكٍ بِعَيْنٍ لا دمــوعَ لها ... ورُبَّ ضاحِكِ سن مابِهِ رَمَقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، وليس فى سائر الحيوان من يضحك ويبكى غير الإنسان . =

(١) أخرجه مسلم [٩٢٩] .

(٢) أخرجه البخارى [٦٤٨٥] مختصراً .

إخوة يوسف أرادوا أن يستر الظلام افتعالاتهم للبكاء ؛ حتى لا يكشفهم أبوهم ، فلا يعرف أنهم لا يبكون ولكنهم يتباكون .

كل هذه الانفعالات التى أرادوا أن يخفوها فضحها ضوء النهار ؛ لذلك فقد اختاروا وقت العشاء ، إنهم جاءوا بالليل ليخفوا هذه الانفعالات ، ولكى تعرف هذه الحقيقة انظر إلى ما يضحك الناس أو يبكيهم ، ليس هناك ضحكة انجليزية وضحكة فرنسية وضحكة أمريكية ، ولكنها ضحكة واحدة للبشر جميعاً ؛ لأنها لا تخضع لإرادتهم ، ولكنها تخضع لمشيئة الله .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤] فكما أن الموت والحياة يختص الله سبحانه وتعالى بهما ، فكذلك الضحك والبكاء ، ولذلك تجد فى البشرية كلها الضحك واحدًا والبكاء واحدًا ؛ لأن هذه المسألة غريزية .

بعد أن تأخر إخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء ؛ ليستروا انفعالاتهم فى الظلام ماذا قالوا ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾ [يوسف: ١٧] كلمة نستبق لا تكون إلا بين عدة أشخاص يتسابقون فى الجرى؛ ليعرف من الذى سيسبق الآخر .

إذن فيستبقون يعنى يتسابقون ، والاستباق له أنواع متعددة ، استباق فى الجرى من ناحية المسافة، واستباق فى رمى السهام أو فى التصويب بإطلاق

= وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولايبكى ، وإن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك .

وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة ؟ فقال : ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم .

[تفسير القرطبى : ١١٦/١٧ ، ١١٧]

النار ، واستباق فى إصابة الهدف، والتسابق لإصابة الهدف هام جدًا ؛ لأنه ينفعك حين تواجه عـدوك ، والإسلام يبيح اللعب والتسابق بشرطين :

الشرط الأول : ألا يؤدى بك ذلك إلى لهو عن طاعة الله .

الشرط الثانى : أن ينفعك هذا اللعب فى وقت الجد ، فمثلاً أنواع الرياضة التى تعطيك القوة والسرعة والحكمة فى الأداء بشرط ألا تلهيك عن واجب فرضه الله عليك ، ولا تظهر فيها بالمظهر الذى يكشف عن عورة أمر الله بسترها (١).

---

(١) عن عقبة بن عامر ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ،وهو على المنبر يقول: « ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى». أخرجه مسلم [١٩١٧] ، وأبو داود [٢٥١٤] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٩٤] : صحيح .

وعن سلمة قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق ، فقال: « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا ، وأنا مع بنى فلان - لأحد الفريقين » فأمسكوا بأيديهم .« فقال : ما لهم ؟ » قالوا : كيف نرمى وأنت مع بنى فلان ؟ قال : « ارموا وأنا معكم كلكم » . أخرجه البخارى [٣٥٠٧] .

وعن عبد الرحمن بن شماسة أن فُقيمًا اللخمى قال لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين ، وأنت كبير يشق عليك . قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانية . قال الحارث : فقلت لابن شماسة : وماذاك ؟ قال : إنه قال : « من علم الرمى ثم تركه ، فليس منا ، أو قد عصى ». أخرجه مسلم [١٩١٩] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:خرجت مع رسول الله ﷺ وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً ، فقال لأصحابه : « تقدموا » . ثم قال لى : « تعالى حتى أسابقك » فسابقنى فسبقته ، ثم خرجت معه فى سفر آخر ، وقد حملت اللحم ، فنزلنا منـزلاً ، فقال لأصحابه: « تقدموا » ثم قال لى « تعالى أسابقك » فسابقنى ، فسبقنى ، فضرب بيده كتفى ، وقال : « هذه بتلك ». أخرجه النسائى فى الكبرى [٨٩٤٣] .

إخوة يوسف ذهبوا يتسابقون وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه ؛ لأنه صغير السن ولا يستطيع أن يتسابق معهم ، وهم بهذا قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم، الذى كان قد اشترطه لخروج يوسف معهم؛ لأنهم قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف: ١٢] فأين الحفظ فى أن يتركوه وحده عند متاعهم ؟ وذلك يجعل منه عرضة لأن تفتك به وحوش الصحراء .

ثم هم طلبوا من أبيهم أن يذهب معهم يوسف ليرتع ويلعب ؛ لأنه ما زال صبيا صغيراً لم يبلغ التكليف ومباح له اللعب ، ولكنهم بدلاً من أن يجعلوه يرتع ويلعب، تركوه عند أمتعتهم وأخذوا هم يلعبون ويتسابقون ، وكانوا فى كذبهم هذا لا تتطابق المشاعر على وجوههم مع الكلام الذى يقولونه ، ولكن الليل كان يسترهم .

أولاد يعقوب أحسوا حتى والليل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون؛ لذلك ظهرت ريبتهم من أنفسهم، واقرأ قولهم لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] وهذا ينطبق عليه المثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ، وهم كانوا يعلمون أن أباهم يحب يوسف ، وكانوا يعرفون أيضًا أن أباهم يعرف كراهيتهم ليوسف، بدليل أن يعقوب قال ليوسف وهو يروى له الرؤيا : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف: ٥] إذن فمعرفة يعقوب بعداوة أولاده ليوسف ، جعلته لا يصدقهم وهم أحسوا بذلك ، ولذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ويؤمن له أى يصدقه ، وهم فى تخبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم ، وفى هذا محاولة لمداراة الإثم الذى يشعرون به .

❋ الدم الكذب ❋

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف: ١٨] ودم كذب يعنى دم مكذوب ، ولكن الدم لا يكذب ، وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة [١] ذبحها ولطخ بدمها قميص يوسف .

وفى اللغة العربية يعطى لشيء الوصف المصدرى للمبالغة ، وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ، كأن تقول فلان عدل فكأن فلانًا تجمعت فيه كل صفات العدل ؛ أو أن تقول فلان شر أى أنه هو الشر نفسه هذه صيغة المبالغة .

وإخوة يوسف قالوا إن الذئب قد أكله، فلو كان هذا صحيحًا يكون الدم صادقًا ، أى مصدقًا للقول الذى قالوه ، أما إن لم يكن هذا هو دم يوسف ، فيكون دمًا مكذوبًا فيه ، أى مكذبًا لما يقولونه .

ولقد أتى إخوة يوسف معهم بدليل كذبهم ؛ إذ لو كان هذا الدم دم يوسف والذئب قد أكله فعلاً ،والدم سينزل من لحمه ، تكون بقع الدم

---

(١) **قال العلامة صديق خان** : وصف الدم بأنه كذب مبالغة، كما هو المعروف فى وصف اسم العين باسم المعنى، فكأنه نفسه صار كذبًا ، أو قيل : المعنى بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه ، قال ابن عباس ومجاهد : كان دم سخلة ، وقرأ الحسن وعائشة : بدم كدب بالدال المهملة، أى بدم طرى يقال للدم الطرى كدب ، وقال الشعبى : إنه المتغير، والكذب أيضًا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين .
وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص . [فتح البيان : ٦/٣٠١]

على القميص من الداخل للخارج ، ولكنهم عندما ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج،كما أنه لو أن الذئب أكل يوسف ، فلابد أن يكون قد مزق قميصه بأنيابه ومخالبه ؛ لكى يصل إلى اللحم ، ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليمًا غير ممزق [1] .

ويقال : إن يعقوب عليه السلام سمعهم وهم يتشاورون ماذا يقولون لأبيهم ؟ فقال أحدهم : قولوا لأبينا إن اللصوص قتلوه ، فقال يعقوب فى نفسه : اللصوص أحوج لقميصه منهم لدمه ماذا سيفعلون بقتله ؟ ولكنهم إذا سرقوا قميصه فسيبيعونه ، ولكن إن قتلوه فلن يستفيدوا شيئًا وهذه هى فراسة الاستنباط من يعقوب ، وهذه الفراسة هى التى يستعملها القاضى فى معرفة الحقيقة من المتهم فى قضية اتهم فيها عدد من الناس؛ لأن القاضى يعرف أن الكذاب تخونه ذاكرته دائمًا ، ولذلك قالوا : إذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا [2] ؛ لأن الكذاب لا يذكر ماذا قال بالأمس، أما الإنسان الصادق الذى يستوحى من الواقع فهو يروى نفس القصة بتفاصيلها .

فى أحد القضايا سأل القاضى أحد الشهود : كيف رأيت هذا القاتل يرتكب جريمته ؟ فقال الشاهد: كان القمر بدرًا ينير الكون فرأيته وهو

---

(١) **قال أبو حيان** : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات :

الأولى : كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب .

الثانية : وألقاه يعقوب على وجهه فارتد بصيرًا .

الثالثة : ودليلاً على براءة يوسف حين قُدَّ من دبر . [البحر المحيط : ٦/ ٢٥٠]

(٢) ذُكر المثل فى جمهرة الأمثال تحت رقم [١٨٧٩] . . . . . ومن أمثالهم فى الكذب : إذا كنت كذوبا فكن ذكورا . قال الشاعر :

تكذب الكذبة جهلا ... ثم تنساهــا قريبــا

كن ذكـــورا للذى ... تحكى إذا كنت كذوبا

[٢/٣٩٦]

يرتكب جريمته، ثم يمشى محاولاً أن يترك المكان ، وسأل القاضى باقى الشهود، فقال : وأنتم من أين أتيتم ؟ قال أحدهم: كنا فى المدينة . فسأله القاضى: ماذا كنت تفعل فى المدينة؟ قال الشاهد: كنت أشترى ياميش العيد ،فسأله القاضى كيف يكون القمر بدرًا فى ليلة عيد الفطر التى هى ليلة الأول من شهر شوال؟هذه هى الفراسة التى تفضح الكذاب.

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج، قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف: ١٨] سولت بمعنى سهلت أو يسرت، أى أن أنفسكم يسرت لكم الكذب،وقوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨] الصبر مطلوب فى هذا الموقف ، وأنت إما أن تصبر على كذا وإما أن تصبر عن كذا ، تصبر على شىء فيه ألم لك ، وتصبر عن شىء فيه شهوة لك ، فتصبر عن شرب الخمر أو لعب القمار أو الربا، وتصبر على المرض .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فكأن هناك صبرا غير جميل، والصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى ولا جزع .

والصبر غير الجميل هو الذى فيه شكوى ونواح وبكاء وجزع ، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج: ٥] الصبر الذى ليس فيه هلع ولا جزع ولا شكوى .

الذين يريدون أن يتصيدوا بجهل أشياء متناقضة ، يقولون إنه ما دام يعقوب قد قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ والصبر الجميل لا شكوى فيه، فإن يعقوب نفسه الذى قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] فكيف يكون الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا حزن ولا جزع ؟ ثم يقول يعقوب إنه يشكو بثه وحزنه إلى الله ،

نقول : إنكم لم تفهموا ، هناك فرق بين شكوى إلى الله ، وشكوى من قدر الله ، وصبر جميل يعنى لا أشكو من قدر الله إلى بشر ، ولا أعلن حزنى وسخطى من قدر الله ، ولكن الشكوى لله هى دعاء وقرب من الله وما بين العبد وربه هو بلا حدود فالذى يشكو إلى الله هذا صبر جميل ، والذى يشكو من قدر الله هذا صبر غير جميل (١) .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الله أمر نبيه بالهجر الجميل . والصفح الجميل والصبر الجميل ، فالهجر الجميل هجر بلا أذى ، والصفح الجميل ، صفح بلا عتاب ، والصبر الجميل : صبر بلا شكوى . قال يعقوب عليه السلام : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ مع قوله:﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فالشكوى إلى الله لا تنافى الصبر الجميل ، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان » (١).

ومن دعاء النبى ﷺ : « اللهم إليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، اللهم إلى من تكلني...؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى غير أن عافيتك هى أوسع لى.أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه=

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/١٨٦] بلفظ : عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى حين جاوز البحر ببنى إسرائيل فقلنا بلى يا رسول الله ، قال قولوا : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال عبد الله : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ . قال شقيق : فما تركتهن منذ سمعتهن من عبد الله قال الأعمش : ما تركتهن منذ سمعتهن من شقيق قال شقيق : فأتانى آت فى منامى فقال يا سليمان زد فى هؤلاء الكلمات : ونستعينك على فساد فينا ونسألك صلاح أمرنا كله .

وقال رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم . وذكره المنذرى فى الترغيب [٢/٦١٨] وقال : رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد . وانظر مجمع البحرين [٤٦٩٦].

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده ،

= أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى » (١).

وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقرأ فى صلاة الفجر : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾. ويبكى حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف .

بخلاف الشكوى إلى المخلوق . قرىء على الإمام أحمد فى مرض موته أن طاووسًا كره أنين المريض، وقال إنه شكوى . فما أنَّ حتى مات ،وذلك أن المشتكى طالب بلسان الحال إما ازالة ما يضره، أو حصول ما ينفعه . والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .

وقال ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » (٢).

ولابد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور .

فالأول هو التقوى والثانى هو الصبر قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

وقد قال يوسف : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ =

(١) أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح لكنه مرسل محمد بن كعب القرظى والمرسل من أنواع الضعيف لا يحتج به إلا مع قرائن . [السيرة النبوية الصحيحة : ١/ ١٨٦]

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذى [٢٥١٦] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٤٣] صحيح .

وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويقول لهم : أبنائى كذابون، لقد أخذوا يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف ، تمامًا كالرجل الذى قالوا له : ابنك قتل أخاك ، فقال : نقول للنفس : تعسا وتعزية ، إحدى يدى أصابتنى ولم ترد كلاهما خلفًا عن فقد صاحبه ، هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى . فالمعونة من الله فى مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث ، ولا نتجه بذلك إلى خلق الله ؛ لأن الخالق موجود .

= اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلانى [1] ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون فى عامة كلامهم بهذين الأصلين ، المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر والرضا بالأمر المقدور، وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة، بل ومن السالكين، فمنهم من يشهد القدر فقط، ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية ، فيرى أن الله خالق كل شىء وربه ،ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه، ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية، فيشهد الجمع الذى يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر ،والفاجر ، والنبى الصادق والمتنبىء الكاذب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

فإن هؤلاء كلهم يشتركون فى هذا الجمع،وهذه الحقيقة الكونية، وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره، ولا يشهد الفرق الذى فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة ، وأهل النار، وهو توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته رسوله، وفعل =

---

(١) هو عبد القاد بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست الحسنى أبو محمد محيى الدين الجيلانى أو الكيلانى، مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد فى جيلان عام ٤٧١ هـ وانتقل إلى بغداد شابًا سنة ٤٨٨هـ برع فى أساليب الوعظ والتصوف ، تفقه وسمع الحديث وتصدر للتدريس والإفتاء. توفى ببغداد عام ٥٢٨ هـ له كتب منها: الغنية لطالب طريق الحق ، والفتح الربانى.راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧١،وفوات الوفيات ٢ : ٢ .

= ما يحبه ويرضاه ، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر ايجاب أو أمر استحباب ، وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان، فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين ، وهو شر من اليهود والنصارى .

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية ، إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ .

ولهذا قال سبحانه :﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ .

قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض، فيقولون الله، وهم مع هذا يعبدون غيره .

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهى الشرعيين، فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل، والذين جاؤوا بالأمر والنهى الشرعيين، لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ .

وأما الذى يشهد الحقيقة الكونية وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة، ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذى بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ، لكن من الناس من قد لمحوا الفرق فى بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ،ولا يفرق بين البر والفاجر، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعًا لظنه وهواه، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون =

. . . .

= معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .
ومن أقر بالأمر والنهى الدينيين دون القضاء والقدر، كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم، الذين هم مجوس هذه الأمة، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .
ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضًا، فهو من أتباع إبليس الذى اعترض على الرب سبحانه ، وخاصمه كما نقل ذلك عنه . فهذا التقسيم فى القول والاعتقاد .
وكذلك هم فى الأحوال والأفعال، فالصواب منها حالة المؤمن الذى يتقى الله، فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والنهى والدين والشريعة ،ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وإذا أذنب استغفر وتاب ، لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات ، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما ، فى الحديث الصحيح الذى فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (١).
فيقر بنعمة الله عليه فى الحسنات ، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ، ويتوب منها كما قال بعضهم : أطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك على وانقطاع حجتى إلا غفرت لى .
وفى الحديث الصحيح الإلهى : يا عبادى إنما هى اعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٢).
وهذا له تحقيق مبسوط فى غير هذا الموضع .
وآخرون قد يشهدون الأمر فقط ، فتجدهم يجتهدون فى الطاعة حسب الاستطاعة ، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر. =

(١) أخرجه ابن ماجه [٣٨٧٢] عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ وذكره.
وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣١٢٢] : صحيح .
(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم [٢٥٧٧] عن أبى ذر عن النبى ﷺ .

. . . .

= وآخرون يشهدون القدر فقط ، فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك ، لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين ، فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ، ولا يستعينوه ، والمؤمن يعبده ويستعينه .

والقسم الرابع: شر الأقسام وهو من لا يعبده ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ولا من القدر الكونى ، وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك ، وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك، فهم فى التقوى وهى طاعة الأمر الدينى ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكونى **أربعة أقسام** .

أحدها : أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة فى الدنيا والآخرة .

والثانى : الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ، لكن إذا أصيب أحدهم فى بدنه بمرض ونحوه أو فى ماله أو فى عرضه أو ابتلى بعدو يخيفه ، عظم جزعه وظهر هلعه .

الثالث : قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم فى مثل أهوائهم ، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام فى مثل ما يطلبونه من الغضب وأخذ الحرام .

والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك فى طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها ، وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم ، يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التى لا يصبر عليها اكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم ، يصبرون فى مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام ، وهؤلاء هم الذين يريدون علوًا فى الأرض أو فسادًا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق، ومن طلاب الأموال بالبغى والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظرًا أو مباشرة وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما القسم الرابع : فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا ، بل هم كما قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس=

= وأجزعهم إذا قهروا ، إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك وحابوك واسترجعوك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس ، وأقساهم قلبًا وأقلهم رحمة وإحسانًا وعفوًا ، كما قد جربه المسلمون فى كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون، ومن يشبههم فى كثير من أمورهم وإن كان متظاهرًا بلباس جند المسلمين ، وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « فإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(١).

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم ، كان شبيهًا لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الاسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام ، وما يظهرونه منه بل يوجد فى غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » (٢).

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فكل من كان إلى ذلك أقرب ، وهو به أشبه ، كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف ، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق ، والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله ، وأعظم موافقة لله فيما يحميه ويرضاه وصبرًا على ما قدره وقضاه . كان أكمل وأفضل ، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعًا فى غير موضع من كتابه ، وبين أنه =

---

(١) أخرجه مسلم [٢٥٦٤/ ٣٣] بلفظ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وأحمد فى المسند [٢/ ٢٨٥، ٥٣٩] بلفظ: « إن الله عز وجل. . » الحديث ، كلاهما عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم [٨٦٧] بلفظ : « أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله . . .» وابن ماجة [٤٥] بلفظ : « أما بعد ، فإن خير الأمور كتاب الله . . .» والنسائى فى المجتبى [٣/ ١٨٨] بلفظ : « . . . . إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . . .» وكلهم عن جابر بن عبد الله .

= ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة ، قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

وقال إخوة يوسف له : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عمومًا وخصوصًا ، فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

وفي اتباع ما أوحى إليه : التقوى كلها تصديقًا لخبر الله ، وطاعة لأمره ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر .

وقرن بين الرحمة والصبر فى مثل قوله تعالى :﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾. وفى الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها : فإن القسمة أيضًا رباعية ، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم ، كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر ، كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع ، والمحمود هو الذى يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء فى المتولى ينبغى أن يكون قويًا من غير عنف لينا من غير ضعف ، فبصبره يقوى وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ، فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى ، كما قال النبى ﷺ:« إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[1] .

وقال : « من لا يرحم لا يرحم »[2] .

وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى »[3].

وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[4] . والله اعلم . [التفسير الكبير : ١٣٦/٥ : ١٤٦]

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٢٨٤] ، ومسلم [٩٢٣] .

(٢) أخرجه البخارى [٦٠١٣] ، ومسلم [٢٣١٩] بلفظ : « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله عز وجل » ، والترمذى [١٩٢٢] بلفظ: « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ».

(٣) أخرجه الترمذى [١٩٢٣] عن أبى هريرة ، وقال : حديث حسن . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٥٦٧] : صحيح .

(٤) أخرجه أبو داود [٤٩١٤] ، والترمذى [١٩٢٤] عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ وذكره ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٥٦٩] : صحيح .

ولذلك علمنا رسول الله ﷺ أنه إذا حدث أمر جلل فزع الإنسان إلى الصلاة . وأنه إذا صادفه أمر يفوق أسبابه فزع للصلاة [1] ، ووقف بين يدى الله .

واستعانة يعقوب بالله سبحانه وتعالى هى الخُلق الإيمانى الصحيح ، ولذلك علمنا الله سبحانه فى فاتحة الكتاب أن نقول : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فأنت واقف بين يدى ربك تستعين به على كل ما لا تقدر عليه، سواء بالنسبة للعبادة أو بالنسبة لشئون الدنيا ، ونحن نستعيذ بالله ونستعين به إذا كنا واقفين أمامه، وجاءنا خاطر من الشيطان يريد أن يصرفنا عن عبادة الله سبحانه ، فنقول كما علمنا الله جل جلاله : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقوله تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨] إذن فأنت تستعين فى هذه المواقف بمن هو قادر على أن يعينك، ولا يعينك إلا خالقك الذى أوجدك ، وانظر إلى اللقطات فى قصة يوسف .

الابن يرى رؤيا فيقصها على أبيه، والأب يحذره من إخوته ، والإخوة يتحايلون حتى يأخذوا يوسف معهم إلى الصحراء، ثم يلقوه فى الجب ، ويعود الإخوة إلى الأب ومعهم قميصه وعليه دم شاة ، ثم لقاء الإخوة مع الأب، والأب يعرف أنهم كاذبون ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل معهم شيئًا إلا الشكوى إلى الله .

---

(١) عن عبد الله بن محمد بن الحنفية ، قال : انطلقت أنا وأبى ، إلى صهر لنا من الأنصار نعوده ، فحضرت الصلاة ، فقال لبعض أهله : يا جارية ائتونى بوضوء ، لعلى أصلى فأستريح ، قال : فأنكرنا ذلك عليه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة » .

أخرجه أبو داود [٤٩٨٦] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٤١٧٢] : صحيح .

❋ ماذا حدث ليوسف فى الجب [١] ؟ ❋

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ ولم يقل لنا من أين جاءت هذه القافلة، وهل هى كانت ذاهبة إلى مكان ما أو عائدة؛ لأن هذا لا يهم فى سياق القصة، المهم أنهم وصلوا إلى مكان البئر التى فيها يوسف ، وكلمة سيارة معناها جماعة سائرون ، ولكن الله سبحانه لم يقل سائرون ؛ لأن السائر هو الذى يقوم بالسير مرة واحدة .

إنك إذا وجدت باب حجرتك مخلوعًا ،وجئت بقطعة خشب وشاكوش لتصلح الباب لا يقال عنك نجار ، ولكن يقال عنك ناجر؛ لأن النجار هو الذى صنعته النجارة ، أما الناجر فإنه يفعلها مرة واحدة بغير خبرة.

كذلك سيارة معناها قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ، ولذلك فهى تعرف دروب الصحراء، وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هنا جبا فيها ماء.

أما السائر العادى فلا يعرف؛ لأنه لا خبرة له . حينما تأتى القافلة وتريد الماء لايذهبون جميعًا إلى البئر، إنما يذهب بعضهم ليأتى للباقى بالماء ، وهذا اسمه الوارد أى أن الوارد ، هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة [٢] .

---

(١) **قال أبو حيان** : أقام يوسف فى الجب ثلاثة أيام ، وكان أخوه يهوذا يأتيه بالطعام خفية من إخوته ، وقيل جاءت السيارة فى اليوم الثانى من طرحه فى الجب ، وقيل كان التسبيح غذاؤه فى الجب . [البحر المحيط : ٦/ ٢٥١]

(٢) **قال ابن الجوزى** : وفى اسم هذا الوارد قولان :

أحدهما : مالك بن ذعر بن يؤيب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ، قاله أبو صالح=

لذلك يقول الله سبحانه : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩] والدلو هو « الجردل » و « أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء، فإن كان مستوى الماء بعيدًا يطيل الحبل ، ويسمون الحبل « الرشاء » فكلما كان الماء بعيدًا أطال الرشاء ؛ ولذلك يقول الشاعر فى أولئك الذين يبالغون فى مدح الأمراء ليأخذوا منهم العطاء :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله (١) وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لماذا ؟ لأنه لو لم يقدر أن الماء على بعد كبير ما أطال الرشاء أو الحبل.

ساعة جاء وارد القافلة وأدلى بالدلو رأى يوسف شيئًا فتشبث به؛ ليخرج من هذا الجب . حينئذ أحس الذى ألقى الدلو بثقل غير طبيعى على عضله، فنظر ليرى ماذا فى الجب ، والذى قد سبب هذا الثقل الشديد ، كأن حاسة العضل هى التى تعرفنا ثقل الأشياء . فهكذا نعرف أن للإنسان حواس أخرى غير الشم والسمع والبصر والذوق واللمس، منها حاسة العضل التى تدلك على ثقل ما تراه أمامك ، فأنت حين ترى أمامك حقيبتين متشابهتين فى الحجم لا تعرف أيهما أثقل بالنظر أو بالشم أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس ، ولكن لابد أن تستعمل حاسة العضل، وترفع كلا منهما عن الأرض لتعرف أيهما أثقل .

كذلك هناك حاسة البين فى الأنامل؛ تبين لك سُمْك القماش لتعرف أن هذا غليظ وهذا رقيق، ولا يمكن أن تعرف أى نوع من القماش أرق إلا

= عن ابن عباس .

والثانى : مجلث بن رعويل ، قاله وهب بن منبه . [زاد المسير ٤/ ١٤٩]

وذكر صديق خان أن اسمه مالك بن ذعر الخزاعى من العرب العاربة.

[فتح البيان: ٦/ ٣٠٢] وبه قال السيوطى فى مبهمات القرآن [٥٧].

(١) لنواله : أى لعطائه .

إذا أخذت القماش بين أصبعيك لتعرف سمكه .

وارد الماء حين ألقى دلوه ووجده ثقيلاً بشكل غير عادى، نظر داخل البئر ليرى ماذا حدث ؟ فوجد غلامًا قد تشبث بدلو الماء . غلام جماله يلفت النظر . فما كان منه إلا أن قال : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ حينما يقول يا بشراى فهو يريد من أفراد القبيلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة، شىء يهمهم ويفرحهم كأنه يقول لهم : تعالوا وأسرعوا انظروا ماذا وجدت فى البئر ، إنه غلام .

ثم يقول تعالى :﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أى أخفوه وسط أمتعتهم ؛خوفًا من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم؛ ولذلك أخفوه كأنه بضاعة ،وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة . ويقول الحق :﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ إذن فالضمير فى ﴿ شَرَوْهُ ﴾ هنا تأخذ معنى آخر معنى أنهم باعوه بثمن بخس ؛ فشرى تأتى هنا بمعنى باع وأخذ الثمن ، وكان البيع بثمن بخس والبخس هو النقص ، والنقص إما أن يكون فى الكمية أو فى الثمن ، شىء يساوى مائة درهم تبيعه بعشرين .ولماذا باعوه بثمن بخس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة؛ خوفًا من أن يأتى ذووه أو أهله ويأخذوه منهم ، فهم أسرعوا ببيعه بأى ثمن ليفوزوا بالمال،وكان العبد فى مثل هذه السن يساوى أكثر من ذلك،ولكنهم أخذوا دارهم معدودة؛ ليحصلوا على أى ثمن،وأنت إذا قلت : إن هذا الشىء بملاليم فمعنى ذلك أن قيمته لا تصل إلى القرش، ولو كانت تصل لقلت بقرش أو بقروش،ومعنى أن الثمن قروش: أى أن الثمن لا يصل إلى جنيه (1) .

---

(1) شرى الشىء يشريه شرىً وشراء واشتراه سواء ، وشـراه واشتراه : باعـه ، قـال اللـــه تعالـى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ =

ولقد قلنا فى الماضى عندما نفتح صناديق التبرعات نجد ورقًا بمائة جنيه فنعزله ، وورقًا بعشرين أو بعشرة أو بخمسة فنعزله ، ثم نجد فضة نصف ريال وربع ريال فنعزله ثم نجد قروش معدن ونيكل لا حصر لها ولا تعد، فيأتون بقيمة جنيه من الفكة ويحصون القروش بالوزن ، فأى نقود وصلت للعد لا تصل إلى الوزن ، دراهم معدودة أى يمكن عدها . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠] أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه .

= وقال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾: أى باعوه. أبو زيد : شريت : بعت ، وشريت أى اشتريت . قال الله عز وجل : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ قال الفراء : بئسما باعو به أنفسهم ، وللعرب فى شروا واشتروا مذهبان : فالأكثر منهما أن يكون شروا باعوا ، واشتروا : اتباعوا وربما جعلوها بمعنى باعوا . الجوهرى : الشراء يمد ويقصر. شريت الشىء أشريه شراء إذا بعته ، وإذا اشتريته أيضًا ، وهو من الأضداد.

[لسان العرب : ١٤/ ٤٢٧، ٤٢٨]

* يوسف فى مصر(1) *

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١] ومن هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته؛ ربما لأنها لم تكن تنجب وكانت هذه المسألة تحزنها ، فعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت ،التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء هم

---

(١) **قال وهب:** لما ذهبت به السيارة إلى مصر ، وقفوه فى سوقها يعرضونه للبيع ، فتزايد الناس فى ثمنه حتى بلغ وزنه مسكًا ، ووزنه ورقًا ، ووزنه حريراً ، فاشتراه بذلك الثمن رجل يقال له : قطفير وكان أمين فرعون وخازنه ، وكان مؤمنًا . وقال ابن عباس : إنما اشتره قطفير من مالك بن ذعر بعشرين ديناراً وزوجى نعل ، وثوبين أبيضين ، فلما رجع إلى منزله قال لأمرأته : أكرمى مثواه .وقال اسمه أُطفير. وفى اسم المرأة قولان :

أحدهما : راعيل بنت راعييل ، قاله ابن إسحاق .

والثانى : أذليخان بنت تمليخا ، قاله مقاتل . [زاد المسير : ٤/ ١٥٢]

وقال صديق خان : الذى اشتره هو العزيز الذى كان على خزائن مصر وكان وزيراً لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة . ثم قال : روى عن شعيب الجبائى أن اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاى وكسر اللام والمد كما فى القاموس ،أو بضم الزاى وفتح اللام على هيئة المصغر وقيل اسمها راعيل بوزن هابيل ، وقيل أحدهما لقبها والآخر اسمها . [فتح البيان : ٦/ ٣٠٥]

وقال أبو حيان : ذكروا أقوالاً متعارضة فيمن اشتراه وفى الثمن الذى اشتراه به ولا يتوقف تفسير كتاب الله على تلك الأقوال المتعارضة . . وذكر هذه الأقوال كلها فى تفسيره البحر المحيط [٦/ ٢٥٤] .

وراء هذا الفساد ؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾.

أى بمجرد أن يكبر المتبنى أو العبد، لابد أن يفصل بينه وبين النساء فى البيت ، لأنه قد كبر وأصبحت له شهوة [1] .

---

(١) عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » . أخرجه البخارى [٥٢٣٢] ومسلم [٢١٧٢].

ولعظم المسألة وخطورتها نورد ما قاله الإمام القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن عن أحكام النظر للنساء والدخول عليهن ، عسى الله أن ينفعنا به ، قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى: قوله تعالى :﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد ؛ فإن قوله : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يكفى ؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين،حسب كلّ خطاب عام فى القرآن . وظهر التضعيف فى ﴿ يَغْضُضْنَ ﴾ ولم يظهر فى « يَغُضُّوا »لأن لام الفعل من الثانى ساكنة ومن الأول متحركة، وهما فى موضع جزم جوابًا . وبدأ بالغَضّ قبل الفرج ؛ لأن البصر رائد القلب، كما أن الحُمَّى رائد الموت ، وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائد ... فما تألف العينان فالقلب آلف =

. . . .

= وفى الخبر « النظرسَهْم من سهام إبليس مسموم ، فمن غضّ بصره أورثه الله الحلاوة فى قلبه» .

وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزينها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عجزها فزينها لمن ينظر، وعن خالد بن أبى عمران قال : لا تُتْبِعنّ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرةً نغِل منها قلبه كما يَنْغَل الأديم فلا يُنتفع به[1] .

فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحلّ ، فلا يحلّ للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا المرأة إلى الرجل ؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها ، وقصدها منه كقصده منها . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله كتب على آبن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر . . .»[2] الحديث . ، وقال الزهرى فى النظر إلى التى لم تحض من النساء: لا يصلح النظر إلى شىء منهن ممن يُشتهى النظر إليهن، وإن كانت صغيرة.وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتى يبعن بمكة إلا أن يريد أن يشترى . وفى الصحيحين عنه عليه السلام:أنه صرف وجه الفضل عن الخثعمية حين سرته ، وطَفِق الفضل ينظر إليها .[3] وقال عليه السلام : « الغَيْرة من الإيمان والمِذاء من النفاق »[4]. والمِذَاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال، ثم يخلّيهم يُماذِى بعضهم بعضا ، مأخوذ من المَذْيِ . وقيل: هو إرسال الرجال إلى النساء ، من قولهم : مذيت الفرس إذا أرسلتها ترعى . وكل ذكر يمذى وكل أنثى تقذِى ؛ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدى زينتها إلا لمن =

(١) النغل بالتحريك : الفساد . ونغل الأديم إذا عفن وتهرّى فى الدباغ فينفسد ويهلك.

(٢) أخرجه مسلم [٢٦٥٧] بلفظ « . . . فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ».

(٣) أخرج البخارى [١٥١٣] عن ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبى ﷺ فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وجعل النبى ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ، فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرًا ، لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال «نعم».

(٤) ذكره الهيثمى فى المجمع [٤/ ٣٣٠] وقال : رواه البزار وفيه أبو مرجوم ، وثقة النسائى وغيره ، وضعفه ابن معين ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

. . . .

= تحل له ، أو لمن هى محرّمة عليه على التأبيد ، فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها ؛ لوقوع اليأس له منها .

الثانية: روى الترمذى عن نَبْهان مولى أم سلمة أن النبىّ ﷺ قال لها ولميمونة وقد دخل عليها ابن أم مكْتُوم : « احتجبا » فقالتا : إنه أعمى ؛ قال : « أفَعَمْيَاوَان أنتما ألستما تُبصرانه؟ »(١) . فإن قيل : هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل؛ لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها، وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته، فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه؛ لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب ، كما أشار إلى ذلك أبو داود وغيره من الأئمة ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبىّ ﷺ أمر فاطمة بنت قيس أن تعتدّ فى بيت أم شَريك ؛ ثم قال : «تلك امرأة يغشاها أصحابى اعتدّى عند ابن أم مكْتُوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»(٢) . قلنا : قد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن: المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة ، كالرأس ومعلّق القُرْط، وأما العورة فلا، فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِن﴾ ، وتكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض كما هى فى الآية قبلها . قال ابن العربى : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم؛ لأن ذلك أولى بها من بقائها فى بيت أم شريك ؛ إذ كانت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها ، فيكثر الرائى لها ، وفى بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى، فرخص لها فى ذلك والله أعلم .

الثالثة: أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه =

---

(١) أخرجه الترمذى [٢٧٧٨] بلفظ : أن أم سلمة كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت : فبينا نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبنا منه » فقلت : يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه؟» وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٥٢٦] : ضعيف .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٤٨٠] بلفظ : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم. فإنه رجل أعمى . تضعين ثيابك ، فإذا احللت فآذنينى » . .

. . . .

= من الناظرين في باقي الآية حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ؛ واختلف الناس في قدر ذلك ، فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جُبير الوجه. وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعيّ : الوجه والكفّان والثياب. وقال ابن عباس وقتادة والمسْوَر بن مَخْرَمَة : ظاهر الزينة هو الكحل والسّوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ (1) ،ونحو هذا فمباح أن تبديه المرأة لكلِ من دخل عليها من الناس . وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثا عن النبي ﷺ ، وذكرآخر عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركَت(2) أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى ها هنا » وقبض على نصف الذراع قال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تُبدى وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك.

﴿مَا ظَهَرَ﴾ على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه .

قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك في الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما. يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها : أن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما دخلت على رسول الله ﷺ وقال لها: « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا »(3) وأشار إلى وجهه وكفّيه . فهذا أقوى في جانب الاحتياط ؛ ولمراعاة فساد الناس فلا تبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، والله الموفق لا ربّ سواه . وقد قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة، وخيف من وجهها وكفّيها الفتنة فعليها ستَر ذلك، وإن كانت عجوزا أو مقبَّحَة جاز أن تكشف وجهها وكفيها .

الرابعة: الزينة على قسمين : خلْقية ومكْتَسبة ؛ فالخلْقية وجهها، فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية؛ لمَا فيه من المنافع وطرق العلوم. وأما الزينة المكتسبة=

(1) الفتخ : « بفتحتين جمع الفتحة » ، خواتيم كبار تلبس في الأيدى .

(2) عركت المرأة : حاضت .

(3) أخرجه ابو داود [٤١٠٤] وقال هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يدرك عائشة ، وقال الألباني في صحيح أبي داود [٣٤٥٨] : صحيح .

وفيه سعيد بن بشير ضعيف كما في «التقريب» للحافظ ابن حجر. لكن الحديث قد جاء من طرق أخرى يتقوى بها . [انظر طرقه في جلباب المرأة المسلمة للألباني من ٥٨ ـ ٦١]

. . . .

= فهى ماتحاوله المرأة فى تحسين خِلقتها ، كالثياب والحلىّ والكحل والخِضاب، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ . وقال الشاعر :

يأخُذْن زينتهنّ ما تَرَى وإذا عَطِلن فهنّ خير عواطل

الخامسة: من الزينة ظاهر وباطن،فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب، وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بَطَن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سَماهم الله تعالى فى هذه الآية،أو حل محلهم.واختلف فى السُّوَار ؛ فقالت عائشة:هو من الزينة الظاهرة؛ لأنه فى اليدين.وقال مجاهد:هو من الزينة الباطنة؛لأنه خارج عن الكفين، وإنما يكون فى الذراع.قال ابن العربى:وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان فى القدمين

السادسة: قوله تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ الجمهور : بسكون اللام التى هى للأمر ، وقرأ أبو عمرو : فى رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر،وحذفت الكسرة لثقلها،وإنما تسكينها لتسكين عَضُد وفَخِذ، ﴿يَضْرِبْن﴾ فى موضع جزم بالأمر ، إلا أنه بُنى على حالة واحدة اتباعا للماضى عند سيبويه ، وسبب هذه الآية أن النساء كنّ فى ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهنّ بالأخمرة وهى المقانع سَدَلْنَها من وراء الظهر ، قال النقاش : كما يصنع النبط فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بلَىّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت :رحم الله نساءَ المهاجرات(١) الأول؛لما نزل : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققْن أُزُرَهن فاختمرن بها (٢). ودخلت على عائشة حفصةُ بنت أخيها عبد الرحمن رضى الله عنها وقد اختمرت بشىء يَشِفُّ عن عنقها وما هنالك ، فشقّته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر .

السابعة: الخُمُرُ جمع الخمار ، وهو ما تغطى به رأسها ، ومنه اختمرت المرأة =

---

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نحو شجر الأراك ، أى شجر هو الأراك .

(٢) أخرجه البخارى [٤٧٥٨] بلفظ : « يرحم الله . . .» لما أنزل الله : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن . . .».

. . . .

= وتخمرّت وهى حسنة الخمرة .

والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص ، وهو من الجَوْب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾. وقرأ بعض الكوفيين : بكسرها بسبب الياء ، كقراءتهم ذلك فى : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لايجيزون هذه القراءة ويقولون : بيت وبيوت كفَلْس وفُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أى على صدورهنّ ، يعنى على مواضع جيوبهنّ.

الثامنة: فى هذه الآية دليل على أن الجيْب إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . وكذلك كانت الجيوب فى ثياب السَّلَف رضوان الله عليهم ، على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخارى رحمة الله تعالى عليه (باب جيب القميص من عند الصدر وغيره) وساق حديث أبى هريرة قال : ضرب رسول الله ﷺ مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد قد اضطُرَّت أيديَهما إلى ثُديِّهمَا وتراقيهما . . .»[1] الحديث، وقد تقدم بكماله ، وفيه : قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا فى جَيْبه ، فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسع[2] . فهذا يبين لك أن جَيْبه عليه السلام كان فى صدره ؛ لأنه لو كان فى منكبه لم تكن يداه مضطرة إلى ثَدْيَيْه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاسعة: قوله تعالى :﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البَعْل هو الزوج والسيد فى كلام العرب ، ومنه قول النبىّ ﷺ فى حديث جبريل : « إذا ولدت الأمَةَ بَعْلَها »[3] يعنى سيدها؛ إشارة إلى كثرة السّرارى بكثرة الفتوحات ،فيأتى الأولاد من الإماء فتعتق كل أمٍّ بولدها، وكأنه سيدّها الذى مَنّ عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلا لها من سببه، قاله ابن العربىّ. =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٩١٧] بلفظ : « مثل البخيل و المتصدق مثل رجلين . . .» ومسلم [١٠٢١].

(٢) جواب لو محذوف ، أى : لعجبت .

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم [٩] عن أبى هريرة .

= قلت : ومنه قوله عليه السلام فى مارية : « أعتقها ولدُها »[1] فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة : فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة، وأكثر من الزينة إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظرا .ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن اطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ .

العاشرة: اختلف الناس فى جواز نظر الرجل إلى فرج المرأة على قولين: أحدهما : يجوز لأنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى . وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة رضى الله عنها فى ذكر حالها مع رسول الله ﷺ : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك منى. والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ، قاله ابن العربى . وقد قال أصْبغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد، وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها ، والأمة إلى عورة سيدها .

قلت : وروى أن النبى ﷺ قال : « النظر إلى الفرج يورث الطَّمْسَ »[2] أى العمى، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة: لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنّى بذوى المحارم، وسوّى بينهم=

(١) أخرجه ابن ماجه [٢٥١٦] عن ابن عباس . وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٥٤٨] : ضعيف .

(٢) ذكره ابن حجر فى التلخيص [١٤٨٩] وقال : قوله : روى أنه ﷺ قال : « النظر فى الفرج يورث الطمس » . رواه ابن حبان فى الضعفاء من طريق بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بلفظ : « إذا جامع الرجل زوجته فلا ينظر إلى فرجها ، فإن ذلك يورث العشا » قال : وهذا يمكن أن يكون بقية سمعه من بعض شيوخه الضعفاء ، عن ابن جريج فدلسه، وقال ابن أبى حاتم فى العلل : سألت أبى عنه فقال : موضوع ، وبقية مدلس . وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات [٦٨٢] بلفظ : « النظر إلى فرج المرأة يورث العمى » وقال : رواه بقية مدلسًا عن ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس ، وكان يروى عن متهمين فيسقطهم فيما بينه وبين الثقة ، وهذه خيانة وجناية على الإسلام . وذكره الألبانى فى الضعيفة [١٩٥ ، ١٩٦] وقال : موضوع .

= في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر.. فلا مِرْيَة أن كشف الأب والأخ على المرأة أحْوطَ من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبدى لهم ، فيُبْدَى لأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج . وقد ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا في ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ ، وهي قوله تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ وقال في سورة النور : ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية. فذهب ابن عباس إلى هذه الآية ، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يريد ذكور أولاد الأزواج، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَفَلوا ، من ذُكران كانوا أو إناث ؛ كبنى البنين وبنى البنات ، وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عَلَوْا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات ، وكذلك أبناؤهن وإن سَفَلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن ، فيستوى فيه أولاد البنين وأولاد البنات وكذلك أخواتهن ، وهم مَن ولده الآباءُ والأمهات أو أحد الصنّفين وكذلك بنو الإخوة وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكران كانوا أو إناث كبنى بنى الأخوات وبنى بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعاني في الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم في « النساء»والجمهور على أن العمّ والخال كسائر المحارم في جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم . وليس في الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعند الشعبي وعكرمة ليس العم والخال من المحارم . وقال عكرمة : لم يذكرهما في الآية ؛لأنهما تبعان لأبنائهما .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعنى المسلمات ، وتدخل في هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذّمة وغيرهم ، فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئا من بدنها بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾. وكان ابن جريج وعُبادة بن نُسى وهشام القارىء يكرهون أن تقبل النصرانيةُ المسلمةَ أو ترى عورتها ، ويتأولون =

= ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾. وقال عُبَادة بن نُسَى : وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى عبيدة بن الجراح : أنه بلغنى أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين ، فامْنَع من ذلك ، وحُلْ دونه ؛ فإنه لايجوز أن ترى الذمية عرية [1] المسلمة ، قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أيمُّا امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيض وجهها فسود الله وجهها يوم تبيض الوجوه ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ؛ لئلا تصفها لزوجها . وفى هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أمَةً لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها، وأما غيرها فلا ؛ لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ظاهرالآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيات ، وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وقال أشهب : سئل مالك أتُلْقِى المرأة خمارها بين يد الخصِى ؟ فقال نعم ، إذا كان مملوكًا لها أو لغيرها ، وأما الحر فلا . وإن كان فحلا كبيرا وَغْدا [2] تملكه ، لا هيئة له ولا منْظَر فلينظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بواسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة على الرجل المرحاضَ ، قال الله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ .وقال أشهب عن مالك : ينظر الغلام الوَغْد إلى شعر سيدته ، ولا أحبه لغلام الزوج ، وقال سعيد بن المسيب : لا تغرنكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إنما عُنِى بها الإماء ولم يُعْن بها العبيد . وكان الشعبىّ يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء ، وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمةَ ثوبٌ إذا غطّت به رأسها لم يبلغ إلى رجليها ،وإذا غطت به رجليها لم يبلغ إلى رأسها ؛ فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى من ذلك قال: « إنه لابأس عليك إنما هو=

(١) عرية المرأة : ما يعرى منها وينكشف .

(٢) الوغد : الدنى من الرجال ، الذى يخدم بطعام بطنه . وقيل الخفيف العقل .

= أبوك وغلامك » (١).

الخامسة عشرة : قوله تعالى : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ فى غير أولى الحاجة . والإِرْبَةُ : الحاجة ، يقال : أرِبْت كذا آرب أربًا . والإِرْب والإربة والمَأْرُبة والأَرَب : الحاجة ؛ والجمع مآرب ؛ أى حوائج .ومنه قوله تعالى :﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ . وقد تقدم ، وقال طَرَفَة :

إذا المرء قال الجهل والحوب والخنا (٢) تقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

واختلف الناس فى معنى قوله : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ فقيل: هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل : الأَبْلَهُ . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم ، وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن ، وقيل: العِنِّين . وقيل : الخصىّ ، وقيل : المخنث ،وقيل : الشيخ الكبير ، والصبىّ الذى لم يُدْرِك . وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا همّة ينتبه بها إلى أمر النساء ، وبهذه الصفة كان هِيْتُ المخنَّث عند رسول الله ﷺ ، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادية بنة غَيْلان، أمر بالاحتجاب منه .

أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ وغيرهم عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك، قال قلت لمالك : إن سفيان زاد فى حديث ابنة غَيْلان: « أن مخنَّثًا يقال له هيتُ» وليس فى كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك ، وغرّبه النبىّ ﷺ إلى الحِمَى، وهو موضع من ذى الحُلَيْفَة ذات الشمال من مسجدها ، قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان فى الحديث : إذا قعدت تَبَنَّت (٣) ، وإذا تكلّمت تغنّت . قال مالك : صدق، هو كذلك. قال أبو عمر: ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال =

(١) أخرجه أبو داود [٤١٠٦] بلفظ : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك» وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٤٦٠] : صحيح.

(٢) الحوب : بضم الحاء وفتحها : الإثم . والخنا : الفحش .

(٣) أى صارت كالمبناة من سمنها وعظمها . قال ابن الأثير : أى فرّجت رجليها لضخم تركّبها «فرجها» ، كأنه شبهها بالقبة من الأدم .

. . . .

= في الحديث يعنى حديث هشام بن عروة « أن مخنثا يدعى هيتا» فغير معروف عند أحد من رواته عن هشام ، لا ابن عيينة ولا غيره ، ولم يقل في نَسَق الحديث « إن مخنثا يدعى هيتا» وإنما ذكره عن ابن جُريح بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول في الحديث : « إذا قعدت تبنت وإذا تكلّمت تغنّت » . هذا مالم يقله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة ،وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدى ، والعجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكى عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب، ولا ذكره عن سفيان غيره أيضا ، والله أعلم ، وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يُكتب حديثه ولا يُلتفت إلى ما يجيء به، ذكر الواقِدىّ والكَلْبى أن هِيتا المخَنَّث قال لعبد الله بن أُميّة المخزومى، وهو أخو أمّ سَلَمة لأبيها وأمه عاتكة عمة رسول الله ﷺ قال له : وهو في بيت أخته أم سلمة ورسول الله ﷺ يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادِيَةَ بنت غَيْلان بن سَلَمة الثَّقَفِيّ: فإنها تُقبل بأربع وتُدْبر بثمان [1] مع ثَغْر كَالأُقْحُوان، إن جلست تَبَنّت وإن تكلّمت تغنّت ، بين رجليها كالإناء المكفوء ،[2]وهي كما قال قَيْس بن الخطيم :

تغْتَرِق الطَرْفَ وهى لا هِيَة ... كأنما شَفّ وجهها نُزُفُ [3]

بين شُكُول النساء خِلْقَتُها ... قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضِفُ[4]

تنام عن كُبْر شأنها فإذا ... قامَتْ رُوَيْدًا تكاد تَنْقَصِف

فقال له النبى ﷺ : « لقد غلغلت النظر إليها يا عدوّ الله » . ثم أجلاه عن المدينة =

---

(١) يعنى تقبل بأربع عكن ، وتدبر بثمان عكن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا .

(٢) يعنى ضخم ركبها « فرجها » ونهوده كأنه إناء مكبوب .

(٣) يقول : من نظر إليها استغرقت طرفه ، وبصره ، وشغلته عن النظر إلى غيرها وهى لا هية غير محتفلة والنزف بضم فسكون ، وحرك هنا لضرورة الشعر ، خروج الدم . وفي شرح ديوان قيس : أراد أن في لونها مع البياض صفرة . وذلك أحسن .

(٤) الشكول : الضروب . وقصد : ليست بالجسيمة ولا النحيفة . والجبلة : الغليظة، من جبل (كفرح) ، فهو جبل وجبل . والقضف : الدقة وقلة اللحم .

= إلى الحمى . قال : فلما افْتُتِحت الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عَوف، فولدت له منه بُرَيْهَةَ ، فى قول الكلبى . ولم يزل هيْت بذلك المكان حتى قبض النبىّ ﷺ ، فلما وَلّى أبو بكر كُلِّم فيه فأبى أن يردّه ، فلما ولِى عمر كلّم فيه فأبى ، ثم كُلّم فيه عثمان بعدُ . وقيل: إنه قد كَبِروضَعُف واحتاج، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل ويرجع إلى مكانه.
قال : وكان هيْت مولًى لعبد الله بن أبى أمية المخزومى، وكان له طويس [(١)] أيضا ، فمن ثَمّ قبَل[(٢)] الخَنَث قال أبو عمر : يقال « بَادِيَة» بالياء و«بادنة» بالنون ، والصواب فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السادسة عشرة : وصف التابعين بـ ﴿غَيْرِ﴾ لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و ﴿غَيْرِ﴾ لا يتمحّض نكرة فجاز أن يجرى وصفا على المعرفة ، وإن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالقول فى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ . وقرأ عاصم وابن عامر « غير» بالنصب فيكون استثناء ؛ أى يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإرْبة منهم . ويجوز أن يكون حالا ؛ أى والذين يتبعونهن عاجزين عنهن ؛ قاله أبو حاتم . وذو الحال ما فى « التابعين» من الذكر .

السابعة عشرة : قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتُه بـ ﴿الَّذِينَ﴾ . وفى مصحف حَفْصة « أو الأطفال » على الجمع . ويقال: طفل مالم يراهق الحُلُم. ﴿يَظْهَرُوا﴾ معناه يطلعوا بالوطء، أى لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ . وقيل : لم يبلغوا أن يطيقوا النساء ، يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من ﴿عَوْرَاتِ﴾ لاستثقال الحركة على الواو .
وروى عن ابن عباس فتح الواو، مثل جَفْنَة وجَفَنات. وحكى الفراء أنها لغة قيس =

---

(١) طويس لقب غلب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بن مخزوم ، وهو أول من غنى بالعربى بالمدينة ، وأول من ألقى الخنث بها . [راجع ترجمته فى الأغانى جـ٣ص٣٧ طبع دار الكتب] .
(٢) فى الأصول : قيل المخنث ، والتصويب من الأغانى .

= «عَوَرَاتِ» بفتح الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت ، كما تقول: جفنة وجفنات ، إلا أن التسكين أجود فى ﴿عَوْرَاتِ﴾ وأشباهه ؛ لأن الواو إذا تحركت وتحرك ما قبلها ألفا ، فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة :اختلف العلماء فى وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه،على قولين:أحدهما : لا يلزم ؛ لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح . والآخر: يلزمه؛ لأنه قد يشتهى وقد تشتهى أيضا هى ، فإن راهق فحكمه حكم البالغ فى وجوب السّتر ، ومثله الشيخ الذى سقطت شهوته ، اختلف فيه أيضا على قولين كما فى الصبى ، والصحيح بقاء الحرمة ؛ قاله ابن العربى .

التاسعة عشرة : أجمع المسلمون على أن السَّوْءَتَيْن عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلّها عورةٌ إلا وجهها ويديها، فإنهم اختلفوا فيهما.وقال أكثر العلماء فى الرجل:من سرته إلى ركبته عورة، لا يجوز أن ترى.وقد مضى فى الأعراف القول فى هذا مستوفيا.

الموفية عشرين : قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السرة إلى الركبة . ابن عربى : وكأنهم ظنّوها رجلا أو ظنّوه امرأة ، والله تعالى قد حرّم المرأة على الإطلاق لنظر أو لذة ، ثم استثنى اللذّة للأزواج وملك اليمين،ثم استثنى الزينة لاثنى عشر شخصا العبد منهم ، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد.وقد تأول بعض الناس قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾على الإماء دون العبيد، منهم سعيد بن المسيّب ، فكيف يحملون على العبيد ثم يلحقون بالنساء، هذا بعيد جدًا!

قال ابن العربى وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولى الإربة، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، حكاه المهدوىّ .

الحادية والعشرون: قوله تعالى : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِن﴾ الآية ، أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت؛ لتُسمع صوت خلخالها، فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشدّ ، والغرض التستر ، أسند الطبرى عن المعتمر عن أبيه أنه قال : زعم حضرمى أن امرأة اتخذت بُرتَيْن[1] من فضة ، واتخذت جَزْعًا [2] فجعلت فى ساقها =

(١) البرة : الخلخال ، وكل حلقة من سوار قرط .

(٢) الجزع « بفتح الجيم » : ضرب من الخرز .

قول الذى اشتراه لامرأته أكرمى مثواه ، المثوى هو: الإقامة، أى أعدى له مكانًا طيبًا ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتخذه ولدًا . وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ . أى بعد ما كان ملقى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون ، أخذه عزيز مصر وقال لزوجته أكرمى مثواه . قوله تعالى : ﴿ **مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [يوسف: ٢١] أى أكرمناه وهيأنا له بيت عزيز مصر[1].

وقوله جل جلاله: ﴿ **وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** ﴾ [يوسف: ٢١] كأن هناك نقلة أخرى ستحدث ليوسف من علمه بتأويل الأحاديث ، والأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم، وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر .

هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكمًا على الأحداث ، فإخوة

= فمرّت على القوم فضربت برجلها ، الأرض فوقع الخَلْخال على الجزْع فصوّت ؛ فنزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها ، قاله الزجاج.
الثانية والعشرون: من فعل ذلك منهنّ فَرَحًا بحليهنّ فهو مكروه ، ومن فعل ذلك منهنّ تَبرُّجا تعرّضًا للرجال فهو حرام مذموم ، وكذلك من ضرب بنعله من الرجال، إن فعل ذلك تَعَجُّبا حَرُم ، فإن العُجْب كبيرة . وإن فعل ذلك تَبَرُّجًا لم يجز .
الثالثة والعشرون: قال مَكِّىّ رحمه الله تعالى : ليس فى كتاب الله تعالى آية أكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع .
[تفسير القرطبى : ١٢/ ٢٢٦ ـ ٢٣٨]

(١) **قال القرطبى فى قوله تعالى** : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ : الكاف فى موضع نصب ، أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، فكذلك مكنا له ، أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه، حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . [تفسير القرطبى : ٩/ ١٦٠]

يوسف أرادوا به شراً فألقوه فى الجب ، ولكن الله جعل هذا الشر الظاهرى من أسباب الخير العميم الذى سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر ، ولو علم إخوته أنهم بسبب إلقائهم له فى الجب سيرتفع شأنه ، ما ألقوه أبدًا لأنهم لا يريدون له خيرًا، وهذا شأن جميع الظالمين؛ ولذلك يقال: لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم لضن عليه بالظلم [(١)].

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى هذا الكون تستطيع أن ترد أمرًا لله تبارك وتعالى ، فبالنسبة للإنسان يخشى إن أراد شيئًا أن يأتى من هو أقوى منه فيرد الشئ ولا يحقق له ما يريد ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذى لا إله إلا هو قال للأرض: كونى فكانت ، وقال للسماء كونى فكانت ، وقوله سبحانه ﴿كن﴾ نافذ فى كونه [(٢)].

---

(١) قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(٢) **قال البقاعى** : ولما كان من أعجب العجب أن من وقع له التمكين من أن يفعل به مثل هذه الأفعال، يتمكن من أرض هو فيها، مع كونه غريبا مستعبدا فردًا لا عشيرة له فيها ولا أعوان ، قال تعالى نافيا لهذا العجب : ﴿وَاللَّهُ﴾ أى الملك الأعظم ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى الأمر الذى يريده غلبة ظاهر أمرها لكل من له بصيرة : أمر يعقوب يوسف عليهما الصلاة والسلام أن لا يقص رؤياه؛ حذرا عليه من إخوته، فغلب أمره سبحانه حتى وقع ما حذره ، فأراد إخوته قتله فغلب أمره عليهم ، وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه، فغلب أمره سبحانه وظهر اسمه واشتهر ، ثم باعوه ليكون مملوكا، فغلب أمره تعالى حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ، ثم أرادوا أن يغروا أباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه، فغلب أمره تعالى فأظهره على مكرهم ، واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه، فغلب أمره سبحانه فعصمه حتى لم يهم بسوء ، بل هرب منه غاية الهرب، ثم بذلت =

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ .
لا يعلمون ماذا ؟ لا يعلمون أنهم لا قدرة لهم فى هذا الكون، ولا قوة لهم إلا بما شاء الله ، إنهم يخططون ويحسبون أنهم يفعلون ويظلمون الناس، والله يُرى المظلوم انتقامه من الظالم ، وكم رأينا فى التاريخ ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس، ولو أن الناس الذين ظلموا تمكنوا منهم ما صنعوا فيهم ما صنعوه هم فى أنفسهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى وصل إلى غايته من النضج والاستواء ، فكأن مهمة الإنسان فى الكون تبدأ حين يبلغ أشده، ويصبح صالحًا لأن ينجب مثله، تأتيه الغريزة التى نسميها سن البلوغ؛ لأنه فى هذه السن يبدأ نضج العقل ويستقيم تركيب الجسد ، وما دمت فى عمر تستطيع فيه أن تنجب مثلك، تكون قد دخلت التكليف وتحاسب عليه . وإذا أخذنا النبات مثلاً نلاحظ أن الثمرة تنضج إذا كانت البذرة صالحة لتأخذها وتزرعها فى الأرض؛ لتنتج لك شجرة جديدة .

والله سبحانه وتعالى جعل هذا لضمان بقاء النوع ؛ لذلك نجد أن الثمرة

= جهدها فى إذلاله وإلقاء التهمة عليه، فأبى الله إلا إعزازه وبراءته، ثم أراد يوسف عليه الصلاة والسلام ذكر الساقى له، فغلب أمره سبحانه فأنساه ذكره، حتى مضى الأجل الذى ضربه سبحانه ، وكم من أمر كان فى هذه القصة وفى غيرها يرشد إلى أن لا أمرلغيره سبحانه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى الذين هم أهل الاضطراب ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم التأمل أنه تعالى عالٍ على كل أمر . وأن الحكم له وحده؛ لاشغالهم بالنظر فى الظواهر للأسباب التى يقيمها ، فهو سبحانه محتجب عنهم بحجاب الأسباب. [نظم الدر : ١٠/٤٩ ـ ٥٠]

مادامت لم تنضج تكون بذرتها خضراء ، ليس لها رائحة ، طعمها لا تطيقه بحيث إنك تنفر من أكلها، فإذا نضجت وأصبحت بذرتها صالحة للزراعة تجد أن لونها تغير إلى لون جميل ، وطعمها أصبح حلو المذاق ورائحتها تجذبك إليها ، وكأنها تدعوك لأن تأكلها ، فإذا لم تمتد يدك لتقطفها سقطت على الأرض؛ لتعلن أنها صالحة للأكل ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لو أن الثمرة وهى غير ناضجة كانت رائحتها جذابة وطعمها حلو لأكلها الناس ، ثم بعد ذلك انقرضت وانتهت ولا نجد ما نزرعه ؛ ولذلك لا تصبح الثمرة حلوة المذاق إلا إذا أنتجت ما يضمن استبقاء حياتها فى الأرض ، وأنت كفرد حينما تصل إلى مقومات استبقاء النوع تبلغ أشدك وتصبح صالحًا لمهمتك فى الكون.

يوسف عليه السلام تربى فى بيت نعمة وأكرم العزيز مثواه ، وأمده الله بالحكمة والعلم ليحرسه، وقد بلغ أشده ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ما هو الحكم؟ هو الفصل بين قضيتين، بين خصمين متعارضين حق وباطل،ومادام الله أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ إذن فكل إنسان يدخل فى مقام الإحسان، يقوم الليل يسبح ويصلى ويعبد الله كأنه يراه، يعطيه الله تبارك وتعالى ثمرة إحسانه بأن يمده بحكمة وعلم ، وكل واحد يصير على قدر الله، إذا خلقه فقيرًا ،فيكدح ويقوم بأى عمل، ويتقنه ويخلص لعمله يقول الله تبارك وتعالى له: قبلت قدرى وأحسنت عملك فخذ جزاءك ؛ ولذلك تجد عظماء الدنيا كلهم من هذا النوع ، أعطاهم الله الحكم والعلم؛ لأنهم أحسنوا استقبال قدر الله ولم يتأبوا عليه، والله جل جلاله عندما يقول حكمًا من الأحكام بالنسبة لنبى

أو رسول ثم يعمم الحكم بعد ذلك، فالحكم ليس له خصوصية للرسول ومادام الله تبارك وتعالى قد قالها عمومًا، تكون لكل محسن فمن أحسن يعطه الله حكمًا وعلمًا ، لأنه سبحانه قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾.

* امرأة العزيز تراود يوسف *

وَصْفُ يوسف عليه السلام بأنه بلغ أشده معناه أنه أصبح فى كامل فتوته[1] وآتاه الله الأخلاق والعلم ، وكانت امرأة العزيز تنظر إلى جماله وهو صغير نظرة إعجاب، ثم لا شيء لأنه صغير السن ، ولكن عندما بلغ أشده ابتدأ خيالها يسرح فى أكثر من اتجاه وهذا هو النزوع ، وكل عملية شعورية

---

(١) قال ابن الجوزى : اختلف العلماء فى المراد به هاهنا على ثمانية أقوال :

أحدهـــا : أنه ثلاث وثلاثون سنة. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وبه قال مجاهد وقتادة.

والثـــانى : ثمانى عشرة سنة . قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة.

والثـــالث : أربعون سنة . قاله الحسن .

والرابـــع : بلوغ الحلم . قاله الشعبى وربيعة وزيد بن أسلم وابنه .

والخامـــس : عشرون سنة . قاله الضحاك .

والســادس : أنه من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين . قاله الزجاج .

السابـــع : أنه بلوغ ثمان وثلاثين سنة . حكاه ابن قتيبة .

والثامـــن : ثلاثون سنة . ذكره بعض المفسرين . [زاد المسير : ٤/ ١٥٤]

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أنه آتى يوسف لما بلغ أشده حكما وعلمًا . والأشُدّ : هو انتهاء قوّته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة فى كتاب الله ولا أثر عن الرسول ﷺ ولا فى إجماع الأمة على أى ذلك كان ، وإذا لم يكن ذلك موجودًا من الوجه الذى ذكرت فالصواب أن يقال فيه كما قال عز وجل ، حتى تثبت حجة بصحة ما قيل فى ذلك من الوجه الذى يجب التسليم له ، فيسلم لها، حينئذ.
[تفسير الطبرى : ١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨]

يتعرض لها الإنسان العاقل لها إدراك ووجدان ونزوع، وامرأة العزيز وصلت إلى عملية النزوع ، فالإنسان إذا نظر للشئ وأدرك جماله، فهذا إعجاب أن تـدرك جـمال الفرس أو الوردة، أو أى شئ من خلق الله فى الكون ، ثم يحدث الوجدان وهو أن تجد نفسك مشدودًا إلى جمال هذا الشئ فتتأمل الوردة مثلاً ، أو تشاهد الفرس وتجلس طويلاً تتأمله. ثم بعد ذلك تأتى عملية النزوع، بأن تمد يدك لتقطف الوردة، أو لتأخذ الفرس الذى أعجبت به ، حينئذ يتدخل الشرع ويقول لك : لا. هذا ليس من حقك، إنها ملك غيرك انظر إليها كما شئت وتمتع . اعجب بها وبلونها وبرائحتها وبكل ما هو جميل فيها ، ولكن لا تمد يدك لتقطفها .

هذا بالنسبة لجميع مخلوقات الله فى الأرض ما عدا المرأة والرجل . فالله سبحانه وتعالى رحمة منه بنا جاء من أول الأمر ومنع النظر[1] ، لأنك متى نظرت إلى المرأة لتدرك جمالها وأعجبت بها لا تقدر على نفسك بعد ذلك أبدًا ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى من أول الأمر أن يُحرم النظر من الرجل إلى المرأة . ومن المرأة للرجل ؛ لأن النظرة تؤدى إلى الإعجاب، والإعجاب يؤدى إلى النزوع، والنزوع يؤدى إلى المعصية .

امرأة العزيز نظرت إلى يوسف وأعجبت بجماله ، هذا الإعجاب قادها

---

(١) أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغض البصر عن ما لا يحل لهم النظر إليه فقال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .... ﴾ .

وعن عبادة بن الصامت أن نبى الله ﷺ قال : « اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » . أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ٣٢٣] والحاكم فى مستدركه [٤/ ٣٥٩] ، وحسَّن إسناده الألبانى فى الصحيحة [١٤٧٠] بمجموع طريقه .

إلى النزوع فراودته عن نفسه ، ولو أنها امتنعت عن إدراك الشيء أولاً ، أى أنها لو كانت محجوبة عنه أو هو محجوب عنها ما حدث كل هذا .

وهذه تعطينا علة أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بغض البصر ؛ ذلك لأنك إذا لم تغض بصرك أدركت،ووجدت ،وأعجبت، ثم نزعت ومددت يدك ، وهكذا فإنك إن لم تغض البصر فإنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الاعتداء على أعراض الناس، ولأن يوسف بلغ أشده نظرت إليه امرأة العزيز نظرة أخرى، ولذلك فالله سبحانه وتعالى سمح للمرأة أن تبدى زينتها للأب أو الابن أو الزوج أو التابعين غير أولى الإربة أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾(١) راود فاعل أو تفاعل أى أن هناك منازعة مثل قاتل فلان فلانًا، هناك عمليتان: تفاعل ومقاومة بين شخصين مثل شارك فلان فلانًا ، كأن تقول: شارك محمد عليًا، وعلى شارك محمدًا ،فكل منهما فاعل مرة ومفعول مرة أخرى ، ما هى المراودة هى المطالبة برفق، وليس فى خداع يستر ما تريده ممن تريده منه، فإذا كانت المسألة سهلة فالمراودة تنتهى إلى شيء ، وإذا كانت المراودة غير سهلة كأن تراوده وهو يتأبى أى يمتنع تنتهى إلى مقاومة ومشاجرة .

---

(١) **قال أبو حيان:** المراودة : المطالبة برفق ، من راد يرود إذا ذهب وجاء، وهى مفاعلة من واحد نحو : داويت المريض ، وكنى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله .
كأن المعنى وخادعته عن نفسه ولذلك عداه بعن . وقال: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ، ولم يصرح باسمها، ولا بامرأة العزيز سترًا على الحرم . والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول: ربة البيت ، وصاحبة البيت . قال الشاعر :
يا ربة البيت قومى غير صاغرة .
[البحر المحيط : ٦/٢٥٦]

راودته أى طالبته بلين ورفق بأسلوب يخدعه؛ ليؤدى لها ما تطلبه، ولكن كيف راودته؟ لقد كان يخدمها، وجماله يعجبها فعندما بلغ أشده كان هناك مسلك آخر، نضرب مثل للتقريب من واقعنا فنقول: تأمره مثلاً بإحضار قدح من القهوة، ثم تأمره بأن يضع قدح القهوة ويجلس إلى جوارها وتتقرب منه بالتدريج ،وهكذا.

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ . معناها أنها تراوده ليس من الشرفة أو فى الشارع أو وهما يركبان عربة ، إنما هو فى بيتها. إذن فهى متمكنة بحكم المكان منه، وهى التى تراوده فالمسألة مجموعة عليه من عدة جهات:

هو تربى فى البيت كخادم لها ، وجوده معها فى حجرة واحدة مسألة لا تثير استغراب أحد، وهى تلاطفه وتحتال عليه . هنا نجد أدب التناول فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣] إذن فالحادث فيه مبالغة؛ لأنها غلقت الأبواب ولم تغلق بابًا واحدًا ، بل عدة أبواب؛ حتى لايفاجئها أحد، مما يدلنا على أن القصر مبنى وكل حجرة ليس لها باب واحد ، بل لها أبواب ، وهكذا القصور تدخل من باب إلى باب .

قوله تعالى : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾[1] . معناها أنها غلقت بابًا وراء

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ هو تضعيف تكثير بالنسبة إلى وقوع الفعل بكل باب ، قيل وكانت سبعة أبواب . [٦/٢٥٦] .

وقال صديق خان: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ : أى أطبقتها، قيل فى هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال، وهى الأبواب فيقال غلق الأبواب، ولا يقال: غلق الباب، بل يقال أغلق الباب ، وقد يقال أغلق الأبواب. قيل وكانت الأبواب سبعة كما فى البيضاوى وغيره ، وأنها أغلقتها لشدة خوفها. [فتح البيان : ٦/ ٣١٠]

باب، مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهى حريصة على أن تخفى ما ستفعل ، وكونها غلقت الأبواب دليل على أنها تريد إذا فتح باب أن تتنبه فلا يفاجئها أحد .

الله سبحانه يقول : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1] . أى أنها تهيأت له ، انتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب . يوسف عندما رأى هذا قال : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ . والمعاذ هو ما تستجير به ، وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقاتك ، فستستجير بمن ينجدك ممن هو أقوى منك .

يوسف عليه السلام لم يجد معاذًا إلا الله؛ لأنه هو سبحانه الذى أعطاه الحكم والعلم، وقال له: هذا حلال وهذا حرام ، ولأن الله تبارك وتعالى قادر دائمًا على أن يعيذ عباده ويمنع عنهم ما يكرهون . وكلمة : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ عند المؤمن إذا قالها فلابد أن الأمر عصيب .

ويروى فى الحديث أن رسول الله ﷺ أرسل إلى امرأة فى المدينة ليتزوج بها ، وكانت ذات جمال فدبت الغيرة فى نفوس أمهات المؤمنين ، فاجتمعن ،وقلن للزوجة: إن رسول الله ﷺ عنده كلمة يحبها فقالت :

---

(١) قال ابن جرير فى قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اختلف القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الكوفة والبصرة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء بمعنى : هلمّ لك وادن وتقرّب .

وقرأ ذلك جماعة من المتقدمين « وقالت هِيتُ لك » بكسر الهاء وضم التاء والهمزه بمعنى تهيأت لك ، من قول القائل : هئت للأمر أهيء هيئة .

وأولى القراءة فى ذلك : قراءة من قرأه ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء وتسكين الياء لأنها اللغة المعروفة فى العرب دون غيرها ، وأنها فيما ذكر قراءة رسول الله ﷺ.

[تفسير الطبرى : ١٢/١٧٨ ـ ١٨١]

ما هى ؟ قلن: ساعة يدخل عليك قولى له أعوذ بالله منك ، فلما دخل عليها رسول الله ﷺ قالت : أعوذ بالله منك ، فارتد عنها وقال: «قد استعذت بمعاذ وأعادها إلى بيت أبيها»[1] .

وفى قصة مريم عندما رأت جبريل على هيئة رجل يقترب منها قالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨] فالمؤمن يستعيذ بالله إذا كان الأمر خطيراً ، وفوق قدراته ولا يستطيع أن يواجهه .

الحق جل جلاله يقول : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ

---

(١) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : ذكر للنبى ﷺ امرأة من العرب ، فأمر أبا أسيد الساعدى أن يرسل إليها ، فأرسل إليها ، فقدمت ، فنزلت فى أُجُمِ بنى ساعدة . فخرج النبى ﷺ حتى جاءها فدخل عليها ، فإذا امرأة منكسة رأسها . فلما كلمها النبى ﷺ قالت : أعوذ بالله منك ، فقال : « قد أعذتك منى » . فقالوا لها : أتدرين من هذا ؟ . قالت : لا . قالوا : هذا رسول الله ﷺ ، جاء ليخطبك. قالت : كنت أنا أشقى [1] من ذلك . فأقبل النبى ﷺ ، يومئذ ، حتى جلس فى سقيفة بنى ساعدة هو وأصحابه ، ثم قال : « اسقنا يا سهل » . فخرجت لهم بهذا القدح ، فأسقيتهم فيه : فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه . قال : ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك ، فوهبه له .أخرجه البخارى [٥٦٣٧] ، ومسلم [٢٠٠٧] .

قال الحافظ فى الفتح : [١٠/٤٥٢] وفى رواية لابن سعد : فدخل عليها داخل من النساء، وكانت من أجمل النساء ، فقالت : إنك من الملوك ، فإن كنت تريدين أن تحظى عند رسول الله ﷺ ، فإذا جاءك فاستعيذى منه .

ووقع عنده (أى ابن سعد) عن هشام بن محمد عن عبد الرحمن بن الغسيل بإسناد حديث الباب : أن عائشة وحفصة دخلتا عليها أول ما قدمت فمشطاها وخضبتاها ، وقالت لها إحداهما : إن النبى ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول : أعوذ بالله منك » .

---

(١) ليس أفعل التفضيل هنا على بابه ، وإنما مرادها إثبات الشقاء لها لما فاتها من التزوج برسول الله ﷺ .

الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ إذن فيوسف لم يوافق على ما تريده، وطلب المعونة من الله ، وقوله تعالى: ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾. أى نجانى من الجب ومن شر إخوتى ، وهيأ لى مكانًا رغدًا لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه وأن أجعل نعمه علىّ وسيلة لمعصيته خصوصًا أن العزيز زوجها قد أكرم يوسف وقال : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾. [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] معناها أن الله سبحانه وتعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء، فلا يفلح من ظلم(١) .

---

(١) قال تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] . وقال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا، يا عبادى: كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته : فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلم عارٍ إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى، فأعطى كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل فى البحر يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ». الحديث بطوله أخرجه مسلم [٢٥٧٧] . =

❊ كيف همت به وهم بها؟ ❊

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. ولقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية، والهمّ: هو حديث النفس بالشيء قد يفعل الإنسان أو لا يفعل ، ومن رحمة الله بخلقه أنه من همّ بحسنة ليفعلها ولم يفعلها كتبت له حسنة لماذا؟ لأن ذهنه شغل بها، ولكنه وجد دافعًا داخل نفسه يدفع ما في ذهنه فلا ينفذه . فهذا أخذ حسنة ، وهناك من تحدثه نفسه بمعصية ،ولكن لا يفعلها ، هذا له حسنة (١) .

العبارة هنا جاءت في أمر المراودة ، هي راودته وهو ممتنع. إذن فهناك مفاعلة: اثنان يتصارعان على شيء، أحدهما امرأة العزيز: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾.

= وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الظلم ظلمات يوم القيامة». أخرجه مسلم [٢٥٧٩] ، والترمذى [٢٠٣٠] بدون «إن» وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٥٣] : صحيح .

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : إذا همَّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة . وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرًا » أخرجه مسلم [١٢٨] .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « إن ربكم تبارك وتعالى رحيم ؛ من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرة ، إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك » أخرجه أحمد [١/ ٢٧٩] وصححه الشيخ شاكر [٢٥١٩].

والطرف الآخر وهو يوسف ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ . النظرة السطحية تقول أن هناك مساواة، هو حدثته نفسه بالفعل وهى حدثتها نفسها بالفعل ، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة ، فقد قال بالنسبة لامرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ . أى : حدثتها نفسها أنها تريده، وعندما تكلم الحق سبحانه عن يوسف قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ . لو حللنا هذه العبارة تكون: ولقد همت به ،ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، ولولا حرف امتناع للوجود .

تقول: لولا زيد عندك لأتيتك، فأنا لم آتك لوجود زيد عندك ، بالنسبة ليوسف نقول: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، لولا معناها: أنه لم يهم بها ، والامتناع حدث؛ لأنه رأى برهان ربه؛ فكأن العبارة: لقد همت به، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمّ بها ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمّ بها وتنتهى المسألة .

هى همت به وهو فوجئ بأن سيدته هى التى طلبت منه ولكنه لم يهم بها، ولو أن الله سبحانه قال: لقد همت به ولم يهم بها، لقلنا: أمر طبيعى حدث كأن انفتح الباب ودخل الناس .

ولكن الله أراد أن نعرف أنه لولا برهان ربه لهمّ بها ، ولكن البرهان جعله لم يهمّ فليس هناك نقص فى رجولته ، ولكن هناك إيمانًا ورعاية من الله . وعدم الهمّ ليس راجعًا إلى عدم الرجولة وإنما إلى عصمة الله .

إذن فبرهان الله سبحانه وتعالى سابق على الهمّ؛ لأنه لو همّ ولم يفعل نقول: إن البرهان أتى بعد الهمّ، ولكن برهان ربه كان فى نفسه .

ولقد قال بعض المفسرين: إنه هم بها ، وجلس بين شعبها الأربع،

ولم يرجع إلا عندما تمثل له أبوه ، وقال له هذه معصية [١] ، ونقول: إن هذا عبث يتحججون بأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ ولم يقل ولقد همت به ولم يهم بها .

---

(١) قال الشنقيطي رحمة الله عليه في تأويل قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الآية :

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه ، ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة براءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف ، والمرأة ، وزوجها ، والنسوة ، والشهود .

أما جزم يوسف بأنه برئ من تلك المعصية، فذكره تعالى في قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف: ٢٦] وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

وأما اعتراف المرأة بذلك، ففي قولها للنسوة : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وقولها : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٨، ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [يوسف: ٢٦].

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

قال الفخر الرازي في تفسيره : قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات : =

= أولها : ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أى وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث: قوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والرابع: قوله : ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان : تارة باسم الفاعل . وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته . وعلى كلا الوجهين :فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه . أ. هـ من تفسير الرازى .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] .

فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ولا شك أن يوسف من المخلصين ، كما صرح تعالى به فى قوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغى .

وقال الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية ما نصه : وعند هذا نقول : هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ، ولعلهم يقولون : كنا فى أول الأمر تلامذة إبليس ، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا فى السفاهة عليه ، كما قال الخوارزمى :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

فثبت بهذه الدلائل: أن يوسف عليه السلام برىء مما يقول هؤلاء الجهال . ا . هـ.

ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح! وعذر الرازى فى ذلك، هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف=

. . . .

= الصالح. وسترى فى آخر هذا المبحث أقوال العلماء فى هذه المسألة إن شاء الله تعالى.
فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغى فى الآيات المتقدمة. ولكن ماذا تقولون فى قوله تعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ؟ .
فالجواب من وجهين:
الأول: أن المراد بهمّ يوسف بها خاطر قلبى صرفه عنه وازع التقوى. وقال بعضهم: هو الميل الطبيعى والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلى لا يتعلق به التكليف، كما فى الحديث عنه ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: « اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما لا أملك »(1) يعنى: ميل القلب الطبيعى.
ومثال هذا: ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم. وقد قال ﷺ: « ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة »(2) لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله، وامتثالا لأمره، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠].
وهمُّ بنى حارثة وبنى سلمة بالفرار يوم أحد، كهمِّ يوسف هذا، بدليل قوله: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ لأن قوله: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصى إغراء على المعصية.
والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه: هذا ما يهمنى، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إلى. بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر =

---

(1) أخرجه الترمذى [١١٤٠] بلفظ: عن عائشة أن النبى ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: « اللهم هذه قسمتى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »، وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [١٩٣]: ضعيف.

(2) أخرجه مسلم [١٢٨] بلفظ: « قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً ».

= وهو هارب عنها ، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه .

ومثل هذا التصميم على المعصية : معصية يؤاخذ بها صاحبها ، بدليل الحديث الثابت فى الصحيح عنه ﷺ من حديث أبى بكرة : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قالوا : يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه »(١) . فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصيةٌ أدخله الله بسببها النار .

وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل ، كقول العرب : قتلته لو لم أخف الله ، أى قاربت أن أقتله ، كما قاله الزمخشرى .

وتأويل الهم بأنه هم بضربها ، أو هم بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل بعيد من الظاهر ولا دليل عليه .

والجواب الثانى ، وهو اختيار أبى حيان : أن يوسف لم يقع منه هم أصلا، بل هو منفى عنه لوجود البرهان .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا الوجه الذى اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأن الغالب فى القرآن وفى كلام العرب : أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أى: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه ، فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ؛ لأن جواب الشرط وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلا عليه كالآية المذكورة . وكقوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤] أى إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية : وهم بها ﴿ لَوْلَا ﴾ أن رأى برهان ربه ، أو ﴿ لَوْلَا ﴾ أن رآه هم بها. فما قبل « ﴿ لَوْلَا ﴾ هو دليل الجواب المحذوف،كما هو الغالب فى القرآن واللغة. ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ فما قبل ﴿ لَوْلَا ﴾ دليل الجواب. أى ﴿ لَوْلَا ﴾ أن ربطنا على =

(١) أخرجه البخارى [٦٨٧٥].

. . . .

= قلبها لكادت تبدى به. واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب ﴿لَوْلَا﴾ ففى قوله : ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : أبو العباس المبرد ، وأبو زيد الأنصارى .

وقال الشيخ أبو حيان فى البحر المحيط ما نصه : والذى أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله . ولا نقول : إن جواب ﴿لَوْلَا﴾ متقدم عليها ، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فى جواز تقديم أجوبتها عليها . وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : أبو زيد الأنصارى وأبو العباس المبرد .

بل نقول : إن جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما يقول جمهور البصريين فى قول العرب : أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك هنا التقدير : ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لهم بها ، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم ، ولا التفات إلى قول الزجاج. ولو كان الكلام : ولهم بها كان بعيدا ، فكيف مع سقوط اللام ؟ لأنه يوهم أن قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ، هو جواب ﴿لَوْلَا﴾ ونحن لم نقل بذلك ، وإنما هو دليل الجواب . وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة ؛ لجواز أن يأتى جواب ﴿لَوْلَا﴾ إذا كان بصيغة الماضى باللام . وبغير لام تقول : لولا زيد لأكرمتك . ولولا زيد أكرمتك. فمن ذهب إلى أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ نفس الجواب لم يبعد . ولاالتفات لقول ابن عطية : إن قول من قال: إن الكلام قد تم فى قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وإن جواب ﴿لَوْلَا﴾ فى قوله :﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وإن المعنى : ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لهم بها ، فلم يهم يوسف عليه السلام ، قال: وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف. ا.هـ .

أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكر. وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك =

= بوجوده فى لسان العرب ، قال الله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ : إما أن يتخرج على أنه الجواب، على ما ذهب إليه ذلك القائل وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب ، والتقدير : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدى به .

وأما أقوال السلف : فنعتقد أن لا يصح عن أحد منهم شىء من ذلك ؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا ، مع كونها قادحة فى بعض فسّاق المسلمين، فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة .

والذى روى عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب ؛ لأنهم قدروا جواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوفا ولا يدل عليه دليل ؛ لأنهم لم يقدروا لهم بها ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط ؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه. انتهى محل الغرض من كلام أبى حيان بلفظه .

وقد قدمنا أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب ، وإن زعم بعض العلماء خلاف ذلك .

فبهذين الجوابين تعلم أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام برىء من الوقوع فيما لا ينبغى ، وأنه إما أن يكون لم يقع منه هم أصلا، بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التى هى ﴿لَوْلَا﴾ على انتفاء رؤية البرهان ، وقد رأى البرهان فانتفى المعلق عليه ، وبانتفائه ينتفى المعلق الذى هو همه بها ،كما تقدم إيضاحه فى كلام أبى حيان .

وإما أن يكون همه خاطرًا قلبيا صرفه عنه وازع التقوى ، أو هو الشهوة والميل الغريزى المزموم بالتقوى، كما أوضحناه . فبهذا يتضح لك أن قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يعارض ما قدمنا من الآيات على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغى .

فإذا علمت مما بينا دلالة القرآن العظيم على براءته مما لا ينبغى ، فسنذكر لك أقوال العلماء الذين قالوا : إنه وقع منه بعض ما لا ينبغى ، وأقوالهم فى المراد « بالبرهان» فنقول : قال صاحب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور : أخرج عبد الرزاق ، والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ والحاكم =

. . . .

= وصححه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها ، وهم بها وجلس بين رجليها يحل تبانه « سراويل صغيرة مقدار شبر يستر العورة » ، نودى من السماء : « يا ابن يعقوب ، لا تكن كطائر ينتف ريشه؛ فيبقى لا ريش له » فلم يتعظ على النداء شيئا ، حتى رأى برهان ربه جبريل عليه السلام فى صورة يعقوب عاضا على أصبعيه . ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب فوجده مغلقا ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته، فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه فألفيا سيدها لدى الباب .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم فى الحلية ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام : ما بلغ ؟ قال : حل الهميان ـ يعنى السراويل ـ وجلس منها مجلس الخاتن ، فصيح به ، يا يوسف لا تكن كالطير له ريش، فإذا زنى قعد ليس له ريش !! .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف: ٢٤] قال : طمعت فيه وطمع فيها ، وكان من الطمع أن هم بحل التكة، فقامت إلى صنم مكلل بالدر واليواقيت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال : أى شىء تصنعين ؟ فقالت :أستحيى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة . فقال يوسف عليه السلام : تستحيين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحى أنا من إلهى ،الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ! ثم قال : لا تنالينها منى أبدا ـ وهو البرهان الذى رأى .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قال : حل سراويله حتى بلغ ثنته [(١)] وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، فمثل له يعقوب عليه السلام ، فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : رأى صورة أبيه يعقوب فى وسط البيت عاضًا على إبهامه، فأدبر هاربا وقال: وحقك يا أبتِ =

(١) الثنة « بالثاء المثلثة المشددة المضمومة والنون ـ من الإنسان ـ : ما دون السرة فوق العانة ، أسفل البطن. وقيل الثنة : شعر العانة ».

. . . .

= لا أعود أبدًا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة ، وسعيد بن جبير فى قوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قالا : حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن ، فرأى صورة فيها وجه يعقوب عاضا على أصابعه ، فدفع صدره فخرجت الشهوة من أنامله ، فكل ولد يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولدا إلا يوسف عليه السلام ؛ فإنه نقص بتلك الشهوة ولداً فلم يولد له غير أحد عشر ولدا .

وأخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال: تمثل له يعقوب عليه السلام؛ فضرب فى صدر يوسف فطارت شهوته من أطراف أنامله، فولد لكل ولد يعقوب اثنا عشر ذكرًا، غير يوسف لم يولد له إلا غلامان .

وأخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن رضى الله عنه، فى قوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾. قال : رأى يعقوب عاضا على أصابعه يقول : يوسف! يوسف! .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه ، فى الآية قال : رأى آية من آيات ربه حجزه الله بها عن معصيته ؛ ذكر لنا أنه مثل له يعقوب عاضا على أصبعيه ، وهو يقول له : يا يوسف ! أتهم بعمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى الأنبياء ! فذلك البرهان . فانتزع الله كل شهوة كانت فى مفاصله.

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين رضى الله عنه، فى قوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ . قال : مثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أصبعيه يقول : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، اسمك مكتوب فى الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء ! .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد رضى الله عنه ، قال : رأى صورة يعقوب عليه السلام فى الجدار .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن الحسن رضى الله عنه ، قال : زعموا أن سقف البيت انفرج ، فرأى يعقوب عاضا على أصبعيه . =

. . . .

= وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، عن الحسن رضى الله عنه ، فى قوله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] . قال : إنه لما هم قيل له ارفع رأسك يا يوسف ، فرفع رأسه فإذا هو بصورة فى سقف البيت تقول : يا يوسف! يا يوسف ! أنت مكتوب فى الأنبياء ؛ فعصمه الله عز وجل .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن أبى صالح رضى الله عنه ، قال : رأى صورة يعقوب فى سقف البيت تقول : يوسف ! يوسف ! .

وأخرج ابن جرير من طريق الزهرى : أن حميد بن عبد الرحمن أخبره أن البرهان الذى رأى يوسف عليه السلام هو يعقوب .

وأخرج ابن جرير ، عن القاسم بن أبى بزة ، نودى : يا ابن يعقوب ! لا تكونن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش ! فلم يعرض للنداء وقعد ، فرفع رأسه ، فرأى وجه يعقوب عاضا على أصبعه ؛ فقام مرعوبا استحياء من أبيه .

وأخرج ابن جرير ، عن على بن بذيمة قال : كان يولد لكل رجل منهم اثنا عشر، إلا يوسف عليه السلام ولد له أحد عشر ؛ من أجل ما خرج من شهوته .

وأخرج ابن جرير ، عن شمر بن عطية قال : نظر يوسف إلى صورة يعقوب عاضا على إصبعه ، يقول : يا يوسف ! فذاك حين كف وقام .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك رضى الله عنه ، قال : يزعمون أنه مثل له يعقوب عليه السلام ؛ فاستحيا منه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال : كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فى قوله: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ . قال : رأى آية من كتاب الله فنهته، مثلت له فى جدار الحائط .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه ، قال: البرهان الذى رأى يوسف عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢] ، وقول الله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقول الله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] . =

= وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب قال: رأى فى البيت فى ناحية الحائط مكتوبا : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأخرج ابن المنذر. وأبو الشيخ ، عن وهب بن منبه رضى الله عنه ، قال : لما خلا يوسف وامرأة العزيز، خرجت كف بلا جسد بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ،ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامهما ، ثم رجعت مكتوبًا عليها بالعبرانية ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢] ، ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامهما ، فعادت الكف الثالثة مكتوبا عليها ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وانصرفت الكف ، وقاما مقامهما ، فعادت الكف الرابعة مكتوبا عليها بالعبرانية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فولى يوسف عليه السلام هاربا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. قال : آيات ربه ، أرى تمثال الملك .

وأخرج أبو الشيخ ، وأبو نعيم فى الحلية ، عن جعفر بن محمد رضى الله عنه قال: لما دخل يوسف معها البيت ـ وفى البيت صنم من ذهب ـ قالت : كما أنت ، حتى أغطى الصنم ؛ فإنى أستحيى منه . فقال يوسف هذه تستحى من الصنم ! أنا أحق أن أستحيى من الله؟ فكف عنها وتركها. ا. هـ. من الدر المنثور فى التفسير بالمأثور.

قال مقيده ـ عفا الله عنه :ـ

هذه الأقوال التى رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين :

قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال فى سقوطه .

وقسم ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شىء من ذلك ، فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات ؛ لأنه لا مجال للرأى فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ .

وبهذا تعلم أنه لا ينبغى التجرؤ على القول فى نبى الله يوسف، بأنه جلس بين =

= رجلى كافرة أجنبية ، يريد أن يزنى بها ، اعتمادا على مثل هذه الروايات . مع أن فى الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب ، كقصة الكف التى خرجت له أربع مرات، وفى ثلاث منهن لا يبالى بها ؛ لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق . فما ظنك بخيار الأنبياء ! مع أنا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة ، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين :

إما أن يكون لم يقع منه هم بها أصلا ، بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان ، وإما أن يكون همه الميل الطبيعى المذموم والعلم عند الله تعالى. [تفسير أضواء البيان: ٣/٤٩ : ٦٠]

وقال الزمخشرى : لو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسمى مخلصًا ؟ فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الدحض وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم، ناظرًا فى دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها؛ ليجعل له لسان صدق فى الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر فى العفة وطيب الإزار والتثبت فى مواقف العثار . [تفسير الكشاف : ٢/٢٤٩ ـ ٢٥٠]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

قول يوسف ﷺ لما قالت له امرأة العزيز : ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

المراد بربه فى أصح القولين هنا سيده ، وهو زوجها الذى اشتراه من مصر ، الذى قال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. فلما وصى به امرأته ، فقال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ قال يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ معلوم بينهما ، وهو سيدها . =

= وأما قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فهذا خبر من الله تعالى أنه رأى برهان ربه ، وربه هو الله، كما قال لصاحبى السجن : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [يوسف: ٣٧] وقوله ﴿ رَبِّي ﴾ : مثل قوله لصاحب الرؤيا : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ قال تعالى: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ قيل أنسى يوسف ذكر ربه ، لما قال : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾.

وقيل: بل الشيطان أنسى الذى نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب ، فإنه مطابق لقوله: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ، ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه، بل كان ذاكرًا لربه . وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال لهما قبل ذلك : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أى فى الرؤيا ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف : ٣٧].

يعنى التأويل ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ أى فى الرؤيا ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧، ٣٨].

فبذا يذكر ربه عز وجل ، فإن هذا مما علمه ربه ؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله ، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين - الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره - إبراهيم وإسحق ويعقوب ، =

. . . .

= فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه . ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] . الآية ، ثم لما قضى تأويل الرؤيا : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ؟ وإنما أنسى الشيطان الناجى ذكر ربه . أى: الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه ، وهو أن يذكر عنده يوسف ، والذين قالوا ذلك القول ، قالوا : كان الأولى أن يتوكل على الله ، ولا يقول اذكرنى عند ربك. فلما نسى أن يتوكل على ربه، جوزى بلبثه فى السجن بضع سنين . فيقال: ليس فى قوله : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧] كما أن قول أبيه: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ بل يناقض توكله ، بل قال : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

وأيضاً فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين ، والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله ، فإن ذلك شرك ، ويوسف لم يكن مشركًا لا فى عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه فى فعل نفسه بقوله ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] ، فكيف لا يتوكل عليه فى أفعال عباده . وقوله : ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله لربه : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهى عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مناقضًا للتوكل ، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طُلب ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ قال :﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، فيوسف يذكر ربه فى هذه الحال ، كما ذكره فى تلك . ويقول : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ فلم يكن فى قوله له: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ترك الواجب ، ولا فعل =

= لمحرم ، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين ، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قيل هذا ظلمًا له ، مع علمهم ببراءته من الذنب .
قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ . ولبثه فى السجن كان كرامة من الله فى حقه ، ليتم بذلك صبره وتقواه ، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال . ولهذا قال : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم، فيما طلبوا منه جزعًا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس . لكن تنازع العلماء هل يمكن الإكراه على الفاحشة على قولين : قيل : لا يمكن ، كقول أحمد بن حنبل وأبى حنيفة وغيرهما ، قالوا: لأن الإكراه يمنع الانتشار .
والثانى : يمكن وهو قول مالك والشافعى ، وابن عقيل وغيره من أصحاب أحمد ؛ لأن الإكراه لا ينافى الانتشار ، فإن الإكراه لا ينافى كون الفعل اختيارًا ، بل المكره يختار دفع أعظم الشرين بالتزام أدناهما ، وأيضًا : فالانتشار بلا فعل منه ؛ بل قد يفيد ويضجع فتباشره المرأة فتنتشر شهوته فتستدخل ذكره . فعلى قول الأولين لم يكن يحل له ما طلبت منه بحال،وعلى القول الثانى فقد يقال الحبس ليس بإكراه يبيح الزنا ، بخلاف مالو غلب على ظنه أنهم يقتلونه أو يتلفون بعض أعضائه ، فالنزاع إنما هو فى هذا ، وهم لم يبلغوا به إلى هذا الحد ، وإن قيل كان يجوز له ذلك؛ لأجل الإكراه لكن يفوته الأفضل .
وأيضًا: فالإكراه إنما يحصل أول مرة ثم يباشر، وتبقى له شهوة وإرادة فى الفاحشة.
ومن قال : الزنا لا يتصور فيه الإكراه يقول : فرق بين ما لا فعل له - كالمقيد - وبين من له فعل ، كما أن المرأة إذا أضجعت وقيدت حتى فعل بها الفاحشة، لم تأثم بالاتفاق، وإن أكرهت حتى زنت ففيه قولان هما روايتان عن أحمد ، لكن الجمهور يقولون لا تأثم، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣]، وهؤلاء يقولون : فعل المرأة لا يحتاج إلى انتشار، فإنما هو كالإكراه على شرب الخمر ، بخلاف فعل الرجل وبسط هذا له موضع آخر . =

= والمقصود أن يوسف لم يفعل ذنبًا ذكره الله عنه ، وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفاره منه ، ولم يذكر عن يوسف استغفارًا من هذه الكلمة ، كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة ، فعلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولاهذا، بل هم همًا تركه لله ، فأثيب عليه حسنة ، كما قد بسط هذا في موضعه .

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزى به صاحبه بالمصائب المكفرة ، كما في قوله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به خطاياه »(1) ولما أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر يا رسول الله : جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءًا ؟ فقال: « ألست تحزن؟ ألست تنصب ؟ ألست تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به » .

فتبين أن قوله : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أى نسى الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ، ونسى ذكر يوسف ربه ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ، ويوسف قد ذكر ربه ، ونسى الفتى ذكر يوسف ربه ، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه ، هذا الذكر الخاص ، فإنه وإن كان يسقى ربه خمرًا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه ، وأنساه الشيطان تذكير ربه ، وإذكار ربه كما قال : ﴿اذْكُرْنِي﴾ أمره بإذكار ربه ، فأنساه الشيطان إذكار ربه ، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا ، فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف ، والذكر هو مصدر وهو اسم ، فقد يضاف من جهة كونه اسمًا ، فيعم هذا كله ، أى أنساه الذكر المتعلق بربه ، والمضاف إليه . ومما يبين أن الذى نسى ربه هو الفتى لا يوسف ، قوله بعد ذلك:﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ وقوله : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان قد نسى فادكر.

فإن قيل : لا ريب أن يوسف سمى السيد ربا فى قوله : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ونحو ذلك. وهذا كان جائزًا فى شرعه، كما جاز فى شرعه=

(1) أخرجه البخارى [٥٦٤١ ، ٥٦٤٢] بلفظ : عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » . ومسلم [٢٥٧٣].

. . . .

= أن يسجد له أبواه وإخوته ، وكما جاز فى شرعه أن يؤخذ السارق عبدًا ، وإن كان هذا منسوخًا فى شرع محمد ﷺ وقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ إن أراد به السيد فلا جناح عليه ، لكن معلوم أن ترك الفاحشة خوفًا لله واجب ولو رضى سيدها ، ويوسف عليه السلام تركها خوفًا من الله . ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وقال يوسف أيضًا : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣،٣٤].

فدل على أنه كان معه من خوف الله ما يزعه عن الفاحشة ، ولو رضى بها الناس ، وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن . وقوله : ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ بصيغة جمع التذكير وقوله : ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ بصيغة جمع التأنيث ، ولم يقل مما يدعيننى إليه ، دليل على الفرق بين هذا وهذا ، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفحشاء بالمرأة ، وليس هناك إلا زوجها ، وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة، أو عديمها ، وكان يحب امرأته ويطيعها ، ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فلم يعاقبها ، ولم يفرق بينها وبين يوسف حتى لا تتمكن من مراودته ، وأمر يوسف ألا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته ، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة.

ومع هذا فشاعت القصة، واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف، حتى تحدثت بها النسوة فى المدينة ، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ، ومع هذا : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وأمرت يوسف أن يخرج عليهن؛ ليقمن عذرها على مراودته ، وهى تقول لهن : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته، والخلوة به مع علم الزوج بما جرى وهذا من أعظم الدياثة ، ثم إنه لما حبس فإنما حبس بأمرها ، والمرأة لا تتمكن من =

= حبسه إلا بأمر الزوج ، فالزوج هو الذى حبسه ، وقد روى أنها قالت : هذا القبطى هتك عرضى فحبسه؛ وحبسه لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لديائته ، وقلة غيرته ، فدخل هو فى من دعا يوسف إلى الفاحشة . فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله، ولا لخوفه منه، بل قد علم يقينًا أنه لم يكن يخاف منه ، وأن يوسف لو أعطاها ما طلبت ، لم يكن الزوج يدرى ، ولو درى فلعله لم يكن ينكر، فإنه قد درى بالمراودة والخلوة التى هى مقتضية لذلك فى الغالب فلم ينكر ، ولو قدر أنه هم بعقوبة يوسف فكانت هى الحاكمة على الزوج القاهرة له . وقد قال النبى ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن »[1] ولما راجعته فى إمامة الصديق قال : « إنكن لأنتن صواحب يوسف »[2] ولما أنشده الأعشى :

وهن شر غالب لمن غلب

استعاد ذلك منه وقال : وهن شر غالب لمن غلب . فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف ؟ وقد عهد الناس خلقًا من الناس تغلبهم نساؤهم ؛ من نساء التتر وغيرهم ، يكون لامرأته غرض فاسد فى فتاه أو فتاها ، وتفعل معه ما تريد، وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعته ودفعته ، بل وأهانته وفتحت عليه أبوابًا من الشر بنفسها ، وأهلها وحشمها ، والمطالبة بصداقها وغير ذلك حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأسًا برأس ، مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٠٤] بلفظ عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله ﷺ فى أضحى - أو فطر - إلى المصلى ، فمر على النساء ، فقال : « يا معشر النساء تصدقن، فإنى أريتكن أكثر أهل النار ». فقلن : وبِمَ يا رسول الله؟ قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ، وأخرجه مسلم [٧٩] بلفظ : « . . . وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لُبٍّ منكن » .

(٢) أخرجه البخاري [٣٣٨٥] عن أبى موسى عن أبيه قال : مرض النبى ﷺ فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل كذا - فقال مثله ، فقالت مثله ، فقال : « مروا أبا بكر ، إنكن صواحب يوسف » فأمَّ أبو بكر فى حياة رسول الله ﷺ .

= ضعف الغيرة؟ فهذا كله يبين أن الداعى ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفًا من السيد. فلهذا قال: ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قيل هذا مما يبين محاسن يوسف ، ورعايته لحق الله وحق المخلوقين ، ودفعه الشر بالتى هى أحسن ، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان ، كل منهما مستقل بالتحريم . فالفاحشة حرام لحق الله ، ولو رضى الزوج ، وظلم الزوج فى امرأته حرام لحقه ، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا فى امرأته لا يسقط ، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك ، ولو جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها ، ويسعى فى عقوبتها بالرجم ، بخلاف الأجنبى فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن ، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء ، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها ، وهو عنده أعظم من أخذ ماله . ولهذا يجوز له قتله دفعًا عنها باتفاق العلماء ، إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق ، ويجوز فى أظهر القولين، قتله ، وإن اندفع بدونه كما فى قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم ، وذكر أنه وجد رجلاً تفخذ امرأته فضربه بالسيف ، فأقره عمر على ذلك وشكره ، وقبل قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك .

وهذا كما لو اطلع رجل فى بيته ، فإنه يجوز له أن يفقأ عينه ابتداء ، وليس عليه أن ينذره ، هذا أصح القولين ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « لو اطلع رجل فى بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء »(1) وكذلك قال فى الذى عض يد غيره ، فنزع يده فانقلعت أسنان العاض .

وهذا مذهب فقهاء الحديث : وأكثر السلف ، وفى المسألتين نزاع ليس هذا موضعه، إذ المقصود أن الزانى بامرأة غيره ظالم للزوج ، وللزوج حق عنده ، ولهذا ذكر النبى ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد ، فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » قلت ثم أى ؟ قال: « أن تقتل ولدك خشية=

(1) أخرجه مسلم [٢١٥٨] بلفظ : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاةٍ ، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جناح » .

= أن يطعم معك » قلت : ثم أى؟ قال : أن تزانى بحلية جارك»[1] فذكر الزنا بحليلة الجار ، فعلم أن للزوج حقًا فى ذلك ، وكان ظلم الجار أعظم ، للحاجة إلى المجاورة .

وإن قيل : هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه ، والجار عليه حق زائد على حق الأجنبى ، فكيف إذا ظلم فى أهله ، والجيران يأمن بعضهم بعضًا ، ففى هذا من الظلم أكثر مما فى غيره ، وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره ، فكيف يفسدها هو . فلما كان الزنا بالمرأة المزوجة له علتان ، كل منهما تستقل بالتحريم ، مثل لحم الخنزير الميت : علل يوسف ذلك بحق الزوج ، وإن كان كل من الأمرين مانعًا له ، وكان فى تعليله بحق الزوج فوائد . منها: أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به ، بخلاف حق الله تعالى ، فإنها لا تعرف عقوبة الله فى ذلك .ومنها: أن المرأة قد ترتدع بذلك ، فترعى حق زوجها، إما خوفًا وإما رعاية لحقه ، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك ؛ لأنها خائنة فى نفس المقصود منها ، بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة ، وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله .

ومنها: إن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح ، بخلاف الخلية من الزوج، فإنها تطمع فيه بنكاح حلال . ومنها : أنه لو علل بالزنا ، فقد تسعى هى فى فراق الزوج . والتزوج به ، فإن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة ، ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره ، جار لغيره أن يتزوجها ،ولو طلقها ليتزوج بها - كما قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف إن لى امرأتين فاختر أيتهما شئت حتى أطلقها وتتزوجها ، لكنه بدون رضاه لا يحل ، كما فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : «ليس منا من خبب امرأة على زوجها ، ولا عبدًا على مواليه»[2] وقد حرم =

(١) أخرجه البخارى [٧٥٢٠] بلفظ : عن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزانى حليلة جارك » . وأخرجه مسلم [٨٦].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٢/٣٩٧] بلفظ : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « من خبّب خادمًا على أهلها ، فليس منا ، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس هو منا » .

= النبى ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، ويستام على سوم أخيه ، فإذا كان بعد الخطبة ، وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته ، فكيف بعد العقد ، والدخول والصحبة ؟.

فلو علل بأن هذا زنا محرم ، ربما طمعت فى أن تفارق الزوج وتتزوجه ، فإن كيدهن عظيم، وقد جرى مثل هذا ، فلما علل بحق سيده، وقال : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يئست من ذلك ، وعلمت أنه يراعى حق الزوج ، فلا يزاحمه فى امرأته ألبتة ، ثم لو قدر مع هذا ، أن الزوج رضى بالفاحشة وأباح امرأته ، لم يكن هذا مما يبيحها لحق الله ولحقه أيضًا ، فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه ، ولا يسقط بإسقاطه ، وإنما ذاك فيما يباح له بذله ، وهو ما لا ضرر عليه فى بذله ، مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع .

وأما ما ليس له بذله فلا يباح بإباحته ، كما لو قال له : علمنى السحر والكفر والكهانة! وأنت فى حل من إضلالى ، أو قال له : بعنى رقيقًا وخذ ثمنى ، وأنت فى حل من ذلك .

وكذلك إذا قال : افعل بى أو بابنى أو بامرأتى أو بإمائى الفاحشة، لم يكن هذا مما يسقط حقه فيه بإباحته ، فإنه ليس له بذل ذلك ، ومعلوم أن الله يعاقبها على الفاحشة، وإن تراضيا بها ، لكن المقصود أن فى ذلك أيضًا ، ظلمًا لهذا الشخص لا يرتفع بإباحته، كظلمه إذا جعله كافراً أو رقيقاً ، فإن كونه يفعل به الفاحشة أو بأهله فيه ضرر عليه ، لا يملك إباحته كالضرر عليه فى كونه كافرًا ، وهو كما لو قال له : أزل عقلى وأنت فى حل من ذلك ، فإن الإنسان لا يملك بذل ذلك ، بل هو ممنوع من ذلك ، كما يمنع السفيه من التصرف فى ماله أو إسقاطه حقوقه ، وكذلك المجنون والصغير ، فإن هؤلاء محجور عليهم لحقهم، ولهذا لو أذن له الصبى أو السفيه فى أخذ ماله ، لم يكن له ذلك . ومن أذن لغيره فى تكفيره أو تجنينه أو تخنيثه والإفحاش به وبأهله ، فهو من أسفه السفهاء، وهذا مثل الربا ، فإنه وإن رضى به المرابى وهو بالغ رشيد لم يبح ذلك ، لما فيه من ظلمه ، ولهذا له أن يطالبه بما قبض منه من الزيادة ، ولا يعطيه إلا رأس ماله ، وإن كان قد بذله باختياره ، ولو كان التحريم لمجرد حق الله تعالى لسقط برضاه ، ولو كان حقه إذا أسقطه سقط لما كان له الرجوع فى الزيادة ، والإنسان يحرم عليه قتل نفسه أعظم =

= مما يحرم عليه قتل غيره ، فلو قال لغيره: اقتلني لم يملك منه أعظم مما يملك هو من نفسه . ولهذا يوم القيامة يتظلم من الأكابر ، وهم لم يكرهوهم على الكفر ، بل باختيارهم كفروا . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩] وكذلك الناس يلعنون الشيطان ، وإن كان لم يكرههم على الذنوب ، بل هم باختيارهم أذنبوا.

فإن قيل : هؤلاء يقولون لشياطين الإنس والجن : نحن لم نكن نعلم أن في هذا علينا ضرراً ، ولكن أنتم زينتم لنا هذا وحسنتموه حتى فعلناه ، ونحن كنا جاهلين بالأمر ، قيل : كما نعلم أن الجاهل بما عليه في الفعل من الضرر لا عبرة برضاه وإذنه ، وإنما يصح الرضاء والإذن ممن يعلم ما يأذن فيه ويرضى به ، وما كان على الإنسان فيه ضرر راجع لا يرضى به إلا لعدم علمه ، وإلا فالنفس تمتنع بذاتها من الضرر الراجح.

ولهذا كان من اشترى المعيب والمدلس والمجهول السعر ولم يعلم بحاله غير راض به، بل له الفسخ بعد ذلك ، كذلك الكفر والجنون والفاحشة بالأهل، لا يرضى بها إلا من لم يعلم بما فيها من الضرر عليه ، فإذا أذن فيها لم يسقط حقه ، بل يكون مظلومًا ، ولو قال : أنا أعلم ما فيها من العقاب وأرضى به كان كذبًا ، بل هو من أجهل الناس بما يقوله .

ولهذا لو تكلم بكلام لا يفهم معناه ، وقال نويت موجبه عند الله ، لم يصح ذلك في أظهر القولين ، مثل أن يقول « بهشم » ولا يعرف معناها ، أو يقول : أنت طالق إن دخلت الدار وينوى موجبها من العربية ، وهو لا يعرف ذلك ، فإن النية والقصد والرضا مشروط بالعلم ، فما لم يعلمه لا يرضى به ، إلا إذا كان راضيًا به مع العلم ، ومن كان يرضى بأن يكفر ويجن وتفعل الفاحشة به وبأهله ، فهو =

= لا يعلم ما عليه فى ذلك من الضرر ، بل هو سفيه ، فلا عبرة برضاه وإذنه ، بل له حق عند من ظلمه وفعل به ذلك ، غير ما لله من الحق ، وإن كان حق هذا دون حق المنكر المانع .

ولهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، يقول : متى أفسدت امرأته كنت ظالمًا بكل حال ، وليس هذا جزاء إحسانه إلىّ.

والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضًا ، وإن كانوا فعلوه بتراضيهم ، قال طاووس : ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرقا عن تقال ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضًا لمجرد كونه عصى الله ، بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر، وقال تعالى عن أهل الجنة التى أصبحت كالصريم : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] أى يلوم بعضهم بعضًا. وقال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

فالمخالة إذا كانت على غير مصلحة الاثنين كانت عاقبتها عداوة ، وإنما تكون على مصلحتهما إذا كانت فى ذات الله ، فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه ، فهذا التراضى لا اعتبار به ، بل يعود تباغضًا وتعاديًا وتلاعنًا ، وكل منهما يقول للآخر : لولا أنت ما فعلت أنا وحدى هذا ، فهلاكى كان منى ومنك.

والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادى والتلاعن ، فلو كان أحدهما ظالمًا للآخر فيه لنهى عن ذلك . ويقول كل منهما للآخر : أنت لأجل غرضك أوقعتنى فى هذا؛ كالزانيين كل منهما يقول للآخر ، لأجل غرضك فعلت معى هذا ، ولو امتنعت لم أفعل أنا هذا ، لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه ؛ فتعادلا .

ولهذا إذا كان الطلب والمراودة من أحدهما أكثر ، كان الآخر يتظلمه ويلعنه أكثر ، وإن تساويا فى الطلب تقاوما ، فإذا رضى الزوج بالدياثة، فإنما هو لإرضاء الرجل =

نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت فحولة يوسف ، وأنه لم يمتنع عنها؛ لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف ، ولذلك قال جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ . أى أن يوسف كامل الرجولة يمكن أن يهم بها ، ولكن الذى جعله لا يهم بها أن برهان ربه فى داخله ، وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهم بها .

وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ،ويوسف، والنسوة اللاتى دعتهن عندما لمنها ، والشاهد الذى شهد أنها هى التى راودته ، والعزيز نفسه ، كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئًا .

أما يوسف فقال : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] ، وهى اعترفت بعد ذلك أنها راودته عن نفسه، وقالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢] ،، أى لم أقل عليه كلامًا يخالف الواقع لأى شىء سمعته، ولقد جاءت آيات الله كلها تبرئ يوسف، فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن نفسه.

والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.

= أو المرأة لغرض له آخر ؛ مثل أن يكون محبًا لها ، ولا تقيم معه إلا على هذا الوجه فهو يقول للزانى بها : أنت لغرضك أفسدت على امرأتى ، وأنا إنما رضيت لأجل غرضها ، فأنت لما أفسدت على امرأتى وظلمتنى فعلت معى ما فعلت. ومن ذلك أنه لو قال : إنى أخاف الله أن يعاقبنى ، ونحو ذلك لقالت : أنت إنما تترك غرضى لغرضك فى النجاة ، وأنا سيدتك فينبغى أن تقدم غرضى على غرضك ، فلما قال: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ علل بحق سيده الذى يجب عليه وعليها رعاية حقه .

[التفسير الكبير : ٥/٥٣ ، ٧١]

والله تعالى صرف عنه كيدهن ، ومادام الله قد صرف عنه كيدهن، فالشيطان لا يستطيع أن يوسوس له؛ لأن الشيطان يدخل فى معركة مع خلق الله، ولكن عباد الله المخلصين لا يقترب منهم . واقرأ قوله سبحانه: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أى الذى يعبد الله مخلصًا له الدين لا يقربه الشيطان ولا يغويه[١] ، وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال : ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . [يوسف: ٢٧][٢]

كل هذا وتجد بعض العلماء يقولون: إنه هم بها ، والحقيقة أنه لم يهم، وإنما استعاذ بالله واعتصم ببرهان الله . ما هو البرهان ؟ البرهان هو عبوديته وإخلاصه لله سبحانه وعصمة الله له .

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ والفحشاء هى الزنا . فما هو السوء ؟ السوء هو المرحلة السابقة للفحشاء، هى فكرة الهم وما يصاحبها . إذن فامرأة العزيز راودته عن نفسها، وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب، فجرت خلفه لعلها تسبقه وتمنعه من فتح باب الحجرة، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف: ٢٥] إذن فالمسألة خرجت من المراودة إلى المنازعة ، فهى من سعار ما هى فيه تريد أن تقتله ، وهو يريد أن ينجو بنفسه .

---

(١) ولقد قال الله تعالى عن نبيه يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] .

(٢) وكذلك شهادة العزيز نفسه ببراءة يوسف : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] .

الله سبحانه وتعالى صرف السوء عن يوسف، ولم يجعلها تقتله ولم يجعله يقتلها حتى لا يقال دفاعًا عن النفس ، ويقول بعض العلماء: إن قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ . أى همت به لتقتله وهم بها ليقتلها، لولا أن رأى برهان ربه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ . تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على المعصية ؛ لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣] وبما أن الله سبحانه وتعالى وصف يوسف بأنه من عباده المخلصين، فالشيطان لا يستطيع أن يقترب منه ، ولا أن يغويه على المعصية . وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ لم يقصر المسألة على يوسف ولكنه جعلها عامة .

نقول: إن هناك عبادًا لله يصلون بطاعة الله إلى كرامة الله ، أطاعوا الله فأكرمهم الله ، وهناك عبادًا لله يكرمهم فبالإكرام يطيعون الله أى هناك قسمان:

الأول : عباد مخلصون كسبوا وجاهدوا ، ووصلوا إلى كرامة الله بطاعة الله .

الثانى : من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، والفرق بين الاثنين أنه قد يأتى إلى بيتك من يطرق الباب ويطلب خيرًا فتأخذه وتكرمه ، وهناك من تقابله فى الشارع فتأخذه وتكرمه فيزداد بهذا الإكرام طاعة .

إذن فهناك من يطلب فيأذن الله له ويكرمه ، وهناك من يطلبه الله ويكرمه فيزداد إيمانًا .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف: ٢٥] أى أن كل واحد منهما

يريد أن يصل الباب قبل الآخر، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال قبله : ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ كيف نفهم هاتين الآيتين؟ نقول : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ . أى الباب الأخير الذى يفصل بين حجراتها وبين القصر .لذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ مما يدل على أن الباب الذى تسابقا إليه كان هو الباب الأخير،وأنهما تسابقا الأبواب حتى وصلا إلى الباب الأخير، فوجد العزيز أمام الباب، والسؤال هنا: أن كل واحد منهما يريد أن يسبق الآخر إلى الباب لماذا ؟ هى المراودة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتمنعه من الخروج ، وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب . هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف استنبط الحقيقة ؟ .

❋ وشهد شاهد من أهلها ❋

قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾[1] أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب . إذن فهو يريد أن يخرج ، وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده، فقطعت القميص من الخلف . امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب ، وكل الشواهد تدل على أنه كانت هناك مراودة بينها وبين يوسف، أرادت أن تبرئ نفسها وتلصق التهمة بيوسف، وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغريها على الفاحشة وهى التى صدته .

لذلك ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هى من غيظها من رفض يوسف لمراودتها له، وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأن يسجن أو يعذب ، ولذلك قالت لزوجها: اسجنه أو عذبه عذابًا شديدًا ؛ لأنه أراد السوء بزوجتك .

وهنا رد يوسف عليه السلام : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ .

إذن فهى ادعت أنه يحاول أن يعتدى عليها،وهو قال إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها .

العزيز لم يتصرف تصرفًا أهوج بحكم العاطفة ، وكان من الممكن أن يفعل ذلك ويقتل يوسف فى ثورة غضب ، ولكنه استمع لشاهد من أهل

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ﴾ أى جذبت ، ﴿قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ أى من ورائه فانشق إلى أسفله ، والقد القطع وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً .

[فتح البيان : ٦/ ٣١٧]

زوجته حتى لا يظلمها؛ ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة . ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾. [يوسف: ٢٦]. شهد جاءت فى القرآن الكريم بمعان متعددة [1]، جاءت بمعنى حضر ، وجاءت بمعنى أخبر .

---

(١) ورد لفظ الشهادة فى القرآن الكريم بعدة ألفاظ ومعانٍ منها :

١- الشهادة

شُهَدَاءَكُم	البقرة : ٢٣.
تَشْهَدُونَ	البقرة : ٨٤ ، آل عمران : ٧٠ ، النمل ٣٢.
شُهَدَاء	البقرة : ١٣٣ ، آل عمران : ٩٩ ، النور : ٤.
شَهِدَ	البقرة : ١٨٥، الزخرف : ٨٦ .
ويُشْهِد	البقرة : ٢٠٤.
وَاشْهَدْ	آل عمران : ٥٢،٥٣- المائدة : ١١١.
اشْهَدُوا	آل عمران : ٦٤،٨١ .
الشَّاهِدِين	آل عمران : ٨١ ، المائدة : ٨٣ ، ١١٣ ، الأنبياء : ٥٦ ، القصص : ٤٤.
وَشَهِدُوا	آل عمران: ٨٦ ، الأنعام : ١٣٠ ، الأعراف : ٣٧.
شَهِيدًا	النساء : ٧٢ ، المائدة ١١٧.
شَهَادَةً	الأنعام : ١٩، النور : ٤.
يَشْهَدُونَ	الأنعام : ١٩٠.
لاَّ أَشْهَدُ	الأنعام : ١٩٠.
وَالشَّهَادَةِ	الأنعام : ٧٣ ، التوبة : ٩٤ ، ١٠٥ ، الرعد : ٩ ، المؤمنون : ٩٢ ، السجدة : ٦ ، الزمر : ٤٦ ، الجمعة : ٢٨ ، التغابن ١٨.
شَهِدْنَا	الأنعام : ١٣٠، الأعراف : ١٧٢، النمل : ٤٩.
وَأَشْهَدَهُمْ	الأعراف : ١٧٢.

....

شَاهِدِينَ	التوبة : ١٧.
شَاهِدٌ	هود : ١٧، ١٨.
الأَشْهَادُ	هود : ١٧، ١٨ ، غافر : ٥١ .
وَاشْهَدُوا	هود : ٥٤.
مَّشْهُودٌ	هود : ١٠٣، الإسراء : ٧٨.
وَمَا شَهِدْنَا	يوسف : ٨١.
مَّا أَشْهَدتُّهُمْ	الكهف : ٥١ .
مَّشْهَدِ	مريم : ٣٧.
يَشْهَدُونَ	الأنبياء : ٦١.
لِيَشْهَدُوا	الحج : ٢٨.
وَلْيَشْهَدْ	النور : ٢.
شَاهِدُونَ	الصافات : ١٥٠.
شَهِيدٍ	فصلت : ٤٧، ق : ٣٧.
أَشَهِدُوا	الزخرف : ١٩.
شَهَادَتُهُمْ	الزخرف : ١٩.
وَشَهِدَ شَاهِدٌ	الأحقاف : ١٠.
وَشَهِيدٌ	ق : ٢١.
نَشْهَدُ	المنافقون : ١ .
شُهُودًا	المدثر : ١٣.
يَشْهَدُهُ	المطففين : ٢١.
وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ	البروج : ٣.
شُهُودٌ	البروج : ٧٠.
لَشَهِيدٌ	العاديات : ٧.

. . . .

٢- شهادة الأعضاء على الإنسان

تَشْهَد — النور : ٢٤، يس : ٦٥.

شَهِد — فصلت : ٢٠، ٢١.

يشهد — فصلت : ٢٠، ٢١.

٣ ـ شهادة الله

شَهِدَ اللَّهُ — آل عمران : ١٨.

مِنَ الشَّاهِدِينَ — آل عمران : ٨١.

وَاللَّهُ شَهِيدٌ — آل عمران : ٩٨، الأنعام : ١٩، يونس : ٤٦.

شَهِيدًا — النساء ٢٣، الأحقاف : ٨.

بِاللَّهِ شَهِيدًا — النساء : ٧٩ ، ١٦٦ ، يونس : ٢٩ ، الرعد : ٤٣ ، الإسراء : ٩٦، الفتح : ٢٨.

اللَّه شَهِيدًا — النساء : ١٦٦.

شَهِيدٌ — المائدة : ١١٧.

اللَّهُ شَهِيدٌ — الأنعام : ١٩، يونس : ٤٦.

وَاللَّهُ يَشْهَدُ — التوبة : ١٠٧، الحشر : ١١، المنافقون : ١.

شُهُودًا — يونس : ٦١.

أُشْهِدُ اللَّهَ — هود : ٥٤.

شَاهِدِينَ — الأنبياء : ٧٨.

شَهِيدٌ — الحج : ١٧، فصلت : ٥٣ .

بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا — العنكبوت : ٥٢.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا — الأحزاب : ٥٥.

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ — المجادلة : ٦ ، البروج : ٩.

٤ ـ تحريم كتمان الشهادة

كَتَمَ شَهَادَةً	البقرة : ١٤٠.
وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ	البقرة : ٢٨٣.
شُهَدَاء	النساء : ١٣٥، المائدة : ٨.
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّه	المائدة : ١٠٦، ١٠٨.
لَشَهَادَتُنَا	المائدة : ١٠٦، ١٠٨.
شَهَادَتِهِمَا	المائدة : ١٠٦، ١٠٨.
يَأْتُوا بِالشَّهَادَة	المائدة : ١٠٦، ١٠٨.
وَأَشْهِدُوا	الطلاق : ٢.
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّه	الطلاق : ٢.
بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُون	المعارج : ٣٣.

٥ ـ شهادة الزور

لَتَشْهَدُون	الأنعام : ١٩.
شُهَدَاءَ	الأنعام : ١٤٤.
شُهَدَاءَكُم	الأنعام : ١٥٠.
يَشْهَدُون	الأنعام : ١٥٠.
فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَد	الأنعام : ١٥٠.
لَا يَشْهَدُونَ	الفرقان : ٧٢.

٦ ـ الشهادة فى إثبات الزنا

فَاسْتَشْهِدُوا	النساء : ١٥.
شَهِدُوا	النساء : ١٥.

. . . .

وَشَهِدَ شَاهِدٌ	يوسف : ٢٦.
شُهَدَاءَ	النور : ٤، ٦، النور : ١٣.
فَشَهَادَةُ	النور ٦.
شَهَادَاتٍ	النور : ٦.
بِالشُّهَدَاءِ	النور : ١٣.

٧ ـ الشهادة فى المعاملات

وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ	البقرة : ٢٨٢.
الشُّهَدَاءَ	البقرة : ٢٨٢.
لِلشَّهَادَةِ	البقرة : ٢٨٢.
أَشْهِدُوا	البقرة : ٢٨٢، الطلاق : ٢.
وَلا شَهِيد	البقرة : ٢٨٢.
الشَّهَادَةَ	البقرة : ٢٨٣، الطلاق : ٢.
فَأَشْهِدُوا	النساء : ٦.
شَهَادَةُ	المائدة : ١٠٦.

٨ ـ شهادة المسلمين على الأمم

شُهَدَاءَ	البقرة : ١٤٣، آل عمران : ١٤٠، الحج : ٧٨.
وَالشُّهَدَاءِ	النساء : ٦٩، الزمر : ٦٩.

٩ ـ شهادة الملائكة

شَهِدَ	آل عمران : ١٨.
يَشْهَدُونَ	النساء : ١٦٦.

١٠ ـ شهادة النبى على أمته

شَهِيدًا البقرة : ١٤٣ ، النساء : ٤١ ، النساء : ١٥٩ ، النحل : ٨٤ ، ٨٩ ، الحج : ٧٨ ، القصص : ٧٥.

بِشَهِيدٍ النساء : ٤١.

شُهَدَاءَ المائدة : ٤٤.

شَاهِدًا الأحزاب : ٤٥، الفتح : ٨، المزمل : ١٥,

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى وليحضر عذابهما طائفة من المؤمنين ، وجاءت بمعنى أخبر فى قوله تعالى : ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف: ٨١] وتأتى شهد بمعنى حكم، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] أى أن الله حكم وقضى أنه لا إله إلا هو ، أو شهد أى رجح كلامًا على كلام ؛ لاستنباط حق والوصول إلى حقيقة بين وجهتى نظر متعارضتين .

الحق يقول : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾(١) [يوسف: ٢٦] أى أنه يوثق

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى من قرابتها؛ وسمى الحكم بينهما؛ شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل ، قيل لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب، قيل كان ابن عم لها واقفا مع العزيز فى الباب ، وقيل ابن خال لها ، وقيل إنه الطفل فى المهد تكلم(١) .

قال السهيلى: وهو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى ﷺ فى ذكر من تكلم فى المهد، وذكر من جملتهم شاهد يوسف .

وقيل إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره ، وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس: ظبى أنطقه الله كان فى الدار، وعنه قال : كان رجل ذا لحية من خاصة الملك، وعن الحسن قال : هو رجل له فهم وعلم، وعن مجاهد قال : إنه ليس بإنسى ولا جنى هو خلق من خلق الله ، قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وإنما كان الشاهد من أهل المرأة وقرابتها ؛ ليكون أقوى فى نفى التهمة =

---

(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم عليه السلام » . أخرجه الحاكم فى المستدرك [٤٩٧/٢] وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى . وذكره الألبانى فى الضعيفة [٨٨٠] .

لشهادة هذا الشاهد بقرابته لامرأة العزيز بأنه من أهلها ، وليس من أهل يوسف ولن ينحاز إليه ، ولو كان من ناحية يوسف لردت شهادته، على أنه منحاز ليوسف؛ لأنه من أهله .

ما هى الشهادة؟ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف:٢٦، ٢٧] نلاحظ أنه بدأ بالافتراض الذى هو فى صالح امرأة العزيز ، يجعلها صادقة ويوسف كاذبًا . ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ لماذا؟ لأنه فى هذه الحالة يكون هو المقبل عليها، وهى التى تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها ، فهى إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام ، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه . إذن فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها ، أن يكون قميصه ممزقًا من الأمام ؛ لأنه لا يمكن وهو مقبل عليها أن يكون قميصه ممزقًا من أى جهة أخرى .

= عن يوسف، مع ما وجد ومن كثرة العلامات الدالة على صدقه.
[فتح البيان ٦/٣١٩] .وانظر غرر التبيان [٢٨٦] ومفحمات الأقران [٥٨]
وقال ابن جرير الطبرى فى تفسيره بعد أن عدد الأقوال فى ما هو الشاهد : والصواب من القول فى ذلك ، قول من قال : كان صبيا فى المهد للخبر الذى ذكرناه عن رسول الله ﷺ ، أنه ذكر من تكلم فى المهد ، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف. فأما ما قاله مجاهد من أنه القميص المقدود فما لا معنى له ؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن الشاهد الذى شهد بذلك،أنه من أهل المرأة فقال ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ولا يقال للقميص، هو من أهل الرجل ولا المرأة .
[تفسير الطبرى : ١٢/١٩٦]

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى إن كان قميصه ممزقًا من الخلف فلابد أنها هى التى راودته عن نفسها ، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق ، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف، أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليها، وهى تدافع عن نفسها .

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد؛ لتفصل بين قولين متعارضين: قول يوسف، وقول امرأة العزيز .

إذن فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص، وأعطى الافتراضين والدليل على كل منهما ، ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على الآخر .

ثم كان الحكم : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء ؛ لأن المحتال ليس له القدرة على أن يواجه عدوه ؛ لذلك يدبر له فى الخفاء ، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم [١].

---

(١) قال صديق خان : ﴿ مِن ﴾ جنس ﴿ كَيْدِكُنَّ ﴾ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ خاطب الجنس؛ لأن الحيل والمكايد لا تختص بها ، وإنما وصف الكيد بالعظيم؛ لأن كيدهن أعظم من كيد جميع البشر فى إتمام مرادهن، لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب ، فإنه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس .

وعن بعض العلماء إنى أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان ، فإنه تعالى =

* إنك كنت من الخاطئين *

حينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف ، وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] أى أن العزيز طلب من يوسف ألا يتحدث فى هذا الأمر أبدًا؛ حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس .

وقال لزوجته : لقد أذنبت وكنت من الخاطئين فاستغفرى لذنبك[1] .

ولكن الخبر انتشر فى المدينة وانتشر بين النساء ، كيف خرج الخبر من

= يقول : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال للنساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس مسارقة ، وهن يواجهن به الرجال .

وفى حاشية الخفاجى : وقيل عليه إن ضعف كيد الشيطان فى مقابلة كيد الله، وعظم كيدهن بالنسبة للرجال وهو ليس بشئ ؛ لأنه استدل بظاهر إطلاقهما ومثله مما تنقبض له النفس وتنبسط.

قال الحفناوى : هذا فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة، لا عظيمٌ على الإطلاق إذ الرجال أعظم منهن ، فى الحيل والمكايد فى غير ما يتعلق بالشهوة . .

[فتح البيان : ٦/ ٣٢٠]

(١) قال صديق خان: خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر الذى جرى واكتمه ولا تتحدث به؛ حتى لا يفشو ويشيع بين الناس، وقيل معناه لا تكترث به ولا تهتم به ، فقد بان عذرك، ثم أقبل عليها بالخطاب ، فقال ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ يا زليخا ﴿لِذَنْبِكِ﴾ الذى وقع منك ، قال الكرخى : كان العزيز قليل الغيرة. [فتح البيان : ٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١]

القصر[1] ؟ قد يكون أحدًا من العاملين فى القصر أو من النسوة اللاتى يعملن فى خدمة امرأة العزيز ، هم الذين اشاعوا الخبر فى المدينة،ولكنها مسألة لا تقطع فيها بشىء؛ لعدم ورود الخبر فى القرآن أو الحديث النبوى عنها . فيوسف لن يقول عن نفسه ، وامرأة العزيز لا تقول عن نفسها فهل الشاهد هو الذى قال ؟ إن الخدم حينما سمعوا الضوضاء تصنتوا فعرفوا القصة .

المهم أن الخبر خرج من قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما ، وأبلغ إليهن .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٣٠] كلمة نسوة وكلمة نساء تدل على الجماعة، ومفردها ساقط فى اللغة ، ولذلك فمفرد نسوة هو امرأة ومفرد نساء هو امرأة ، والعجيب أن المفرد له مثنى وهو امرأتان ، ولكن الجمع لا يأتى امراءات وإنما يأتى نسوة أو نساء ، على أننا لابد أن نلتفت إلى أن القضية الإيمانية متغلغلة حتى فى نفوس المنحرفين والمتسترين عليهم .

العزيز يطلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يحدث به أحدًا ، وفى الوقت نفسه يقول لزوجته: أنت صاحبة الخطيئة، ولا يعرف الخطيئة إلا من يؤمن بمنهج سماوى؛ لذلك يقول لامرأته كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ [يوسف: ٢٩].

وهذا معناه أنه يعرف أن ذنبًا قد حدث ، وأن هذا الذنب يوجب الاستغفار ، ولا يمكن للعزيز أن يعرف ذلك إلا إذا كان قد عرف

---

(١) يقول الشاعر :

مَهْمَا تكُنْ عندَ امْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وإن خالُها تخفَى علَى النَّاسِ تُعْلَمِ

منهج الله، الذى بين له الذنب وبين له طريقة الاستغفار من الذنب ، وأن الله سبحانه غفور رحيم(١) .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

فإن قيل: فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب ، وأن الله قد يغفر لصاحبه . قلت : نعم والقرآن قد دل على ذلك . حيث قال زوجها : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها، دليل على أنهم كانوا يرون ذلك ذنبًا، ويستغفرون منه ، وإن كانوا مع ذلك مشركين ، فقد كانت العرب مشركين ، وهم يحرمون الفواحش، ويستغفرون الله منها . حتى أن النبى ﷺ لما بايع هند بنت عتبة ابن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئًا ، ولا تسرق ولا تزنى . قالت : أو تَزنى الحرة ؟ (١) وكان الزنا معروفًا عندهم فى الإماء ؛ ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية فى مقابلة الرق ، وأصل اللفظ هو العفة ، ولكن العفة عادة من ليست أمة ، بل قد ذكر البخارى فى صحيحه عن أبى رجاء العطاردى ، أنه رأى فى الجاهلية قردًا يزنى بقردة ، فاجتمعت القرود عليه حتى رجمته(٢).

وقد حدثنى بعض الشيوخ الصادقين ، أنه رأى فى جامع نوعًا من الطير قد باض ، فأخذ الناس بيضه ، وجاء ببيض جنس آخر من الطير ، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس ، فجعل الذكر يطلب جنسه ، حتى اجتمع منهن عدد فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ، ومثل هذا معروف فى عادة البهائم .

والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكراهتها ، وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم . [التفسير الكبير : ٥/ ٨٩، ٩٠]

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٨/ ١٤٠] وقال : أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد عن الشعبى .

(٢) عن عمرو بن ميمون قال : « رأيت فى الجاهلية قِرْدةً ، اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها، فرجمتها معهم » . أخرجه البخارى [٣٨٤٩] .

❊ مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز ❊

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى عرض أوسع ، فالمشهد حتى الآن كان رباعيا" أبطاله امرأة العزيز ، ويوسف ، والشاهد ، والعزيز نفسه ، ولكن الخبر انتقل إلى خارج القصر، مع حرص العزيز من أول الأمر على أن يبقيه سرا بين جدران القصر .

وهذا يدل على أن هناك عيونًا ترصد الأسرار وتنشرها وترويها للناس حتى لا يعتقد أحد أنه يمكن أن يحمى نفسه من الفضيحة لمجرد كتمانها وسترها؛ فهناك عيون تتتبع ما يحدث وتنقله إلى الناس .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠] قضية واقعة تتناقلها النسوة فيما بينهن فى بيوتهن ، وأن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه ، أنها بفعلها هذا فى ضلال مبين .

فماذا كان رد امرأة العزيز ؟ القرآن الكريم يريد أن يلفتنا إلى أن المرأة أكثر كلامًا فى الأعراض ، وأكثر علمًا بالإشاعات من الرجل ، وأن الخبر ينتقل من فم امرأة إلى أخرى حتى يعرفنه جميعًا فى وقت قصير، أى أن نسوة المدينة عرفن الخبر وتحدثن به، ولم يمض إلا وقت قصير، حتى وصل الخبر إلى امرأة العزيز، بأن النسوة يقلن كذا وكذا .

أدركت أن هذا مكر بها ، وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق ، ولا كرهًا فى الضلال الذى وقعت فيه ، إنهن أردن شيئًا آخر هو إذلال

كبرياء امرأة العزيز، ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه .

إنها امرأة العزيز رفيعة المستوى ، أرفع شخصية فى المدينة . تجرى وراء خادمها ومملوكها وتراوده عن نفسه وهو يرفض .

انظر إلى الزلة التى سقطت فيها امرأة لم تحترم مركزها ولا مركز زوجها .

امرأة العزيز تتذلل إلى خادمها وتقدم له نفسها وهو يرفض، هذه عملية صعبة ومهينة، وحين تسمعها امرأة العزيز لا يمكن أن تسكت.

يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وهذا دليل على أنها فهمت القصد من القول، ذلك أن الماكر يستر ما يريد أن يقوله فى شىء آخر ليدعى أمام خصمه أنه برىء.

لقد فهمت أنهن يردن أن يشعن بين الناس أنها وهى امرأة العزيز ، والعزيز معناها الغالب الذى لا يغلب[1] . أرادت أن تعطى نفسها لغلام

---

(١) العزيز : الأمير مأخوذ من العز ، وهو الشدة والقهر، وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية . [تفسير القاسمى : ٩/ ٣٥٣٥]

والعزيز : اسم من أسماء الله تعالى : قال سعيد بن على القحطانى : العزيز ، القدير، القادر ، المقتدر ، القوى ، المتين : هذه الأسماء العظيمة معانيها متقاربة ، فهو تعالى كامل القوة ، عظيم القدرة ، شامل العزّة : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ فمعانى العزّة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم :

١- عزة القوة الدالّ عليها من أسمائه القوى المتين ، وهى وصفه العظيم الذى لا تُنسب إليه قوة المخلوقات وإنْ عَظُمَت. . قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ وقال: ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ

مملوك اشتروه بدراهم معدودة ولكنه رفض . لقد قلن إنه شغفها حبا ولم يقلن أحبته ؛ لأن الحب منازل أولها الهوى ، والهوى يعنى أنه رأى الشئ

كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ وقال عز وجل : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

٢- وعزة الامتناع فإنّه هو الغنى بذاته ، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضرّه فيضرّونه ، ولا نفعه فينفعونه ، بل هو الضارّ النافع المعطى المانع .

٣- وعزّة القهر والغلبة لكل الكائنات فهى كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته ، فجميع نواصى المخلوقات بيده ، لا يتحرّك منها متحرّك ، ولا يتصرّف متصرّف إلا بحوله وقوته وإذنه ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به .

فمن قوته واقتداره أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى سته أيام ، وأنه خلق الخلق ثم يُميتهم ، ثم يُحييهم ثم إليه يُرجعون ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ومن آثار قدرته أنّك ترى الأرض هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذّبين والكُفّار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات ، وأنّه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم، ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم، من عذاب الله من شيء لـمّا جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تتبيب ، وخصوصًا فى هذه الأوقات ، فإنّ هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التى وصلت إليها مقدرة هذه الأمم ، هى من أقدار الله لهم وتعليمه لهم مالم يكونوا يعلمونه ، فمن آيات الله أنّ قواهم وقُدَرهم ومخترعاتهم ، لم تغن عنهم شيئًا فى صدّ ما أصابهم من النكبات والعقوبَات المهلِكة ، مع بذل جدّهم واجتهادهم فى توقى ذلك ، ولكنّ أمر الله غالب ، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوى والسفلى .

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما ، أنه كما أنه هو الخالق للعباد ، فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم ، وهى أيضًا أفعالهم ، فهى تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا ، وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة ، ولا منافاة بين الأمرين ، فإنّ الله خالق قدرتهم وإرادتهم،وخالق السبب التام خالق للمسبب ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . [شرح أسماء الله الحسنى : ٩٣ ـ ٩٦]

فهواه ، والهوى قد ينتهى بالرؤية، وقد يستمر لتنشأ علاقة،أى أن العاطفة استقرت فى قلبه وفى قلبها،ثم تنتقل المسألة من الهوى والعلاقة إلى الكلف[1] فى أن هناك مطلوبًا لهذه العلاقة يريد أن يصل إليه ، ثم بعد ذلك تصل إلى مرتبة العشق، أى أنه صار هناك تبادل مشاعر وصل إلى مرتبة أن يعلن كل منهما عن مراده،وينتقل العشق إلى مرتبة التدله ،أى يكاد الإنسان يفقد عقله، ثم مرحلة الهيام ،٭يهيم على وجهه ولا يدرى أين يذهب.

تلك مراحل يمر بها القلب مقر العقائد ، والإنسان له إدراكات يدرك الأشياء بحواسه، يرى ويسمع ويلمس ويذوق ويشم كل هذه وسائل إدراك، فإذا ما أدرك أشياء عرضت على العقل يوازن بينها ويختار ، فإذا ما انتهى العقل من البحث واستقر على رأى تذهب القضية إلى القلب؛ لتستقر فيه عقيدة ولا تطفو إلى العقل مرة أخرى، إلا إذا جاء شئ حركها. فتطفو لتناقش من جديد .

إذن فالقلب هو منطقة استقرار العقيدة، ويسمونها عقيدة ويسمونها عقائد؛ لأنها شئ معقود لا يُحل ، أصبح مبدأ فى حياتك واستقر بحيث لا يناقش من جديد ، وتسير حركة الحياة فى ظل هذا المبدأ الذى اعتقدته.

إذن فالإنسان يدرك أولاً ،ثم يتعقل الشئ ويناقشه بعقله ثم يصبح الشئ عقيدة ، فإن حركة حياتنا تسير وفقًا لهذه العقيدة ، إذن فالسلوك ناشئ عن العقائد .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠] أى أن حبه انتقل من الإدراك إلى العقل، فنوقش ثم استقر فى القلب أو تمكن منه، قوله :

---

(١) الكلف : الولوع بالشئ مع شغل قلب ومشقة . [لسان العرب : ٣٠٧/٩]

﴿شَغَفَهَا﴾ الشغاف هو الغشاء الرقيق الذى يستر القلب ، وهذا دليل على تمكن حبه من قلبها .

امرأة العزيز سمعت بمكرهن، وأدركت أنهن لا يردن بما يقلن كلمة حق، وإنما يردن إذلالها وإهانتها ، ولم تشغل نفسها بالبحث عمن أخرج هذه الأسرار من القصر؛ لأنه لابد أن يكون الذى أخرج هذه الأسرار له علاقتان: علاقة بالقصر ، وعلاقة بخارج القصر ، علاقته بالقصر جعلته يدرك أو يرى ما حدث ، وعلاقته خارج القصر جعلته يشيع ما حدث بين الناس .

القرآن الكريم يقص علينا : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠] قال العلماء : إنهن خمس : امرأة الخازن الذى يأتيه كل من فى القصر ليأخذوا ما يحتاجون إليه من مخازن القصر ، وامرأة الحارث أو السايس الذى لا يأتى إلى القصر أو يخرج منه أحد إلا ويعلمه ،وامرأة السجان ، وامرأة ساقى الملك الذى يسقى الملك وامرأة الحاجب (١).

أطلقت الخمر ألسنتهم، فيتحدثون دون أن يدروا، ولكن هل هؤلاء النسوة يعشن داخل القصر ؟ لا ، وإنما خارجه ولكن أزواجهن يعيشون داخل القصر، وقد يكون هم الذين نقلوا إلى الزوجات ما سمعوه ، ثم انتقل الكلام من بيت إلى بيت فى المدينة ، حتى شاع وانتشر .

امرأة العزيز حينما سمعت هذه الأخبار علمت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها ، فمكرت بهن وأرادت أن تدخلهن فى تجربة عملية، بحيث

---

(١) قال صديق خان : وكن خمسا وهن امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه .

[فتح البيان : ٦/٣٢١] ، وانظر غرر التبيان [٢٨٦]

يراودن يوسف عن نفسه ، فماذا فعلت ؟ أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر في ضيافتها [1] .

واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١] [2] أى دعتهن وأعدت لهن المتكأ، وهو

---

(١) قال صديق خان : دعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتى عيَّرنَها .
[فتح البيان : ٦/ ٣٢٤]

(٢) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ اى اغتيابهن ، وسوء قالتهن . استعير المكر للغيبة لشبهها له فى الإخفاء . أو المكر على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ اى تدعوهن للضيافة ، مكرًا بهن ، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ اى احضرت وهيأت ، ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ اى ما يتكئن عليه من الوسائد ، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ اى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . ﴿وَقَالَتِ﴾ اى ليوسف ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ . اى ابرز إليهن .

قال الزمخشرى : قصدت بتلك الهيأة وهى قعودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن أن يدهشن ويُبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكىء إذا بُهتَ لشىء وقعت يده على يده ، فتبكتهن بالحجة، وقد كان ذلك كما قال تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ اى أعظمنَه ، وهبن حسنه الفائق ، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ اى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ،تريد : جرحتها ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفًا ، وبها قرأ أبو عمرو في الدرج ، أى تنزيهًا له سبحانه عن صفات النقص والعجز ، وتعجبًا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز فى الطباع ألا أحسن من الملك ، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان . ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن والقبح ، بهما .
[تفسير القاسمى : ٩/ ٣٥٣٥ ، ٣٥٣٦]

الشئ الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة ، فالإنسان إذا جلس للحظات لا يحتاج إلى متكأ، أما إذا كان سيجلس ويمكث ساعات، فهو يريد أن يتكئ حتى يكون جلوسه مريحًا ، ولذلك يأتى ببعض الحشايا والنمارق والأشياء الطرية التى يستطيع أن يستند عليها . وهذا دليل على أن الجلسة ستطول ، ولذلك يعطى الضيف شيئًا يتكئ عليه؛ ليستريح أو يجلس على راحته ؛ لأن الجلسة ستمتد .

الحق سبحانه يقول : ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١] ومعنى ذلك أن امرأة العزيز خططت أن ترد على المكر بمكر أشد فأعطت كل واحدة من الجالسات سكينًا،ومادامت السكين أعطيت للنسوة،فلابد من مبرر لاستخدام السكين لابد من شئ سيقطع بالسكين،سواء كان هذا طعامًا أو فاكهة أو أى شئ آخر .

المهم فى هذا كله أن الإنسان حين يستخدم السكين لابد أن يكون منتبهًا إلى ما يفعل، لأنه لو ضاع انتباهه أو انتقل إلى شئ آخر فستقطع السكين يده ، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز، أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة ؛ فيقطعن أيديهن(١) ، ولذلك قالت ليوسف : ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] يقال أكبرت الشئ بأن تكون قد تخيلته قبل أن تراه على صورته ، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيرًا من التخيل، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة، ثم

---

(١) فى حديث الإسراء الطويل الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « . . . ثم عرج بى إلى السماء الثالثة . فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال: محمد ﷺ . قيل : وقد بعث إليه؟ . قال: قد بعث إليه . ففتح لنا . فإذا أنا بيوسف ﷺ . إذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير . . . » . أخرجه مسلم [١٦٢] .

وجدت آية من آيات الجمال التى خلقها الله ؛ ولذلك يقول الشاعر :

كادت مساءلة الركبان تخبرنـــــى عن جعفر بن حبيب أصدق الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعــت أذنى بأطيب مما قد رأى بصـــرى

وهناك من تسمع عنه كلامًا حسنًا حتى إذا رأيته أنكرت ما قيل عنه؛ لأنك تجده غاية فى القبح ، لذلك يقولون فى المثل: سماعك بالمعيدى خير من أن تراه [1] . يعنى ياليتك سمعت عنه ولم تره ؛لأنك لو رأيته لوجدت صورة قبيحة لسماع حسن.

عندما قالت النسوة على امرأة العزيز أنها تراود فتاها، فإنهن تخيلن هذا الفتى على أساس أنه حسن المنظر أو جميل ، وإلا فإن امرأة العزيز لا يمكن أن تراود إنسانًا قبيحًا عن نفسه، ولا أن تعشقه ، لابد أن يكون شيئًا خارقًا للعادة جعل هذه المرأة تخرج عن وقارها وعن احترامها؛ لتراود مملوكًا لها عن نفسه ، ولذلك كانت الصورة بالنسبة للنسوة اللاتى تحدثن أن يوسف جماله غير عادى، وإلا لما استطاع أن يشد انتباه امرأة العزيز فتعشقه، ولذلك عندما جلسن عند امرأة العزيز: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ توقعن أن يرين فتى جماله أخاذ غير عادى، ولكن التوقع كان شيئًا ، وما رأين من جمال يوسف وإشراقه كان شيئًا آخر تمامًا ، لقد فاقت الحقيقة كل توقعاتهن ؛ ولذلك ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أى وجدن صورته فوق كل تخيل ، بحيث أصابتهن حالة من الانبهار والذهول مما رأين أمامهن ، ذهول من المفاجأة التى لم تكن متوقعة، تجعلك لا تلتفت إلى ما فى يدك ، بل تنشغل كل حواسك وعقلك بما رأيت ؛ ولذلك حدث لهن ذهول فنسين

(١) قال أبو هلال العسكرى : أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .
والمثل لشقة بن ضمرة، والمعيدى: تصغير معدى ، وقال بعضهم : هو منسوب إلى معيد ، وهو اسم قبيلة . [جمهرة الأمثال : ١/٢٦٦]

أن فى أيديهن سكاكين يقطعن بها الطعام ،فقطعن أيديهن بدلاً من أن يقطعن الطعام .

وهذا تصوير واقعى يوضح لنا درجة الذهول التى أصابت النسوة ، لقد نسين كل شئ حتى أيديهن والسكاكين تقطعها، لم يجعلهن هذا يفقن، بل كان الذهول أكبر من الألم فاستمر التقطيع دون أن يدرين .

القرآن يصور لنا هذا فيقول : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: ٣١] كلمة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيه لله ، التنزيه هنا ؛ لأن الله وحده القادر على أن يخلق مثل هذا الجمال الذى يُذهب العقول ، أو أن يوسف منزه أن يكون قد حدث بينه وبين امرأة العزيز شئ ، وهذه الشهادة ليست شهادة تثبت أن امرأة العزيز كانت امرأة قبيحة ، ولكنها تنزيه أن يخلق الله مثل هذا الجمال الأخاذ فى يوسف ، ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه .

وقولهن : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال فى البشر، فهو صورة أرقى من الإنسان الذى يرونه كل يوم ، فكأنهن قلن لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم ، لابد أن يكون هذا ملكًا . ولكن هل رأين ملكًا حتى يحكمن على يوسف أنه ملك ؟ نقول لا ، ولكنهن تخيلن الملك فى أبدع صورة.

فلما رأين جمال يوسف يتخطى صورة الإنسان قلن: لابد أن يكون هذا ملكًا كنوع من التخيل ، فالإنسان عندما يرى بشرًا فيه من صفات الجمال، والكمال الكثير، فإنه يقول هذا ليس إنسانًا هذا ملك؛ لأن الإنسان فى حكمه على الأشياء يتخيلها بالحكم الذى يناسب طبيعتها ، فأنت مثلاً حين تريد أن ترسم صورة للشيطان، أنت لم تر الشيطان ،

ولكنك تتخيل أبشع القبح الذى يمكن أن يكون موجودًا فى مخلوق من مخلوقات الله، فترسمه فى صورة الشيطان لتكون صورة ناطقة بالبشاعة والقبح.

وإذا قيل لك تخيل ملاكًا ،فإنك تتخيل كل صفات الخير والجمال والكمال فترسمها ، وتحاول أن تعبر عنها، بحيث إن الناظر إلى هذه الصورة عندما يقع بصره عليها، تعطيه صفات الخير والجمال كله، حسب قدرة البشر على التعبير . والله سبحانه وتعالى حين يخلق شيئًا جميلاً، يجعل هذا الشئ يقذف معايير الجمال فى النفس البشرية على قدر قدرة الإنسان على التقبل، فيجمع معظم الناس على الجمال كما يجمعون على القبح . والله رحمة منه بالنفس الإنسانية، تجد أنه يخاطب فيها ملكات تعطيها السعادة التى تقدر على استيعابها.

فتجد مثلاً خادمًا يعمل فى بيت فيه فتيات جميلات ، ولكن لا يلفت نظره فى هذا البيت إلا الخادمة التى تعمل معه؛ فيحس بجمالها وحدها، كل هذا لكى تتزن الأمور، فلا يتعلق الخادم بما يصعبَ عليه أن يناله ، وقد تخطب الفتاة ثم لا يعجبها خطيبها، ويتقدم لخطبتها من هو أقل من خطيبها الذى رفضته مالاً ومركزًا وجمالاً فيعجبها وتتزوجه . إذن فالله برحمته وضع فى كل إنسان لقطة من الجمال ، أو لقطة من الانسجام لا يعرف سر تكوينها إلا خالقها ، وساعة يريد له أو لها القبول تبرز هذه اللقطة من الجمال أو الانسجام، فتخاطب ملكات خفية فى النفس البشرية فيحدث القبول ، ولكنه قبول مختلف؛ لأنه قد يعجب هذه ولا يعجب هذه وهى قد تعجب هذا ولا تعجب هذا .

ولكن قول نساء المدينة فى يوسف : ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أن الله تبارك وتعالى وضع فيه كل اللقطات ؛ لذا جذبهن جميعًا،

فلم تشذ واحدة ولم يختلفن فى الرأى، كلهن قلن: ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أنه جذبهن بالإجماع ،أو أن الله سبحانه وتعالى وضع فيه من صفات الجمال، ما يجعله محبباً إلى القلوب جميعًا ، وهذا من عظيم قدرة الله فى نبيه يوسف عليه السلام .

إذن فقولهن : ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. يعنى أنه فى صورة جمالية عليا لا توجد فى الإنسان ، وطبعًا لا توجد فى الشيطان؛ لأن الشيطان يمثل الصورة القبيحة ،ولا يراها الإنسان حتى فى أحلامه.

والله تبارك وتعالى يعطى صور الجمال وصور القبح بما يشاء ؛ ولذلك عندما قال فى القرآن الكريم عن شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى جهنم، أراد الله سبحانه وتعالى أن يشعرنا بالقبح فيها، فقال : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ ، وفى سورة الصافات يقول الحق سبحانه عن شجرة الزقوم : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥] .

نحن نعرف أن التشبيه يأتى فى اللغة،ليشبه لك شيئًا مجهولاً بشئ معلوم، ولكننا لم نر الشياطين ولا شجرة الزقوم ، فكأن الله سبحانه شبه لنا مجهولاً بمجهول .

لماذا ؟ لأنك لو أتيت بكل الرسامين فى العالم، ليرسموا لك صورة الشيطان ، فإن كل واحد منهم سيرسم صورة مختلفة، تمثل البشاعة والقبح فى نفسه ، ولو رسموا مليون صورة للشيطان، فلن تجد صورة تلتقى مع الأخرى؛ لأن كل واحد يتصور البشاعة بشكل مختلف ، ولو أن الله شبه طلع شجرة الزقوم بشئ بشع محدد لكانت البشاعة على لون واحد، فتكون بشعة عند بعض الناس وعند الآخرين لا، والله تبارك وتعالى

أشاع البشاعة فى شجرة الزقوم ؛ فشبهها برءوس الشياطين ، كما الجمال فى يوسف؛ فشُبِّه بالملك الكريم ونحن لم نر الملك؛ لذلك سيرسم كل منا فى مخيلته قمة الجمال والانسجام والحب كما يراه ، ويصبح يوسف صورة للجمال المتعدد الذى يحتوى على كل شئ جميل، هكذا رأته نساء المدينة، كل واحدة رأت فيه جمالاً مختلفًا عن الأخرى فصحن : ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ووجدت امرأة العزيز الفرصة؛ لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن، فقالت كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أى فذلك الذى وجهتن إلىّ اللوم أننى راودته عن نفسه ، وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن .

قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُنَّ ﴾ «ذا» إشارة ليوسف و « لكنَّ » خطاب للنساء ، الناس لا يفرقون بين لفظ الإشارة ولفظ الخطاب ، لكن الإشارة شئ والخطاب شئ آخر ، و«ذا» إشارة للمخاطب ، نقول: ذلك فلان، ولكن عندما تشير إلى ذكر. وتخاطب أنثى تقول: ذلكِ ، «ذا» تشير للذكر و « كِ » تخاطب الأنثى، فإذا كنت تخاطب اثنتين تقول ذلكما ، وتخاطب جماعة تقول :ذلكن .

يقول الحق فى القرآن الكريم حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ هنا لابد أن نلتفت إلى أن امرأة العزيز بعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها، وتقول: إن يوسف هو الذى راودها عن نفسها، اعترفت بالحقيقة لماذا؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى وضع الاستنكار، ولكن بين النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وقلن هذا ملك كريم، وجدت المبرر لفعلتها ، ولم تجد استنكاراً من النساء ، بل أكثر من الإعجاب فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأنها لم تسمع لومًا يقول:

كيف تراودينه ولماذا تفعلين ذلك ؟ أمام الانبهار الذى استقبلت به النسوة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة ، كلمة « استعصم» تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس ، فهل وجد يوسف مشقة ؟ نقول إن الله تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة ، وأنه لم يمنعه إلا الإيمان(1) ؛ ولذلك جاهد نفسه ليمنعها ، ولو أن المسألة مرت هكذا لقالوا: إن يوسف ليس له فى النساء، وهى مثل : ﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ التى تحدثنا عنها فيما سبق (2).

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود، فقالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢] هنا امرأة العزيز

---

(1) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل . وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد. ورجلان تحابا فى الله ،اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل طلبته ذات منصب وجمال ، فقال: إنى أخاف الله . ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه ». أخرجه البخارى [٦٦٠] ، ومسلم [١٠٣١] .

قوله ﷺ : « ورجل دعته امرأة » قال القاضى : يحتمل قوله : « أخاف الله » باللسان . ويحتمل قوله فى قلبه ليزجر نفسه . وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها وهى جامعة للمنصب والجمال ، لا سيما وهى داعية إلى نفسها طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها. فالصبر عنها لخوف الله تعالى، وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله فى ظله . وذات المنصب هى : ذات الحسب والنسب الشريف . ومعنى دعته أى: إلى الزنا بها . هذا هو الصواب فى معناه. [شرح النووى على مسلم ٤/ ١٣٢]

(2) راجع صفحه [٩٦١] من هذا الكتاب .

تخلت عن حيائها وتحفظها تمامًا ، وهذا لا يحدث إلا فى مجالس النساء، ذلك أنه عندما يكون هناك رجل فى المجلس، يكون هناك بعض الحياء، فكأنها بعد أن رأت أن النساء رأينه وأكبرنه ، قالت : لئن لم يفعل ما آمره به فسأسجنه وأجعله من الصاغرين ، وصاغر ليس معناها أنه صغير ، ولكن صغر يصغر معناها أنه صار ذليلاً مهانًا (١) . فهى توجه كلامها للنساء أنتن أكبرتن يوسف، وأنا سأجعله ذليلاً مهانًا إذا لم يفعل ما آمره به أى: إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه ! .

ولكن لماذا قالت ستسجنه وتجعله ذليلاً ، ولم تقل إنها ستطرده مثلاً أو تبيعه لغيرها ؟ لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر ،وأنه لن يراه أحد إلا هى ، فلو أنها قالت ستطرده أو تبيعه

---

(١) الصَّغار : بالفتح : الذل والضيم ، وكذلك الصُّغر بالضم ، والمصدر الصَّغَر بالتحريك الليث: يُقال صَغِر فلان يصغر صغرًا وصَغارًا ، فهو صاغر إذا رضى بالضيم وأقر به . قال الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: أذلاء .

وقوله عز وجل: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أى : هم وإن كانوا أكابر فى الدنيا فسيصيبهم صغار عند الله ، أى : مذلة . والصَّاغر : الراضى بالذل والضيم والجمع : صَغَرَةُ : وتصاغرت إليه نفسه : صغرت وتحاقرت ذلاً ومهانة . وفى الحديث: إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب»(١) ، يعنى : الشيطان، أى ذل وامَّحَقَ ، قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون من الصغر والصغار ، وهو الذل والهوان . [لسان العرب : ٤/٤٥٩]

---

(١) عن أبى المليح عن رجل ، قال : كنت رديف النبى ﷺ ، فعثرت دابته ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال : « لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت ذلك ، تعاظم حتى يكون مثل البيت ، ويقول : بقوتى ، ولكن قل : بسم الله ، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب » . أخرجه أبو داود [٤٩٨٢] ، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٤١٦٨] : صحيح .

لسارعن لشرائه وأخذه .

يوسف لم يجد فى هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات، إلا أن يستغيث بالله ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾(١) [يوسف: ٣٣] نلاحظ

---

(١) قال ابن تيمية : وفى قول يوسف : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ عبرتان :

إحداهما : اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصى .

والثانية : طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين.

ففى هذا توكل على الله واستعانة به، أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء ، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة .

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لما قال فرعون : ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وكذلك قوله : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو نظير قوله : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ : وقوله : ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

فلابد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام : اتقى الله بالعفة عن الفاحشة ، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس ، واستعان الله ودعاه ؛ حتى يثبته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس . وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ

هنا ؟ أنه قال مما يدعوننى إليه مع أن امرأة العزيز هى التى قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ فما دخل الباقيات؟ يبدو أنهن عندما رأين

جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ فإنه لابد من أذى لكل من كان فى الدنيا ، فإن لم يصبر على الأذى فى طاعة الله ، بل اختار المعصية ، كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ ومن احتمل الهوان والأذى فى طاعة الله على الكرامة والعز فى معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين ، كانت العاقبة له فى الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسروراً ، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنًا وثبورًا .

فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذا أطاع الله بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز، وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة ، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة ، وزوجها فى طاعتها ، فاختار يوسف الذل والحبس ، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة ، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية . بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق ، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه ، فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك . وقد قيل : إنها قالت لزوجها إنه هتك عرضى، لم يمكنها أن تقول له راودنى ، فإن زوجها قد عرف القصة ، بل كذبت عليه كذبة تروج على زوجها ، وهو أنه قد هتك عرضها بإشاعة فعلها ، وكانت كاذبة على يوسف لم يذكر عنها شيئًا ، بل كذبت أولاً وآخراً كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة ، وكذبت عليه بأنه أشاعها ، وهى التى طالبت وأشاعت ، فإنها قالت للنسوة : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ، فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها . =

يوسف، أشرن إليه ببعض أنواع الإشارات التى يفهم منها أنهن يراودنه عن نفسه، أو صدر منهن كلام بذلك لم تأت به الآية الكريمة، وإلا فلماذا كان الخطاب بالجمع هنا؟ إنهن ساعة رأينه نسين أنفسهن وسط الانفعالات والذهول ، فكما قطعن أيديهن دون أن يدرين، صدرت منهن إشارات أو إيماءات أو تعبير بالوجه دون أن يدرين .

فكل واحدة نظرت إليه نظرة تستميله إليها فعرف ماذا يردن ، فسواء راودنه بالكلمة أو بالإشارة أو بأى طريقة أخرى ، فإنه استعاذ بالله منهن جميعًا .

وحينما كان الشاعر أبو دلامة [1] جالسًا مع الخليفة وحوله أعيان

= والنساء أعظم إخبارًا بمثل ذلك ، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن فى المدينة : ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها ؟ وقد قيل : إنهن أعنها على المراودة ، وعذلته على الامتناع ، ويدل على ذلك قوله ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وقوله : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فدل على أن هناك كيداً منهن وقد قال لهن الملك : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فهن لم يراودنه لأنفسهن ، إذ كان ذلك غير ممكن ،وهو عند المرأة فى بيتها وتحت حجرها ، لكن قد يكن أعنَّ المرأة على مطلوبها .

[التفسير الكبير : ٥/ ٧٢ ـ ٧٥]

(١) هو زيد بن الجون . كان شاعرًا ظريفًا ، وقيل : أظرف الظرفاء ، وكان مشهورًا بهجاء الذات والأقرباء .

اشتهر بكتبه « أبو دلامة » . ولد فى أواخر القرن الهجرى الأول . وقيل : فى أوائل القرن الهجرى الثانى . أختلف فى نشأته ، وأغلب الظن أنه نشأ فى بادية الكوفة . وكان عبدًا أسود حبشيًا ، صاحب نوادر وفصاحة ، وبديهة وأخبار وأدب . توفى سنة ١٦١ هـ الموافقة لسنة ٧٧٨ م .

الدولة، وأراد الخليفة أن يداعب رجال الدولة ويداعب أبا دلامة، قال له: عزمت عليك إلا هجوت واحدا منهم، أى اهج واحدًا من الجالسين فنظر له الجالسون وكل واحد أشار بإشارة ، معناها: لا تهجنى ولك الأجر الجزيل ، وأراد أبو دلامة- وكان طماعًا- أن يأخذ من الكل، فقال أهجو نفسى ، وهجا نفسه فأرضى الأمير، وأرضى كل الجالسين حينما قال :

ألا أبلغ إليك أبا دلامـــــة   فليس من الكرام ولا كرامــة

إذا لبس العمامة كـــان قردًا   وخنزيرًا إذا خلـــع العمامــة [1]

يوسف يناجى ربه قائلاً : ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كأن يوسف قال يا رب إن السجن أحب إلى نفسى من معصيتك .

نلاحظ هنا أن يوسف كان يقول ربى ولا يقول إلهى؛ لأن الألوهية منطق التكليف ، وهو لم يكلف بالرسالة بعد ، ولكن «الله» الرب الذى ربَّاه وتعهده، لن يتخلى عنه فى هذا الوقت العصيب، فدعا الله باسم الربوبية : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة ؛ ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة؛ لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن ، ويقيه مما يردن منه، سيميل إليهن فى هذه الحالة ويكون من الجاهلين .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد بشرية يوسف وفحولته ، وأنه أعرض عن هؤلاء النسوة؛ لأنه وضع منهج الله أمام عينيه، فلو أنه مال إليهن لكان من الجاهلين لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة سيخسر كل شئ ، سيخسر

(١) البيتان مطلع قصيدة أنشدها عند الخليفة المهدى .   [ديوان أبى دلامة]

دنياه وآخرته ، الله تبارك وتعالى استجاب له؛ لأنه لجأ إليه ، ولجأ إليه مضطرًا ؛ لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف الله سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أنه يقع فيما لا رغبة له فيه .

ولأن يوسف دعا الله مخلصًا من قلبه في ساعة اضطرار ، استجاب له ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]. أي أن الله سبحانه وتعالى يسمع ويعلم ويرى[1]، ويوسف اتجه إليه سبحانه مخلصًا، فأخذ الله بيده ونجاه من كيد النسوة ، وهو سميع لما يقول عليم بحاله .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿إنه هو السميع العليم﴾ : تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه ، أي : إنه هو السميع لدعوات الداعين له ، العليم بأحوال الملتجئين إليه . [فتح القدير : ٣/٢٦]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

❋ سجن يوسف ❋

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] قوله تعالى ثم بدا لهم، أى عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف، تآمرن عليه ليدخل السجن ، وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس النسوة .

ألم تقل امرأة العزيز: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ . إذن فالسجن استبقاء للحب لم يقلن اقتلوه لماذا ؟ لأنه كان لديهم أمل فى أن تقييد حركته فى السجن، سيجعله يفكر فى أن يقبل ما سبق أن رفضه، وربما الذل الذى سيراه فى السجن بعد العز الذى كان يعيشه فى قصر العزيز يلينّ من عناده .

ولذلك وضعوه فى السجن وتركوه سنين؛ عله بالإهانة التى سيلقاها وهو سجين يفيق ، والسجن موجود فى كل الدنيا؛ يوضع فيه المسجونون ويقيد حركتهم ؛ ليمنع شرورهم عن المجتمع .

السجون الآن تأخذ المسجون وتعزله عن المجتمع ، ثم يذهب الناس لزيارته ويحملون إليه الطعام والشراب .وفى صدر الإسلام حكم رسول الله ﷺ فى أمر الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ، بأن عزلهم فلم يكلمهم أحد، حتى نساؤهم رفضن أن يقربوهن(١) .

---

(١) قال تعالى : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨] .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : سمعت أبى كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط غير غزوتين : غزوة العسرة وغزوة بدر . قال : فأجمعتُ صدق رسول الله ﷺ ضحى ، وكان قلما يقدم من سفر سافره إلا ضحى ، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النبى ﷺ عن كلامى وكلام صاحبىَّ . ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبثت كذلك حتى طال علىّ الأمر ، وما من شىء أهم إلى من أن أموت فلا يصلى علىّ النبى ﷺ ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمنى أحد منهم ولا يصلى علىّ ، فأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ ، حين بقى الثلث الآخر من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة فى شانى ، معنية فى أمرى. فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة تيب على كعب». قالت:أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ . قال : «إذًا يحطمكم الناس ، فيمنعونكم النوم سائر الليلة» حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا .

الحديث بطوله . أخرجه البخارى [٤٦٧٧] واللفظ له ومسلم [٢٧٦٩] .

❋ ودخل معه السجن فتيان ❋

ثم تنتقل اللقطة إلى يوسف وهو فى السجن ، والسجن عالم آخر ، الله سبحانه يقول : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف : ٣٦] وفى السجن تقترب النفوس من بعضها ، دخل مع يوسف السجن رئيس الخبازين ورئيس السقاة،كانا يعملان فى قصر الملك ، وكانت تهمتهما أن الخباز كان قد تآمر على الملك، والساقى كان سيضع له السم فى الشراب . الخباز والساقى قد رأى كل منهما رؤيا[1]، وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما لابد

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ، وقولهم : الفُتُوّ شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطيف به ، هذا جزاء من يعصى سيدته، وهو يقول : هذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران ، وسرابيل القَطِران ، وشراب الحميم ، وأكل الزّقوم. فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ، فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا ، فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف بن صفىّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق (*) ، ابن خليل الله إبراهيم .
وقال ابن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبرانى قد فضحنى ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه فى السجن ، فكان يُعزّى فيه الحزين، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله ، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب وطهر به السجن ، واستأنس به أهل السجن ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع ؛ حتى يجلس فى السجن مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ثم قال له: يا يوسف ! لقد أحببتك حبًا لم أحبّ شيئًا حبك ، فقال : =

(*) هذا خطأ فاحش فالذبيح إسماعيل وليس إسحاق عليهما السلام .

= أعوذ بالله من حبك ، قال ولمَ ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى ، فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمّر فيهم فملّوه ، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعا ، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشّراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف ، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وقد قيل : إن الخباز وضع السم فى الطعام ، فلما حضر الطعام قال السّاقى : أيها الملك ! لا تأكل فإن الطعام مسموم . وقال الخبّاز : أيها الملك لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ؛ فقال الملك للساقى : اشربْ ! فشرب فلم يضره وقال للخباز : كُلْ ، فأبى ، فجرب الطعام على حيوان فنفق مكانه ، فحبسهما سنة وبقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف . واسم الساقى منجا، والآخر مجلث ؛ ذكره الثعلبىّ عن كعب . وقال النقاش : اسم أحدهما شرهم ، والآخر سرهم، الأوّل بالشين المعجمة ، والآخر بالسين المهملة .

وقال الطّبرىّ : الذى رأى أنه يعصر خمرًا هو نبو ، قال السّهيلى : وذكر اسم الآخر ولم أقيده .

وقال : ﴿فَتَيَانِ﴾ لأنهما كانا عبدين، والعبد يسّمى فتى ، صغيرًا كان أو كبيرًا ، ذكره الماوردى .

وقال القُشَيرىّ : ولعلّ الفتى كان اسما للعبد فى عرفهم ؛ ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ . ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا . ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله ، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه .

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أى عنبا ؛ كان يوسف قال لأهل السجن : إنى أعبر الأحلام ؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرّب هذا العبد العبرانى فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا ، قاله ابن مسعود ، وحكى الطّبرىّ أنهما سألاه عن علمه فقال : إنى أعبّر الرؤيا ؛ فسألاه عن رؤياهما . قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ؛ ولذلك صدق تأويلها . =

= وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا »(١)
وقيل إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ، وهذا قول ابن مسعود والسدّى .
وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا، والآخر صادقا قاله أبو مِجْلَز .
وروى الترمذىّ عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « من تَحلَّمَ كاذبًا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين ولن يَعقِد بينهما »(٢). قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.
وعن علىّ عن النبى ﷺ قال: « من كذب فى حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة»(٣) قال : حديث حسن .
قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ، فقال لهما يوسف : مالى أراكما مكروبين؟ قالا : يا سيدنا إنا رأينا ما كرهنا ، قال : فقُصّا علىّ ، فقصّا عليه ؛ قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا، وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزّى الحزانى ، قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له ، وقيل: ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق : ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لنا إن فَسّرته ، كما يقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأيتما ؟ قال الخبّاز : رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير(٤) ، وجعلته فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى فجاء الطير فأكل منه .
وقال الآخر : رأيت كأنى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن فى ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى ، فذلك قوله : ﴿إنى أرانى

(١)جزء من حديث أخرجه مسلم بطوله [٢٢٦٣] عن أبى هريرة .
(٢) أخرجه الترمذى [٢٢٨٣] ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٨٦١] : صحيح .
(٣) أخرجه الترمذى [٢٢٨١] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٨٦٠] : صحيح.
(٤) التّنور : نوع من الكوانين . الجوهرى : التنور الذى يُخبز فيه . والتنور الذى يُخير فيه ، هو فى جميع اللغات كذلك . وقال أحمد بن يحيى : التنور : تفعول من النار. وصاحبه تنّار .
[لسان العرب : ٤/ ٩٥]

﴿ أعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنبا ، بلغة عُمان، قال الضّحاك. وقرأ ابن مسعود : « إنّى أرانى أعْصِرُ عِنَبًا » .

وقال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب، فقال له : ما معك؟ قال : خمر. وقيل: معنى ﴿ أعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنب خمر ، فحذف المضاف .

ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . قال لهما يوسف ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعنى لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ، وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف ، وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم؛ لأنه ترك ملّة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك .

ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ؛ ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] الآية كلها ، على ما يأتى .

وقيل : علم أن أحدهما مقتول؛ فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به .

وقيل : إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه؛ لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ فى غيره فقال : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ فى النوم ﴿ إلا نَبَّأْتُكُمَا ﴾ بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدىّ ، فقالا له : هذا من فعل العرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهُّنا وتنجيما ، بل هو بوحى من الله عزّ وجلّ .

وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان، صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ، فعلى هذا ﴿ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أن يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله .

قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

[تفسير القرطبى : ٩/١٨٨ ـ ١٩١]

قد مكثا مع يوسف فترة طويلة لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لابد من طول العشرة الذى جعلهما يلجآن إلى يوسف فى كل أمر يهمهما؛ لأنهما رأيا فى يوسف الإنسان السوى حسن الخلق .

الله جل جلاله يقول : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كل منهما رأى حلمًا ، أحدهما رأى أنه يعصر خمرًا ، والثانى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، فكأن الاثنين قد عرفا أن يوسف يقوم بتأويل الأحلام وبأنه صادق فيما يقول ، وسواء جربا ذلك على نفسيهما أو حدث ذلك بالنسبة لمسجونين آخرين ، فإنهما قد تأكدا من علم يوسف بتأويل الأحلام، وأنه صادق فى تأويله.

قولهما : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هى سبب سؤالهما له فى الرؤيا التى رأياها، ولذلك لابد أن يسبق سؤالهما أن هناك أشياء صدرت منه ، بينت أنه من المحسنين.

كما أن قولهما : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أن الإحسان ظاهر فى يوسف عليه السلام ، أى أنهما ليسا محتاجين لتتبع عمله؛ لأن كل ما يعمله يوسف هو فى مقام الإحسان ، فكأنما المسألة واضحة كرؤية العين لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر ، وكل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا ،يعرف الإحسان ويعرف السوء .

ولكن كل واحد ينظر إلى الإحسان من مفهومه الخاص، وإلى السوء من مفهومه الخاص ، ولو أنهم نظروا إلى حركة الكون، وإلى ما يتعلق بهم وبغيرهم، لعرفوا الإحسان والسوء ، فالذى يسرق مثلا يعتبر من

السوء أن يسرق غيره ؛ ولذلك عندما كان الأمر يتعلق بغيره كأن يسرق أموال غيره، اعتبره شيئًا حسنًا، ولكن عندما يسرقه غيره يعتبر هذا سوءًا، وهكذا ؛ فإن نظرة بعض الناس الضيقة تجعلهم يغفلون عن مقام الإحسان، ولكن إذا نظر الإنسان بمقاييس المجتمع والخلق، فإنه يعرف جيدًا ما هو الإحسان وما هو السوء . قد يمد الرجل نظره إلى زوجات غيره ، هذا فى نظره ليس سوءًا، ولكن إذا أرد أن يعرف الحقيقة فعليه أن يعكس الصورة، بأن غيره يوجه بصره إلى زوجته ، فى هذا الوقت يعتدل الميزان ويحس بالسوء .

فإذا أردت اعتدال ميزانك فى الدنيا، فانظر إلى الفعل يقع منك وعليك ستجد الميزان منضبطًا .

إنما لو نظرت للفعل يقع منك اختل الميزان ؛ لأن الله حرم عليك أن تسرق مال غيرك، تقول إن الله ضيق حريتى ، نقول لك : ولكنه ضيق أيضًا حرية ملايين الناس فى أن يسرقوا مالك . فأيهما أربح لك ؟ .

ولذلك فالذى يعرف مقام الإحسان[1] ، لا يفصل بين الفعل الواقع منه والفعل الواقع عليه ، بل ينظر إليهما معًا، فإذا استقبحه من الغير عليه، يكون قبيحًا منه على غيره ؛ ولذلك عندما قال السجينان ليوسف: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلأنهما علما أن مقاييس الإحسان عند يوسف سليمة ، ولذلك جاءوا إليه فى الأمر الذى يهمهما.

ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وملتزم ، ورأى مَنْ أكبر هذه الخصلة فيه ، فلابد أن هذين الشخصين عندهما بداية إيمان وإحسان ، ولذلك قرر قبل أن يعطيهما حاجتهما أن يأخذ حاجته منهما أولاً .

---

(١) الإحسان هو : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . جزء من حديث طويل أخرجه البخارى [٥٠] ، ومسلم [٩]. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

نلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التى رآها السجينان ، لقد أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم، دون أن يجيبهما على ما سألاه؛ لأنه لو أجابهما أولاً؛ لانصرفت آذانهما عن الانتباه إلى ما يقوله، من ترغيب فى الإيمان وتنفير من الكفر ، ولكنه حين يؤخر إجابتهما عما يطلبان، فإنهما ينتبهان إلى ما يقول ويتوقعان فى كل دقيقة أنه سيجيبهما على ما طلباه ، فينصتان باهتمام شديد ، فيعطيهما طريق الإيمان .

وهكذا كان يوسف حريصًا على أن يأخذ حاجته منهما، قبل أن يجيبهما إلى طلبهما، ويقول لهما ما يريد أولاً، ويكون بذلك قد شغلهما بشئ أنفع لهما ، وخير مما يسألان عنه؛ لأن هذا تذكير بالمنهج ، أما الجواب فهو جزئية صغيرة فى حياتهما .

وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف: ٣٧] وكأنه يقول لهما إنه يعلم أشياء كثيرة غير التى يشاهدها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية، فقال: إن هذه ليست من عندى ولا خصوصية لى؛ لأن هذه علمها لى ربى، وربى لم يعلمها لى وحدى، وإنما علمنى وعلم غيرى، فهو يُعَلِّم كل من يتجه إليه ، ويشرح صدره، وكان قول يوسف لهم : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

ولقد قال لهما يوسف من قبل : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ إن يوسف الصديق وهو يخبر صاحبى السجن بما عنده من علم إنما ينسبه إلى صاحب كل علم ، العليم سبحانه : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .

يوسف عليه السلام يريد أن يلفت السجينين إلى الطريق إلى الله، فيقول ما تريانه مما علمنى ربى؛ لأنى تركت ملة من لا يؤمنون بالله، واتبعت ملة آبائى المؤمنين الموحدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وهذه تدلنا على أن الإنسان إذا رأى فى إنسان آخر خصلة خير، فإن عليه أن ينمى هذه الخصلة ، ويأخذ صاحبها إلى الطريق الصحيح ، ويوسف يريد أن يلفت هذين السجينين، بأنهما لو ابتعدا عن الكفر وعبادة الأصنام، وآمنا بالله وحده، فإن الله يفتح لهما من أبواب رحمته وعلمه.

وكان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١] هذا هو تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف: أحدهما : تظهر براءته ويعود إلى القصر، ويسقى سيده خمرًا . أما الآخر وهو خباز فتثبت عليه التهمة فيصلب، وتأتى الطير لتأكل من رأسه . إذن فالساقى الذى اتهم بأنه سيضع السم للملك فى الشراب ، تظهر براءته ويعيده الملك إلى خدمته .

والثانى : وهو خباز القصر وكان ينوى دس السم للملك فى الخبز، تظهر إدانته فيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وهذا معنى أنه رأى نفسه يحمل خبزًا فوق رأسه تأكل الطير منه .

وقوله تعالى : ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] يعنى انتهينا وقلت لكما الجواب ومعنى تفسير الرؤيين[1] ، وقضى الأمر؛ لأن

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فيه وجهان :
أحدهما : قضى السؤال والجواب.
الثـــانى : سيقضى تأويله ويقع .
فإن قيل: فكيف قطع بتأويل الرؤيا وهو عنده ظن من طريق الاجتهاد الذى لا يقطع=

القاضى ساعة يحكم، يكون ذلك بموضوعية الحكم وليس بالهوى ، فالهوى يلون الحكم؛ ولذلك فإن يوسف ألقى بالحكم على ما رآه السجينان دون أن يلتفت إلى أنه ينذر أحدهما بالموت، قالها دون أى لون من التلوين حقيقة ثابتة، وقالها دون أن يلتفت للعواطف.

ويحكى أن قاضيًا اشتهر بأنه يحب البلح الرطب ، وكان لأحد الناس قضية عنده فعلم ذلك ، فجاء بأول بواكير الرطب، وهو بداية أن يتحول البلح إلى رطب ، ويكون فى هذه الحالة عزيزًا غاليًا، هذا الرجل قد أخذ قدرًا من الرطب ، وذهب إلى بيت القاضى وأعطاه لأحد خدمه ، فلما سأل القاضى؟ من جاء بالرطب ؟ قالوا له: رجل صفته كذا وكذا، فعرف أن لهذا الرجل قضية عنده، فقال: أعيدوا له رطبه ، فردوا الرطب، وذهب القاضى إلى الخليفة، وقال له: اعزلنى فتعجب أمير المؤمنين وقال: كيف أفعل ذلك ؟ فقال له القاضى: يا أمير المؤمنين لقد اشتهر عنى حب الرطب ، وقد جاءنى خادمى ، وقال لى إن أحدًا أحضر لك قدرًا من الرطب ، سألته عن وصفه ، فوصفه لى ، فعلمت أن له عندى قضية ، فرددت له رطبه مخافة أن يؤثر ذلك على ، وذهبت إلى مجلس القضاء فدخل علىَّ الرجل، وخصمه فوالله الذى لا إله إلا هو ما استويا فى نظرى، مع أنى رددت له رطبه . واسمع إلى قوله تعالى فى شأن خصمين بغى بعضهم على بعض، وذهبا لنبى الله داود ليحكم بينهما، قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ

= فيه؟ ففيه وجهان :

أحدهما : يجوز أن يكون قاله عن وحى من الله تعالى .

الثـــانى : لأنه نبى يقطع بتحقيق ما أنطقه الله تعالى وأجراه على لسانه ، بخلاف من ليس بنبى . [تفسير الماوردى : ٣/ ٣٩]

مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ .(١) [ص: ٢١ - ٢٢]

الحق سبحانه وتعالى ذكر لنا هذه القصة؛ ليرينا مدى التأثير على القاضى وما يمكن أن يفعله . فالرجل قال: إن أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ؛ قال ذلك حتى يستميل عواطف القاضى ناحيته، بأنه رجل فقير لا يملك إلا أقل القليل .

إن أخاه له تسع وتسعون نعجة ، هذه لا علاقة لها بموضوع القضية ؛ لأن القضية هى أن الرجل له نعجة واحدة يريد أخوه أن يأخذها منه ، أما إذا كان أخيه عنده تسع وتسعون نعجة أو ليس عنده فلا دخل لها فى وقائع القضية، ولكنها أثرت فى داود، كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾. إذن فاستمالة عواطف القاضى عملية مرفوضة .

---

(١) ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ قال ابن جماعة: هما جبريل وميكائيل عليهم السلام ، أتيا داود فى صورة خصمين يوم عبادته واحتجابه ؛ ليلزماه الحجة فى تزويجه بتشايع بنت شايع زوجة أوريا بن حنانا ، بعد أن كان له تسع وتسعون امرأة . والقصة مشهورة.
[غرر التبيان ٤٤٧]
وقال السيوطى هما ملكان . أخرجه ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعًا بسند ضعيف ، ومن حديث ابن عباس موقوفًا . وسماهما جبريل وميكائيل .
مفحمات الأقران [٩٣] . والقصة ستأتى بتفاصيلها فى قصة نبى الله داود عليه السلام .

* من السجن انطلقت دعوة التوحيد *

الإنسان يحترم الخير بفطرته ، كما أن الإنسان الخائن يحترم الأمين، وهذا الخائن إذا ما أراد أن يأتمن أحدًا على شيء ، فإنه يختار إنسانًا أمينًا . إذن الأمانة والصدق والوفاء، وكل فضيلة هى أمور معترف بها بالفطرة والطبيعة ، وساعة يجد إنسان لم يقو على أن يحمل نفسه على جادة القيم، إنساناً آخر قدر أن يحمل نفسه عليها ، فإن المنحرف يحسده ويحقد عليه [1] ، والمنحرف يحاول أن يعرض بالذى يسير على الجادة ، يحاول أن يأخذ المستقيم إلى الانحراف ؛ حتى لا يكون مكسور النفس أمامهم .

إن المنحرف يحاول أن يجر أصدقاءه إلى ما هو أكثر إنحرافًا مما فعل ، وكل مؤمن يذكر قصة صاحبى يوسف فى السجن. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ :

إن دخول يوسف السجن لم يكن للإنحراف، ولكن رفضًا للإنحراف، ومعه فى السجن قوم دخلوه ؛لأنهم منحرفون؛ لذلك رأوا فيه الإحسان،

---

(١) عن سالم ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل ، وآناء النهار . ورجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » . أخرجه مسلم : [٨١٥].

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها» وقوله هلكته : أى إنفاقه فى الطاعة . أخرجه مسلم [٨١٦] .

ولهذا قالا له : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لقد خطر لهما من سلوك يوسف الصديق الإحسان .

لقد ارتفع فعل وسلوك يوسف الصديق فى نظر المنحرفين، والقيم الرفيعة معروفة حتى عند المنحرف ؛ لذلك عندما جاء أمر يهمهما فى ذواتهما سألا يوسف، ونحن نسمع أن لصا سرق من هنا أو من هناك ، ثم جاء له أمر ليسافر إلى مكان غير مأمون ، فإنه يذهب إلى إنسان يتوسم فيه الأمانة؛ ليضع عنده ما سرقه ، ولا يذهب إلى لص مثله . إذن فالقيم هى القيم؛ لذلك قال السجينان ليوسف: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ واستغل يوسف المسألة؛ ليدلهما على الصواب وكان قوله لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩]. لقد نقلهما من حاجتهما الشخصية إلى قضية التوحيد ، وعبادة الإله الواحد.

إن يوسف الصديق يدعوهما إلى المقارنة، بين الإيمان بالله الواحد وبين التشتت فى العبادة: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ إذن القيم هى القيم .

ثم ينتقل يوسف عليه السلام إلى نقطة أخرى ، يبرأ فيها من عبادة الأصنام التى كانت منتشرة فى تلك الأيام ، وقد كانت كل قبيلة لها صنم تعبده ، فيقول : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨] لأن الله سبحانه وتعالى ليس له شريك فهو إله واحد ، وهذا من رحمة الله علينا، فلو أن هناك آلهة متعددة لتعبنا؛ لأنه سيكون لكل إله أمر ونهى، ولا نعرف من نتبع ، ولكن وحدانية الألوهية لله سبحانه وتعالى رحمة بنا

لابد أن نشكر الله عليها ، وكون الله هدانا إلى منهجه فلا نشرك به ،فهذه منة أخرى لابد أن نشكر الله عليها .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أنه كيف أن قضية الإيمان بإله واحد مريحة للنفس، تأخذها إلى الصراط المستقيم : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى اآلهة متعددة متفرقون فى ذواتهم وفى عطائهم خير أم الله سبحانه وتعالى وحده ؟ وعندما تطرح هذه القضية لابد أن نتساءل: هل تعدد الآلهة التى يدعيها البعض والتى سادت أيام الفراعنة كانت تكرارًا ؟ أى آلهة متعددة، وكلها تشبه بعضها البعض، فى كل واحد منها إله فى ناحية، فهذا إله البحار ، وهذا إله الأنهار ، وهذا إله الخير وهذا إله الشر ، وفى هذه الحالة يكون الإله المختص بناحية من النواحى، ضعيفًا فى باقى النواحى التى لها آلهة أخرى .

إذن فتعدد الآلهة دل على نقصهم ؛ لأنهم ماداموا تفرقوا واختص كل واحد منهم بناحية ، فكأنهم لا يوجد فيهم الكمال الإلهى ، وتحتار أنت تذهب إلى أى إله منهم ! إذن فهم ليسوا خيرًا ؛ لأنهم سيرهقونك ، والحق سبحانه وتعالى حين يضرب لنا المثل على وحدانية الألوهية بالنسبة لعبيده، يقول جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً لعبد مملوك لمجموعة من الرجال، وعبد له سيد واحد ، العبد الذى له عدة أسياد ليسوا متفقين ، بل هم متشاكسون هذا يأمره بشىء وهذا يأمره بضده ، وهو محتار لا يعرف يرضى من ، أو يسمع كلام من ، أو يتبع من ، والعبد الذى له سيد واحد يكون مرتاحًا ؛ لأنه لايوجد إلا واحد هو الذى يقول فيسمع له ،

ويأمر فيطاع [1] .

الله تبارك وتعالى فى قصة يوسف يضرب لنا المثل ، فيقول : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾. هل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين، أم أن تعبدوا إلهًا واحدًا، هو الله سبحانه وتعالى ، فلو أنكم اتبعتم منهج الله؛ لجنبتم أنفسكم كثيرًا من المتاعب فى الدنيا والآخرة .

فيوسف يقول لصاحبى السجن: إن الله علمه ؛ لأنه ترك دين قوم لا يؤمنون بالله ويكفرون بالآخرة ، واتبع دين آبائه إبراهيم وإسحاق

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أى للمشرك والموحد رجلين مملوكين ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيرًا متوزع القلب،لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خلص ملكه له، لا يتجه إلا إلى جهته ، ولا يسير إلا لخدمته ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أى : صفة وحالاً. أى فى حسن الحال، وراحة البال ؟ كلا. وهكذا حال من يثبت آلهة شتى. لا يزال متحيرًا خائفًا لايدرى أيهم يعبد،وعلى ربوبية أيهم يعتمد ، وحال من لم يعبد إلا إلهًا واحدا فهمه واحد . ومقصده واحد .ناعم البال. خافض العيش والحال. والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال أبو السعود : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى، وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى والمشركين مثل السوء ، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته . وقوله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس، وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون فى ورطة الشرك والضلال.

[تفسير القاسمى : ٥١٣٨/١٤ ، ٥١٣٩]

ويعقوب . الذين آمنوا بالله وحده لا يشركون به ، والله وحده هو المعبود بلا شريك ، وهذه العبادة والهداية من الله سبحانه وتعالى، هى من فضل الله على كل من يعبده ؛ لأن الله حين يدلك على منهجه، ويهديك إلى عبادته سبحانه، فهذا فضل من الله عليك ، وهو فضل لا يرتفع إليه فضل آخر ، والله سبحانه أعطى هؤلاء الرسل المنهج؛ ليبلغوه للناس، وهذا فضل آخر على رسله، وعلى الناس أجمعين .

ولذلك كان قول يوسف كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨] ساعة تسمع فى القرآن الكريم كلمة ﴿لا يَشْكُرُونَ﴾ اعلم أن الأمر الذى يدور الحديث عنه ، يستحق بمقاييس العقل السليم ، والفطرة السليمة أن تشكر الله عليه ، وأنت لا تشكر الله إلا على نعمة ، فلو أنك أخذتها بمقاييسك، فلابد أن تشكر الله على أنه بلغ رسله المنهج، وأنه أمرهم أن يبلغوه لك ، فعلمت وعملت فنفعك فى الدنيا والآخرة . وهذه مسألة تستحق منك الشكر لله، أنه أرسل رسلاً وبلغك المنهج .

قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ ﴾ كلمة صاحب معناها ملازمك أو مقيم معك. و ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ نسبت الصحبة لمكان الإقامة؛ لأن الجامع بينهم هو السجن، والذى يجمع فى الصحبة أشياء كثيرة: صحبة سلاح للمجندين معًا ، وصحبة عمل لمن يعملون فى مكان واحد ، وصحبة حج لمن يحجون معًا ، وصحبة دراسة لمن يدرسون معًا .

إذن فالشئ الذى يربط بين الاثنين ويجمعهما يسمى صحبة كذا ، ويمكن أن تنسب الصحبة إلى مكان الإقامة، أو أن تنسب إلى الظرف

الذى جمع الاثنين[1] .

وقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. حين تجد فى القرآن سؤالاً كن على يقين أنه لا يوجد له إلا جواب واحد ، والسؤال يطرح حتى يعترف المسئول بالحقيقة. قطعًا أرباب متفرقون ليسوا خيرًا من الله الواحد الأحد ، ولكن لماذا نسألهم ؟ لأنهم يعبدون آلهة متعددة ، ثم وجدوا أنفسهم محتاجين للعلم والمعرفة ممن يعبد إلهًا واحدًا ، فيسألهم : ألا توحى لكم آلهتكم بشئ ؟ إنهم ليسوا خيرًا ، ولكن الله الواحد القهار هو الخير، يوجه هذا السؤال وهو واثق أن إجابتهم لا يمكن إلا أن تكون : عبادة إله واحد خير وأبقى .

ولكن كيف تأمن خصمك على الجواب الذى سيقوله ؟ لا يحدث ذلك إلا إذا كنت واثقًا أنه سيدير كل الأجوبة فى رأسه ، ولن يجد إلا جوابًا واحدًا هو ما تريده أنت ، كأن يأتى إنسان وينكر معروفك عليه، فتقول له: ألم أصنع معك كذا فى يوم كذا ؟ حينما يراجع نفسه لن يجد جوابًا إلا كلمة نعم، وهذا إقرار منه بالحقيقة . إذن لا يوجد فى القرآن الكريم سؤالا إلا وله جواب واحد ،هذا الجواب هو التسليم بالحقيقة .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ سميتموها أى اتخذتموها أنتم، أى أنتم صنعتم هذا الكفر؛ لأن الاسم يوضع عادة للدلالة على مسمى، نصنع الشئ ثم نجعل له اسمًا ؛ حتى إذا

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبىّ فيه .

[تفسير القاسمى : ٩/٣٥٤١]

وقال القرطبى : أى يا ساكنى السجن ؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه ، كقولك أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . [تفسير القرطبى : ٩/١٩٢]

نطقنا بالاسم نعرف المسمى ، ولذلك عندما يولد مولود يسمى هذا المولود فلانًا، فإذا جاء مولود ثان نسميه اسمًا ثانيًا ، وثالث تجعل له اسمًا ثالثًا ، ومعنى هذا أننا نضع لما هو موجود اسمًا، إذا أطلق انصرف إلى الشخص نفسه ، فإذا قررنا أن نطلق اسمًا واحدًا على أشياء مختلفة، كان لابد أن نفرق بينها بوصف، كأن يكون هناك أب، يريد أن يسمى كل أولاده محمدًا، لابد أن نميز المسمى الواحد، فنقول: محمد الكبير أو محمد الصغير،أو محمد الأول ومحمد الثانى ومحمد الثالث حتى نستطيع أن نميز بينهم .

فالاسم يوضع علمًا على مسمى، إذن لابد أن يوجد المسمى أولاً، ثم نضع له الاسم، فإذا وضع الاسم لغير مسمى أو أن المسمى غير موجود ، يعتبر الإطلاق اسمًا لمسمى زائف لا وجود له .

إذن فهم وضعوا أسماء ولا توجد مسميات؛ ولذلك فى الآخرة يقول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ . [غافر: ٧٣ ، ٧٤] إذن فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق، وهم أطلقوا أسماء على غير مسميات ، وسيظهر ذلك فى يوم المشهد العظيم فى الآخرة ، وهكذا المسمى ليس له وجود فمن أين جئتم بالاسم إلا افتراء على الله ؛ ولذلك يقول : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى : أن يكون كفر تقليد للآباء ، وقوله : ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى : إن الله لم يطلب منكم ذلك ،وليس لكم حجة .

ثم يقول : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . أى لا حكم فى هذا الكون إلا لله ، وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن الله .

والله سبحانه وتعالى وحده له الحكم وله الأمر فى كونه ،وأمره سبحانه وتعالى هو : ﴿ ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ ﴾ أى لا تطيعوا فى أمر أو تنتهوا عن شئ إلا بإذن من الله، والله تبارك وتعالى أمر أن تعبدوه وحده ، ومعنى العبادة هى طاعة مخلوق لخالق أن يفعل وألا يفعل ، فإذا فعلتم ذلك كنتم على: ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾. أى الدين المستقيم ، أى الدين الحق[1]:

---

(١) قال الشيخ الحكمى : بل خلق الله تعالى الخلق؛ ليعبدوه عز وجل بما شرعه على ألسنة رسله، وأنزل به كتبه، ومع عبادتهم إياه لا يشركون بعبادته أحدًا كائنًا من كان، بل بالإلهية يفردوه دون ما سواه ، فمن عبد الله تعالى ألف سنة، ثم أشرك به لحظة من اللحظات ،ومات على ذلك حبط جميع عمله وصار هباءً منثورًا ،حيث أشرك مع الله فى عبادته، من هو مثله مخلوق لعبادة الله عز وجل ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم لعبادتى .

يؤيده قوله عز وجل : ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، إلا ليقرُّوا بعبادتى طوعًا أو كرهًا ، وهذا اختيار ابن جرير .

وقال ابن جريج ومجاهد : إلا ليعرفون ، وقال الربيع بن أنس : أى إلا للعبادة طوعًا أو كرهًا .

وقال السدى : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] فهذا منهم عبادة ولاينفعهم مع الشرك، وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون. ا.هـ من تفسير ابن كثير. وقال الكلبى والضحاك وسفيان : هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين ،يدل عليه قراءة ابن عباس : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس من المسلمينَ إلا لِيَعْبُدُون » ثم قال فى آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] . وقال بعضهم : وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتى ، والأشقياء منهم =

= إلا لمعصيتى . وهذا معنى قول زيد بن أسلم قال : هم على ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة ، وقيل : معناه: إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة: التذلل والانقياد ، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله ومتذلل لمشيئته،ولا يملك أحد لنفسه خروجًا عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولا ضر. وقيل: ﴿إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، إلا ليوحدون . فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء، دون النعمة والرخاء ، بيانه قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.ا.هـ. من تفسير البغوى رحمه الله تعالى .

قلت : وهذه الأقوال فى هذه الآية وإن كانت متقاربة والآية تسع جميعها ، أرجحها الأول وهو قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : إلا لآمرهم وأدعوهم لعبادتى ، يؤيده قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥] الآية وغيرها من الآيات .

ويؤيد ذلك أن الله تبارك وتعالى إنما شاء العبادة من جميع عباده ، وأرادها منهم ، وقضاها عليهم فى الشرع لا فى الكون، فمن أطاع أمره وأتى بما أراده وشاءه منه فله رضاه والجنة ، ومن خالف فى ذلك فله سخطه والنار . ولو شاء الله تعالى من جميعهم العبادة وأرادها فى الكون، لم يكن لهم بد من ذلك، ولم يكن لأحد إلى معصية الله تعالى من سبيل ، ولا يخرج عن قضائه تعالى وقدره شىء من المخلوقات مثقال ذرة، فإنه لا رادٌ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ،ولا مضاد لأمره،ولا ناقض لما أبرمه ، ولا دفاع(١) لما قدره ؛ولذلك قال المفسرون هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] فقال ابن عباس وقتادة والحسن: وأمر ربك. وقال الربيع بن أنس: وأوجب ربك .

وقال مجاهد : وأوصى ربك ، وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك ابن مزاحم: ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. ولو أنه تبارك وتعالى قضى فى الكون أن لا يعبد إلا إياه ، لم يشرك به أحد من خلقه،وإنما قضى ذلك شرعًا ؛ ليبلوكم =

(١) هكذا فى الأصل .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾. لا يريدون أن يعلموا. لا يستمعون لرسول الله، ويلغون فى القرآن، ويشوشون عليه، ويؤذون المؤمنين أو لأنهم رفضوا العلم، رفضوا استقبال رسالة السماء بقلوب صافية ؛ حتى

= أيكم أحسن عملاً ؛ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

وهذه المشيئة منه للعبادة من عباده شرعًا عامة لمؤمنهم وكافرهم ،وأما مشيئته للعبادة الكونية القدرية فخاصة للمؤمنين ؛ فلهذا اتفقت فيهم المشيئتان؛ فوافقوا المشيئة الشرعية لما سبق لهم فى المشيئة القدرية الكونية ، وأما الكافر فلم يوافق المشيئة الشرعية؛ لما سبق عليه فى المشيئة القدرية من الشقاوة . فتبين بهذا أن المشيئة الكونية القدرية لاخروج لأحد منها ، ولا محيد له عنها ، سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة. وأما المشيئة الشرعية فمن كان سبق له فى القدرية أنه يوافقها كان كذلك ، أو يخالفها كان كذلك .

وأما معنى العبادة: فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : العبادة: هى اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج ،وصدق الحديث وأداء الأمانة،وبر الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين،والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم،والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة - يعنى الظاهرة - وكذلك حب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هى من العبادة لله، يعنى الباطنة، وجماع العبادة كمال الحب مع كمال الذل .

[معارج القبول : ١/ ٨٢ ـ ٨٤]

وفى فتح البيان: ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى المستقيم الثابت العدل، الذى تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ﴾ أن ذلك هو دينه القويم ، وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون، وهذا دليل على أن العقوبة تلزم العبد وإن جهل، إذا أمكن له العلم بطريقه.

[فتح البيان : ٦/ ٣٣٩]

تهتدى قلوبهم [1] .

هؤلاء أبلغوا ولكنهم كذبوا ، وصموا آذانهم وانطلقوا إلى شهواتهم .

---

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦] . أى تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن، ولا ينقادوا لأوامره ، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ اى إذا تلى لا تسمعوا له ، كما قال مجاهد : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعنى بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ ، إذا قرأ القرآن ، وكانت قريش تفعله . وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ عيبوه ، وقال قتادة : اجحدوا به وأنكروه وعادوه ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن.

[تفسير ابن كثير : ٤/٩٩ ، ١٠٠]

* اذكرنى عند ربك *

وتتابع حكاية يوسف مع صاحبيه فى السجن، إذ قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ظَن﴾ أى رجح عنده أنه هو الذى سيسقى الملك خمرًا ؛لأن ﴿ظَن﴾ لا تعنى اليقين، ولكنها تعنى الترجيح ، و « الذكر» هو حضور شىء بالبال، يعنى قضية مر عليها وقت ثم تذكرها فجأة . فالإنسان له استقبالات للأحداث ، هذه الاستقبالات لا تبقى فى بؤرة الشعور؛لأن الذهن لا ينشغل إلا بشىء واحد، فإذا شغل بشىء لا يستقبل شيئًا آخر ، ولكن الشىء يرحل من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ ليستقبل أحداثًا أخرى .

فكل خاطر يستقبله ذهنك يبعد عن بؤرة الشعور؛ليأتى خاطر آخر ، ثم يحدث حادث، يجعله يعود من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور؛ لتتذكره وكأنه يحدث أمامك الآن . إذن فقول يوسف ﴿اذْكُرْنِى﴾ أى حرك ما حدث لى إلى بؤرة شعور الملك؛ حتى يعرف أننى مظلوم . وقد قال العلماء عن هذه الجملة: إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين؛ لأن الأنبياء عملهم مع الله مباشرة لا بواسطة الخلق ، وما دام يوسف مستقبلاً عن الله سبحانه وتعالى ، فلابد أن يتجه إلى الله مباشرة ، ولا يطلب الواسطة من بشر؛ ولذلك حينما قال ذلك ، ماذا حدث ؟ : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]

ونسيان ذكر الله فيه شيء من العقوبة وشيء من التأديب[1]، قوله تعالى : ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع من ثلاثة إلى عشرة، وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين .

(١) قال ابن كثير : ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتى عند ربك وهو الملك، فنسى ذلك الموصى، أن يذكِّرَ مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان ؛ لئلا يطلع نبى الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجى ، كما قال مجاهد وغير واحد ، ويقال : إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام ، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضا ، وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب فى البلاء سبعا ، ويوسف فى السجن سبعا .

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٦١]

وقال فى التفسير الوسيط :

الشيطان الذى يكره الوفاء بالعهد أنسى (الناجى) تذكير سيده الملك بأمر يوسف ، حيث شغله قلبه بما استجد له، من نعمة الحرية والعودة إلى العمل فى قصر الملك . وشواغل الخدمة المتابعة لسيده ، فمكث يوسف فى السجن بعد خروج صاحبه السجين، بضع سنين ، والبضع من الثلاث إلى التسع ، ويقال إنه مكث فى السجن سبع سنين .

وأعاد بعض المفسرين الضمير فى قوله تعالى : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ إلى يوسف عليه السلام . أى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه سبحانه؛ فلجأ إلى صاحبه السجين، وقال له : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أى سيدك الملك؛ فعاقبه الله بأن أبقاه فى السجن بضع سنين؛ جزاء له على تركه الاعتماد على الله تعالى ، والميل فى طلب النجاة إلى عبد من عبيده ، وكان عليه أن يشكو إلى الله ويستغيث به .

وأصحاب هذ القول اعتمدوا على أحاديث واهية لا يصح الأخذ بها . وما يظن أحد من المنصفين وأهل التحقيق أن يوسف ترك الشكوى إلى الله . وهو الذى استعاذ بالله من خيانة العزيز الذى أحسن مثواه ، وعف عن الحرام والإثم الذى كانت تدفعه إليه زوجته الخاطئة بشتى المغريات ، وهو الذى دعا السجينين إلى توحيد الإله سبحانه=

. . . .

= وترك الأرباب المتفرقين ، والحق ما قلناه أولا من أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه، هو ساقى الملك ، والدليل الحاسم على ذلك هو قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ، كما أنه لا مجال لأن يتسلط الشيطان على نبى فينسيه ذكر ربه، وهو يقول سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ على أن الأخذ بالأسباب مشروع ، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ .

وقال الماوردى فى تفسير قوله عز وجل : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فيه قولان :

أحدهما: يعنى للذى علم أنه ناج ، فعبر عن العلم بالظن ، قاله ابن شجرة .

الثانى : أنه ظن ذلك من غير يقين .

وفى ظنه وجهان :

أحدهما : لأن عبارة الرؤيا بالظن ؛ فلذلك لم يقطع به ، قاله قتادة .

الثانى : أنه لم يتيقن صدقهما فى الرؤيا، فكان الظن فى الجواب لشكه فى صدقهما.

﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أى عند سيدك، يعنى الملك الأكبر الوليد بن الريان؛ تأميلاً للخلاص إن ذكره عنده .

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما : أن الذى نجا منهما أنساه الشيطان ذكر يوسف عند سيده، حتى رأى الملك الرؤيا ، قاله محمد بن إسحاق .

الثانى : أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه فى الاستغاثة والتعويل عليه .

روى أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال : ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث فى السجن ما لبث »[1].

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال ابن عباس : عوقب يوسف بطول السجن =

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة كما فى الدر [٤/ ٥٤١].

= بضع سنين؛ لما قال للذى نجا منهما اذكرنى عند ربك ، ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

وفى « البضع » أربعة أقاويل :

أحدها : من ثلاث إلى سبع ، وهذا قول أبى بكر الصديق ، وقطرب .

الثانى : من ثلاث إلى تسع ، قال مجاهد والأصمعى.

الثالث: من ثلاث إلى عشر ، قاله ابن عباس .

الرابع : ما بين الثلاث إلى الخمس ، حكاه الزجاج (١).

قال الفراء: والبضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين،ولا يذكر بعد المائة.

وفى المدة التى لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل :

أحدها : سبع سنين ، قاله ابن جريح وقتادة .

الثانى : أنه لبث اثنتى عشرة سنة ، قاله ابن عباس .

الثالث : لبث أربع عشرة سنة ، قاله الضحاك ، وإنما البضع مدة العقوبة، لا مدة الحبس كله. [تفسير الماوردى : ٣/٣٩، ٤٠]

(١) والصواب أن البضع ما بين التسع كما ورد مرفوعًا . أخرجه الترمذى [٣١٩١] بلفظ : عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناحبة ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : « الا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاثٍ إلى تسعٍ » وقال : حديث غريب . وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٦٢٤] : ضعيف .

والمناحبة : أى المراهنة ، وكانت بين أبى بكر رضى الله عنه وبين أحد كفار قريش حول حرب الروم والفرس .

✲ رؤيا مفزعة للملك ✲

يُعلمنا ربنا عز وجل كيف يُجرى الأحداث؛ لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ، الله تبارك وتعالى أراد أن يعطى يوسف الحكم، وأن يكون عزيز مصر ، ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته . فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ .

رأى الملك هذه الرؤيا ففزع وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ .

هنا الكلام عن مصر ، والذى اشترى يوسف هو عزيز مصر، والقصة وقعت فى مصر، ولكن هناك عزيز وهناك ملك مع أن الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يسمونهم الفراعنة ، فكيف حدث هذا ؟ وأين ذهب فرعون ؟ .

عندما تتبعنا التاريخ واكتشفنا حجر رشيد، وعرفنا تاريخ مصر القديم وعرفنا لغة قدماء المصريين، وعلمنا أن هناك فترة من الفترات توقف فيها حكم الفراعنة، وجاء الرعاة الذين يسمونهم الهكسوس وحكموا مصر[1] .

---

(١) قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعليقًا على قول العزيز : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وقول امرأة العزيز : ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . =

وكان يوسف وإخوته فى وقت حكم هؤلاء الرعاة . ثم استعاد الفراعنة

= وقول النسوة : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ إذا اتضح أن ديانة التوحيد - على هذا المستوى - كانت قد عُرفت قبل تولى يوسف مقاليد الحكم فى مصر ؛ فلابد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك، واستقرت على نطاق واسع فى أثناء توليه الحكم ، ثم من بعد ذلك فى عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور فى الأسرة الثامنة عشرة ،أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة فى ذرية يعقوب التى تكاثرت فى مصر ؛ لإعادة الوثنية التى تقوم عليها الفرعونية !

وهذا يكشف لنا سببًا أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبنى إسرائيل - أى يعقوب - إلى جانب السبب السياسى ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا فى عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة ، طاردوا حلفاءهم من بنى إسرائيل أيضًا . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغى أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع. ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيح، يحطم القاعدة التى يقوم عليها ملك الفراعين ! فهى العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت !

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذى نقرره فى حكاية القرآن الكريم ، لقول مؤمن آل فرعون فى سورة غافر ، فى دفاعه الإسلامى المجيد عن موسى عليه السلام ، وفى وجه فرعون وملئه عندما همّ فرعون بقتل موسى؛ ليقتل معه الخطر الذى يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ

حكم مصر وطردوا الهكسوس، وجاءوا بمن تحالفوا معهم فقتلوهم وعذبوهم ، وفى الفترة التى عاشها يوسف لم تكن مصر تحت حكم الفراعنة ، وإنما كان الهكسوس يحكمون ، وكان هناك ملك هو الذى يحكم، والعزيز مثل الوزير أو رئيس الوزراء ، وهذا من إعجاز التنبؤ فى القرآن الكريم؛ لأن هذه الحقيقة لم يعرفها العالم إلا حديثًا فى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر ، ولكن القرآن ذكرها منذ أربعة عشر قرنًا ،قبل أن يقوم أحد بالعثور على حجر رشيد أو فك رموزه.وجاءت الحقيقة العلمية ؛ تأكيدًا لإعجاز التنبؤات فى القرآن الكريم .

ملك مصر عندما رأى هذه الرؤيا طلب تأويلها أى: معناها، وطلب الفتوى وقال : ﴿ أَفْتُونِي ﴾ الرؤيا منامية تتعارض مع الفكر السليم، فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين .

﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف: ٤٣]سمان يعنى

مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر: ٢٦ - ٣٥] .

فقد كان الصراع الحقيقى بين عقيدة التوحيد التى تفرد الله سبحانه بالربوبية ، فتفرده بالعبادة - أى بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده - وبين الفرعونية التى تقوم على أساس العقيدة الوثنية ، ولا تقوم إلا بها ، ولعل التوحيد الناقص المشوه الذى عرف به إخناتون لم يكن إلا أثرًا من الآثار المضطربة، التى بقيت من التوحيد الذى نشره يوسف عليه السلام فى مصر كما أسلفنا، وبخاصة إذا صح ما يقال فى التاريخ من أن أم إخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية .

[فى ظلال القرآن : ٤/ ١٩٦١ ، ١٩٦٢]

سمينة وعجاف يعنى هزيلة،طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ والضغث هو حزمة حشائش مختلفة الأجناس، ومادامت ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أى مختلفة مع بعضها البعض فليست لها تأويل(١) قال تعالى : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] إن الملك حينما رأى رؤياه عرضها

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾.

فيه مسألتان :

الأولى: قوله تعالى : ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ قال الفراء : ويجوز « أضغاثَ احلام » قال النحاس: النصب بعيد ؛ لأن المعنى : لم تر شيئًا له تأويل ، إنما هى أضغاث احلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر :

كضِغث حُلْم غُرَّ منه حالِمُه

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ قال الزجاج :المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل: نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ؛ ولهذا قال الساقى : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم ادعوا الا تأويل لها . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضًا فعندهم علم.

و ﴿الأَحْلامِ﴾ جمع حُلم ، والحُلم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه: حَلَم بالفتح واحتلم ، وتقول :

حَلَمتُ بكذا وحَلَمته ، قال :

فحَلَمتُها وبنُو رفَيْدَةَ دُونَها (١) لا يَبْعَدَنَّ خَيَالُها المَحْلُومُ =

---

(١) رُفَيدة أبو حى من العرب، يقال لهم الرفيدات ،كما يقال لآل هبيرة الهبيرات.

[لسان العرب: ٣/ ١٨٣]

على مستشاريه، فلم يستطيعوا أن يفسروها، وقالوا : ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ وقالوا : لا علم لنا بالتأويل ، وذلك هو صدق الاستشارة؛ لأن الذى يعلن جهله بأمرها، ويطلب سؤال غيره يكون أمينًا فى رده ، ولذلك قال العلماء: من قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه حين يقول لاأدرى سيضطرك إلى أن تسأل غيره؛ حتى تصل إلى الحقيقة ، كانوا أمناء وقالوا: لا نعرف شيئًا ، من الذى سمع هذا الحوار ؟ إنه الساقى الذى نجا فتذكر ما حدث فى السجن وما قاله يوسف .

وأيضًا فقد قال البعض من أهل تفسير الرؤى أن قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ يعنى أنه يوجد اضطراب فى القول.فمن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك.إذن فلا ضرورة للرائى أن يكون مؤمنًا ولا صالحًا.قد يقول قائل: كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل؟ نقول: قد تكون الرؤيا إكرامًا للرائى، وقد تكون الرؤيا إكرامًا للمعبر الذى يعرف التأويل ، وهى هنا إكرام للمعبر وهو يوسف عليه السلام.

قول الحق جل جلاله : ﴿وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] إذن فالساقى الذى قال له يوسف: إنك ستسقى الملك خمرًا، سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها

= أصله الأناة ، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش ؛ فقيل لما يُرى فى النوم حُلْم؛ لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعَة .

الثانية: فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر ؛ لأن القوم قالوا :﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ ولم تقع كذلك ، فإن يوسف فسرها على سِنى الجدب والخصب ، فكان كما عبرّ ، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبرّت وقعت . [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٠٠،٢٠١]

الملك، ورأى حيرة القوم، وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف[1] ، وقال إننى أعرف من ينبئكم بتفسيره، وقال : ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ يعنى: ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم، وأرسلوه ، وأسرع إلى يوسف ، فماذا قال له ؟ .

قال كما يقص علينا القرآن : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يتجاوز الأحداث، التى يحكم العقل بحدوثها، فلم يقل الحق سبحانه إن الساقى بعد أن قال لهم: أرسلونى إلى السجن لأسأل يوسف، تداولوا ثم وافقوا على إرساله، وأذن له وذهب والتقى بيوسف وقص عليه القصة، فجاءت المواجهة قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وبعدها مباشرة : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أى يوسف يا أيها الصادق فى قولك .

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله: يوسف أيها الصديق، تدل على أنه جربه فى مسائل متعددة ، وكان فيها صادقًا ، وأنه صادق فى كل أقواله، فكأن الصدق يلازم يوسف فى

---

(١) قال ابن عطية فى قوله تعالى : ﴿وَادَّكَرَ﴾ أصله ادتكر - افتعل - من الذكر ، قلبت التاء دالاً وأدغم الأول فى الثانى ، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجلدها ، وبعض العرب يقول : اذكر ، وقرئ : « فهل من مذكر » بالنقط و﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١] على اللغتين ؛ وقرأ جمهور الناس : «بعد أمة» وهى المدة من الدهر ، وقرأ ابن عباس وجماعة « بعد أمة » وهى النسيان ، وقرأ مجاهد وشبل بن عزرة « بعد أمة » بسكون الميم وهو مصدر من أمه إذا نسى ، وقرأ الأشهب العقيلى « بعد إمة » بكسر الهمزة ، والإمة: النعمة والمعنى : بعد نعمة أنعمها الله على يوسف فى تقريب إطلاقه وعزته . [المحرر الوجيز : ٣/ ٢٤٩]

أقواله وأفعاله . أما فى الأقوال؛ لأنه يقول كلامًا له واقع، ولا يقول كلامًا لا واقع له، إذ إن هناك لكل قول قضية كلامية، وهى التى تنطق بها، وقضية واقعية وهى فى الحقيقة أو فى الواقع خارج النفس .

والكذب أن تقول كلامًا ليس له واقع ؛لأن حركات الإنسان فى الحياة إما قول وإما فعل.

القول أداته اللسان، والفعل أداته كل الجوارح ، والقول والفعل كلاهما عمل ، القول عمل والفعل عمل لماذا ؟ لأن القول هو الوسيلة الإعلامية بين المتكلم وبين المخاطب ، والفعل هو الوسيلة الواقعية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] جاء الساقى إلى يوسف من عند الملك، فماذا قال له ؟ قال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحلم؛ كى ننقله إلى الملك؛ لأنه انزعج . والفتوى المطلوبة فى ماذا ﴿فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أى أن البقر الهزيل يأكل السمين، وهذا ضد طبيعة الأشياء؛ لأن المفروض أن البقر السمين القوى هو الذى يفتك بالبقر الضعيف الهزيل .

ثم ماذا ؟ : ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ .(١)

---

(١) قال الشوكانى : المراد بالملك هنا : هو الملك الأكبر ، وهو الريان بن الوليد الذى كان العزيز وزيرًا له ، رأى فى نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿فى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سمين وسمينة فى إثرهن سبع عجاف أى مهازيل ، وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهن ، والمعنى : إنى رأيت ، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، وكذلك قوله: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ عبر بالمضارع للاستحضار،والعجاف جمع عجفاء، وقياسُ جمعه: عجف؛ لأن فعلاء وأفعل =

الحق سبحانه يبين أن الساقى جاء يطلب هذه الفتوى ليس لنفسه، ولكن لمن أرسلوه، وهو الملك وحاشيته؛ ليخبره بتفسير يوسف؛ لذلك يقول كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

لماذا قال : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ ﴾ ولم يقل لأرجع ؟ لأن الساقى وقد أثر فيه ما أبلغه يوسف فى السجن يعلم أن الأمور ليست بيده ، وهو ليس متيقنًا أنه سيعود إلى الملك، فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ؛ ولذلك لم يقل لأرجع ولكن قال ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ ﴾ ؛ لأن رجوعه قضية لا يجزم بها ، وذلك إيمان منه بقدر الله مع الإنسان، فرجوعه ليس فى يده؛ لذلك الاحتياط مع قدر الله يخرجك من أن تكون كاذبًا.

والله سبحانه وتعالى يعلمنا التأدب معه ومع أقداره، فلانستقل بحركة حياتنا، وتقول: أنا سأفعل كذا غدًا؛ لأنك لا تضمن أن تكون موجودًا فى الغد، ولا من ستذهب إليه يكون موجودًا أم لا ؛ فكل فعل من الأفعال يتطلب فاعلاً يقوم به ، ومفعولاً يقع عليه الفعل، وسببًا للفعل وقدرة على الفعل، وزمانًا ومكانًا للفعل ، وهكذا نرى أن الفعل محتاج لأشياء كثيرة، فإذا قلت: أنا مسافر غدًا؛ لألتقى مع فلان ونناقش الأمر الفلانى، نقول : أنت فاعل والذى ستذهب إليه يقع عليه الفعل ، وموضوع حديثكما هو السبب، ومادمت ستسافر فأنت تريد قوة لتنقلك، ثم تريد

= لا تجمع على فعال ، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ﴾ معطوف على سبع بقرات . والمراد بقوله : ﴿خُضْرٍ﴾ أنه قد انعقد حبها، واليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ، ولعل عدم التعرض لذكر هذا فى النظم القرآنى؛ للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات .

[فتح القدير : ٣/ ٣٢، ٣٣]

زمانًا ومكانًا . ماذا تملك من هذا كله ؟ أنت لا تملك شيئًا ، لا تملك ذاتك لتقول إنك ستعيش إلى الغد . ولا تملك من ستقابله، فقد لا يعيش هو إلى الغد ، ولا تملك القدرة؛ لأنه من الممكن أن تمرض ولا تستطيع السفر ، ولا تملك بقاء السبب الذى من أجله ستسافر، فقد تحدث أحداث تجعل كلامكما لا لزوم له، كأن تكون ستتحدث معه فى شراء قطعة أرض، فتجد أن الحكومة صادرتها للمنفعة العامة وانتهى السبب ولم يعد موجودًا . إذن فماذا تفعل ؟ الحق سبحانه وتعالى لا يمنعنا أن نخطط لمستقبلنا ولغدنا ، ولكن الزم قدرك ولا تقل سأفعل كذا وكذا ، ولكن قل: إنْ شاء الله ، وساعة تقول: إن شاء الله، تكون قد خرجت من الجزم بما قد لا يحدث . ومن الكذب بوعد لا يتم، وأعطيت المسألة لمن يملك الأمر حقيقة .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الحق تبارك وتعالى يعلم عباده كيف يحافظون على أنفسهم ، ويكونون صادقين[1] ، ومادمت صادقًا فالزم قدراتك ، وعليك رد الشىء إلى من يملكه ؛ ولذلك قال الساقى : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ . ولم

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة، تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله . فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسى ، فأطاف بهن ، ولم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان، قال النبى ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث ، وكان أرجى لحاجته » . أخرجه البخارى [٥٢٤٢] واللفظ له ، ومسلم [١٦٥٤].

وعن عبد الله رضى الله عنه قال : بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث وهو متكىء على عسيب ، إذ مرَّ اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشىء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا ، فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامى فلما =

يقل لأرجع إليهم ، وهب أنه رجع إليهم ، فمن يضمن له أنهم سيستمعون إليه ويستوعبون ما يقول . إذن فاستعمال كلمة : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. احتياط آخر فى الأداء، ويقول ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ ﴾ .. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يعلمون ماذا؟ يعلمون القضية ، أو يعلمون التأويل،أو يعلمون منزلة يوسف عند ربه وقدراته؛ ليخلصوه من السجن الذى وضع فيه ظلمًا، أو يعلمون علم يوسف وفضله.

قوله : ﴿أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ نحن نعرف أن الملك هو الذى كلفه، وأن الحاشية قد اختلفت فيما بينها فى إرساله ، وقال بعضهم: لا ترسلوه، وقال بعضهم: أرسلوه ، ولكنه قال : ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾. أى أنه نسبها للكل ؛ لأنه ساعة يعود لن يستمع إليه الذين وافقوا على إرساله فقط، ولكن سيستمع إليه من قالوا أرسلوه ومن قالوا لا ترسلوه .

يوسف عليه السلام أبلغ مندوب الملك تفسير الرؤيا ، فماذا قال له ؟ :

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٧، ٤٨]

يوسف عليه السلام أفهم الساقى أنهم سيزرعون سبع سنين ، يواصلون خلالها الزراعة ، وهذا معنى كلمة : ﴿دَأَبًا﴾. أى لا يوجد كسل[1] ،

= نزل الوحى، قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾ . أخرجه البخارى [٤٧٢١] .

(١) قال فى التفسير الوسيط : تزرعون الأرض سبع سنين دائبين جادين غير متوانين ولا متكاسلين ، حتى تجود الأرض بأقصى خيراتها وأغزر ثمارها وحبها .

وقال البقاعى : ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أى دائبين مجتهدين ـ والدأب استمرار الشىء =

ونتاج هذا الزرع اتركوه فى سنبله، أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة، ولا بالمبادلة ولا بأى شيء آخر ، الزرع الذى تحصدونه فى هذه السنوات السبع ، خذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام، على أن يكون ذلك أقل ما يمكن . ولقد علمتنا هذه الآية الكريمة حقيقة اهتدى إليها العلم أخيرًا بالبحوث المختلفة هى : أن الشيء إذا ترك أو تم تخزينه فى وعائه من القشر الخارجى، فذلك يحفظه من السوس. إذن فيوسف أخبرهم بأن يتركوا القمح، الذى سيزرعونه خلال هذه السنوات السبع فى غلافه الخارجى ؛حتى يقيه من السوس والآفات. إذن فليس المطلوب فقط الزرع بجد واجتهاد السنين السبع القادمة ، ولكن المطلوب أن يتركوه أيضًا فى سنابله أى غلافه الخارجى، بل إن بعض العلماء يقولون: إن المطلوب هو أن يترك القمح فى عيدانه كلها، وليس فى السنابل أو الغلاف الخارجى ؛ وذلك لكى يأكل الناس ما فى السنابل، وتأكل الحيوانات عيدان القمح .

ومادامت الحيوانات ستأكل العيدان، نكون بذلك قد وفرنا الغذاء فى فترة الجدب، للإنسان والحيوان وليس للإنسان وحده ، كما أننا عندما نطحن القمح بقشره تخرج منه الردة « النخالة » [(١)] ، والردة الخشنة غذاء

= على عادته- كما أشارت رؤياك بعصر الخمر ، الذى لا يكون إلا بعد الكفاية ، ودلت عليه رؤيا الملك للبقرات السمان والسنابل الخضر ، والتعبير بذلك يدل على أن هذه السبع - كما تعرفون - من أغلب أحوال الزمان فى توسطه، بخصب أرض وجدب أخرى ، وعجز الماء عن بقعة وإغراقه لأخرى كما أشار إليه الدأب .

[نظم الدرر : ١٠/ ١١٣]

(١) نخل الشيء ينخله نخلاً وتنخله وانتخله: صفَّاه واختاره ، وكل ما صُفى ليُعزل لبابه فقد انتخل وتُنخِّل ، والنُّخالة : ما تُنخِّل منه . والنخل : تنخيلك الدقيق بالمنخل لتعزل نخالته عن لبابه . والنخالة أيضًا : ما نخل من الدقيق . ونَخْل الدقيق : غربلته . والنخالة أيضًا ما بقى فى المنخل مما يُنخل . [لسان العرب : ١١/ ٦٥١]

أيضًا للحيوان ، كما أننا حين ندرس القمح كى نذريه نفصل الحبة عن قشرتها . إذن فهناك غلافان لحبة القمح: الغلاف الأول: هو القشر الذى نطيره عندما نذريه ، والقشرة الثانية: تخرج عند طحن القمح .

وقوله : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾. إشارة إلى القشرة الحافظة للقمح، فهى حافظة وداخلة فى كيماوية الغذاء ، فالناس الذين كانوا مترفين، يطحنون القمح ويتخلصون من القشرة ؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض، الذى لا يوجد داخله شىء من الردة، هذه القشرة التى يتخلص منها بعض الناس؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض الصافى ، هى التى امتن بها الله جل جلاله على خلقه فى قوله : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] أى ذو القشرة التى وجد أنها تحتوى على كمية كبيرة من المواد اللازمة للجسم (١).

---

(١) قال فى فتح البيان ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحب: هو جميع ما يقتات من الحبوب ، كالحنطة والشعير والذرة والأرز والعصف . قال السدى والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أول ما ينبت منه . قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقًا ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكمامًا ، ثم يحدث فى الأكمام الحب ،قال الفراء : والعرب تقول : خرجنا نعصف الزرع ، إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال فى الصحاح ، وقال الحسن : العصف التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله : كعصف مأكول ، وقيل : هو الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله : ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ، وقيل : هو الزرع الكثير ، يقال : قد أعصف الزرع، ومكان معصف ، أى كثير الزرع .

قال ابن عباس : العصف التبن ، والريحان خضرة الزرع ، وقال : العصف ورق الزرع إذا يبس والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذى يشم ، وعنه قال : العصف الزرع أول ما يخرج بقلاً ،والريحان حين يستوى على سوقه، ولم يُسَنْبِل ، والريحان الرزق فى قول الأكثر . [فتح البيان : ٣١٧/١٣]

حتى إنهم الآن لكى يصنعوا الغذاء الصحى، يطحن القمح وتترك القشرة مع الدقيق ،لا يؤخذالدقيق الأبيض الصافى وتترك القشرة .

والذى يأخذ الدقيق الصافى، يلجئه الله سبحانه وتعالى فى آخر العمر إلى أن يأكل الردة، التى تركها فى أول عمره، فيضطر إلى أن يأكل الخبز (السن) المصنوع من النخالة بأمر الطبيب ، نقول له: هذا ما تركته فى شبابك، ولم تأكله عندما كنت تأكل الخبز الأبيض، قسمه الله لك عندما تتقدم بك السن ؛ ليكون الأمر عدلاً بين الناس، كذلك الذى يسرف فى أكل الحلوى مثلاً ، يصاب بمرض السكر، ويحرم من كل أنواع السكريات، نقول له : هذا هو عدل الله ، لقد أخذت نصيبك من السكر المقدر لك فى حياتك كلها كباقى الناس ، ولكنك بدلاً من أن تستهلكه فى ستين سنة استهلكته فى أربعين سنة ، وشاء عدل الله ألا تأخذ أكثر من نصيبك ؛ فحرمك من السكر العشرين سنة المتبقية من عمرك .

وقوله : ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أى أنه بعد السنوات السبع المليئة بالرخاء، والتى ستقومون بزراعتها، سيأتى بعد ذلك سبع شداد، ومعنى شداد : أى جدب وقحط، سبع سنوات كلها شدة لا تعطيكم شيئًا من القمح ، فإن لم يكن عندكم من الحصيلة الأولى بقيَّةٌ فستموتون جوعًا .

إذن فالمطلوب أن يعصم الناس بطونهم فى السنوات التى فيها رخاء، لا يأكلون إلا على القدر الضرورى، وفى السنوات الشداد يكون لديهم من القمح ما يستَبْقُون به حياتهم ، والأكل نوعان: إما متعة ، وإما ليبقى قوَّتك وقدرتك على الحياة ، ونحن حين نأكل ، فأغلب أكلنا للمتعة!! لذلك ساعة نأكل نضع على الطعام الشطة والتوابل لماذا ؟ للاستمتاع بالأكل وفتح الشهية ؛ لتناول كميات كبيرة منه، ولكن الذى يأكل للقوت

واستبقاء الحياة ، يكون طعامه الخضار المسلوق واللحم المسلوق فقط ، ولا يضع تلك التوابل والسمن وغيره التى تعطيه الاستطعام، وعندما نسمع قول الحق سبحانه وتعالى عن هذا يقول : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ . هنيئًا أى : استطعمه ويكون طعمه حسنًا، وهذا طعام متعة، ولكن الحق سبحانه يقول : ﴿مَّرِيئًا﴾ أى بشرط ألا يتعبك، فهناك من الطعام ساعة تأكله وتتلذذ بطعمه، تشعر بتعب وثقل على المعدة، هذا الطعام ليس مريئًا، أما المرىء فهو كالخضار المسلوق مثلاً ، تأكل منه ما تشاء ولا يتعبك (١) .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ منصوب على الحال من الهاء فى «كُلُوه» وقيل : نعت لمصدر محذوف ، أى أكلا هنيئًا بطيب الأنفس . هَنَاه الطعام والشّراب يَهْنَئُه وما كان هنيئًا ؛ ولقد هَنُؤَ ، والمصدر: الَهنْءُ . وكل مالم يأتِ بمشقَة ولا عناء فهو هنِىءٌ . وهَنِىءٌ اسم فاعل من هَنُؤَ كظريف من ظَرُف . وهَنِىء يهْنأ فهو هَنِىءٌ على فَعِل كزَمِن . وهَنَأنى الطعام ومَرَأنى على الإتباع ، فإذا لم يذكر «هنَأنى» قلت . أمرأنى الطعام بالألف ، أى انهضم . قال أبو علىّ : وهذا كما جاء فى الحديث « ارجعنَ مأزُورَات غيرَ مأجورات »(١) . فقلبوا الواو من «مَوْزورات» ألفًا إتباعا للفظ مأجورات ، وقال أبو العباس عن ابن الأعرابى : يقال هَنِىء وهَنَأنى ومَرَأنى وامرأنى ولا يقال مرئنى ؛ حكاه الهَروىّ . وحكى القشيرىّ أنه يقال : هنئنى ومَرِئنى بالكسر يَهْنَأنى ويَمْرَأنى ، وهو قليل . وقيل : « هَنِيئًا » لا إثم فيه ، و«مَرِيئًا» لا داء فيه . قال كثير :

هَنِيئا مَرِيئًا غيرَ داء مُخامِر   لِعَزةَ من أعْراضِنا ما استَحَلت

ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئًا وهبته امرأته من مهرها، فقال له : كل من الهَنِىء المَرِىء ، وقيل : الهَنِىءُ الطيِّب المساغ الذى لا ينَغِّصه شىء ، والمرىء المحمود العاقبة التام الهضم الذى لا يضر ولا يؤذى. [تفسير القرطبى : ٥/ ٢٦ ، ٢٧]

(١) عن على قال : خرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس. فقال. « ما يجلسكن ؟ » قلن: ننتظر الجنازة . قال: « هل تغسلن ؟ » قلن: لا. قال: « هل تحملن؟ » قلن: لا. قال: «هل تدلين فيمن يُدْلى ؟ » قلن: لا. قال: « فارجعن مأزورات غير مأجورات» أخرجه

ثم ماذا بعد ذلك ؟ : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ قوله تعالى : ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾. أى ما حفظتموه فى سنوات الرخاء ، تأتى السنوات السبع الشداد وتأكله ، وهنا نسب الحدث للزمن فقال : ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هل السنوات السبع الشداد هى التى ستأكل ، أم الذين يعيشون فى هذه المنطقة خلال السنوات الشداد هم الذين سيأكلون ؟ والحدث يحتاج إلى زمان ومكان ، هنا نسب للزمن؛ لأنه هو الذى نسبت إليه الأحداث مرة رخاء ومرة شدة ، وينسب الحق تبارك وتعالى الحدث للمكان فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. هل سنسأل القرية أم نسأل أهل القرية ؟ وهل سنسأل عير القافلة أم سنسأل أصحاب القافلة ؟ إذن فقد ينسب الحدث إلى المكان أو الزمان ، إذا كان للزمان والمكان خصوصية فى الحدث ؛ ولذلك نسب الأكل للسبع الشداد[1].

---

(١) **يقول الإمام الطبرى** : ثم يجىء من بعد السنين السبع التى تزرعون فيها دأبا ، سنون سبع شداد : يقول : جُدوب قحطة[1] ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يقول : يؤكل فيهن ما قدمتم فى إعداد ما أعددتم لهنّ فى السنين السبعة الخصبة، من الطعام والأقوات وقال جلّ ثناؤه ﴿يَأْكُلْنَ﴾ فوصف السنين بأنهنّ يأكلن ، وإنما المعنى : أن أهل تلك الناحية يأكلون فيهنّ ، كما قيل :

نَهارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لكَ لازِمُ (٢) =

ابن ماجه [١٥٧٨] ، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٣٤٤] .

(١) القحط : احتباس المطر . والقحط : الجدب ؛ لأنه من أثره . ويقال : زمان قاحط ، وعام قاحط ، وسنة قحيط ، وأزمن قواحط . وعام قحط وقحيط ذو قَحْط .

[لسان العرب : ٧/ ٣٧٤]

(٢) الشاهد فى هذا البيت : إسناد السهو والغفلة إلى اليوم إسنادًا مجازيًا عقليًا ؛ لأن السهو والغفلة إنما يقعان فى النهار ، ولا يقعان منه ، ولكن لما كان النهار هو الزمان الذى يقعان

وقوله: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل التى أتت بها سنوات الرخاء .

قوله : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ كلمة حصن معناها الامتناع . يقولون: بنوا حصنًا ليحتموا فيه إذا هاجمهم أعداؤهم، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة ، واقرأ قوله سبحانه : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] أى الممتنعات عن الفجور، ويقول جل جلاله : ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. أى امتنعت عن التفريط فى عرضها ، كل هذا معناه الامتناع ، ومعنى ذلك: أنكم بعد انتهاء السبع الشداد ،ستحتاجون إلى تقاوى؛ ولذلك فلا تأكلوا القمح كله، لابد أن تبقوا ما ستستخدمونه كتقاوى بعد انتهاء سنوات الجدب ؛ ولذلك امتنعوا عن أكل التقاوى ، واحفظوها جيدًا فلا يصل إليها أحد؛ لأنكم إن أكلتموها يكون القمح قد نفد، فلا تجدوا ما تزرعونه .

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه لابد أن نلتفت لاستبقاء النوع وأهم شىء فى استبقاء النوع بالنسبة للزرع أن تحفظ التقاوى ، ولو أن كل فلاح بدلا من أن يحجز كمية من المحصول أكلها ، لانقرض الزرع ولم نجد ما نزرعه فى العام التالى .

= فوصف النهار بالسهو والغفلة ، والليل بالنوم ، وإنما يسهى فى هذا ويغفل فيه ، وينام فى هذا لمعرفة المخاطبين بمعناه ، والمراد منه ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يقول: إلا يسيرا مما تحرزونه . والإحصان : التصيير فى الحصن، وإنما المراد منه : الإحراز وهو قول : قتادة ، وابن عباس ، والسدى . [تفسير الطبرى : ١٢/٢٣١]

❋ نبوءة يوسف ❋

يقول تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] هذا خارج عن الرؤيا؛ لأن الرؤيا : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ انتهت الرؤيا عند السنة السابعة من السنوات الشداد .

كلمة :﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ هذه نبوءة من يوسف ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أى يعانون معاناة شديدة ؛ والغيث ينزل لينقذ الناس من الجدب، يغاث الناس أى لا يحصلون إلا على قوتهم الضرورى، ﴿ويَعْصِرُونَ﴾ أنت لا تعصر شيئًا إلا إذا احتجت إلى كل قطرة منه، فإن كان عندك تمر مثلاً أكلت منه، ثم قلت اعملوا جزءًا عجوة وجزءًا آخر جففوه ، فهذا دليل على أن عندك فائضًا ، ولكن إذا جئت لهذا التمر، وأخذت منه تمرة تمرة ، وقلت حافظوا عليه فكأنك لا تملك منه الكثير ؛ ولذلك تأخذه قطرة قطرة كأنك تعصره [1].

---

(١) قال الشوكانى فى قوله : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أى من بعد السنين المجدبات ، فالإشارة إليها ، والعام : السنة ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث ، والغيث المطر ، وقد غاث الغيث : بالأرض ، أى أصابها ، وغاث الله البلاد يغيثها غوثًا : أمطرها ، فمعنى : ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يمطرون ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسمسم والزيتون . وقيل : أراد حلب الألبان . وقيل : معنى ﴿يَعْصِرُونَ﴾ :ينجون مأخوذ من العصرة وهى المنجاة ، قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك : الملجأ والمنجاة ، ومنه قول الشاعر :

صاديًا يَستغيثُ غَيرَ مُغاثٍ ... ولَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجود =

❊ وقال الملك ائتونى به ❊

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ﴾

لم يقل: إن الساقى رجع إلى الملك، وروى له ولحاشيته ماذا قال له يوسف، ثم تداولوا وقرر الملك أن يرسل فى طلب يوسف؛ لأن هذا مفهوم بالسياق ، ونحن نلاحظ أن هذه سمة مميزة للقرآن الكريم ، فهو يترك الأشياء التى يتوصل إليها العقل ؛ لتجتهد العقول فيها .

فمثلاً قصة سليمان والهدهد : الهدهد جاء لسليمان عليه السلام بعد أن تأخر عن مجلسه، فلما سأله لماذا تأخرت ؟ قال الهدهد كما يقص علينا القرآن الكريم :﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ هنا لابد أن نتوقف مع كلام الهدهد الذى قال لسليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ مع أن سليمان أُعطى مُلكًا عظيمًا ، وكان يمكن أن يذبح الهدهد أو يقتله، أو يعذبه جزاء على جرأته عليه ، ولكنه تقبلها منه؛ لأنها قضية حق فى أن الهدهد أعلمه الله بما لم يعلم سليمان ؛ وذلك حتى نتعلم ألا نحتقر أحدًا، مهما كان شأنه فى الوجود؛ لأن كل شىء له مهمة، وعندما يؤديها على أكمل وجه، يكون أحسن من كثير من البشر .

واعتصرت بفلان : التجأت به، وقرأ حمزة والكسائى : « تعصرون » بتاء الخطاب ، وقرئ : « يعصرون» بضم حرف المضارعة وفتح الصاد ، ومعناه يمطرون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ . [فتح القدير : ٣/ ٣٤]

سليمان أعطى الهدهد كتابًا ، وقال له : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٢٨ -٣٠] لم يقل الله سبحانه وتعالى أن الهدهد أخذ كتاب سليمان، وطار به إلى مملكة سبأ، ثم بحث عن قصرها ، ثم ألقى إليها الكتاب فأخذته، ثم قرأته ، ثم جمعت قومها ومستشاريها ، وقالت لهم كذا وكذا ،لم يقل القرآن هذا؛لأن العقل يمكن أن يصل إليه بسهولة ،كذلك فى قصة يوسف وملك مصر ، لم تقل الآية إن الساقى ذهب إلى الملك . . . إلخ.

لما سمع الملك تفسير الرؤيا قال: أحضروا هذا الشخص صاحب العلم الواسع ؛ لأنه ليس من بين من معى من يملك علمه. . . إلى آخر ما حدث.

القرآن تجاوز ذلك كله، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ [يوسف: ٥٠] فلما جاءه الرسول، معنى هذا أن يوسف كان مازال باقيًا فى السجن، حتى بعد أن فسر رؤيا الملك ، ولذلك عاد الساقى إلى السجن مرة أخرى؛ ليبلغ يوسف أن الملك يريد أن يراه، فقال يوسف كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

وهكذا رفض يوسف عليه السلام، أن يخرج من السجن الذى هو فيه، إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعًا بما فيهم الملك ، وطلب يوسف أن يسأل الملك النسوة، كيف راودن يوسف عن نفسه ، وهكذا تعطينا قصة يوسف العبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة، فبراءة الساحة أمر مهم بالنسبة لكل إنسان ، ومادام بريئًا فلابد أن تعلن براءته

ويعرفها الجميع ، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة ، رغم أن الله سبحانه وتعالى يعلم براءته، لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعًا؛ لأنه رسول والرسول قدوة سلوكية ، ولكي يؤدى رسالته ويتبعه الناس، لابد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ معناه أنه سيقربه إليه، ولكن رغم هذا فإن يوسف رفض أن يترك السجن إلا بعد أن يبرأ علنًا، ومن الملك وأمام الناس جميعًا ؛ ولذلك يُروى عن رسول الله ﷺ ما معناه: «رحم الله أخى يوسف، لقد كان كريمًا حينما جاءه الرجل يسأله عن تفسير الرؤيا، كان من الممكن أن يقول لن أفسرها إلا إذا أخرجتمونى من السجن، وكان كريمًا حينما قال الملك ائتونى به، وذهب إليه من يأخذه ، فقال لن انتقل إلا إذا نظرت حكاية النسوة ، وكان كريمًا حينما ستر على امرأة العزيز، وتكلم عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن»(١)

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذها بقدرها ، وكان يوسف مطمئنًا إلى أن الله تبارك وتعالى سيظهر الحق ، وكان يريد أن يعرف الجميع الحقيقة ، ورسول الله ﷺ يقول فى الإيمان بالله ما معناه : «لا تقف موقف الريبة » (٢) يعنى الموقف الذى تأتى منه

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف، لأجبت الداعى ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .
أخرجه البخارى [٤٦٩٤]

(٢) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما مُشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . الا وإن لكل ملك حمى، الا إن حمى الله محارمه ، الا وإن فى الجسد =

ريبة ابتعد عنه؛ لأن الناس يتقولون الأقاويل ، والنبى عليه الصلاة والسلام وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان ،جاءته إحدى نسائه تكلمه فى شأن يخصهما، فمر جماعة من المؤمنين ، فلما رأوا رسول الله ﷺ وهو خارج يودع زوجته إلى خارج مكان الاعتكاف، نظروا إليه ولم يكونوا يعرفون أنها زوجته ، ولكن أدبًا منهم التفتوا إلى الناحية الأخرى،ومشوا بعيدًا عن رسول الله ﷺفناداهم النبى وقال لهم: إنها فلانة زوجتى فقالوا : يا رسول الله لا ريبة . فقال الرسول ﷺ: « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » [1] وهكذا رفض رسول الله ﷺ أن يتعرض للريبة ، وقال ما معناه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن موقف المتهم » [2].

= مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله،ألا وهى القلب».
أخرجه البخارى [٥٢] و مسلم [١٥٩٩]

(١) عن على بن الحسين رضى الله عنهما : أن صفية زوج النبى ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره فى اعتكافه فى المسجد ، فى العشر الأواخر من رمضان . فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنقلب فقام النبى ﷺ معها يقلبها (*) حتى إذا بلغت باب المسجد، عند باب أم سلمة ، مرَّ رجلان من الأنصار . فسلما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما النبى ﷺ : « على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيى» فقالا : سبحان الله، يارسول الله ! وكَبُرَ عليهما . فقال النبى ﷺ : « إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا » . أخرجه البخارى [٢٠٣٥] ومسلم [٢١٧٥] وفيه قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا أو قال : « شيئا » .

(٢) عن أبى الحوراء السعدى قال : قلت للحسن بن على : ما حفظت من =

(*) القَلْب : تحويل الشيء عن وجهه . وقلب الشيء وقلَّبه : حوَّله ظهرًا لبطن . والقَلْب أيضًا: صرفك إنسانًا ، تقلبه عن وجهه الذى يريده . وقلبت القوم : كما تقول : صرفت الصبيان ، عن ثعلب . وقلب المعلم الصبيان يقلبهم : أرسلهم ورَجَعَهُم إلى منازلهم . والانقلاب : الرجوع مطلقًا . [لسان العرب : ١/ ٦٨٥ ، ٦٨٦]

﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾

الحق تعالى يقول : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] الملك جمع نسوة المدينة ، وخاطبهن وواجههن بأنهن راودن يوسف عن نفسه ، المرادة بالاتهام هى امرأة العزيز ، ولكن الملك بناء على ما قاله يوسف،جمع كل النسوة وقال لهن: ما خطبكن ؟ والخطب حدث، ولكنه حدث هام يتناقله الناس ؛ ولذلك إبراهيم عليه السلام قال للملائكة : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٧، ٥٨] أى أن إبراهيم عليه السلام عندما رأى الملائكة فزع وقال ما وراءكم؟ فطمأنوه وقالوا: إنهم جاءوا إلى قوم لوط،وكأن الملك حينما خاطب النسوة ، اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة ، تدل على انعدام القيم ، ولما رأى النسوة هذه اللهجة الشديدة من الملك ، أسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن ، فقلن : ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ نلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأن يوسف ولم يبرئن أنفسهن : ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا ليوسف من أن يفعل ما يغضب الله ، وقلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾. يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءًا أبدًا،بالنسبة لهؤلاء النسوة

= رسول الله ﷺ ؟ قال : حفظت من رسول الله ﷺ :«دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة ».

أخرجه الترمذى [٢٥١٨] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٤٥] : صحيح

أو غيرهن ، وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة، فقد أتى بها الملك معهن، ولم يشر إليها القرآن الكريم ، إلا عندما تكلمت وقالت: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾[1].

امرأة العزيز وقفت وقالت: إنه لم يعد هناك مجال للستر، أنا راودته فعلاً وهو صادق، مما يدلنا على أن الجذوة الإيمانية فى الإنسان تتوهج ، وأنه قد ينسى الله، ولكن عندما ينتهى الخاطر السيئ ،يعود إلى توازنه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى، وسيلة الإحسان فيما ليس له فيه ضعف.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾. ولو أن الإنسان عمل سيئة، فقد يضاعف من حسناته حتى يغفر الله له هذه السيئة ، ولذلك على الإنسان أن يكثر من عمل الخير، ليمحو الله سيئاته التى سترها عن الناس .

قول امرأة العزيز : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبته دافعت عنه، وقلت الحق. وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢] معناه أن الجريمة

---

(١) الحَصْحَصة : بيان الحق بعد كتمانه ، وقد حَصْحَص . ولا يُقال : حُصْحِصَ وقوله عز وجل : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما دعا النسوة فبرّأن يوسف،قالت : لم يبق إلا أن يُقبلن علىّ بالتقرير فأقرّت،وذلك قولها : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ تقول : صاف الكذب، وتبين الحق ، وهذا من قول امرأة العزيز ، وقيل : حصحص الحق : أى ظهر وبرز ، وقال أبو العباس : الحصحصة المبالغة . يُقال : حصحص الرجل إذا بالغ فى أمره ، وقيل : اشتقاقه من اللغة من الحِصّة أى ، بانت حِصة الحق من حِصة الباطل . [لسان العرب : ١٦/٧]

لا تفيد، ولابد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. يعنى أنا لا أريد أن أبرئ نفسى كذبًا ؛ لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس؛ ولذلك قال القرآن الكريم : ﴿إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعنى غفور : أى للذنوب ، ورحيم يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب؛ لأن الإنسان محتاج إلى ما يشفيه من المرض وإلى ما يعطيه مناعة ؛ حتى لا يعود إليه المرض مرة أخرى ، ولذلك يقول المولى جل جلاله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] أى أنك عندما تؤمن بمنهج الله يشفيك مما أنت فيه ، يشفيك من الداء ، ثم يعطيك المناعة فلا يعود لك المرض أبدًا .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من تمام قولها أم لا ؟ بعض العلماء قالوا: إنه من قول يوسف عليه السلام، عندما أُبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا . قال يوسف: أنا لا أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء؛ لأن هناك أحيانًا يأتى غرور الإيمان فى النفس، فيحاول الرسول أن يتذكر أنه بشر لا تعصمه إلا رحمة الله[1] ،ومن لطف الله سبحانه أنه

---

(١) قال الماوردى فى : قوله عز وجل : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فيه ثلاثه أوجه :
أحدها : أنه قول العزيز، أى وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف [1]. =

---

(١) قال الشوكانى [٣/ ٣٤] عن قوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ قال : إن كان من كلام يوسف ، فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية بها ، مع أنه علم هو وغيره والناس أنه برىء ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ؛ لأنها قد أقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف ا.هـ.

قال: ﴿ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾. ولم يقل آمرة بالسوء ، أمارة يعنى تأمر بالسوء مرة .

= **الوجه الثانى** : أنه قول امرأة العزيز وما أبرىء نفسى، إن كنت راودت يوسف عن نفسه؛ لأن النفس باعثة على السوء إذا غلبت الشهوة عليها .

الوجه الثالث : أنه من قول يوسف، واختلف قائلوا هذا فى سببه على أربعة أقاويل:

أحدها: أن يوسف لما قال: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قالت امرأة العزيز: ولا حين حللت السراويل ؟ فقال: وما أبرىء نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء، قاله السدى .

الثانى: أن يوسف لما قال ذلك غمزه جبريل عليه السلام فقال : ولا حين هممت ؟ فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ قاله ابن عباس .

الثالث : أن الملك الذى مع يوسف قال له : اذكر ما هممت به ، فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ قاله قتادة.

الرابع : أن يوسف لما قال﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ كره نبى الله أن يكون قد زكى نفسه ، فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ قاله الحسن . [تفسير الماوردى : ٣/ ٤٨، ٤٩]

وقال الأستاذ سيد قطب : ومع أنه ـ أى يوسف ـ قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفى هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة، تبرئ نفسها من خيانة يوسف فى غيبته ولكنها تتحفظ فلا تدعى البراءة المطلقة ؛ لأن النفس أمارة بالسوء ـ إلا ما رحم ربى ـ ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. .

وبذلك يسدل الستار على ماضى الآلام فى حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين . . [فى ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٤]

أما «آمرة» فمعناها أن عادتها هى السوء لماذا ؟ لأن التكاليف الإلهية كلها إما أمر أو نهى ، الأوامر تكون صعبة على النفس أن تفعلها ، والنواهى عزيز على النفس أن تتركها ، العاقل ينظر إلى الغاية البعيدة الباقية ، كيوم القيامة ولا ينظر إلى اللذة العابرة ، إلا إذا نظرت أن الدنيا غاية تأخذ منها ما تستطيعه من متعة . ورسول الله ﷺ يقول: « حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره » (١) ويقول رسول الله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» (٢) لأنه لو كان مؤمنًا واستحضر الجزاء ما زنا أبدًا .

المدة بين الإنسان وبين عذاب الآخرة لا أحد يستطيع أن يحددها ؛ لأنه من مات قامت قيامته ولا يدرى أحد متى يموت .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٨٧] بلفظ : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « حُجبت النار بالشهوات ، وحُجبت الجنه بالمكاره » . ومسلم [٢٨٢٢] بلفظ : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ قال : « حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات » .

(٢) قال أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى، وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وزاد فى رواية : « ولا ينتهب نهبة ذات شرف، يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن » . أخرجه البخارى [٥٥٧٨] واللفظ له ، ومسلم [٥٧] .

❋ إنك اليوم لدينا مكين أمين ❋

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] فكأن الملك قال ائتونى به مرتين، مرة حين رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ، والمرة الثانية عندما ظهرت براءة يوسف فذهب إلى الملك[١]، ولما التقيا قال له الملك : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

(١) قال ابن الأثير : فلما ظهر للملك براءة يوسف وأمانته، قال : ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾. فلما جاءه الرسول، خرج معه ودعا لأهل السجن، وكتب على بابه : هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء . ثم اغتسل ولبس ثيابه وقصد الملك ، فلمّا وصل إليه وكلمة قال :﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فقال يوسف : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فاستعمله بعد سنة ، ولولم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، فسلّم خزائنه كلها إليه بعد سنة ، وجعل القضاء إليه وحكمه نافذًا ، وردّ إليه عمل قُطفير سيّده بعد أن هلك ، وكان هلاكه فى تلك الليالى ، وقيل : بل عزله فرعون [١] وولّى يوسف عمله . والأول أصح ؛ لأن يوسف تزوج امرأته ، على ما نذكره .

ولما ولى يوسف عمل مصر، دعا الملك الريّان إلى الإيمان ، فآمن . ثم توفى ، ثم ملك بعده مصر قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن فاران بن عمرو بن عملاق، فدعاه يوسف إلى الإيمان ، فلم يؤمن ، وتوفّى يوسف فى ملكه.

ثمّ إنّ الملك الريّان زوّج يوسف راعيل [٢] امرأة سيدّه ، فلمّا دخل بها قال : أليس هذا خيرًا ممّا كنتِ تريدين ؟ فقالت : أيّها الصدّيق لا تلمنى، فإنّى كنتُ امرأة حسناء جميلة ، فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى =

(١) لم يكن الفراعنة فى ذلك الوقت يحكمون مصر بل كان يحكمها الرعاة .

(٢) وقد مر أن اسمها زليخا .

أقالها الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر ؟ لا ، لابد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه،ووثق من أمانته وحفظه؛ ولذلك يقول الحق: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة ، وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته .

إذن . . ما السبب فى أن الملك مكن يوسف من الحكم واستأمنه على أشياء كثيرة ؟ (١) .

السبب: أنه حفيظ وعليم، أى أنه حافظ على أعنف غريزة فى الإنسان، وهى غريزة الجنس ، وحافظ عليها وهو فى عنفوان شبابه،

= حسنك فغلبتنى نفسى . ووجدها بكرًا ، فولدت له ولدَيْن إفرائيم ومنشا رضى الله عنها. [الكامل فى التاريخ : ١/١٤٦،١٤٧]

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم .

ومعنى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصًا لى دون غيرى ، وقد كان قبل ذلك خالصًا للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة ؛ قال ذلك لما كان يوسف نفيسًا ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فى الكلام حذف وتقديره : فأتوه به، فلما كلمه ، أى فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأول أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم وقيل : الثانى أولى ؛ لقول الملك : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف فى مقام الملك ، جاء بما حببه إلى الملك ، وقربه من قلبه ، فقال هذه المقالة، ومعنى ﴿مَكِينٌ﴾: ذو مكانة وأمانة ، بحيث يتمكن مما يريده من الملك ، ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره ، أو على ما يكله إليه من ذلك . قيل : إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره، وقال له : إنى أحب أن أسمع منك تعبير رؤياى ، فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. [فتح القدير : ٣/ ٣٧]

فكأنه ليس مندفعًا ، بل هو قوى يستطيع أن يكبح أعنف الغرائز ، وكذلك فإن يوسف عليم؛ لأنه الوحيد الذى استطاع أن يفسر للملك رؤياه، وهذا يقتضى علمًا ، كما أن الملك حين كلمه اكتشف فيه رجاحة العقل، والقدرة على الفكر السليم ، وكل الصفات المطلوبة فى عزيز مصر؛ ولذلك فإن الملك قال سأستخلصه لنفسى،أى سأجعله مقربًا منى،فلما كلمه واكتملت عنده الصورة الطيبة، قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : ممكن ، أى : من أهل الثقة الذين لا يُطعن فيهم.

والحق سبحانه وتعالى حين تكلم عن الوحى من جبريل، قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠] أى لا أحد يستطيع أن ينال منه أو يهز الثقة فيه .

إذن.. فيوسف عليه السلام أصبح من أهل الثقة ، لماذا ؟ لأنه حاز ثقة الحاكم ، وفى نفس الوقت كان يجب على الحاكم أن يتأكد من صلته بالمحكومين، فى أن يكون أمينًا معهم ، لا يحابى أحدًا على حساب أحد، وهذا ما زاد يوسف عليه السلام كفاءة فى وظيفته .

لذا يتحتم على أهل الحكم أن لا يفضلوا أهل الثقة، على أهل الخبرة الذين يعرفون الشىء معرفة دقيقة.

حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك، قال: لو طلبت منه الآن شيئًا ، لأعطانيه وأنا سأطلب ما يتعلق بتفسير الرؤيا، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض؛ لأنقذ الناس من المجاعة،وأحفظ لهم حياتهم ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ وكان هذا الطلب تأكيدًا لثقة يوسف فى أن رؤياه ستتحقق فى

سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جدبًا ، وأنها محتاجة لحكمة وإدارة، فى سنى الخصب تضمن ألا يحدث إسراف فى الاستهلاك ، وفى سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج إنسانًا كان أو حيوانًا، كل كائن حى سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف، وأمانة تعطيك العدل بين الناس ، وخبرة تضع كل شىء فى موضعه تمامًا ؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض؛ لأنه حفيظ عليم .

يوسف عليه السلام طلب الولاية ، وطالب الولاية فى الإسلام لا يولى، ولكن الظروف التى أدت إلى تولى يوسف، لم تكن ظروفًا عادية بل كانت ظروفًا استثنائية، أى تصرف فيها بغير حكمة يعنى الحياة أو الموت؛ ولذلك فى هذه الظروف، لابد لمن له الحكمة أو الخبرة، أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر(١).

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى: قوله تعالى : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض ؛ أما سمعت إلى قوله : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أى على حفظها ، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وليت ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمره. وفى التفسير : إنى حاسب كاتب ، وأنه أول من كتب فى القراطيس . وقيل : ﴿حَفِيظٌ﴾ لتقدير الأقوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بسنى المجاعات . قال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخَّر ذلك عنه سنة »(١). قال ابن عباس : لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه =

---

(١) ذكره الألبانى فى الضعيفة [٣٢٩] وقال : موضوع . قال الحافظ ابن حجر فى « تخريج الكشاف » [٤/ ٩٠] : « أخرجه الثعلبى عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه ، وهذا إسناد ساقط . ومن طريق الثعالبى رواه الواحدى فى تفسيره [٩٣/١].

= الملك فتوّجه وردّاه (1) بسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب ، مكللا بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلة من إستبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقة (2) ، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا ، لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، فجلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوّض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلّم سلطانه كلّه إليه ، وهلك قطفير تلك الليالى ، فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ ! فقالت : أيها الصديق لاتلمنى ، فإنى كنتُ امرأة حسناء ناعمة كما ترى ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى . فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتى الإخوة ، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف فى السجن ، وذهب مالها وعمى بصرها ؛ بكاء على يوسف ، فصارت تتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمها، ومنهم من لا يرحمها ، وكان يوسف يركب فى كل أسبوع ، مرة فى موكب زُهاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرضت له لعله يسعفك بشىء ، ثم قيل لها : لا تفعلى ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيىء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، قامت فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ، فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمى ، وأُرجل جمتك بيدى ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلى وعتوى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالى ، وتضعضع ركنى ، وطال ذلى،وعمى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر ، صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس ، فمنهم من يرحمنى، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا، ثم قال لها : =

(1) رداه بسيفه : قلده به .

(2) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

= هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئا ؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك ، أحب إلى من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولني صدر سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنت أيِّما تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك، لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي، أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له ، فقال لها : ألم يبلغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك، أحبّ إلى من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زفت إليه ، فقام يوسف يصلي ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها، حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ؛ إكرامًا ليوسف عليه السلام لما عف عن محارم الله ، فأصابها فإذا هي عذراء ، فسألها ، فقالت : يا نبي الله إن زوجي كان عنينا لا يأتي، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال : فعاشا في خفض عيش[1]، في كل يوم يجدد الله لهما خيرًا ، وولدت له ولدين ، إفراثيم ومنشا . وفيما روى أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها ، فقال لها : ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرة ؟ فقالت له : لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

الثانية: قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء،وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر،وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك . وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز ، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه . والله أعلم .

قال الماوردي : فإن كان المولى ظالما، فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله، على قولين :

أحدهما :جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده ؛ لأن يوسف ولي من قبل فرعون ، =

(١) خفض عيش : في سعة وراحة .

....

= ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره .

الثانى: أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم ، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم ، فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين:

أحدهما : أن فرعون يوسف كان صالحا ، وإنما الطاغى فرعون موسى. الثانى: أنه نظر فى أملاكه دون أعماله ، فزالت عنه التبعة فيه .

قال الماوردى : والأصح من إطلاق هذين القولين: أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه ، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثانى: ما لا يجوز أن ينفردوا به، ويلزم الاجتهاد فى مصرفه كأموال الفىء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق ، ويجتهد فيما لا يستحق .

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقيد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة: ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمره قال قال لى رسول الله ﷺ :

« يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ،وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » (1) .

وعن أبى بُردْة قال قال أبو موسى : أقبلت إلى النبى ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين ، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى، فكلاهما سأل العمل ، والنبى ﷺ يستاك، فقال : « ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس » قال: فقلت: والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال : وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته، وقد قلصت(2) ، فقال : «لن =

(1) أخرجه مسلم [١٦٥٢ / ١٩] بلفظ : « عبد الرحمن بن سمرة . . . » الحديث ، وزيادة: «وإذا حلفت عن يمين ، فرأيت غيرها خيرًا منها ، فكفر عن يمينك وائت الذى هو خير » .

(2) قلصت : انقبضت وانزوت .

= أو لا ـ نستعمل على عملنا من أراده »[1] وذكر الحديث ، خرجه مسلم أيضا وغيره ، فالجواب :

أولا : أن يوسف عليه السلام ، إنما طلب الولاية ؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه من يكن هناك غيره ، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه، لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : « لا تسأل الإمارة » وأيضا فإن فى سؤالها والحرص عليها، مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها، دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ، وهذا معنى قوله عليه السلام : «وكل إليها» ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فر منها ، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : « أعين عيها » .

الثانى: أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبى ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[2] ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما ذلك عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ .

الرابع: أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم .

الرابعة: ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه، بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردى : وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه =

(١) أخرجه مسلم [١٥/١٧٣٣] وبه زيادة فى آخره .

(٢) أخرجه البخارى [٣٣٩٠] عن ابن عمر ، بزيادة : « عليهم السلام » فى آخره .

ولنقرب هذا إلى الأذهان، نقول : لنفرض أننا نركب سفينة، وفجأة هبت عاصفة وأخذ الموج يتلاعب بالسفينة بشدة ، وقائد السفينة لا يعرف ماذا يفعل، فيأتي واحد من الركاب، ويقول له : اترك الأمور لى، فأنا خبير بهذه الناحية ، حينئذ لابد أن يتركها له، حتى تنتهى العاصفة ويعود الهدوء ، ويترك إدارة السفينة لقبطانها . إذن فالإنسان لا يطلب الولاية إلا إذا أحس أنه يعرف وجه الخروج من الأزمة ، وفى طلب يوسف شجاعة، فكونه يتقدم إلى العزيز ويطلب الولاية ، هذه شجاعة منه .

قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أى اجعلنى أتولى الاقتصاد، وقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى عندى من الخصال ما يتطلبه العمل .

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ مكنا ليوسف كيف ؟ بأن الله تعالى علمه تأويل الأحاديث، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه، لم يفسرها إلا يوسف ، ومكنه بأمانته وحسن خلقه، ومكنه بأن أبطل كيد إخوته الذين تآمروا عليه ؛ وألقوه فى الجب ليباع عبدًا ، ليس هذا فقط ، بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبوه[1] ، فابتلى من عمته

= لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله.

[تفسير القرطبى : ٩/٢١٣:٢١٧]

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن محمد بن إسحاق ، رضى الله عنه ، قال فى قوله : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قال : غلامان كانا للملك الأكبر الريان ابن الوليد ، كان أحدهما على شرابه، والآخر على بعض أمره فى سخطة سخطها عليهما .

اسم أحدهما : مجلب ، والآخر : نبوا الذى كان على الشراب . فلما رأياه قالا : يا فتى ، والله لقد أحببناك حين رأيناك ، قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله =

التى تحبه فاتهمته بالسرقة كيدا ، لتبقى عليه معها ، وابتلى بسبب حب أبيه له ، فأخذه إخوته وألقوه فى الجب .

وابتلى بحب امرأة العزيز فدخل السجن ، وحكاية عمته أنها كانت تحبه جدًا ، وربته وهو صغير بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه منها ، ولكنها لم تكن تصبر على فراقه ، ففكرت كيف تبقى يوسف عندها ، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم ، اسمه منطقة إبراهيم ، والحزام كان عند عمة يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئًا يعاقب بأن يصبح عبدًا لمن سرقه.

عمة يوسف عليه السلام ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه، وعندما جاءوا

= ابن أبى نجيح عن مجاهد، رضى الله عنه ، أن يوسف ﷺ قال لهما حين قالا له ذلك : أنشدكما بالله أن لا تحبانى ، فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل علىّ من حبه بلاء . قد أحبتنى عمتى فدخل علىّ من حبها بلاء ، ثم أحبنى أبى فدخل علىّ من حبه بلاء ، ثم أحبتنى زوجة صاحبى فدخل علىّ بمحبتها إياى بلاء . فلا تحبانى بارك الله فيكما ، فأبيا إلا حبه وألفه حيث كان، وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله . [الدر المنثور للسيوطى ٤/ ٥٣٥ ، ٥٣٦]

وقال ابن الأثير : ذكروا أن إسحاق توفى وعمره ستون ومائة سنة ، وقبره عند أبيه إبراهيم ، قبره ابناه يعقوب وعيص فى مزرعة حبرون ، وكان عمر يعقوب مائة وسبعا وأربعين سنة ، وكان ابنه يوسف قد قسم له ولأمة شطر الحسن ، وكان يعقوب قد دفعه إلى أخته ابنة إسحاق تحضنه ، فأحبته حبًا شديًا وأحبه يعقوب أيضا حبًا شديدًا ، فقال لأخته : يا أخية ! سلمى إلى يوسف، فوالله ما أقدر أن يغيب عنى ساعة . فقالت : والله ما أنا بتاركته ساعة . فأصر يعقوب على أخذه منها ، فقالت : اتركه عندى أيامًا لعل ذلك يسلينى ، ثم عمدت إلى منطقة إسحاق ، وكانت عندها ؛ لأنها كانت أكبر ولده ، فحزمتها على وسط يوسف ، ثم قالت : قد فقدت المنطقة فانظروا من أخذها . فالتمست ، فقالت : اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ، وكان من مذهبهم أن صاحب السرقة يأخذ السارق له لا يعارضه فيه أحد ، فأخذت يوسف فأمسكته عندها حتى ماتت وأخذه يعقوب بعد موتها . [الكامل فى التاريخ : ١/ ١٣٧]

ليأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] كلمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تدل على سعة ساحة الأرض، التى مكن منها يوسف ، ومعنى ذلك أن المشكلة كبيرة؛ لأنه عندما يأتى جدب ويشمل منطقة كبيرة، فإن العبء يكون ثقيلاً ؛ لكثرة عدد الذين يطلبون الطعام ، ولذلك كانت القوافل تأتى من الشام وغيرها، من الدول المجاورة لمصر؛ لتحصل على القمح، مما يدل على أن الجدب كان عامًا وشمل المنطقة كلها.

وقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾. أى يسكن فى أى بقعة شاء ، وفى أى منطقة يريدها ، وهذا يؤكد أن يوسف عليه السلام، كان يتمتع بحب الناس، وأنه فى نفس الوقت كان يتنقل من بقعة إلى أخرى؛ حتى تنال كل البقاع قدرًا مساويًا من الاهتمام (١) .

والحاكم حين يقيم فى منطقة، تلقى اهتمام الدولة لمرافقها وطرقاتها، كما أن هذا يدل على أن كل الأرض المحيطة كانت تخضع لإدارته، وأنه يكون يومًا هنا ويومًا هناك، وليس هذا ترفًا ولكنه نوع من التكليف، فوجود يوسف فى أى منطقة ،سيجعل الناس تنشط من أجله ويستفيد بذلك المحيطون .

الله سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن يوسف عليه السلام مُكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أراد أن يلفتنا إلى أن ذلك رحمة للناس؛

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ، فيه وجهان :
أحدهما : يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء ، قاله سعيد بن جبير .
الثـانى : يصنع فى الدنيا ما يشاء لتفويض الأمر إليه ، قاله عبد الرحمن بن زيد.
[تفسير الماوردى : ٣/ ٥٢، ٥٣].

لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها، سيعرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها ، فإذا كانت هناك منطقة محرومة من المياه، أنشأ فيها خزانات للمياه ، وإذا كان لا يأتيها طعام أمر لها بالطعام ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا ، وبالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسن هو الذى يؤدى فوق ما طلب منه، وأجر المحسنين فى الدنيا لا يضيع ، وفى الآخرة لايضيع أيضًا [1] ، ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ والخير يقابله الشر، فهل أجر المحسنين فى الدنيا شر؟ نقول : لا ، كلمة خير تستعمل استعمالين: استعمال أن شيئًا خير من شيء ، واستعمال أن كلا الشيئين خير يقول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » [2].

إذن فالمؤمن الضعيف كونه عند الله أقل درجة من المؤمن القوى، لا يعنى أنه شر ولكن هو خير؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «وفى كل خير» فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، هذه اسمها أفعل التفضيل.

أما الخير الذى يقابله شر فاقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨] .

---

(١) عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة. يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة . أما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها».
أخرجه مسلم [٢٨٠٨] .

(٢) عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولاتعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان » . أخرجه مسلم [٢٦٦٤] .

وقوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعدل ميزان حركة الحياة؛ لأن ميزان حركة الحياة لا يستقيم بالحديث عن الآخرة فقط؛ لأن الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة، وينكرها يملأ الدنيا ظلمًا وعدوانًا ؛ لأنه يعتقد أنه ليس هناك آخرة ، ولذلك لابد أن ينتقم الله من الظالم فى الدنيا ؛ ليكون عبرة لغيره ، وفى نفس الوقت يعطى للذى يحسن فى الدنيا حسنة، ويقول له : إن أجرك فى الآخرة سيكون خيرًا من أجرك فى الدنيا . . لماذا ؟ لأن خير الدنيا إما أن تفوته أو يفوتك، ولكن أجر الآخرة أبدى ودائم ولذلك فهو خير .

* وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه *

نعود إلى إخوة يوسف ، فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨] لقد جاء إخوة يوسف، وهم عصبة يتحركون مع بعضهم، جاءوا فى طلب القوت؛ لأنها مجاعة ولا يوجد طعام إلا فى خزائن يوسف، ولا يصرف للناس إلا بأمر منه ، يوسف عرفهم؛ لأنهم لم يتغيروا، ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيرًا وأصبح رجلاً ؛ ولأنه كان على خزائن الأرض ،فكانت هذه تعطية هيبة.

أما إخوته فقد كانوا كبارًا فلم تتغير ملامحهم وهو تغير؛ لأنه أصبح عزيز مصر، يعيش فى قصر محاط بأشياء كثيرة لا تمكنهم من معرفته ، مضافًا إلى ذلك أنهم كانوا مكروبين، فلم يدققوا فيه ، فقد جاءوا لطلب الطعام، وكان هذا كل همهم؛ ليحفظوا حياتهم وحياة أهلهم ، كما أنهم لم يتوقعوا أن يكون يوسف هو العزيز(١) ،

والحق سبحانه وتعالى يخبرنا بعد ذلك لماذا جاء إخوة يوسف ، فيقول:

---

(١) ذكر السدى وغيره: أن يوسف شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز ، إنا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ « يعنى جواسيس » قالوا : معاذ الله . قال : فمن أين أنتم ؟ . قالوا : من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ . قالوا : نعم ، كنا اثنى عشر ، فذهب أصغرنا هلك فى البرية ، وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه؛ ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٦٥]

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وهكذا أسلوب القرآن الكريم، لا يذكر الخطوات التى يمكن للعقل أن يصل إليها بالبديهة؛ ولذلك لم يقل لنا : إنهم جاءوا لطلب الطعام، وقالوا له : إننا نحتاج إلى طعام ، وأن عددنا كذا،وأنه أمر بإعطائهم ما يريدون ، وإنما قال : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ والباقى يمكن أن يستنتجه العقل بسهولة.

وهذه لقطة تعطينا ما كان فيه إخوة يوسف من اضطراب عقلى؛ لأنهم كانوا يريدون الحصول على طعام ، ولم يكن تفكيرهم إلا فى هذا الطعام.

ذلك أن يوسف قال لهم: ﴿ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وكان العقل يقتضى أن يقولوا: من الذى أعلمه أن لنا أخا من أبينا؟ . لم ينتبهوا إلى هذا؛ لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو الهم الأكبر لجميع الناس. قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ الجهاز هو ما جاءوا من أجله؛ لينقلوه من مكان إلى مكان أى : القمح،وهو الأمر الذى جاءوا ليحصلوا عليه(١).

قول يوسف عليه السلام: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ ﴾ لأن كل واحد جاء على بعير، والبعير موضوع عليه الثمن، يحمل القمح ويترك الأثمان، سواء كانت على هيئة أقمشة أو غير ذلك.

---

(١) جَهاز العروس والميت وجهازهما : ما يحتاجان إليه ، وكذلك جهاز المسافر ، يُفتح ويُكسر وجهَّزت القوم تَجهيزًا : إذا تكلفّت لهم بجهازهم للسفر ، وكذلك جهاز العروس والميت ، وهو ما يحتاج له فى وجهه . قال الليث : وسمعت أهل البصرة يخطئون الجِهاز بالكسر. قال الأزهرى: والقرّاء كلهم على فتح الجيم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ قال: وجِهاز بالكسر لغة رديئة. وجهاز الراحلة: ما عليها. [لسان العرب: ٥/ ٣٢٥]

﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أى أعطيتكم حقكم فى الكيل وزيادة، ولو جئتم بأخيكم من أبيكم، فسأزيد الكيل لكم ؛ ولذلك قالوا وهم يساومون أباهم على أخذ أخيهم ـ قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يوسف يحاول أن يغريهم حتى يأتوا بأخيه .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ المنزل فى ظاهر الأمر عكس المعلى ، ولكن هنا معناها الذى ينزل المكان ، ويكون المكان معدًا له إعدادًا فيه كل متطلبات الحياة ؛ ولذلك يسمون الفنادق بالنُزُل.

والله سبحانه وتعالى يقول عن الجنة، التى أعد فيها للمؤمن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1]، يقول سبحانه: ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢] وفى الدنيا نُزُل يعده البشر للبشر، فيكون بالإمكانات البشرية ، مهما بلغ من الفخامة والترف، ولكن فى الآخرة يعده الحق سبحانه وتعالى للبشر، فيكون نزلاً معدًا إعدادًا يفوق كل ما يخطر على بالنا، ولقد سافرت مرة إلى سان فرانسيسكو [2] ، وأرادوا أن يبهرونى بالحضارة والتقدم، فأنزلونى فى أفخم فنادق المدينة ، الذى فيه كل وسائل الراحة وكل الإمكانات؛ لتحصل على ما تريد وأنت جالس فى مكانك ، وسألونى ما رأيك ؟.

قلت: إذا كان هذا من صنع البشر للبشر فكيف يكون صنع الله سبحانه وتعالى للبشر فى الآخرة ؟ ولذلك يقول أحد الصالحين : ما رأيت نعيمًا

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].
أخرجه البخارى [٣٢٤٤] واللفظ له ، ومسلم [٢٨٢٤ / ٢].

(٢) ولاية بالولايات المتحدة الأمريكية .

عند أحد، إلا زاد إيمانى بأنه إذا كان هذا ما أعده بشر لبشر، فكيف بما أعده رب البشر للبشر؟! والناس حين ترى النعيم ينظر إليه أحدهم نظرة حقد، وينظر البعض الآخر نظرة إيمان ، الذى ينظر نظرة حقد، يحرم نفسه من صيانة النعمة عند الغير، والرزق أو النعمة يعرف عنوان صاحبه، أما أنت فلا تعرف عنوان الرزق أبدًا ، وإذا فرحت بالنعمة عند إنسان فثق بأنها ستطرق بيتك، وإن كرهتها عند غيرك، فلن تقترب منك، وإن أردت خيرًا للناس كل الناس فستأتيك النعمة .

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ إخبار يؤكد أن إخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعلهم يأتون وينزلون عنده؛ ليقول لهم أحضروا إلى أخاكم من أبيكم، ثم يتبع ذلك بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ . الوقت وقت مجاعة وجدب وقحط، ومثل هذا الإنذار يجعلهم يحاولون أن يأتوا بأخيهم بأى طريقة؛ لأن يوسف لو نفذ تهديده ،ومنع عنهم الكيل فسيواجهون الموت جوعًا .

يوسف عليه السلام قال لهم: إن لم تأتونى بأخيكم من أبيكم، فلا يوجد لكم كيل عندى، ولا تقربوا هذه الناحية أبدًا ؛ لتحصلوا على طعام .

المسألة بالنسبة للإخوة ليست سهلة، فهو خيّرهم بين أن يأتوا بأخيهم، أو لا يأخذون الكيل .

وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم، بعد ما فعلوه بيوسف، حتى يسلمهم أخاه الصغير ؛ لذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١] كلمة سنراود أى سنتفاهم مع أبينا؛ لأن هذه مسألة صعبة، والمراودة أخذ ورد، أنت تقول

وهو يرد عليك ، ثم ترد عليه. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا .

ماذا فعل يوسف؟ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ البضاعة هى ما جاءوا به ثمنًا للقمح، يوسف قال لرجاله: أعطوهم القمح، وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها ، وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها، إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم، ولماذا يضع البضاعة؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى لعلهم يعودون مرة أخرى؛ ليردوا ثمن ما أخذوه . ماذا فعل إخوة يوسف حينما عادوا إلى أبيهم؟ .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ [يوسف: ٦٣] منع منا الكيل : أى أنهم لم يلحظوا أن يوسف قد جهزهم بالقمح الذى أرادوه ، أو منع منا الكيل : أى فى المستقبل بعد هذه المرة؛ لأن العزيز قال لنا: إن لم تحضروا أخاكم ﴿ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى: إذا أردتنا أن نأتى لك بالقمح، فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا. ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى أن إخوة يوسف قالوا ليعقوب عليه السلام: منع منا الكيل، ولن نأخذ كيلاً إلا إذا كان معنا أخونا، ولا تخش شيئًا فإننا سنحفظه، ولن يحدث له أذى ، ورد الأب الملتاع[1] بفقد ابنه، كما يقص

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حُرقة الحزن والهوى والوجد. لاعه الحب يلوعه لوعًا، فلاع يلاع والْتاعَ فؤاده أى: احترق من الشوق .=

علينا القرآن الكريم قائلاً: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [1] قول يعقوب: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ دليل على أنه وافق على أن يذهب أخو يوسف معهم، بعد أن أحس إخوة يوسف أن أباهم سيرسل معهم ابنه الصغير، نزلوا وبدأوا ينزلون ما فوق الإبل، فوجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم، التى أخذوها معهم ثمنًا للقمح ردت إليه، حينئذ قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ [يوسف: ٦٥] أى لا نريد أن نأخذ أخانا، فبضاعتنا موجودة

= اللاعة واللوعة : ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب ، وقد لعت لوعًا ولاعًا ولُووعًا كجزعت جزعًا . قال ابن بزرخ : يقال لاع يلاع ليعًا من الضجر والجزع والحزن ، وهى اللوعة . [لسان العرب : ٨/٣٢٧ ، ٣٢٨]

(١) قال الشوكانى فى قوله : ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كما تقدم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة ، والمعنى : أنه لا يأمنهم على بنيامين، إلا كما أمنهم على أخيه يوسف ، وقد قالوا له فى يوسف : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كما قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ثم خانوه فى يوسف، فهو إن أمنهم فى بنيامين، خاف أن يخونوه فيه، كما خانوه فى يوسف ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لعل هنا إضمار، والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم ، وقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ قرأ أهل المدينة : «حفظًا» وهو منتصب على التمييز . وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وابن عامر ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿حَافِظًا﴾ وهو منتصب على الحال .

وقال الزجاج : على البيان، يعنى التمييز، ومعنى الآية : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال فى يوسف : ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وقع له من الامتحان ما وقع .

[فتح القدير : ٣/ ٤٠، ٤١]

قلت : وهذا من باب قوله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » .

أخرجه البخارى [٦١٣٣] ومسلم [٢٩٩٨] من حديث أبى هريرة.

والقمح موجود [1].

وكل ما سنزداده إذا ذهبنا، هو حمل بعير، وهو البعير الذى سيركب عليه أخو يوسف ، وهذا كيل لا يساوى الإزعاج ، بل هو كيل يسير ، ولكن يعقوب يعلم أنه بعد فترة، سينتهى القمح الذى أحضروه، فلابد لهم من الذهاب، وهو فى نفس الوقت شيخ كبير، ولا يستطيع أن يصحبهم فى الرحلة ، فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ، وقال : ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أى لن أرسله معكم ، حتى تحلفوا لى بالله إنه لن يحدث له شىء، وسيعود معكم . ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، فى هذه الحالة فقط يكون ما حدث قدرًا لا يد لكم فيه .

ويعقوب الرسول المؤمن راض بقدر الله، مهما كان ولو كان فيه ضياع أولاده جميعًا، وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله ، وفعلاً أخذ منهم العهد والميثاق، وأشهد الله عليهم كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿فَلَمَّا

---

(١) قوله : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى : ماذا نريد ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ، كما قال قتادة: ما نبغى وراء هذا ، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل .

[تفسير ابن كثير [٢/ ٤٦٦].

وقال أبو حيان : وما نبغى ، «ما» فيه استفهامية أى : أى شىء نبغى ونطلب من الكرامة ، هذه أموالنا ردت إلينا. قاله قتادة . وكانوا قالوا لأبيهم : قدمنا على خير رجل ، أنزلنا وأكرمنا كرامة ، لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته .

وقال الزجاج : يحتمل أن تكون «ما» نافية أى : ما بقى لنا ما نطلب . ويحتمل أيضًا أن تكون نافية من البغى أى : ما افترينا فكذبنا على هذا الملك ، ولا فى وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة مردودة ، وهذا معنى قول الزمخشرى ما نبغى فى القول ما تتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك والكرامة . وقيل : معناه ما نريد منك بضاعة أخرى . [البحر المحيط : ٦/ ٢٩٦]

آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وهكذا أشهدوا الله على ما فى قلوبهم، واحتكموا جميعًا إلى الله سبحانه .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر ، وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه، ويزودهم بنصائحه ، قال يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال يعقوب هذا الكلام؛ لأنه شهد حفاوة يوسف بإخوته، رغم أنه لم يعلم السبب، ولا أن هذه البضاعة من عند يوسف عليه السلام، ولا أن يوسف هو عزيز مصر ، ولكنه أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أغراب، وهم حين يذهبون لإحضار القمح، يغادرون قريتهم إلى قرية غريبة، قد يكيد لهم الناس حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام. وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم، وربما خشى عليهم أبوهم من الحسد، كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة فى نفس يعقوب قضاها.

فكأن يعقوب يخشى على أولاده من الحسد، وهو يستعيذ بالله من ذلك، ممايدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد، إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى.

والحسد شىء لا نراه ، إنه إشعاع يخرج من العين لا نراه ولا ندركه، يُحدث ضررًا فى جسد المحسود، وفى الكون إشعاعات كثيرة لا نراها ، ولكن لها تأثيرها مثل أشعة الليزر مثلاً، وإشعاعات أخرى قد تؤذى أو تفتك، ما هو المانع فى أن الله قد جعل فى نفوس بعض خلقه ما يزيدها حقدًا على كل ذى نعمة ؟! وعندما يمتلىء إنسان بالحقد تخرج منه إشعاعات، فتصيب جسد إنسان آخر فيمرض بأمراض لا يعرف مصدرها.

والحقد هو الذى يصنع الشرارة التى تنطلق منها أشعة الحسد، ولكن

النظر بغير حقد لا يحدث ضررا .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وهكذا الحقد هو الذى يملأ الناس بانفعالات قوية، تؤدى إلى خروج شرارة من العين ، تصيب المحسود؛ ولأن هذه الشرارة غير مرئية فهى، فوق قوة البشر ، ولذلك طلب الله تعالى منا أن نستعيذ به ؛ ليقينا من شر الحسد ؛ لأن طاقة العبد الدفاعية لا تقوى على ذلك ، حينئذ عليك أن تستعيذ بالخالق[1]، لذلك كان رسول الله ﷺ كلما حزبه أمرٌ قام إلى

---

(١) يقول ابن القيم : روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ: « العين حق ولو كان شيء سابق القدر ، لسبقته العين » [1] .

وفى صحيحه أيضًا عن أنس ، أن النبى ﷺ رخص فى الرقية من الحمة والعين والنملة [2] .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « العين حق»[3].

وفى سنن أبى داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ، ثم يغتسل منه المعين [4] .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت: أمرنى النبى ﷺ أو أمر أن نسترقى من العين [5] =

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٨٨] بلفظ « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر ، سبقته العين. وإذا استغسلتم فاغسلوا » .

(٢) أخرجه مسلم [٢١٩٦ / ٥٨] بلفظ : عن أنس قال : « رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين ، والحُمَة ، والنملة » .

والحُمَة بالتخفيف : السم ، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة ؛ لأن السم يخرج منها .

والنملة : قروح تخرج فى الجنب .

(٣) أخرجه البخارى [٥٩٤٤] ، ومسلم [٢١٨٧] .

(٤) أخرجه أبو داود [٣٨٨٠] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٢٨٦] : صحيح .

(٥) أخرجه البخارى [٥٧٣٨] بلفظ : « أمرنى رسول الله ﷺ أو أمر أن يسترقى من العين » . وأخرجه مسلم [٢١٩٥] .

الصلاة، وحزبه أى خرج عن نطاق قدرته ،فيذهب إلى المسبب ، وكل ما فى الكون خاضع لإرادة الله .

= وذكر الترمذى ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن عروة ابن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزرقى ، أن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله إن بنى جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم فلو كان شيء يسبق القضاء، لسبقته العين » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (1) .

وروى مالك رحمه الله : عن ابن شهاب ، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جِلْدَ مُخَبَّأة ! قال : فلُبِطَ سهل ، فأتى رسول الله ﷺ عامرًا ، فتغيظ عليه وقال: « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت اغتسل له » ، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبيته، وأطراف رجليه ، وداخلة إزاره فى قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس (2) .

وروى مالك رحمه الله أيضًا عن محمد بن أبى أمامة بن سهل عن أبيه. . . الحديث وقال فيه : « إن العين حق ، توضأ له » فتوضأ له (3) .

وذكر عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه مرفوعًا « العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، لسبقته العين، وإذا استغسل أحدكم . فليغتسل»(4) ووصله صحيح.

قال الزهرى : يؤمر الرجل العائن بقدح ، فيدخل كفه فيه ، فيتمضمض ثم يمجه =

---

(1) أخرجه الترمذى [٢٠٥٩] بلفظ : إن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فإنه لو كان شيء سابق القدر ، لسبقته العين » وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد فى المسند [٦/ ٤٣٨] ، وابن ماجة [٣٥١٠] ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٦٨٢] : صحيح .

(2) أخرجه مالك فى الموطأ [٢/ ٩٣٨] فى أول كتاب العين .

(3) أخرجه مالك فى الموطأ [٢/ ٩٣٨] ، وابن ماجه [٣٥٠٩] ، وأحمد فى المسند [٣/ ٤٨٦]؛ وصححه ابن حيان [٦١٠٥] ، وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٨٢٨]: صحيح .

(4) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف [١٩٧٧٠] ، وإسناده صحيح لكنه مرسل . ووصله مسلم [٢١٨٨] بلفظ : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر ، سبقته العين. وإذا استُغسلتم فاغسلوا » عن ابن عباس .

....

= فى القدح ، ويغسل وجهه فى القدح ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى فى القدح ، ثم يدخل يده اليمنى. فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح فى الأرض ، ثم يصب على رأس الرجل الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة (١) .

والعين : عينان : عين إنسية ، وعين جنية ، فقد صح عن أم سلمة أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال: « استرقوا لها . فإن بها النظرة »(٢).

قال الحسن بن مسعود الفراء : وقوله : « سفعة » أى نظرة ، يعنى : من الجن يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح .

ويذكر عن جابر يرفعه : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »(٣) .

وعن أبى سعيد ، أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجان ، ومن عين الإنسان(٤) .

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجابًا ، وأكثفهم طباعًا ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس . وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها ، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا فى سببه ، وجهة تأثير العين .

فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سُمِّيه تتصل بالمعين ، فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث =

---

(١) ذكره البيهقى فى السنن [٩/ ٣٥٢] .

(٢) أخرجه البخارى [٥٧٣٩] واللفظ له ، ومسلم [٢١٩٧] والسفعة - بفتح السين ويجوز ضمها وسكون الفاء - سواد فى الوجه ، ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته ، وعن الأصمعى : حمرة يعلوها سواد ، وقيل : صفرة ، وقيل : سواد مع لون آخر، وقال ابن قتيبة : لون يخالف الوجه ، وكلها متقاربة .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية [٧/ ٩٠] ، وابن عدى ، والخطيب فى تاريخه [٩/ ٢٤٤] من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : « العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر».

(٤) أخرجه الترمذى [٢٠٥٨] بلفظ : « كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان ، حتى نزلت المعوذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما » وقال : حديث حسن غريب. وأخرجه النسائى فى المجتبى [٨/ ٢٧١] ، وابن ماجه [٣٥١١]، وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٨٣٠] : صحيح .

= قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر. وقالت فرقة أخرى: قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً ، وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم ، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

ولا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحى منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا. ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيذ به من شره ، وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة، تتكيف بكيفية خبيثة ، وتقابل المحسود ، فتؤثر فيه بتلك الخاصية ، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى ، فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية ، وتكيف بكيفية خبيثة مؤذية ، فمنها ما تشتد كيفيتها ، وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط الجنين ، ومنها ما تؤثر فى طمس البصر ، كما قال النبى ﷺ فى الأبتر ، وذى الطفيتين من الحيات : « إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل » (١) . =

---

(١) أخرجه البخارى [٣٢٩٧] بلفظ : عن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه سمع النبى ﷺ يخطب على المنبر يقول : « اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُّفيتين والأبتر ، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل » . وأخرجه مسلم [٢٢٣٣] عن سالم عن أبيه .

والطفيتان : هما الخطان الأبيضان على ظهر الحية ، والأبتر قصير الذنب .

وقال الإمام النووى : قوله ﷺ: « يستقسطان الحبل » معناه : أن المرأة الحامل إذا نظرت =

= ومنها ما تؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ؛ لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة ، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسيمة، كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل ، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره ، وكثير من العائنين يوثر فى المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وقال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥] ، فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائنًا ، فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود ، والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه ، أثرت فيه ولابد ،وإن صادفته حذرًا شاكى السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين ، وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى ، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عرف بذلك حبسه =

= إليهما وخافت ، أسقطت الحمل غالبًا ، وقد ذكر مسلم فى روايته عن الزهرى أنه قال : يرى ذلك من سمهما .

وأما « يلتمسان البصر » : ففيه تأويلان ذكرهما الخطابى وآخرون :

أحدهما : معناه يخطئان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه ، لخاصة جعلها الله تعالى فى بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان .

والثانى : أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش ، والأول أصح وأشهر .

[شرح النووى على مسلم : ٧/ ٤٩٤ ، ٤٩٥]

إذن فإذا قابلت شيئًا، لم تستطع أن تواجهه بأسبابك، فقف بين يدى الله تعالى، واطلب منه العون ، إن يد الله ممدودة إليك بالأسباب، فلا تترك يد الله الممدودة بالأسباب، وتقول: يا رب افعل لى ولكن خذ بالأسباب أولاً؛ ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] ثم إن نفرا من الناس يقول: أنا أدعو الله كثيراً ولا يستجيب. نقول له: إنك لم تدع دعوة المضطر ، ولم تستنفد الأسباب ، بل تركتها، وأردت أن يفعل لك الله ،ولو أنك أخذت بالأسباب، ربما قضى الله لك حاجتك .

قال يعقوب لأولاده : ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعقوب أراد أن يقى أولاده شر الحسد، فقال لهم: لاتدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة؛ حتى لا يحسدكم الناس على كثرة عددكم وعلى قوتكم.

وقال: إن تفرقكم لن يغنى عنكم من الله من شيء ، فالحكم كله لله قضاءً وقدراً ، وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ، ودخلوا من أبواب متفرقة .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب، لم يكن ذلك لينجيهم، أو يمنع عنهم قدرًا من أقدار الله، فالأمر كله لله ، ولكن خاطرًا ورد على نفس يعقوب فقضاه ، وهو أنه خاف أن يحسدوهم ، أو أن يتشككوا فيهم ، أو أى

= الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت ، وهذا هو الصواب قطعًا.

[زاد المعاد : ٤/١٦٢:١٦٨].

خاطر آخر .

لذلك يقول الحق تعالى عن يعقوب : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى أنه لم يقل لأولاده ، ادخلوا من أبواب متفرقة من فراغ ، ولكن كان عن علم علمه الله له ، علم خاص بيعقوب : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . أى أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب، ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا[1] . *

ونتقل إلى مشهد آخر من مشاهد قصة يوسف عليه السلام، حين وصل إخوة يوسف إليه ، ورأى يوسف عليه السلام أخاه، أخذه وضمه إليه وفى ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ وكان يوسف متشوقًا إلى أخيه، الذى لم يره منذ سنوات طويلة ، وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة ، وأراد يوسف أن يطمئن أخاه؛ لأنه لم يكن يدرى شيئًا عن قصة يوسف والبئر؛ لأنه كان صغيرًا. ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: لا تحزن فأنا أخوك يوسف ، وقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] دليل على أنهم كانوا يعاملونه

---

(١) يقول فى التفسير الوسيط :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ : وإن يعقوب لصاحب علم جليل؛ لأجل تعليمنا إياه بالوحى ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير بتغيير قضاء الله ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله ، وإنما يحذر الناس ويدبرون ، لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره . فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القدر ، ويزعمون أن الحذر يغنى من القدر .

(٢) قال البقاعى : أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال :=

معاملة مهينة ؛ حقدًا منهم كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام، وكل ماطلبوه وجعل السقاية فى رحل أخيه ، والسقاية تطلق إطلاقات متعددة : سقاية الماء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

إذن.. فالسقاية هى المكان الذى يوضع فيه الماء ؛ ليشرب منه الناس ، والسقاية هى الإناء الذى يملأ بالماء؛ ويعطى للناس لتشرب، وما داموا قد

= ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ أى بنوه عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فى هذه القدمة الثانية ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ شقيقه بنيامين، بعد أن قالوا له: هذا أخونا الذى أمرتنا به قد أحضرناه ، فقال : أصبتم ، وستجدون ذلك عندى ، والإيواء : ضم النفس بالتصبير إلى موضع الراحة ؛ وسبب إيوائه إليه أنه أمر كل اثنين منهم أن يأكلوا على حدة ، فبقى بنيامين بلا ثان ، فقال : هذا يأكل معى ، ثم قال ليا : وكل اثنين منكم فى بيت من خمسة أبيات أفردها لهم ، وهذا الوحيد يكون معى فى بيتى ، وهذا التفريق موافق لما أمرهم به أبوهم فى تفريق الدخول ، فكأنه قيل : ماذا قال له؟ هل أعلمه بنفسه؟ أو كتم ذلك عنه كما فعل بسائر إخوته ؟ فقيل : بل ﴿قَالَ﴾ معلما له ؛ لأنه لا سبب يقتضى الكتم عنه ، كما سيأتى بيانه مؤكدا لما للأخ من إنكاره؛ لطول غيبته وتغير أحواله، وقطع الرجا منه ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [يوسف:٦٩] ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ أى تجتلب البؤس . وهو الكراهة والحزن ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أى سائر الإخوة ، كوناهم راسخون فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مما يسوءنا وإن زعموا أنهم بنوا ذلك العمل على علم ، وقد جمعنا الله على خير ما يكون عليه الاجتماع ، ولا تعلمهم بشىء من ذلك ، ثم إنه ملأ لهم أوعيتهم كما أرادوا .

[نظم الدرر : ١٠/١٦٧، ١٦٨].

وضعوها فى المكان الذى يوضع فيه ما يحمله البعير، فهى إناء يشرب منه الملك مثل الكأس ، وأحيانًا يجعلونه مكيالاً وهو فى العادة يكون نفيسًا .

ويقولون: السقاية هى الصواع أو الصاع ،فهى تطلق على المكان الذى يوجد فيه الماء، وعلى الآلة التى يرفع بها من المكان إلى فم الشارب(١).

و ﴿جَعَلَ﴾ هنا لا تعنى أنه قام بنفسه بهذا ،بل أمر القائمين بالكيل أن يجعلوا السقاية فى رحل أخيه .

ثم بعد ذلك جاء رجل من الحاضرين، وقال بصوت عالٍ : إنكم لسارقون أى اتهمهم بالسرقة ، وهذا اتهام خطير شد انتباههم، لقد كانوا جالسين متفرقين أو بعيدين عن الإبل التى تحمل القمح، فلما سمعوا ذلك المنادى ، تنبهوا وأقبلوا يسألونه: ما الذى ضاع؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ .

إذن فصواع الملك(٢) هو الذى وضعوه فى راحلة أخى يوسف ، ولقد

---

(١) المِسْقاة والمَسْقاة والسِّقاية : موضع السقى . والسقاية : الإناء يُسقى به . وقال ثعلب: السقاية هو الصاع والصُّواع بعينه . والسِّقايةُ : الموضع الذى يُتَّخذ فيه الشَّراب فى المواسم وغيرها . والسِّقاية فى القرآن : الصُّواع الذى كان يَشْرَب فيه الملك ، وهو قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وكان إناءً من فضَّة ، كانوا يكيلون الطعام به . ويقال للبيت الذى يُتَّخذ مَجْمَعًا للماء ، ويُسْقى منه النَّاسُ : السِّقاية . وسقاية الحاجِّ : سَقْيُهم الشراب .

[لسان العرب : ١٤/ ٣٩١، ٣٩٢]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف، قال له : لا تردنى إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بى فيزداد غمه ، فأبى بنيامين الخروج، فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالى ! فدس الصاع فى رحله ، إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد ، أو أمر بعض خواصه بذلك .

والتجهيز: التسريح، وتنجيز الأمر ؛ ومنه جهز على الجريح أى قتله ونجز أمره. =

وضع صواع الملك؛ لتكون جريمة كبرى فى حق الملك، ولابد لها من عقاب ، ولا تنفع فيها الشفاعة .

ثم قال الذى كلف بإعلان نبأ السرقة ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أى أن الذى سيأتينا بهذا الصواع لن نعاقبه، بل سنعطيه حمل بعير زيادة .

والسرقة اتهام قبيح، ولذلك أسرع إخوة يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئًا . وقالوا : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا

= والسقاية والصواع شىء واحد ، إناء له رأسان فى وسطه مقبض ، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد ، ويكال الطعام بالرأس الآخر ؛ قاله النقاش عن ابن عباس ، وكل شىء يشرب به فهو صواع ؛ وأنشد.

نشرب الخمر بالصواع جهارا وترى المتك بيننا مستعارا

واختلف فى جنسه ؛ فروى شعبة عن أبى بشر عن سعد بن جبير عن ابن عباس، قال : كان صواع الملك شىء من فضة يشبه المكوك ، من فضة مرصع بالجوهر ، يجعل على الرأس، وكان للعباس واحد فى الجاهلية ، وسأله نافع بن الأزرق ما الصواع ؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

له درمك فى رأسه ومَشَـــارِبٌ وَمِسْـــكٌ وَرَيْحَـــانٌ وَرَاحٌ تُصَفَّقُ (١)

وَحُورٌ كَأَمْثَالِ الدُّمَى ، وَمَنَاصِف وَقِدْرٌ ، وَطَبَّاخٌ ، وَصَاعٌ ، وَدَيسَقُ (٢)

وقال عكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزة الطعام . والصاع يذكر ويؤنث ، فمن أنثه قال : أصوع ، مثل أدور ، ومن ذكره قال أصواع ، مثل أثواب . [تفسير القرطبى : ٩/٢٢٩، ٢٣٠]

---

(١) درمك : تراب ناعم ـ مشارب ، جمع مشربة : مقصورة تبنى على سطح البيت ، وهى العلية .

(٢) حور ، جمع حوراء : صفة المرأة إذا اشتدّ بياض عينيها وسوادها .

الدمى : الصور - المناصف : الخادمات - ديسق : وعاء من فضة .[ديوان الأعشى: ١٧٩]

الذى فى القرطبى : له درمك فى رأسه ومشاربٌ وقدرٌ وطباخٌ وصاعٌ ودَيَسَقُ

والتصويب من ديوان الأعشى .

سَارِقِينَ﴾ أى أنهم أقسموا أنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض، وأنهم أمناء لا يسرقون؛ لأنهم من الأسباط ، ولا تمتد أيديهم إلى السرقة [1].

أراد يوسف أن يأخذ أخاه بحيلة لا يتنبهون إلى أنها مدبرة ، أو أنه هو يوسف ؛ لذلك أمر رجاله فقالوا: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ وهذا هو القصد الذى أراد يوسف أن يصل إليه، هو أن يترك إخوته يحددون العقوبة على أخيهم، ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ، وهنا قال إخوة يوسف: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ وهذه هى القضية، لقد صدر الحكم من إخوة يوسف، وبرضاهم ولا يستطيعون التراجع فيه[2]، ويوسف أمر رجاله أن يضعوا صواع الملك فى رحل أخيه؛

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى :﴿قَالُوا﴾ قول البرىء ﴿تَاللَّهِ﴾ أى الملك الأعظم ، فاقسموا قسما مقرونا بالتاء ؛ لأنها يكون فيها التعجب غالبا ، قال الرمانى: لأنها لما كانت نادرة فى أدوات القسم ، جُعلت للنادر من المعانى، والنادر من المعانى يتعجب منه ، وقال : إنها بدل من الواو . والواو بدل من الباء ، فهى بدل من بدل ، فلذلك ضعفت عن التصريف فى سائر الأسماء، ثم أكدوا براءتهم بقولهم : ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أى بما جربتم من أمانتنا قبل هذا فى كرتى مجيئنا ﴿مَّا جِئْنَا﴾ وأكدوا النفى باللام فقالوا:﴿لِنُفْسِدَ﴾ أى نوقع الفساد ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لقد علمتم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أى بوجه من الوجوه ﴿سَارِقِينَ﴾ أى موصوفين بهذا الوصف قط ، بما رأيتم من أحوالنا ؛ من ردنا بضاعتنا التى وجدناها فى رحالنا، وغير ذلك مما عاينتم من شرف فعالنا، مع علمنا بأنها خلق لنا ، لا تصنّع يظهر لبعض الأذكياء بأدنى تأمل .
[نظم الدرر : ١٠/١٧١، ١٧٢].

(٢) كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، التى يلتزم بها الناس على عهد يعقوب، تقضى أن صاحب الشىء المسروق يسترق السارق ويأخذه عبدا رقيقا لمدة عام .
أما فى شريعة موسى عليه السلام . كما فى التوراة ـ سفر الخروج ـ فتقضى بأن يرد المسروق مضاعفا ، وإما أن يؤخذ السارق مسترقا لمدة ست سنوات .
أما فى الإسلام قال الله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

ليأخذه ويبقيه عنده ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ولم يقل : كدنا يوسف؛ لأن الكيد لم يقع على يوسف ، وإنما كان له ولم يكن عليه .

ماذا فعل يوسف بعد ذلك؟ أمر رجاله أن يبدأوا أولاً بأمتعة إخوته، والإبل التى جاءوا بها، وأن يتركوا البعير الخاص بأخيه من أمه آخر ما يفتشونه، فيقول الحق سبحانه: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولاً ؛ لانكشفت الحيلة، ولكنه بدأ بأوعيتهم أولا، وآخر ما فتشوا كان وعاء أخيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي

نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] .

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم ؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يستعبد ويسترق فـ ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ خبره والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد فى رحله ، فهو كناية عن الاستعباد، وفى الجملة معنى التوكيد، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه .﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُسترقُّوا ، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه. وقولهم هذا قول من لم يَسْتَرِب نفسه ؛لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ ، قاله الحسن والسدى وغيرهما .

مسألة : قد تقدم فى سورة المائدة (*) أن القطع فى السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان فى شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم.

[تفسير القرطبى: ٩/ ٢٣٤، ٢٣٥] .

(*) انظر تفسير القرطبى [٦/ ١٦٢] .

عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] أى أن الله سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل، الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه، وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه ، وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله.

وقوله تعالى : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ تدلنا على أن اتهام شقيق يوسف بالسرقة، لم يكن لكى يعذب فى الآخرة، ويقام عليه الحد فى الدنيا، فهو فى الحقيقة برىء لم يسرق ، ولكن كان هذا لرفع درجاته فى الدنيا والآخرة، حيث سيعيش مع أخيه عزيز مصر عيشة رغدة، بعد أن كان إخوته يحقدون عليه، ويجعلون حياته مليئة بالمضايقات ، وفى نفس الوقت سيكون مع نبى الله يوسف، فيزداد علواً فى الآخرة بتطبيقه منهج الله الصحيح ، فكأن الله سبحانه وتعالى حينما كاد ليوسف بالاتهام بالسرقة الذى وجه إلى أخيه، كان ذلك فى رفع الدرجات.

الله سبحانه وتعالى يلفتنا هنا، إلى ألا نأخذ أقداره بمظهرها فقط ، بل نعرف أن لها حكمة ، وكثير من المصائب التى تحدث للناس، قد لا يعرفون أنها قد تؤدى بهم إلى خير كثير ، ولذلك فإن كل أقدار الله التى تحدث للإنسان، من غير رأى أو اختيار منه، لابد أن يتقبلها؛ لأن الله فيها منحة وعلو درجة(١) ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

ذى علم : يعنى صاحب علم ، ولكن فوقه عليم (٢).

---

(١) عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » . أخرجه مسلم [٢٩٩٩] .

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ : روى إسرائيل عن =

. . . .

= سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم.

وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذى علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت ، الله العليم وهو فوق كل عالم .

[تفسير القرطبى : ٩/٢٣٨].

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ : ليس عالم إلا فوقه عالم ، حتى ينتهى العلم إلى الله . [تفسير الحسن البصرى : ٢/ ٤٠]

* فأسرها يوسف في نفسه *

إن إخوة يوسف اعتقدوا حين جاء الاتهام بفقد صواع الملك، أو الإناء الذى يشرب فيه ، اعتقدوا أن فى هذا شرًا لأخى يوسف، هذا هو مبلغ علمهم، ولكن العليم الذى دبر ونفذ وأحكم، كان يعلم أن هذا رفع للدرجات لأخى يوسف. فماذا فعل الإخوة؟ لقد كانوا يكرهون يوسف وأخاه، ويقولون: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] إذن.. فعندهم كره له ولأخيه؛ لأنهما ابنا امرأة أخرى هى راحيل، ولذلك بمجرد أن اتُّهم، لم ينظروا ما إذا كان هذا الاتهام صادقًا أم كاذبًا، وإنما بدأوا يهاجمونه ، ويقولون: ما نزل علينا البلاء إلا منك ومن أخيك، أى منه ومن يوسف ، وأسرعوا يظهرون حقدهم، وأن الوقت والسنوات الطويلة لم تغير ما فى قلوبهم تجاه يوسف، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ فأظهروا بذلك الحقد الذى يملأ قلوبهم.

وقوله تعالى : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾ فهذه قضية شرطية، أى إن حدث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر، تقول لابنك: إن تذاكر دروسك جيدًا تنجح ، إذن فهناك حدثان : حدث المذاكرة وحدث النجاح، فكأن حدوث النجاح يشترط له أن تكون مذاكرا، والذى يأتى أولاً هو الشرط، فما دام هناك حدث فهناك شرط لوجوده قبل أن يحدث.

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا هو الشرط يأتى أولاً ، ولكن الآية الكريمة تقول: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وكان المفروض: إن يسرق

الآن يحدث كذا وكذا، ولكن الآية جاءت بأمر غير منطقى فى الشرط .

وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم عدة مرات ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] إن يكذبوك الآن يأتى جواب الشرط: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ، وهذا أمر غير منطقى؛ لأن الزمان الذى يحدث فيه جواب الشرط، لابد أن يكون بعد الزمان الذى يحدث فيه الشرط ، ولكن هناك كلامًا آخر فى الأسلوب، الله سبحانه وتعالى يقول: إن يكذبوك الآن فقد كذبوا رسلاً قبلك .

إذن . . فهذه المسألة هى دليل الجواب وليست الجواب، ومعنى الآية الكريمة: فإن كذبوك يا محمد فيما تنقل إليهم من أخبار الوحى ، فلا تبتئس ولا تحزن؛ لأنه قد كذبت رسل من قبلك ، هذا دليل الجواب أو حيثيات الجواب . إذن الشرط استقام.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له: إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر!! لماذا؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل، لقد سرق أخوه الأكبر من قبل ، وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه ، وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه، حين يسمع يوسف هذا الكلام لابد أن تخرج الملكات عن استقامتها؛ لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة ، لابد أن يحزنه ويؤلمه ، ولذلك لابد أن يحدث انفعال مضاد: هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج ، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عنيف.

وكان يوسف عليه السلام يستطيع أن يبرىء نفسه وأخاه من تهمة السرقة، كان يستطيع أن يقول لهم: أنا لم أسرق وأخى لم يسرق، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا ، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن

شخصيته، وهو يريد أن يبقى مجهولاً لديهم، فهو برىء من السرقة وأخوه برىء، ولكنه لايستطيع أن يتكلم، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧] إذن فهذا الاتهام أثار فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه.

ورسول الله ﷺ يقول ما معناه: «إذا غضب أحدكم فليغير وضعه فإن كان واقفًا يقعد وإذا كان جالسًا يقوم ويمشى»(١) وذلك حتى لا يحدث منه انفعالات ضد من أغضبه ، يوسف قال فى نفسه كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لماذا؟.. لأنهم جاءوا بقصة كاذبة ، بأن يوسف أكله الذئب، كما أنهم يؤكدون اتهامًا باطلاً بأن يوسف سرق. يوسف لم يأكله الذئب ولم يسرق، ولكن أنتم الذين سرقتم ، سرقتم طفلاً من أبيه هو يوسف عليه السلام.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هنا لابد أن نفهم أن يوسف عليه السلام لم يقل قولاً سمعه إخوته ، بل هو قالها فى نفسه؛ لأنه لو قالها علنًا ونطق بها لكشف عن نفسه وهو مالا يريده، ولا تتعجب ، فإن الإنسان يقول لنفسه، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ إذن فهم قالوا فى أنفسهم، كما قال يوسف: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

---

(١) عن أبى ذر قال : إن رسول الله ﷺ قال لنا : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع ».

أخرجه أبو داود [٤٧٨٢]، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٠٠] : صحيح ، وأحمد فى المسند [٥/١٥٢] ، وابن حبان [٥٦٨٨] ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

كلمة ﴿تَصِفُونَ﴾ أى بمعنى تنعتون أو تبدون من الصفات ، أى أنها تطلق على الكذب ، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] ويقول سبحانه :﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] إذن فـ ﴿تَصِفُونَ﴾ إذا جاءت تلفتك إلى أن الذى يقال كذب ، فكأن يوسف يقول الله يعلم إنكم لكاذبون(١).

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ قال الزجاج وغيره : الضمير فى أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة ، كأنه قيل : فأسر الجملة فى نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وقد رد أبو على الفارسى هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل . وقيل : الضمير عائد إلى الإجابة ، أى أسر يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر ، وقيل أسر فى نفسه قولهم : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وهذا هو الأولى ، ويكون معنى : ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة ، التى أسرها فى نفسه ، بأن يذكر لهم صحتها أو بطلانها ، وجملة : ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مفسرة على القول الأول ، ومستأنفة على القولين الآخرين ، كأنه قيل : فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة ؟ أى ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أى موضعًا ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ؛ فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجب ، والكذب على أبيكم ، وغير ذلك من أفاعيلكم ، ثم قال : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف ، وأنه لا حقيقة لذلك.

[فتح القدير : ٣/ ٤٧]

* إنا نراك من المحسنين *

إخوة يوسف حين أحسوا أن أخاهم سيؤخذ منهم، وأنهم سيعودون إلى أبيهم من غيره ، تذكروا وعدهم لأبيهم ، فبدأوا يستعطفون يوسف ، الذى لم يعرفوا شخصيته الحقيقية؛ لكى يطلق سراح أخيه . قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] إذن فقد حاولوا أن يستخدموا الضعف؛ ليرق يوسف لهم ويترك أخاهم، قالوا: إن لهم أبًا عظيمًا فى قومه وهو شيخ كبير، وإذا بلغه أن ابنه قد سرق، فهذه تهزه من داخل نفسه، وتهزه فى شرفه بين قومه ، تمامًا كما يُتهم إنسان فى جريمة ، وتقول: اتركوه ؛ لأن أبويه صالحان كريمان فلا تفضحوهما.

وسواء كانوا يقصدون شيخاً كبيراً ، كبر فى مقامه بين قومه أو كبر فى سنه بحيث لا يتحمل الصدمة .

ثم انطلقوا بعد ذلك يعرضون أنفسهم بدلاً منه، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى أنه إذا كان لابد أن تأخذ واحداً بجريمة السرقة التى حدثت، فخذ أحدنا مكانه واتركه يعود إلى أبيه. وهنا رد يوسف عليه السلام كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩] أى أن يوسف رفض أن يأخذ أحدهم، وقال: لا أريد إلا الحق، ولو أخذت إنسانًا بذنب إنسان آخر أكون من الظالمين.

حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف، بل إنهم

ظلوا يناقشونه حتى بلغوا مرتبة اليأس، أى قطع الأمل من الشىء تمامًا ، كما يقول الأطباء: الطب يئس من علاج هذا المريض ، أى : لا أمل فى علاجه.

* فلما استيأسوا منه *

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]

عندما أحس الإخوة أنه لا فائدة من الجدل مع يوسف، فى أن يعطيهم أخاهم خلصوا نجيا، أى أنهم ابتعدوا عن العزيز ومن حوله، وجلسوا فى مكان خالص لهم، وخالص معناها : لا يوجد شيء غريب ، تمامًا كما تضع الذهب فى البوتقة كى تخلصه من المعادن الأخرى ؛ ليصبح ذهبًا صافيًا لا يختلط به شيء.

إخوة يوسف ابتعدوا إلى مكان خالص لهم ، لا يشاركهم فيه أحد، ولا يسمعهم أحد ، وجلسوا يتشاورون ، على أننا نلاحظ أن كلمة ﴿خَلَصُوا﴾ جمع و﴿نَجِيًّا﴾ مفرد وهذه من ضمن الأشياء التى يثيرها بعض المستشرقين للتشكيك فى القرآن الكريم، نقول لهم: تفهموا اللغة العربية ؛ فهناك ألفاظ يتساوى فيها المفرد والجمع[1]، واقرأ قول الحق

---

(١) نجاهُ نجوا ونجوى : سارَّه . والنجوى والنجى : السِّر . والنجو : السر بين اثنين ، يقال: نجوته نجوا أى ساررته ، وكذلك ناجيته ، والاسم النجوى ؛ قال :

فبت أنجو بها نفسًا تكلفنى   ما لا يهم به الجثامة الورع

وفى التنزيل العزيز: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ فجعلهم هم النجوى ، وإنما النجوى فعلهم كما تقول: قوم رضا ، وإنما رضًا فعلهم . والنجى ، على فعيل : الذى تسار، والجمع الأنجية. قال الأخفش: وقد يكون النجى جماعة مثل الصديق، قال الله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ قال الفراء: وقد يكون النجى والنجوى اسما ومصدرًا.

[لسان العرب : ١٥/٣٠٨] =

سبحانه : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] لم يقل الله سبحانه وتعالى والملائكة ظهراء. وقوله جل جلاله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل: أعداء ، لماذا؟ . . لأن كلمة ﴿عَدُوٌّ﴾ معناها أنهم جميعًا مشتركون فى العداوة ، يجمعهم هدف واحد .

ساعة يئسوا من يوسف ذهبوا إلى مكان ليتناجوا فيه ، وعادةً فى مثل هذه الحالات يكون الرأى الأول للكبير منهم؛ لأنه أرجحهم عقلاً وأكثرهم حكمة ،إذن فهم عندما ذهبوا إلى المكان، ليتناجوا كان لابد أن يبدأ الكبير بالحديث .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى أنه إذا أردتم أن تتناجوا ،فلابد أن تكون المناجاة فى إطار أنكم عاهدتم بموثق من الله ، أن حكاية يوسف لن تتكرر ، وأنكم ستعودون إلى أبيكم، ومعكم أخوكم شقيق يوسف من الأب والأم ، وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ لأنكم وعدتم أباكم أن ما حدث مع يوسف لن يتكرر .

ثم قال كبيرهم وهو أكبر الإخوة سنا : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذن فكبيرهم أوضح خطته

= وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿نَجِيًّا﴾ : نصب على الحال من المضمر فى ﴿خَلَصُوا﴾ وهو واحد يؤدى عن جمع ؛ كما فى هذه الآية ويقع على الواحد كقوله تعالى : ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وجمعه: أنجية . [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٤١]

ووضع ثلاثة شروط :

أولها : أنه سيبقى فى المكان الذى فيه أخوه ، حتى يأذن له أبوه أن يعود، ولن يتحرك من هذا المكان إلا إذا اقتنع أبوه ببراءته.

أما الشرط الثانى: أن يحكم الله له، أى يحكم بأن يسلموه أخاه، فيأخذه معه ويذهب .

الشرط الثالث : فإذا لم يحدث هذا، فسيبقى فى هذه الأرض حتى يموت ، والله هو خير الحاكمين (١) .

لأنهم إذا كان لهم يد وتدبير فيما حدث مع يوسف، فليس لهم يد وتدبير فيما حدث مع أخيه ؛ ولأن هذا الأخ هو الكبير، وهو المسئول عن إخوته، فلم يقدر أن يتحمل مسئولية إبلاغ أبيه بما حدث؛ لأن هذه صدمة كبيرة على الأب الذى فقد يوسف، ثم فقد أخاه الأصغر بنيامين، ولم يفكر هذا الكبير أنه لو بقى فى هذا المكان فسيفقد أبوه الابن الثالث، ثم أصدر أوامره إلى إخوته : ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ، فكأنه طلب من

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾ أى أفارق هذه الأرض بسبب هذا ، وإيصاله الفعل بدون حرف، دليل على أنه صار شديد الالتصاق بها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فى الذهاب منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أى الذى له الكمال كله ، ووثقنا به ﴿لِي﴾ بخلاص أخى، أو بالذهاب منها بوجه من الوجوه التى يعلمها ، ويقدر على التسبب لها ﴿وَهُوَ﴾ أى ظاهرا وباطنا ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذا أراد أمرًا بلغه بإحاطة علمه، وشمول قدرته، وجعله على أحسن الوجوه وأتقنها، فكأنه قيل : هذا ما رأى أن يفعل فى نفسه ، فماذا رأى لإخوته ؟ فقيل : أمرهم بالرجوع ليعلموا أباهم؛ لإمكان أن يريد القدوم إلى مصر ؛ ليرى ابنه أو يكون عنده رأى فيه فرج.

[نظم الدرر : ١٠/١٩٢، ١٩٣]

إخوته أن يعودوا إلى أبيهم، ويقولوا له القصة بحقائقها، يقولون: إن ابنك سرق وهم لم يقولوها جزافًا ؛ لأنهم قالوا ما علموا : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أى أنهم لم يجزموا ، إنما قالوا هذا من ظاهر الأحداث التى علموا بها : (١) ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أى ما كنا نعلم أن ابنك

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى: قوله تعالى : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ، كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دس هذا فى رحلى من دس بضاعتكم فى رحالكم، قال معناه ابن إسحاق .

وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسترقّ إلا بما علمنا من دينك ، قاله ابن زيد. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أى لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا نأخذه .

وقال مجاهد وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يسترقّ ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق .

وقال ابن عباس : يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام ، والغيب هو الليل بلغة حمير ، وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع فى ليله ونهاره وذهابه وإيابه .

وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خلل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته.

وقيل: معناه: قد أخذت السرقة من رحله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سرّقوه ولم يسرق .

الثانية: تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ، فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن علم ، ولا يقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل فى الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة، وكذلك الشهادة على الخط - إذا تيقن أنه خطه أو خط فلان - صحيحة فكل من حصل له العلم بشىء، جاز أن يشهد به، وإن لم يشهده المشهود =

يسرق، ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لأنهم كذبوا فى قصة يوسف، فإنهم يعرفون أن أباهم لن يصدقهم فى هذه القصة، فقالوا : إنك يا أبانا لن تصدقنا، ولكن اسأل القرية التى كنا فيها ، والقافلة التي عدنا معها .

هنا نلاحظ أن قولهم : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ الأحداث محتاجة إلى فاعل، وإلى مكان وإلى زمان، ولكن هل سيسأل يعقوب القرية ، مساكنها وشوارعها؟ . . طبعًا لا ، وإنما سيسأل أهل القرية، لماذا لم يأت السياق: واسأل أهل القرية؟ لأن حادث السرقة يعرفه كل من كان فى القرية، فلو سأل أى واحد فسيرويه له، حتى إنه من وضوحه سيشهد به الجماد، وما دام يعقوب نبى ، فلو أنطق الله له الجماد لروى له القصة .

وقولهم : ﴿وَالْعِيرَ﴾ العير : هو ما يركب فى القافلة، سواء كانت ناقة أو جملاً أو بغلاً أو غير ذلك، إنها الدواب التى تحمل البضاعة فى

= عليه ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقال رسول الله ﷺ :« ألا أخبركم بخير الشهداء ، خير الشهداء ، الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها » (١) .

الثالثة: اختلف قول مالك فى شهادة المرور ، وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا، فإن استوعب القول شهد فى أحد قوليه ، وفى القول الآخر حتى يُشهداه . والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب ، وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه قد حصل المطلوب ، وتعين عليه أداء العلم ، فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها، والله أعلم.

الرابعة : إذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردت ؛ لأنه ادعى باطلاً فأكذبه العيان ظاهرًا . [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٤٤،٢٤٥]

---

(١) أخرجه مسلم [١٧١٩] واللفظ له ، وأبو داود [٣٥٩٦] ، والترمذى [٢٢٩٧] ، وابن ماجه [٢٣٦٤] . عن زيد بن خالد الجهنى .

القوافل ، وفى العادة يكون معها عدد قليل من الحراس، ولكن هل سيسأل يعقوب العير؟ .. طبعًا لا، ولكن المفروض أنه سيسأل كل من كان فى القافلة[1].

وقولهم : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] هكذا أقسموا مرة أخرى أنهم يقولون الصدق، والدليل على صدقهم، أنهم استشهدوا بكل من كانوا معهم فى القافلة، والإنسان إن كان صادقاً استشهد بالناس، وإن كان كاذبًا هرب من الشهادة.

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وهى مصر ، والمعنى: واسأل أهل القرية فحذف ذكر الأهل إيجازًا ؛ لأن الحال تشهد به .

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وفى ﴿وَالْعِير﴾ وجهان :

أحدهما : أنها القافلة ، وقافلة الإبل تسمى عيرًا على التشبيه .

الثانى : الحمير ، قاله مجاهد ، والمعنى أهل العير .

وقيل فيه وجه ثالث : أنهم أرادوا من أبيهم يعقوب أن يسأل القرية ، وإن كانت جمادًا، أو نفس العير ، وإن كانت حيوانًا بهيمًا ؛ لأنه نبى ، والأنبياء قد سخر لهم الجماد والحيوان بما يحدث فيهم من المعرفة ؛ إعجازًا لأنبيائه ، فأحالوه عن سؤال القرية والعير ليكون أوضح برهانًا [1] .

[تفسر الماوردى : ٣/ ٦٨]

---

(١) قال العلامة الألوسى فى روح المعانى [١٣/ ٣٨] : ولا يخفى أن هذا لا يقى من ارتكاب مجاز . نعم هو معنى لطيف ، بيد أن الجمهور على خلافه ، وما أكثرهم على اعتبار مجاز الحذف .

أولاد يعقوب أخذوا يكررون أنهم صادقون؛ لأنهم كذبوا قبل ذلك بالنسبة ليوسف، وكان هذا موجودًا فى عقل يعقوب، ولذلك لم يصدقهم، بل قال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ إذن فهو مازال فى نفسه شك منهم و﴿سَوَّلَتْ﴾ بمعنى سهلت ويسرت وزينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أى تخفون شيئًا دبرتموه ولا أعرفه، ولماذا قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؟ [1] لأن الأشياء التى تخالف منهج الله، ويستحى منها الإنسان ويخشى عاقبتها، تستعصى على النفس فلا تقبل حدوثها؛ لذلك فإن النفس تحتاج لتبريرات؛ كى تطاوع صاحبها فى الفعل، ولذلك فإنه حين يبدأ الإنسان فى الإثم، يكون مترددًا خائفًا، يحاول أن يفعل الشىء، فتمنعه نفسه ولا تطاوعه، ولكن عندما يسهله لها وييسره ويزينه، تقدم النفس عليه بسهولة دون التردد وصعوبة التنفيذ.

والحق سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية فى آية أخرى، ولكن التعقيب فى الآية التى نحن بصددها، يختلف فى التعقيب عن الآية الأخرى، يعقوب حين أبلغه أبناؤه أن يوسف أكله الذئب، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ هذا فى قصة الذئب ويوسف، أما فى قصة بنيامين

---

(١) ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أى زينت وحسنت، وتابعتكم على ذلك.

[مجاز القرآن: ١/٣٠٣]

شقيق يوسف فقد قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ .

فى الآية الأولى قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ مما يدل على أن الأحداث لن تقف عند هذه النهاية، بل ستحدث تطورات تحتاج إلى الصبر الجميل، والصبر الجميل ليس فيه شكوى ، لم يقل يعقوب عسى الله أن يأتينى بهم، ولكن فى هذه الآية قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ فكأن هبات الفرج هبت على يعقوب، وهو النبى، ووضعت فى نفسه ، ما يؤكد له بأن الله سيأتيه بأولاده جميعًا ، ويجزيه خيرًا على صبره.

الذين ليس لهم دارية كاملة بالقرآن الكريم، يأخذون آية ويتركون أخرى، يقولون : إن القرآن يقول : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ، بينما هما يوسف وأخوه بنيامين.

نقول لهم: أنتم نسيتم كبيرهم الذى قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ . إذن فهناك ثلاثة: يوسف وأخوه بنيامين والأخ الكبير، فلابد من استخدام صيغة الجمع(١) .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شيء، فهو يعرف مكان يوسف وبنيامين والأخ الأكبر ، وحكيم فيما يجرى علينا من أقدار.

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾: اى بيوسف وأخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقى بمصر ، وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا ؛ لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت ، وأنه باق على الحياة ، وإن غاب عنه خبره. [فتح القدير : ٣/ ٥٠]

* وابيضت عيناه من الحزن *

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] تولى عنهم أى عن أولاده الذين أتوه، لم يواصل معهم الحوار، بل تركهم. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ تأتى عندما يأتيك أحدهم بخبر محزن؛ فتتركه لتخلو بنفسك، كذلك يعقوب خلا بنفسه؛ لأنه يتحسر على يوسف وأخيه، وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله؛ لأنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ولذلك قال له أحد إخوانه، وهو يرى ما فيه يعقوب من حزن بليغ: تهشمت يا يعقوب، ولم تبلغ سن أبيك إسحاق، قال: إنما هشمنى يوسف، فعتب الله سبحانه وتعالى عليه هذه الكلمة، وقال له أتشكو ربك لخلقه؟ فرفع يعقوب يديه إلى السماء، وقال خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى ، فقال له الله تبارك وتعالى: غفرت لك. وكان يعقوب لا يشكو إلى الناس ولكن يشكو إلى الله.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [1] ساعة تسمع : يا أسفا،

---

(١) قال أبو عبيدة التيمى فى قوله تعالى : ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ خرج مخرج النُّدبة، وإذا وقفت عندها قلت : يا أسفاه ، فإذا اتصلت ذهبت الياء ، كما قالوا :

يا راكبا إما عرضت فبلغن

والأسف أشدّ الحزن والتندم ، ويقال : يُوسُف مضموم فى مكانين ، ويوسف تضم أوله وتكسر السين بغير همز ، ومنهم من يهمزه يجعله يُفعِل من آسفته .

[مجاز القرآن : ١/٣١٦]

ويا ويلتا ، تعرف أنه نداء لشيء محزن، ولكن هل أنت تنادى المصيبة ؟ هناك ساعات تضيق فيها النفس، فينادى الإنسان الأحزان ، و﴿أَسَفَا﴾ معناها: يا أسف هذا أوانك فاحضر، ولكنه أبدى حزنه على يوسف، بينما الذى ضاع منه هو بنيامين وابنه الأكبر، فلماذا لم يظهر الحزن عليهما وأظهره على يوسف؟ لأن يوسف هو قاعدة كل هذه المصاعب، هو أصل الحزن. كيف ؟ : بنيامين أخذ بسببه والكبير قعد بسببه، ولقد كان وجود بنيامين عزاء وسلوى ليعقوب ، ولكن عندما ذهب طفا الحزن على الاثنين(١) ؛ لأنه حرم منهما معًا ، وقوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ العين فيها بياض وفيها سواد، فابيضت أى التى كانت سوداء صارت بيضاء، والإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع، تُحدث غشاء على سواد العين ، فيبدو أبيض فكأن عينيه ابيضتا من الحزن وكثرة البكاء. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكظم فى الحزن انفعالات عاطفية لا يستطيع أحد أن يمنعها(٢) ،

---

(١) طفا: طفا الشيء فوق الماء يطفو طَفْوا وطُفُوّا: ظهر وعلا ولم يرسب. وفى الحديث أنه ذكر الدجال فقال كأن عينه عنبة طافية (١) وسئل أبو العباس عن تفسيره فقال: الطافية من العنب: الحبة التى قد خرجت عن حد نبتة أخواتها من الحب، فنتأت وظهرت وارتفعت ، وقيل : أراد به الحبة الطافية على وجه الماء ، شبه عينه بها ، ومنه الطافى من السمك ؛ لأنه يعلو ويظهر على رأس الماء .

[لسان العرب : ١٥ : ١٠].

(٢) قال فى التفسير الوسيط :

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ : فهو مملوء القلب غيظاً ، لكنه لا يظهر ، وقيل : مملوء القلب =

---

(١) أخرجه البخاري [٧١٢٣] : عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية » ، وأخرجه مسلم [٢٧٤] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرانى الناس ، فقال : « إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية ».

بل هى التى تقدر عليه ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه فقال له الصحابة: ألم تنهنا عن ذلك يا رسول الله؟ قال: «إن العين لتدمع والقلب ليحزن وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1]. والله سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان أن يكون صخرًا،

= حزنا ، فهو ممسك له لا يبديه ، من كظم السقاء إذا شده بعد ملئه ، فهو فعيل بمعنى مفعول.

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لايبثه ؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ؛ قال الله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أى مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ، وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم ؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصَابِ شَاسٍ ... فإنى اليومَ مُنطلقٌ لسانى

وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قال : فهو مكروب ، وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قال: فهو كمد؛ يقول: يعلم أن يوسف حىّ ، وأنه لا يدرى أين هو ؛ فهو ذلك .

قال الجوهرى : الكمد الحزن المكتوم ؛ تقول منه كمد الرجل فهو كمد كميد . النحاس يقال فلان كظيم وكاظم ؛ أى حزين لا يشكو حزنه ؛ قال الشاعر :

فحضضت قومى واحتسبت قتالهم ... والقوم من خوف المنايا كُظَّم

[تفسير القرطبى : ٩/٢٤٩]

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين ، وكان ظئراً لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ ، إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك- وإبراهيم يجود بنفسه- فجعلت عينا رسول الله ﷺ، تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: وأنت يارسول الله؟! ، فقال: "يا ابن عوف إنها رحمة" ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ : «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ».

أخرجه البخارى [١٣٠٣]

لاينفعل للأحداث؛ لأن هذا لون يجب أن يكون فى إنسانيتك ، وعاطفة يريد الله تبارك وتعالى أن يبقيها؛ لأن الله سبحانه خلق فى الإنسان عواطف وغرائز، ولو لم يشأ العواطف والغرائز ما خلقها فينا، فالعواطف لها مهمة والغرائز لها مهمة، وساعة تخرج إحداهما عن مهمتها ، فإن المنهج يحكمها ؛ حتى لا تكون شرا ، مثلاً غريزة الجنس ؛ هى لاستبقاء النوع وإنجاب الأولاد والذرية ، فلا تجعلها انطلاقًا وحشيا.

إذن فالغرائز والعواطف هى التى تجعلك تحنو على طفلك الصغير ، وترعى امرأتك ... إلخ .

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم مأخوذة من كظمت القربة ؛ لأن القربة إذا امتلأت لابد أن تكتمها؛ لكى لا يسيل الماء منها، فكأن يعقوب أبقى حزنه فى قلبه وكظمه ، كما تكظم القربة فلا يسقط منها شىء.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (١) من الذى قال؟ إن يعقوب تولى عنهم واعتزلهم، وقال : ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ، ساعة قال ذلك قالوا له : ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت؟! فكأنهم ساعة سمعوه يذكر يوسف قالوا هذا الكلام ، والحرض: هو الإشراف على الهلاك، أى أنهم

---

(١) قال أبو عبيدة التيمى فى قوله تعالى : ﴿تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى لا تزال تذكره ، قال أوس بن حجر :

فما فتئتْ خيلٌ تَثُوبُ وتدَّعى ويلحق منها لاحقٌ وتقَطَّعُ

أى فما زالت ، قال خداش بن زُهَير :

وأبرَحُ ما أدام الله قومى بحمد الله منتطقا مُجيدا

معنى هذا : لا أبرح لا أزال [مجاز القرآن : ١/٣١٦]

قالوا : إن يعقوب من حزنه سيشرف على الهلاك، ثم يكون من الهالكين فعلاً ، وهنا رد يعقوب عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى لا شأن لكم بى واتركونى لحالى(١)، وشكوى العبد إلى الله هى من تمام العبودية لله؛ لأن الله هو الأعلى، فإذا ما أصاب العبد- وهو الأدنى- سوء يفزع إلى خالقه، إلى الله سبحانه وتعالى، والشكوى هنا نوعان:

تودد إلى الله سبحانه وتعالى بالاستغفار والطاعات؛ لعلّ الله يصرف عنه السوء .

ونوع آخر ذلك الذى يتأبى على الله، ويسخط مما وقع عليه ولا يشكو الأمر لله، ولكنه يشكو الله إلى خلقه، ويتأبى على الطاعة ويزداد فى

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعنى هرمًا ، قاله الحسن .

والثانى : دنفًا من المرض ، وهو مادون الموت ، قاله ابن عباس ومجاهد .

والثالث : أنه الفاسد العقل ، قاله محمد بن إسحاق . وأصل الحرض فساد الجسم والعقل من مرض أو عشق ، قال العرجى(١).

إنى امرؤ لجَّ بى حُبٌّ فأحرضنى   حتى بليت وحتى شفّنى السقم

[تفسير الماوردى : ٣/ ٧٠].

---

(١) وقال « العَرْجى » :

إنى امرؤ لج بى حب فأحرضنى   حتى بكيت وحتى شفنى السقم

أى أذابنى . فتبقى مُحرَضًا .

العرجى : هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان سمى بالعرجى لأنه ولد بالعرج من مكة . أخباره فى الأغانى «طبع الدار» [١/ ٣٨٣] . وانظر الاشتقاق [٤٨] والسمط [٤٢٢] والبيت فى الطبرى [١٣/ ٢٥] والقرطبى [٩/ ٢٥٠] والصحاح واللسان والتاج « حرض » وصدره فى فتح البارى [٨/ ٢٧٣] . [مجاز القرآن : ١/ ٣١٧]

المعصية . الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نشكوا الأمر له، ولذلك يقول فى كتابه العزيز: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] فكأنه عندما يأتى البأس يريد الله من عباده أن يتضرعوا له، فيصرف البأس عنهم، ولكنهم بدلاً من ذلك تأخذهم العزة بالإثم، ويزين لهم الشيطان أعمالهم، فيزدادون كفرًا بدلا من أن يزدادوا إيمانًا، وهكذا يملأ صدورهم الكبر، والله لا يحب المتكبرين(١)، ولكنه يريد إذا أصاب أحدًا مصيبة أن يرجع إليه ويتضرع، ويقول: يا رب ، ارفع مقتك وغضبك عنا ، فيرفع الله السوء.

ولقد روى عن على رضى الله تعالى عنه أنهم دخلوا عليه وهو مريض فوجدوه يتوجع، فقالوا له: أتتوجع يا أبا الحسن؟! فقال: أنا لا أتشجع على الله، أى لا أحاول أن أبين أنى أقوى من أقدار الله، بحيث إذا أصابنى مرض أقول: لا يهمنى ، وإنما أتضرع إليه معترفًا بعجزى وقوته.

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة، قالا : قال رسول الله ﷺ :«العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعنى عذبته» أخرجه مسلم [٢٦٢٠].

قال النووى : الضمير فى« إزاره ورداؤه » يعود إلى الله تعالى للعلم به .

وفيه محذوف تقديره « قال الله تعالى »: ومن ينازعنى ذلك أعذبه . ومعنى «ينازعنى» : يتخلق بذلك ، فيصير فى معنى المشارك ، وهذا وعيد شديد فى الكبر مصرح بتحريمه، وأما تسميته إزارًا ورداء فمجاز واستعارة حسنة ، كما تقول العرب: فلان شعاره الزهد ، ودثاره التقوى ، لا يريدون الثوب الذى هو شعار أو دثار، بل معناه : صفته ، كذا قال المازرى .

ومعنى الاستعارة هنا : الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه ، وهما جمال له ، قال: فضرب ذلك مثلا؛ لكونه العز والكبرياء بالله تعالى أحق ، وله ألزم ، واقتضاهما جلاله، ومن مشهور كلام العرب فلان واسع الرداء وغمر الرداء، أى : واسع العطية. [صحيح مسلم بشرح النووى : ٨/٤٢٢]

إذن فهناك تأبٍّ على الأحداث، أن يحاول الإنسان أن يجعل نفسه فوقها ويقول: لا يهمنى، وهناك إيمان بالذى أجرى عليك الأحداث، فتطلب منه سبحانه كشف الضر عنك فيكشفه إن شاء.

يعقوب عليه السلام قال لأولاده: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (١) لأنه يعرف أن التضرع إلى الله فى وقت الضر والأزمة عبادة، وهنا يُثار سؤال: كيف يقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ولم يقل كما علمنا القرآن: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ نقول: إن هذه الآية اختص بها الله أمة محمد ﷺ(٢).

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] نلاحظ هنا أن المسألة الآن لم تعد يوسف وأخاه؛ لأنهم أصبحوا ثلاثة : يوسف وأخوه من ناحية ، والأخ الأكبر الذى قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ هذا الأخ موجود باختياره بعيدًا عن أبيه، ولذلك لم يأت ذكره هنا ؛لأنه فى أى لحظة يستطيع أن يعود إلى أبيه وتنتهى المشكلة ، أما اللذان جاء ذكرهما فى الآية الكريمة فهما يوسف

---

(١) قال أبو عبيدة التيمى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ البث أشد الحزن ، ويقال : حزَن ، متحرك الحروف بالفتح ، أى فى اكتئاب ، والحزن أشد الهمّ . [مجاز القرآن : ١/ ٣١٧]

(٢) عن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، الا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك : فهو كظيم: كذيب حزين . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٩]

وأخوه ، موجودان فى مكان لا يعلمه الأب ، ولا يعرف كيف يصل إليهما ، وقد فقد الأمل فى أن يراهما .

قوله : ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ من الحس، والحس تجمع كل الحواس، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية، والمعلومات التى تتكون عندنا هى معلومات محسوسة ، أى قدرتها الحواس، فأنت ترى بالعين، وتسمع بالأذن، وتذوق باللسان الذى يقول لك هذا حلو وهذا مر، وتلمس بيدك، وتشم بأنفك فتميز الروائح ، ومن غير هذه الحواس لا تستطيع أن تدرك المعلومات المحسوسة، فلو ولد إنسان وحواسه الخمس معطلة، فإنه لا يستطيع أن يدرك علمًا محسوسًا عن الدنيا، وهم يقولون عن الحواس: إنها السمع والبصر والشم والتذوق واللمس، هذه هى التى ندرك بها الأشياء المحسوسة ، ونكون بها معلومات تصبح قضايا عقلية .

إذن .. فأساس المعلومات هى الحواس، وهى خمس ظاهرة؛ لأنهم اكتشفوا أن هناك حواسّ أخرى، تعطينا معلومات وهى ليست من الحواس الخمس الظاهرة ، فحاسة العضل مثلاً تعطيك أيهما أثقل من الآخر، فإذا كانت هناك حقيبتان موضوعتان أمامك، فإنك لا تستطيع أن تدرك أيهما أكثر ثقلاً من الأخرى إلا إذا رفعت كلا منهما عن الأرض، حينئذ تستطيع أن تعرف أيهما أكثر ثقلاً عن الأخرى؛ لأن حاسة العضل تقيس ثقل الأشياء، ولكن الحواس الأخرى كالنظر والسمع وغيرهما لا تستطيع بها أن تدرك أى الحقيبتين أثقل؛ لأن فى هذه الحالة تكون الحقيبة الخفيفة جهدها أقل على عضلك ، والحقيبة الثقيلة جهدها أكثر .

كذلك حاسة اللمس ، فأنت إذا أمسكت بقطعة قماش سميكة بين أناملك، ثم أمسكت بقطعة قماش أرقّ ، فإنك تدرك أيهما أكثر سمكاً وأكثر رقة، وهذا لا يتم باللمس، فتقول: هذا أرقّ من هذا ، ويسمونها

حاسة البين ، وملكات النفس الإنسانية كثيرة، كل ملكة تعطيك معلومة من المعلومات، وكلها معلومات تزيد على قدرة الحواس الخمس .

إذن. . فقوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أى استخدموا كل حواسكم، سواء الظاهرة منها أو غير الظاهرة؛ لتصلوا إلى المعلومات التى تؤدى إلى أن تعرفوا مكان يوسف وأخيه، والإنسان عادة حين تطلب منه معلومات، فإنه يستخدم أكثر من حاسة ، إنه يستخدم العين ليرى، والأذن ليسمع المعلومات، وأحيانًا يستخدم الشم واللمس، يعقوب عليه السلام يريد من أولاده أن يستخدموا كل حواسهم ؛ ليعرفوا مكان يوسف وأخيه(1).

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ معناه: إياكم أن تقولوا: إننا تعبنا من البحث، ويئسنا من الوصول إلى مكان يوسف وأخيه؛ لأن الله موجود دائمًا، ولن تنتهى لله رحمة، فلا يصل الإنسان إلى درجة اليأس مع وجود رحمة الله، ولذلك يقولون : لا كرب وأنت رب ، أى أن الأشياء التى لانستطيع الوصول إليها بقانون الأسباب نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب، ونقف بين يديه ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فَزَعَ إلى الصلاة ، أى وقف بين يدى الله، وقال : يا رب

---

(1) قال ابن عطيه الأندلسى: المعنى: ﴿اذْهَبُوا﴾ إلى الأرض التى جئتم منها ، وتركتم أخويكم بنيامين وروبيل ، ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أى استقصوا ونقروا ، والتحسس : طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع ، ويستعمل فى الخير والشر ، فمن استعماله فى الخير هذه الآية ، وفى الشر نهى النبى ﷺ فى قوله: «ولا تحسسوا» (1)

وقوله : ﴿مِن يُوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ التقدير : فتحسسوا نبأ أو حقيقة من أمر يوسف . لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازًا. [المحرر الوجيز : ٣/ ٢٧٤]

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٠٦٦] ، ومسلم [٢٨/٢٥٦٣] .

هذه فوق أسبابى لا أقدر عليها، وسبحانك أنت على كل شيء قدير، فلا ينتهى من صلاته إلا وقد فتح الله عليه باب الفرج، اعملوا بذلك فى أى شيء يصيبكم ، فمثلا إذا حزبك أمر قم وتوضأ ، وقف بين يدى الله خاشعًا مخلصًا مصليًا، وقل: يا رب ، هذه فوق أسبابى وأنت على كل شيء قدير، يأتك الفرج.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ هنا : الروْح بالسكون على الواو، هى الرائحة التى تهب على الإنسان فيستروح بها ، كأنك وأنت جالس والجو حار خانق، ثم جاءت نسمة لطيفة باردة، هذه ما يسمونها الروْح بالسكون على الواو، هى الشيء الذى يجعلك تنتعش بعد شدة الحر[1]، ولذلك فإن الرائحة التى نأخذها بتقطير الزهور تنعش النفس. الله سبحانه وتعالى يقول عن الآخرة فى سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩] أى أن الروح تهب بالطيبات تنعش النفس، خصوصًا إذا كنا فى حديقة ، فتأتينا هذه الروح بروائح الزهور العطرة، ولكن فى قوله تعالى: ﴿لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ معناها : أن الله الذى خلق الروح يملكها ، ويعرف سرها وحده ينفخها فى الجماد ، فتعطيه الحياة والحس والحركة ، فإذا كان هذا هو الذى

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أى لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه . قال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح، وحكى الواحدى عن الأصمعى أيضا أنه قال : الروح : الاستراحة من غم القلب ، وقال أبو عمرو : الروح : الفرج . وقيل : الرحمة ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه ، وعظيم صنعه ، وخفى ألطافه . [فتح القدير :٣/ ٥١، ٥٢]

يحدث، فكيف تيأس وروح الله موجودة تصنع المعجزات؟

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى القوم الذين لا يؤمنون بالله ؛ لأن هؤلاء الناس لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية، فإذا تخلت عنهم هذه الأسباب، يملأ قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون، أما المؤمن فيقول: لى رب هو خالق الأسباب ، سيفتح لى طريق الخلاص، فالأسباب أعطاها لنا الله، ولكن بقى خالق الأسباب يفعل ما يشاء، فيأتى لك الشىء بلا أسباب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أى يأتيه المخرج والرزق دون أن تكون الأسباب هى التى تعمل ، وقد تسعى فى شىء وتفشل، فيأتيك شىء آخر من غير حساب، تلك تحدث لكل واحد منا، لا يوجد إنسان ليس فى حياته قضايا من هذا النوع، ولذلك فإن المؤمن إذا أتته المشاكل التى لا يجد لها حلاً ، فإنه لا ييأس؛ لأن هناك إلهًا هو فوق هذه الأسباب كلها، يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون.

ولقد كنت دائمًا أضرب المثل بإنسان يمشى فى طريق ، ومعه جنيه ضاع منه ، ولكن له رصيد فى البنك مئات الجنيهات ، أيحزن حزنًا عميقًا؟ لا يحزن ، لايهمه؛ لأن له رصيدًا، بينما من لا يملك إلا هذا الجنيه وضاع منه، فإنه يحزن حزنًا شديدًا ؛ لأنه كل ما يملك . كذلك المؤمن وغير المؤمن، المؤمن إذا عزت عليه الأسباب، فإن له ربًا قادرًا هو خالق الأسباب ، يطمئنه أنه سيفرج عنه كربه، أما غير المؤمن فإذا لم تعطه الأسباب، كان يئوسًا واعتقد أنها نهاية العالم ، والحقيقة غير ذلك، ولذلك فإنه يجن أو ينتحر؛ لأنه لا رصيد عنده إلا الأسباب.

* إن الله يجزى المتصدقين *

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨] وهكذا تنتقل بنا الآية الكريمة إلى نقطة أخرى، فلم يقل إنهم ظلوا فى قريتهم فترة من الوقت، حتى نفد القمح الذى عندهم أو قارب على النفاد، وحينئذ اضطروا للعودة مرة أخرى إلى يوسف؛ لأنه الأمين على خزائن الطعام، وأخذوا العير ثم مضوا بالقافلة إلى مكان يوسف ثم دخلوا عليه ؛ لأن كل هذا متروك لفطنة القارئ للقرآن الكريم أو المستمع له ؛ ولأن هذه أشياء يمكن الوصول إليها بالعقل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ، ﴿عَلَيْهِ﴾ : ضمير ، والضمير لابد أن يعود إلى معلوم، وهو يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ انظر إلى التفخيم ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أى الجوع الذى جعلنا ضعفاء أصحاب أجسام هزيلة، إنهم يفخمون يوسف ، ويرققونه على حالهم .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وهكذا دخلوا على يوسف بالترقيق والتفخيم؛ لأن كلمة عزيز معناها: المالك المتصدق المكين، أى أن ما يطلبونه منه لا يخرج عن إرادته وسلطانه، يشكون إليه قسوة الجوع، ويقولون له إنهم جاءوا ببضاعة مزجاة، أى مدفوعة الثمن، يزجى يعنى يدفع، ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها، إلا أنها رديئة ليست جيدة، فكأنما بلغ الحال بأولاد يعقوب أن

أصابهم الضر، حتى إنهم لم يعد عندهم البضاعة الجيدة ، التى أتوا بها فى المرات السابقة، ولذلك جاءوا بالبضاعة الرديئة يدفعونها ثمنًا للقمح، وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمنًا قليلاً، مقابل هذه البضاعة المزجاة، فيقولون له: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى لأنهم يعانون من المجاعة، يطلبون كيلاً وافيًا من القمح، فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة ، التى يحملونها فليكن الباقى صدقة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إنك لن تأخذ الجزاء منا، حتى تقول : لا تملكون شيئًا تعطونه. ولكنك ستأخذ الجزاء من الله سبحانه، وهو الغنى دائمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [1] إذن هنا

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ اى الممتنع ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، اى فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : ﴿مَسَّنَا﴾ اى أصابنا ﴿وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أى الجوع والحاجة ، وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر، أى الجوع،بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره، أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع ، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكّى على سبيل التسخط ، والصبر والتجلد فى النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ اى من جميل صنعه ، وغريب لطفه وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مشك فهو السّفه، إلا ان يكون على وجه البثّ والتّسلى ؛ كما قال ابن دريد :

لاَ تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّى ضَـــارِعٌ ... لِنَكْبةٍ تَعْرِقنى عَرْقَ المُدَى

مَارَسْت مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ ... جَوَانبِ الجوِّ عليه ماشَكَا =

ردوه إلى من هو أغنى وأعلى وأقدر من الدنيا كلها، وهو الله سبحانه وتعالى ، وقالوا : إذا كنا لا نستطيع أن ندفع ، فستأخذ الثمن من الله الذى لا تفرغ خزائنه .

= لكنّها نَفْثَةٌ مَصْدورٍ إذا جَاشَ لُغَامٌ (١) مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ﴾ البضاعة القطعة من المال ، يقصد بها شراء شىء ؛ تقول: أبضعت الشىء واستبضعته أى جعلته بضاعة ، وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر (٢) . قوله تعالى : ﴿مُزْجَاة﴾ صفة لبضاعة ، والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ والمعنى أنها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل أحد .

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة .

اختلف فى تعيينها هنا ، فقيل :كانت قديدا وحيسا ، ذكره الواقدى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقيل : خلق الغرائر والحبال ، روى عن ابن عباس .

وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث ، وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر ، وهو البطم ، حب شجر بالشام، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، قاله أبو صالح ، فباعوها بدراهم لا تنفق فى الطعام ، وتنفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : خذها منا بحساب جيادٍ تنفق فى الطعام .

وقيل : دراهم رديئة ، قاله ابن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف .

وقال الضحاك : النعال والأدم ، وعنه : كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِين﴾ . فيه أربع مسائل : =

---

(١) الزبد : وهو ما يلقيه البعير من فمه ، وغما : سقط ، يقال : غما البعير الزبد : إذا رماه ينفض رأسه ومشفره .

(٢) هَجَر : مدينة بالبحرين . والمثل ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال [٣/ ٣٩] : وقال : هذا من الأمثال المبتذلة ومن قديمها . وذلك أن هجر معدن التمر ، والمستبضع إليها مخطئ .

وإذا قلنا إنهم أولاد نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة نقول لا ؛ لأن هذه

= الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جريج : ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ يريدون الكيل الذى كان قد كاله لأخيهم . ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ أى تفضل علينا بما بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جبير والسدى والحسن : لأن الصدقة تحرم على الأنبياء .

وقيل المعنى : ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ بالزيادة على حقنا ، قاله سفيان بن عيينة.

قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد ﷺ.

وقال ابن جريج :المعنى ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ برد أخينا إلينا.

وقال ابن شجرة : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ تجوز عنا ، واستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا ابن عفّان واحتَسِبْ   وأَمِّرْ علينا الأشعرىَّ لَيَالِيَا

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من معاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ، قاله النقاش وفى الحديث: إن فى المعاريض (١) لمندوحة عن الكذب.

الثانية : استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ، قال ابن القاسم وابن نافع قال مالك : قالوا ليوسف: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ فكان يوسف هو الذى يكيل، وكذلك الوزّان والعداد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عدة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليه أن يبرزها، ويميز حق المشترى من حقه ، إلا أن يبيع منه معيَّنًا - صُبْرة (٢) أو مالا حق توفية فيه - فخلى ما بينه وبينه، فما جرى على المبيع فهو =

(١) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض ، وهو خلاف التصريح من القول .
والحديث ذكره السيوطي في الدر المنثور عنعمران بن الحصين [٤/ ٣٢٠] .

(٢) الصُبْرة : الطعام المجتمع كالكومة.

اختص بها الله سبحانه وتعالى محمد ﷺ (١).

= على المبتاع ، وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

الثالثة : وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضًا ؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طيبة ، فأنت الذى تدعى الرداءة فانظر لنفسك ،وأيضا فإن النفع يقع له ، فصار الأجر عليه،وكذلك لا يجب على الذى يجب عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعا ، ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده ، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه ، فأجر القطاع على المقتص . وقال الشافعى فى المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة : يكره الرجل أن يقول فى دعائه : اللهم تصدق على ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب ، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا رب غيره ، وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدق على ، فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق ، إنما يتصدق من يبتغى الثواب ، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قل: اللهم أعطنى وتفضّل علىّ. [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٥٢:٢٥٥]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ الحسن بن على رضى الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها فى فيه ، فقال النبى ﷺ : « كَخٍ كَخٍ » ليطرحها . ثم قال : « أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة ؟ » أخرجه البخارى [١٤٩١] .

* أئنك لأنت يوسف *

إن يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه، وكانت مميزة بحيث أن كل من يراها يعرفه، فلما رأوا ثناياه، بدأوا يدركون الموقف ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بمجرد أن قالها ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾. أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها، ولم ينكر يوسف عليه السلام، بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه إخوته ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه، وينبههم يوسف إلى أن أخاه دخل فى النعمة معه، ثم أعطاهم حيثيات النعمة: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى أن حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى الله دائمًا ، ولا يفعل ما يغضبه ويجعل نقمة الله تحل به، فإذا ابتلاه الله فإن عليه التقوى والصبر، فإذا ما اتقى الإنسان وصبر، فلابد أن تكون عاقبته أحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة ، ولذلك فإنه لا يوجد إنسان يقابل الأحداث بالتقوى والصبر ، إلا جازاه الله بالفرج والخير العميم .

والتقوى والصبر يدخلانك فى مقام الإحسان، وهو أعلى مقامات العبادة والقرب من الله، وهكذا يعطينا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة، الحيثيات التى تقابل بها الأحداث ،حتى يجعل لنا سبحانه منها مخرجًا.(١)

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾ : وهو مجزوم ؛لأنه فعل الشرط ، وأثبت قنبل ، بخلافه عنه ، ياءه فى الحالين ، معاملا له معاملة الصحيح، إشارة =

= إلى وصف التقوى بالصحة الكاملة، والمكنة الزائدة ، والملازمة لها فى كل حال ﴿وَيَصْبِرْ﴾ أى يوفه الله أجره لإحسانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أى الذى له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لا يُضِيعُ ﴾ أى أدنى إضاعة أجرَه، هكذا كان الأصل ،ولكنه عبر بما يعرف أن التقوى والصبر من الإحسان ، فقال : ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والتقوى: دفع البلاء بسلوك طريق الهدى، والصبر: حبس النفس بتجرع مرارة المنع عما يشتهى، ولعله إنما ستر أمره عنهم إلى هذا الحد ؛ لأنه لو أرسل إلى أبيه يخبره قبل الملك، لم يأمن كيد إخوته، ولو تعرف إليهم بعده أو أول ما رآهم، لم يأمن من أن تقطع أفئدتهم عند مفاجأتهم بانكشاف الأمر، وهو فيما هو فيه من العز ، فإنهم فعلوا به فعل القاتل من غير ذنب قدمه إليهم ، فهم لا يشكون فى أنه إذا قدر عليهم يهلكهم؛ لما تقدم لهم إليه من سوء الصنيعة ، وعلى تقدير سلامتهم لا يأمنونه، وإن بالغ فى إكرامهم .

فإن الأمور العظام - إن لم تكن بالتدريج - عظم خطرها ، وتعدى ضررها ، فإن أرسلهم ليأتوا بأبيهم، خيف أن يختلوا أباهم من ملك مصر ، ويحسنوا له الإبعاد عن بلاده ، فيذهبوا إلى حيث لا يعلمه ، وإن أرسل معهم ثقات من عنده لم يؤمن أن يكون بينهم شر ، وإن سجنهم وأرسل إلى أبيه من يأتى به لم يحسن موقع ذلك من أبيه ، ويحصل له وحشة بحبس أولاده ، وتعظم القالة بين الناس من أهل مصر وغيرهم فى ذلك ، ففعل معهم ما تقدم؛ ليظهر لهم إحسانه وعدله ودينه وخيره، وكفه عنهم وعفوه عن فعلهم بالتدريج ، ويقفوا على ذلك منه قولا وفعلا من أخيه، الذى ربى معهم وهم به آنسون وله آلفون، فتسكن روعتهم وتهون زلتهم .

ومما يدل على ذلك أنه لما انتفى عن أخيه بنيامين ما اتصفوا به مما ذكر، تعرف إليه حين قدم عليه ، ونهاه أن يخبرهم بحقيقة الأمر ، وشرع يمد فى ذلك لتستحكم الأسباب التى أرادها ، فلما ظن أن الأمر قد بلغ مداه لوح لهم فعرفوه ، وقد آنسهم حسن عقله وبديع جماله وشكله ، وورائع قوله وفعله ، فكان موضع الوجل الخجل ، وموضع اليأس الرجاء، فحصل المراد على وفق السداد والله الموفق .

وذلك تنبيه لمن قيل لهم أول السورة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ على الاقتداء بأفعال الهداة المهديين فى التأنى والاتئاد ، وتفويض الأمور إلى الحكيم ، وأن لايستعجلوه فى أمر، وأن يعلموا أن سنته الإلهية جرت بأن الأمور الصعاب لا تنفذ إلا بالمطاولة؛ =

* تالله لقد آثرك الله علينا *

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] كأن يوسف يلتمس لهم العذر، أى أنهم لو كانوا يعلمون أن ما فعلوه يغضب الله ما أقدموا عليه، إذن فأساس عملهم هو الجهل وليس المعصية، هنا تنبه إخوة يوسف إلى القضية كلها ، وكيف أنهم أرادوا أن يحرموا يوسف من حب أبيه وحنانه، فأعطاه الله ما جعله مفضلاً عليهم جميعًا فى النعمة، ولذلك يقول الحق : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى أن الله تبارك وتعالى قد ميزك علينا جميعًا ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا - خاطئين ، وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين.

الخاطئ هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطيء عن علم وعمد، أما المخطئ فهو يقصد الصواب لكنه يخطئ ،ولذلك لم يتم خطؤه عن عمد، الاثنان لم يصلا إلى الصواب، ولكن الخاطئ اختار الخطأ وهو يعلم موقعه والمخطئ اختلط عليه الخطأ والصواب (١) . ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ ﴾ وهذا قسم

= لترتب الأسباب شيئا فشيئا على وجه الإحكام ، وفى ذلك فوائد من أجلها امتحان أولى الطاعة والعصيان ، كما ستأتى الإشارة إليه آخر السورة بقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والله أعلم. [نظم الدرر : ٢٠٩:٢٠٧/١٠]

(١) الخطأ : مالم يُتعمد ، والخِطء : ما تُعمِّد . وأخطأ يخطئ : إذا سلك سبيل الخطأ عمدًا وسهوًا . ويقال : خطىء . بمعنى أخطأ . وقيل : خطىء إذا تعَّمد ، وأخطأ إذا لم يتعمد . ويقال لمن أراد شيئا ففعل غيره أو فعل غير الصواب : أخطأ . =

مثل: والله ، وبالله ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ومعنى آثرك : أى فضلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] اعتراف بالذنب، فهم أخذوا طريق الخطأ وهم يعلمون، فكانت النتيجة أن عدل الله أعطاهم ما يستحقون وفضل يوسف عليهم(١).

= وقال الأموى : المخطىء من أراد الصواب ، فصار إلى غيره ، والخاطىء : من تعمّد لما لا ينبغى . [لسان العرب : ١/ ٦٦، ٦٧]

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق ، وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ الآية ، والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له فى ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك ، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فعند ذلك قالوا: ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ وقرأ أبى بن كعب «إنك لأنت يوسف» وقرأ بن محيصن « أنت يوسف » والقراءة المشهورة الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أى أنهم تعجبوا من ذلك، إنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ . =

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ والتثريب معناه اللوم العنيف ، وهى كلمة مأخوذة من الثرب ، عندما يذبحون الذبيحة ، ويجدون حول أمعائها كثيرًا من الدهن ، هذا اسمه ثرب ، وهذا الثرب تصاب به الشاة، وعندما لا تجد المرعى فتصاب بالهزال فإنها تتغذى من هذا الدهن، فالتثريب هو اللوم العنيف ، الذى يصل بالإنسان إلى درجة أنه يهزل من إحساسه بالذنب، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أى بعدما اعترفتم بذنبكم وتبتم ورجعتم إلى الله[1] . ورسول الله ﷺ يقول ما معناه : «إذا

= وقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بجمعه بيننا بعد التفرقة وبُعد المدة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم، فى الخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا بأنهم أساءوا وأخطئوا فى حقه. [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٧٠، ٤٧١]

(١) قال ابن عطية فى قوله : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ عفو جميل ، وقال عكرمة : أوحى الله إلى يوسف : بعفوك على إخوتك رفعت لك ذكرك ؛ وفى الحديث : إن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما؛ لقبح فعلهما معه قبل ، فشق ذلك عليهما ، وأتيا أبا بكر فكلفاه الشفاعة فأبى ، وأتيا عمر فكذلك ، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه على، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة ، فقال على رضى الله عنه : الرأى أن تلقيا رسول الله ﷺ فى الحفل فتصيحان به : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلابد لذلك أن يقول : لا تثريب عليكما ، ففعلا ذلك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية.

والتثريب : اللوم والعقوبة، وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه،وقد عبر بعض الناس عن التثريب بالتعبير ، ومنه قول النبى عليه السلام : « إذا زنت أمة أحدكم =

زنت جارية أحدكم فاضربوها الحد ولا تثربوها»[1] أى لا تذلوها حتى لا تصاب بالهزال من فرط الإحساس بالذنب.

= فليجلدها ولايثّرب »[1] ، أى لا يعيّر ، أخرجه الشيخان فى الحدود .

ووقف بعض القرّأة : ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وابتدأ : ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ووقف أكثرهم: ﴿الْيَوْمَ﴾ وابتدأ: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاء - وهو تأويل ابن إسحاق والطبرى ، وهو الصحيح- و ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف ، فعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقديره : لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم . وهذا الوقف أرجح فى المعنى ؛لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله ، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحى . [المحرر الوجيز : ٣/ ٢٧٧،٢٧٨]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول « إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها ، فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يثرب ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر ». أخرجه البخارى [٢٢٣٤].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٨٣٩] ، ومسلم [١٧٠٣] .

* قميص المعجزات *

ثم تنتقل اللقطة مرة أخرى إلى الأب يعقوب عليه السلام، ولابد أنهم قد حكوا ليوسف ما حدث لأبيهم، وكيف أنه يبكى بكاءً مراً ، وكيف أن عينيه ابيضتا ولم يعد يرى ، كل هذا تركه القرآن الكريم ؛ لأن هذه أشياء من السهل الوصول إليها ، وجاء قول يوسف مباشرة : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣] إذن فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن، ولكن من الذى ناوله يوسف القميص ليأخذه لأبيه؟ إنه كبيرهم الأخ الكبير الذى تقدم، وقال ليوسف عليه السلام: أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك، وجئت عليه بدم كذب ،فدعنى أكفر عن ذنبى، وأحمل إلى أبى القميص الذى فيه الشفاء[1].

---

(١) قال الماوردى فى قوله عز وجل : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : مستبصراً بأمرى ؛لأنه إذا شم ريح القميص عرفنى.

الثانى : بصيراً من العمى، فذاك من أحد الآيات الثلاث فى قميص يوسف، بعد الدم الكذب، وقدّه من دُبُره ،وفيه وجه آخر؛ لأنه قميص إبراهيم [1] أنزل عليه من الجنة لما ألقى فى النار ، فصار لإسحاق ثم ليعقوب ثم ليوسف، فخلص به من الجب وحازه حتى ألقاه أخوه على وجه أبيه فارتد بصيراً =

---

(١) وقد استشكل بعضهم ما قطع به يوسف من كونه قال: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ، والجواب أن ذلك كان بالوحى إليه، كما قال مجاهد ونقله فى زاد المسير [٤/ ٢٨٣] ، وهذا القول يحتاج إلى نقل بسند صحيح مرفوع أو فى حكمه.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أى يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض ، يأتيه مبصرًا ، إذن فهذا القميص الذى فيه رائحة يوسف ، سيعيد البصر إلى يعقوب ، فيأتى لابنه مبصرًا.

= ولم يعلم بما سبق من سلامة إبراهيم من النار ويوسف من الجب ـ أن يعقوب يرجع به بصيرًا.

قال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذى حمل قميصه يهوذا بن يعقوب ، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب ، فأحزنته فأنا الآن أحمل قميصك؛ لأسرّهُ وليعود إليه بصره، فحمل . حكاه السدى. [تفسير الماوردى : ٣/٧٦]

❋ وأتونى بأهلكم أجمعين ❋

وقوله : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣] هنا نلاحظ دقة تعبير القرآن الكريم، فيوسف لم يدع إخوته فقط، ولكنه قال لهم: كل من له صلة قرابة بكم من أى جهة فائتوا به(١)، والمعروف أنه حينما طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ؛ ليواجه السنوات السبع الشداد ، كان يأخذ ثمن القمح ذهبًا وفضة، فإن لم يكونوا يملكون ذهبًا وفضة، يأتوا بأحجارهم الكريمة مثل الياقوت والمرجان، فإذا نفدت الأحجار يأتون بالدواب، فإذا نفدت الدواب يأتون بأولادهم يعطونهم ليوسف ويأكلون بثمنهم.

ولقد فعل يوسف ذلك؛ ليقلل من الاستهلاك، فلو أنه أعطى الناس القمح مجانًا؛ لأسرفوا فيه وبعثروا، حتى إنه لم يكن يكفيهم طوال هذه السنوات السبع المليئة بالجدب ؛ لذلك كان تشدد يوسف حتى يتوخى الناس الحرص فى استهلاكهم، ولكن بعد أن انتهت سنوات المجاعة ، أعاد يوسف لكل واحد ما أخذه منه، أى رد للناس أشياءهم؛ وكان قد أخذها لتحديد الاستهلاك فقط ؛ حتى يواجهوا المجاعة ، ونحن نرى الآن عندنا إسرافًا فى الاستهلاك، حتى أننا نلقى الخبز للمواشى لتأكله والإنسان

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: أى جميع من شمله لفظ الأهل، من النساء والذرارى، وقيل : كانوا نحو سبعين ، وقيل ثلاثة وتسعين. [فتح القدير : ٣/ ٥٥].

وقال ابن كثير : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى بجميع بنى يعقوب.
[تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧١].

هو الذى يضبط نفسه فى الاستهلاك، ولذلك عندما كان رغيف الخبز بقرش أو قرشين، كنا نلقى بكميات كبيرة منه فى القمامة ، ولكن عندما أصبح الرغيف بعشرة قروش أصبح الإنسان يستهلك بقدر حاجته.

ولابد أن نتنبه إلى أن كل واحد منا يستطيع أن يعيش على قدر دخله ، فالذى لا يملك ثمن اللحم لا يشتريه أبدًا، وربما التهم قدرًا من الفول، وأحس بلذة طعمه أكثر من اللحم، ولو أن كل إنسان راعى فى استهلاكه أن يكون بقدر حركة حياته ، لكان لدينا فائض هائل أغنانا عن السؤال .

وهكذا أراد يوسف أن يكون استهلاك كل إنسان على قدر حركة حياته، وذلك خلال الأزمة ، فلما انتهت الأزمة أعاد لكل إنسان ما أخذه منه.

❊ إنى لأجد ريح يوسف ❊

وحمل الإخوة القميص وخرجوا من عند يوسف باتجاه أبيهم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾. وفصلت: تدل على أن شيئًا كان متصلاً وفصل، أى أن العير تجاوزت المدينة، وكانت تمشى وهى خارجة من المدينة فى موكب واحد متصلة ببعضها البعض، فلما خرجت خارج المدينة، انفصلت عن بعضها، وذهبت كل قافلة إلى طريقها : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] تفندون أى تتهموننى بالتخريف لكبر سنى، وقوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أى أنه شم رائحة يوسف التى كانت فى القميص، رغم المسافة الكبيرة التى بين القافلة وبين المدينة التى بها يعقوب ، وهذا من دلائل النبوة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى ليعقوب(١).

ولقد ثبت الآن علميا أن لكل إنسان رائحة مميزة، لا يشترك فيها مع إنسان آخر، ونحن لا نستطيع أن نميز هذه الرائحة، ولكن الكلاب البوليسية تستطيع بحاسة الشم القوية التى لديها، أن تتعرف على الإنسان

---

(١) قال الماوردى: فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها أمارات شاهدة ، وعلامات قَوِىَ ظنه بها ، فكانت هى الريح التى وجدها ليوسف ، مأخوذ من قولهم : تنسمت رائحة كذا وكذا، إذا قرب منك ما ظننت أنه سيكون.

والقول الثانى : وهو قول الجمهور أنه شم ريح يوسف التى عرفها . قال جعفر بن محمد رضى الله عنه : وهى ريح الصبا .[تفسير الماوردى : ٣/ ٧٦، ٧٧]

من رائحته، عندما يترك المجرم أى ملابس أو أشياء فيها رائحة عرقه فى مكان الجريمة ، يأتى الكلب البوليسى فيشم الرائحة ويتعرف على صاحبها، ويخرجه من بين مئات الأشخاص الموجودين ، ويتكرر العرض عدة مرات، فيخرج الكلب نفس الشخص من بين الموجودين.

الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة ، يلفتنا إلى هذه الحقيقة العلمية ، وهى أن لكل إنسان رائحة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ونبى الله يعقوب بما علمه الله ،عرف من رائحة قميص يوسف أن يوسف ، ما زال حيا .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] لأن القافلة الكبيرة لما غادرت المدينة التى كان يقيم فيها يوسف ، كانت تضم عددًا كبيرًا من الناس، فكانت رائحة قميص يوسف مختلطة بروائح كثيرة، كما أن مبانى المدينة كانت تحجزها، فلما خرجت القافلة من المدينة، وانقسمت إلى مجموعات صغيرة، وأخذت كل قافلة منها طريقها إلى بلدها،أوصل الله رائحة يوسف إلى يعقوب عليه السلام ، ولابد أن نعرف أن كل ما يحدث فى الكون مسجل، فلا تعتقد أنك تفعل شيئًا وتهرب به من الله ،لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عندما نقف أمامه يوم القيامة : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] عندما سمع من هم حول يعقوب قوله بأنه يشم ريح يوسف ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ولقد كان هذا القول عن جهل طبعًا؛ لأن الله علم يعقوب ما لم يعلموه وميزه عنهم،وهكذا اتهموا يعقوب بأنه يردد الخرافات التى كان يرددها حول يوسف، وليس المقصود بالضلال هنا ما يتعلق بالدين[1].

(١) قولهم : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ، قال ابن عباس: لفى خطئك القديم =

ولكن المقصود به الجزئيات التى لا علاقة لها بالدين، كأن يقول: أنا واثق أن يوسف سيعود أو غير ذلك ، كانوا يعتبرون هذا ضلالاً ،وهو دائمًا قول كل جاهل لم يؤت من العلم شيئًا .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ وصلت القافلة وجاء الأخ الأكبر يحمل قميص يوسف، وألقاه على وجه أبيه[1] ، ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. انظر إلى دلائل الحق والنبوة، وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس، ثم يأتى الواقع فيؤيد ما يقول ، ولذلك عندما يصلكم خبر من معصوم، فإياكم أن تقفوا بعقولكم فيه؛ لأن العقول تأخذ مدركات الأشياء على قدرها،وهناك أشياء فوق قدرة العقول، فإن حُدثتم بها فلاتكذبوها،خذوها وإن لم تفهموها، ولذلك قال يعقوب:﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ . إذن فعلم الله سبحانه وتعالى فوق قدراتنا، ولذلك يجب ألا نقيسه بعقولنا نحن.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ كأن ذنوبهم كثيرة،

= وقال قتادة والسّدى : أى من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبى الله ﷺ.

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٧١].

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

قال ابن عباس والضحاك : البريد ، وقال مجاهد والسدى كان يهوذا بن يعقوب . قال السدى : إنما جاء به ؛ لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص ، فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً ، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

[تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧١، ٤٧٢].

وهم معترفون بخطئهم[1]، ماذا قال يعقوب؟ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ . عندما طلب إخوة يوسف من يوسف أن يستغفر لهم ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أما يعقوب: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ ولم يقل: سأستغفر لكم الآن، إنما قال سوف أى بعد مدة [2] ؛ لأن عادة الشبان أنهم يستعجلون الأشياء، أما الكبار فإنهم يأخذونها على مهل.

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فى الكلام حذف ، التقدير : فلما رجعوا من مصر قالوا: يا أبانا ، وهذا يدل على أن الذى قال له: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّبا ، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . وإنما سألوه المغفرة؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزم مالم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.
قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال، ربما لم تطب نفس المظلوم فى التحلل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء، فليحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». [1]
قال المهلب: فقوله ﷺ : « أخذ منه بقدر مظلمته » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبينة، والله أعلم . [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٦٢]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ قال ابن عباس : أخر دعاءه إلى السَّحر. وقال المثنى بن الصباح عن طاووس قال : سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء وفى دعاء الحفظ - من كتاب الترمذى - عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على بن أبى طالب رضى الله عنه =

(١) أخرجه البخارى [٢٤٤٩].

. . . .

= فقال : بأبى أنت وأمى - تفلت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه ، فقال له رسول الله ﷺ : « أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت فى صدرك» قال : أجل يا رسول الله ! فعلمنى ؛ قال : «إذا كان ليلة الجمعة، فإن استطعت أن تقوم ثلث الليل الآخر، فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخى يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة »[1] وذكر الحديث .

وقال أيوب بن أبى تميمة السختيانى عن سعيد بن جبير قال : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ فى الليالى البيض ، فى الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة، فإن الدعاء فيها مستجاب .

وعن عامر الشعبى قال : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ أى أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربى . وذكر سُنيد بن داود قال : حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن عمه قال : كنت آتى المسجد فى السحر فأمر بدار ابن مسعود، فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتنى فأطعت ، ودعوتنى فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لى . فلقيت ابن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهن فى السحر ، فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾.

[تفسير القرطبى : ٩/٢٦٢،٢٦٣].

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي [٣٥٧٠] بلفظ : « يا أبا الحسن أفلا أعلمك .. » وقال : حديث حسن غريب . وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٧١٩] : ضعيف .

❋ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ❋

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وهكذا انتقلنا مرة أخرى نقلة سريعة من بيت الأب فى الشام إلى مكان يوسف فى مصر ، فهم أى إخوة يوسف ، كانوا فى بيت أبيهم، ثم جمعوا أهلهم وأعدوا الدواب وركبوا مع أبيهم، حتى وصلوا إلى مكان يوسف، ثم استأذنوا فى الدخول فأذِن لهم.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾. كيف يقال: أبويه ، وأم يوسف ماتت وكذلك جده، والأب وحده الذى كان موجودًا؟ نقول: إن العادة كانت ، إذا ماتت الأم ، يدعون الخالة أما ويجعلونها فى مقام أمهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] وقلنا: إن هناك بالنسبة لدخول يعقوب إلى مصر، هناك دخول أول حينما قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ ، ودخول ثان : عندما آوى إليه أبويه، ذلك أنه من عادة العظماء أن يستقبلوا كبار ضيوفهم فى مداخل أو عند حدود البلاد ، فاستقبال العظماء يتم أولاً عند الحدود، حيث يقدم إليهم وجهاء القوم وأعيانهم ، ويستريحون من عناء السفر ،ثم بعد ذلك ينتقلون إلى مقر إقامة حكم البلاد.

وقول الحق سبحانه: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ دليل على حرارة اللقاء؛ لأن الفراق استمر عمرًا طويلاً (١)، يوسف مشتاق إلى أبيه، والأب مشتاق إلى ابنه ، وعندما يحدث اللقاء تكون هناك انفعالات، وكل شيء له تقنين فى الدنيا إلا عواطف البشر فلا تقنين لها ، إنما هى انفعالات خاصة مليئة بالود والمحبة والاحترام، تخرج ممتزجة مع بعضها البعض؛ لتوجد نوعًا من الشعور ، لا يحسه إلا من يمر بهذه التجربة ، وهى على درجات مختلفة ، فاللقاء أحيانًا يكون مصافحة باليد، وأحيانًا لا تكفى المصافحة لإعلان الشعور فتحتضنه ، ثم بعد ذلك تقبله ، وتكرر هذه العملية عدة مرات تكرارًا لا شعوريا غير محسوب، وتجرى على لسانك الألفاظ

---

(١) قال ابن عطية الأندلسى فى قوله تعالى : ﴿آوَىٰ﴾ معناه : ضم وأظهر الحماية بهما، وفى الحديث : « أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله »(١) وقيل : أراد «بالأبوين»: أباه وأمه، قاله ابن إسحاق والحسن. وقال بعضهم: أباه وجدته - أم أمه. حكاه الزهراوى. وقيل : أباه وخالته ؛ لأن أمه قد كانت ماتت. قاله السدى. قال القاضى أبو محمد : والأول أظهر - بحسب اللفظ - إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت. [المحرر الوجيز : ٣/ ٢٨١]

وقال أبو حيان فى قوله تعالى : ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أى : ضمهما إليه وعانقهما ، والظاهر أنهما أبوه وأمه راحيل . فقال الحسن وابن إسحاق : كانت أمه بالحياة . وقيل: كانت ماتت من نفاس بنيامين ، وأحياها له ليصدق رؤياه فى قوله : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ حكى هذا عن الحسن وابن إسحاق أيضًا. وقيل: أبوه وخالته، وكان يعقوب تزوجها بعد موت راحيل، والخالة أم. روى عن ابن عباس، وكانت ربت يوسف، والرابة تدعى أما ، وقال بعضهم: أبوه وجدته أم أمه، حكاه الزهراوى . [البحر المحيط : ٦/ ٣٢٦]

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٦] بلفظ : « أخبركم عن النفر الثلاثة ؛ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض الله عنه » عن أبى واقد الليثى .

والانفعالات التى لو طلب منك بعد دقائق أن تعيدها لعجزت ، كل هذا يحدث تلقائيا دون إعداد سابق.

ولقد كان رسول الله ﷺ فى غزوة من الغزوات يستعرض الجيش، فوجد واحدًا خارج الصف قليلاً فدفعه داخل الصف ، انتهز الرجل الفرصة ، وقال: أوجعتنى يا رسول الله . فما كان من رسول الله إلا أن كشف عن بطنه وأشار إلى المكان الذى دفع فيه الرجل، وقال: اقتص لنفسك يا رجل . وتقدم الصحابى وقبل بطن رسول الله ﷺ ، ثم قال: يا رسول الله ، لقد دخلت الحرب لكى أكون شهيدًا، وأحببت أن يكون آخر ما أمسه قبل استشهادى هو جسدك الطاهر، فأنا لم أتوجع ولكنها كانت حجة لأقبل جسدك[1].

---

(١) قال ابن إسحاق : وحدثنى حبان بن واسع بن حبان ، عن أشياخ من قومه : أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قِدْحٌ [1] يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزية ، حليف بنى عدى بن النجار ـ قال ابن هشام : يقال : سواد مثقلة، وسواد فى الأنصار غير هذا ، مخفف ـ وهو مستنتل [2]من الصف ـ قال ابن هشام: ويقال : مستنصل[3] من الصف ـ فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال :«استو يا سواد»، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، قال : فأقدنى[4]. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال : «استقد» ، قال : فاعتنقه فقبل بطنه ، فقال : «ماحملك على هذا يا سواد ؟» . قال : يا رسول الله ، قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

[السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٢٨٦] وذكره صاحب سبل الهدى والرشاد [٤/ ٥٤]

---

(١) قدح : سهم .
(٢) مُسْتَنْتِل : متقدم وبارز من الصف .
(٣) مستنصل : خارج .
(٤) اقِدْنِى : اقتص لى من نفسك .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ الله سبحانه وتعالى هو الذى يقول ، ولو أن جُرمًا قد حدث لجرَّم الله سبحانه وتعالى من فعلوه، ولكن الله أقره ، وهذا هو المهم ، فلا يقولن إنسان : إن إخوة يوسف سجدوا لأخيهم ، وأنه لا يسجد لغير الله سبحانه .

السجود للعبادة لله وحده ، ومن سجد عابدًا لغير الله فهذا شرك ، أما السجود الذى يأتى من حرارة الاستقبال، كأن تقف لى عندما أدخل احترامًا لدخولى، وأنا أقف لك عندما تدخل مسائل متقابلة. وإذا كانت رؤيا يوسف قد تحققت فهذه الرؤيا من الله ، وهو يرى الشمس والقمر والكواكب تسجد له .

وعلى أية حال فإننا يجب ألا نقف أمام هذه الأشياء ما دام قد أقرها القرآن . فالقرآن كلام الله ، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يقر مثل هذا السجود ، لأخبرنا فى القرآن الكريم بذلك ، ولكن لأن السجود هنا بعيد عن العبادة له معنى آخر تمامًا ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يجرمه ، ولقد سجدت الملائكة لآدم، وتجد كثيرًا من الناس يقول: كيف تسجد الملائكة لغير الله ؟! نقول: إن الله سبحانه وتعالى الذى خلق الملائكة، هو الذى أمرها بالسجود لآدم، فهو الذى أمرها بالسجود ، فهى قد سجدت لأمر خالقها.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة(١).

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى :﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ أى بعدما استقرت بهم الدار بدخول مصر مستويين ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى السرير الرفيع، قال الرمانى: أصله الرفع.
[نظم الدرر: ١٠/ ٢١٧].

وقال ابن كثير : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد =

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ السجود هنا هو شكر لله؛ لأنه جمع شملهم وهداهم ، أو اعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه ، أو تعبير عن الفرحة بجمع الشمل بعد هذا العمر الطويل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ، المهم فى هذا كله أنه ليس سجود عبادة (١).

= يعنى السرير ، أى أجلسهما معه على السرير . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٧٢]

وقال الماوردى فى قوله عز وجل : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال مجاهد وقتادة: وفى أبويه قولان :

أحدهما : أنهما أبوه وخالته راحيل ، وكان أبوه قد تزوجها بعد أمه فسميت أمًا ، وكانت أمه قد ماتت فى نفاس أخيه بنيامين ، قاله وهب والسدى.

الثانى : أنهما أبوه وأمه ، وكانت باقية إلى دخول مصر ، قاله الحسن وابن إسحاق. [تفسير الماوردى : ٣/ ٨٢].

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ اى سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ اى التى كان قصها على أبيه من قبل ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية،وقد كان هذا سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله. فقال: « لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها(١) » وفى حديث آخر : إن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبى ﷺ فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت» والغرض أن هذا كان جائزًا فى شريعتهم ولهذا خروا له سجدًا .[تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٧٢، ٤٧٣]

---

(١) أخرجه أبو داود [٢١٤٠] عن قيس بن سعد قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يُسجد له. قال: فأتيت النبى ﷺ فقلت: إنى أتيت =

= الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك . قال : «أرأيت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ؟ » قال : قلت: لا ، قال : « فلا تفعلوا ، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد ، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن ؛ لما جعل الله لهم عليهن من الحق » وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [١٨٧٣] : صحيح دون جملة القبر

* هذا تأويل رؤياى من قبل *

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾.
وهكذا يسترجع يوسف البداية ، يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والنجوم تسجد له، فأسرع يقص على أبيه هذه القصة، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم، فلا تقصصها على إخوتك ؛ فتمتلىء صدورهم غيظًا منك وقلوبهم حقدًا عليك، وهذه الصدور حاقدة الآن ، فما بالك إذا علمت بهذه الرؤيا ؟! لأن يعقوب رأى النبوة فيه،وكان يعرف حقد إخوة يوسف عليه، وكيف أن هذا الحقد سيؤدى إلى أحداث كثيرة ، وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها حيث يقول : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠] لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث.

إبراهيم عليه السلام رأى أنه يذبح ابنه ، هل رؤيا إبراهيم تتعلق بحكم شرعى؟ لا، لا تتعلق بحكم شرعى بالنسبة لأمة إبراهيم ، وإنما تتعلق بحكم شرعى لإبراهيم نفسه، والله سبحانه وتعالى قد جعل رؤيا الأنبياء حقًا؛ لأن الشيطان لا يأتى لهم فى الرؤيا، ولكن من الممكن أن يأتى لك أنت، ولكل واحد منا ، ولذلك بمجرد أن قال إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات:١٠٢] قاما مباشرة لينفذا أمر الله(١).

---

(١) قال ابن كثير: قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ . [تفسير ابن كثير : ٤/١٦]

الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يعظم ابتلاءات إبراهيم، وإبراهيم كان حريصًا على أن ينجح فى كل ابتلاء، ولذلك جعله الله للناس إمامًا، واقرأ قوله سبحانه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. كل هذا تم ؛ لأن إبراهيم صدق الرؤيا، وكان الابتلاء عظيمًا ، أن يُطلب من إبراهيم وهو شيخ كبير أن يذبح ابنه الوحيد بيديه، وتجد إبراهيم حريصًا على أن ينفذ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، ورؤيا غير الأنبياء يمكن أن يدخل فيها الشيطان، ولذلك إذا جاءك أحد وقال لك: رأيت رؤيا كذا، وأمرك بشيء يخالف منهج الله ، فلا تطعه ولا تسمع إليه.

❊ إحسان الله ليوسف وإخوته ❊

قال تعالى : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى﴾ . [يوسف:١٠٠] يوسف عليه السلام يعدد نعم الله عليه، فيقول: إن الله سبحانه وتعالى قد نجاه من الجب الذى ألقاه فيه إخوته ، وأنقذه من السجن الذى ألقته فيه امرأة العزيز(١) ، ثم بعد ذلك مكنه فى الأرض، وجعله عزيز مصر، واللقاء هنا بين يوسف وإخوته كان لقاء صفاء، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ﴾ هذا إحسان يوسف ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠] وهذا إحسان لإخوة يوسف، بعد أن عاشوا فى البدو جاء بهم إلى قصر العزيز(٢) .

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل: من الجب استعمالا للكرم؛لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْر الجفاني: وقت الصفا جفا؛ وهو قول صحيح دل عليه الكتاب . وقيل : لأن فى دخوله السجن كان باختياره بقوله : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ﴾ وكان فى الجب بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعصاة ، وفى الجب مع الله تعالى ، وأيضا فإن المنة فى النجاة من السجن كانت أكبر ؛لأنه دخله بسبب أمر همَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ فكان الكرب فيه أكثر ؛ وقال فيه أيضا : ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فعوقب فيه . [تفسير القرطبى : ٩/ ٢٦٧]

(٢) قال فى فتح البيان فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي البادية، أى أرض =

كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ مرة تتعدى: الإحسان إليك والإحسان لغيرك ، ومرة تقتصر على الإحسان لك أو بك . والإحسان هنا متعدد ؛ لأنه أحسن إليه بإخراجه من السجن، وأحسن لإخوته بأن جاء بهم من البدو ، قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] اعتبرت إحسانًا إلى إخوة يوسف لماذا؟ لأننا نعرف أن البدو قوم رحل [1]، يعيشون على الانعزالات الأسرية، فلا يضمهم مجتمع ولا يبقون فى مكان واحد ، بل ينتقلون من مكان إلى آخر؛ بحثًا عن المياة والعشب ، بيوتهم على ظهور جمالهم، هم وراء العشب من منطقة إلى أخرى وحياتهم على الفطرة ، ليس لهم أى نوع من الحضارة ؛ لأن البدو رُحّل باستمرار، إنما الحضر معناها أن يحضر إليك كل شيء وأنت فى المدينة، أى أنه فى البادية أنت تذهب باحثًا عن الخير ، أما فى الحضر فالخير يأتيك إلى مكانك، وأنت مستقر فى حياتك ومعيشتك وسكنك وملبسك[2]، ولقد أراد الشاعر شوقى أن

= كنعان بالشام ، وكانوا أهل مواشى وبرية فسكنوا البادية ، وقيل: إن يعقوب عليه السلام تحول إلى البادية بعد النبوة؛ لأن الله لم يبعث نبيًا من البادية، وأن المكان الذى كان فيه يعقوب يقال له: بدا وفيه نظر، والبدو هو البسيط من الأرض، والبدو خلاف الحضر، والبادية خلاف الحاضرة، قال الخفاجى البادية والبدو بمعنى، قيل سميت به؛ لأن ما فيها يبدو للناظر لعدم ما يواريه. [فتح البيان : ٦/ ٤٠٤، ٤٠٥]

(١) يقال : رَحَل الرجل إذا سار ، وأرحلته أنا . ورجل رحول ، وقوم رُحَّل : أى يرتحلون كثيرًا. [لسان العرب : ١١/ ٢٧٦، ٢٧٧]

(٢) الحَضر : خلاف البدو ، والحاضر : خلاف البادى . الحاضر : المقيم فى المدن والقرى، والبادى : المقيم بالبادية ، والحضارة : الإقامة فى الحضر ، عن أبى زيد. وكان الأصمعى يقول : الحضارة بالفتح .
والحَضَر والحَضْرة والحاضرة : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف ؛ سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار ، والبادية يمكن أن يكون اشتقاق اسمها من بدا يبدو ، أى برز وظهر ، ولكنه اسم لزم ذلك =

يعطينا صورة عن الفرق بين حياة البدو وحياة الحضر، فصنع حوارًا أو مناظرة بين امرأتين: إحداهما من البدو والأخرى من الحضر.

ابن زريح عندما ذهب ليزور زوجته فى البادية قالت له:

سئمنا من البيد يا ابن زريح ... ومن هذه العيشة الحافية

ومن حالب الشاة فى موضع ... ومن موقد النار فى ناحية

يغنيكمو معبد والفريض ... وقينتنا الضبع العاوية

وهم يأكلون فنون الطهاة ... ونأكل ما طهت الماشية

وهكذا فإن الزوجة فى البدو وصفت العيشة بأنها حافية، أى لا يلبسون الأحذية، والمناظر فيها تتكرر: واحد يحلب شاة وآخر يوقد نارًا ، وبينما مغنيا الحضر هما: معبد والفريض، فإن مغنية البادية هى الضباع تعوى، وبينما فى الحضر يأكلون ما أبدع الطهاة من فنون الطعام،ففى البادية يأكلون ما طهت الماشية أى اللبن، المرأة الأخرى التى تتعصب للبادية قالت:

قد اعتسفت هذا يا ابن زريح ... وكانت على مهرها قاسية

فما البيد إلا ديار الكرام ... ومنزلة الذمم الوافية

لها قبلة الشمس عند البزوغ ... وللحضرة القبلة الثانية

ونحن الرياحين ملء الفضاء ... وهن الرياحين فى آنية

ويقتلنا العشق والحاضرات ... يقمن من العشق فى عافية

وهكذا عرض شوقى علينا مميزات البادية، فقال : إن البيد ديار الكرام أصحاب الذمم، وإن الشمس تبزغ منها كأنما تعطيها القبلة الأولى، وإن نساء البدو كالرياحين ملء الفضاء، بينما فى الحضر كأنهن مزروعات فى

= الموضع خاصة دون ما سواه ؛ وأهل الحضر وأهل البدو .

[لسان العرب : ٤/١٩٧]

آنية، وإن البدوية حين تعشق يقتلها العشق، بينما فى الحضر النساء يعشقن ليزددن عافية .

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أى أن يعقوب وإخوة يوسف، سيعيشون منذ الآن فى مصر، ذات الحضارة العريقة وسيجدون فيها كل شيء.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] فكأن الشيطان هو الذى وسوس لإخوة يوسف ، وأن الوسوسة كانت نزغًا فقط، وليست استقرارًا على سوء، وكلمة نزغ مثل نخس، وهى مأخوذة من مُرَوِّض الخيل، عندما ينغزها بالمهمار لكى تسرع، والنزغ هنا تنبيه للهمة ويكون سطحيا . فأنت تنخس الحصان بالمهماز لكى يسرع . كأن نزغ الشيطان شيء سطحى سريع الزوال، خصوصًا إذا تنبهت وطلبت العون من الله، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.(١) فالله وحده يستعاذ به من همزات الشياطين، وهو سبحانه يأمرنا أن نقول : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ

---

(١) نزغ : النَّزغ أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم . ونزغ بينهم ينزغ وينزغ نزغًا : أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض .
والنزغ : الكلام الذى يغرى بين الناس . ونزغه : حرَّكه أدنى حركة . ونزغ الشيطان بينهم ينزغ وينزغ نزغًا أى أفسد وأغرى ، وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ نزغ الشيطان : وساوسه ونخسه فى القلب بما يسوِّل للإنسان من المعاصى ، يعنى يلقى فى قلبه ما يفسده على أصحابه ؛وقال الزجاج : معناه: إن ذلك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال ، فاستعذ بالله من شره ، وامض على حكمك . [لسان العرب : ٨/ ٤٥٤]

مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨] . لذا كان من صفات عباد الرحمن : ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ . أى تذكروا أن الشيطان عدوٌ لهم ، وهكذا يريد الحق تبارك وتعالى أن نعلم أن نزغ الشيطان إذا جاء للمؤمن تذكر أن الشيطان عدوٌ له، فأفاق ولم يستمع إليه ، ومن هنا نعرف أن الشيطان هو الذى أوجد العداوة والبغضاء فى نفوس إخوة يوسف ضد أخيهم (١).

ثم يقول الحق: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ لطيف : يعنى هو المدبر الذى لا يخفى عليه شىء (٢) ، وكلمة «لطف» عكس كلمة «كثافة» ، فالكثافة أن يكون الشىء له حيز، واللطافة هى أن يكون دقيقًا جدًا رغم أن له حيز .(٣)

وقد ضربنا مثلاً لذلك برجل يمر على رجل آخر، يبنى بيتًا فى الخلاء، وقد أعجب بالبيت، فيقول له: ينقصك أن تضع على النوافذ قضبانًا حديدية؛ حتى تمنع الذئاب والكلاب الضالة من الدخول، فيقتنع فيأتيه

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ اى أفسد بيننا ، وحمل بعضنا على بعض، يقال :نزغه إذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ؛ ليقوى مشيها ، وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرمًا منه وتأدبًا.
[فتح القدير : ٥٨/٣].

(٢) قال الشوكانى فى قوله تعالى :﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ اللطيف : الرقيق . قال الزهرى : اللطيف من أسماء الله تعالى ، معناه : الرفيق بعباده ، يقال : لطف فلان بفلان يلطف : إذا رفق به . وقال عمرو بن أبى عمرو : اللطيف : الذى يوصل إليك إربك فى «لطف» : قال الخطابى : اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لايعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون.وقيل : اللطيف : العالم بدقائق الأمور . [فتح القدير : ٥٨/٣ ، ٥٩]

(٣) لَطُف لطافة بالضم أى : صغر ، فهو لطيف . وجارية لطيفة الخصر ، إذا كانت ضامرة البطن ، ولطف الشىء يلطف : صغر. [لسان العرب : ٣١٦/٩]

زائر آخر ويقول له: فى هذه المنطقة ثعابين وحشرات ضارة ، هذا الحديد واسع لابد أن تضيقه فيضيقه، فكلما كان ضيقًا كان لطيفًا، وكلما كان الشيء لطيفًا كان عنيفًا ، لماذا؟ لأنه لا يوجد ما يعوقه من الدخول إلى جسم الإنسان.

وما دام لا يوجد مدخل يعوقه، فهو يستطيع أن يصل إلى البقعة التى يريدها، وأحيانًا يكون الشيء لطيفًا، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى هدفه؛ لأنه يضل الطريق ، إذن فلابد أن يكون لطيفًا وخبيراً ، فإذا كان فوق ذلك يملك الحكمة ، فلا يعوقه شيء عن الوصول إلى هدفه.

* توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين *

ثم يتوجه يوسف إلى ربه ويقول : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] رب : نداء لخالقه ، فالرب هو الخالق، والمربى هو الخالق من عدم والممد من عدم، الله سبحانه وتعالى لاستبقاء الحياة على الأرض أباح التزاوج والتكاثر ، إن هذه من صفات الربوبية، وصفات الربوبية يأخذها المؤمن والكافر ، فالمؤمن خُلق من عدم وأمد من عدم ، والكافر كذلك يأخذ كل متعلقات الربوبية، فالكون كله يخدمه فى الحياة الدنيا: الشمس تشرق عليه والهواء يتنفسه، والمطر ينزل على أرض المؤمن والكافر، والأرض تعطى المؤمن والكافر بالأسباب ، والله سبحانه وتعالى هو رب هذا الكون كله ، خلقه وأوجده ، ولذلك فهو سبحانه متكفل بوسائل حياته ، حتى نهايتها. ولكن عطاء الألوهية فى الدنيا والآخرة للمؤمن وحده ، فالله لا يكلف كافرًا ، ولكنه يقول للمؤمن وحده: افعل هذا ولا تفعل ذاك.

يوسف عليه السلام يقول كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف عليه السلام الملك، ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكًا فى الأرض قهرًا عن الله سبحانه، بل حتى الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة الله تبارك وتعالى، واقرأ قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى

الملك لعباده وينزع الملك منهم. لماذا ينزع؟ لأن الذى عنده ملك متمسك به، يريد أن يبقى له إلى الأبد ، على أننا لابد أن نتنبه إلى الاعتقاد السائد بأن إتيان الملك خير ونزعه شر، نقول: إن الآية الكريمة تغير مفهومنا حين تقول: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أى أن نزع الملك خير كإتيانه تمامًا؛ لأن الإنسان قد يجعله المُلْكُ يتجبر ويطغى ويظلم ، فنزع الملك منه يعفيه من ذلك كله.

إذن.. فنزع الملك ليس شرا ، بل هو فى كثير من الأحيان يكون خيرًا، والملك يعنى «مِلك» بكسر الميم «ومُلك» بضم الميم ، «الملك» بكسر الميم : هو كل ما يقع فى حوزتك وهو ما تملكه ، ولكن «المُلك» بضم الميم: هو ما تملكه ويملكه غيرك؛ لأنه فى «مُلكك» بضم الميم، تستطيع أن تفعل ما تشاء فيما تملك وما لا تملك، والجسد والجوارح هى ملك للإنسان فى حياته الدنيا فقط، اليد تقول لها اكتبى فتكتب، والقدم تقول لها امشى فتمشى، كلها تطيعك أنت مالك حركتها ، ولكن عندما يحتضر الإنسان تنتهى سيطرته على جوارحه وعلى جسده . وهناك ملك وهناك ملكوت ، والملكوت هو كل ما لا تراه العين حتى بالأجهزة، ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

أى نرى إبراهيم العوالم الخفية فى الأرض وكيف تعمل[1] ، وهناك

---

(١)قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى مُلك ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الصفة . ومثله: الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَرُوت . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِىّ « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفتها ، ولعلها لغة . ﴿نُرِي﴾ بمعنى أرينا ؛ بمعنى المُضِىّ . فقيل : أراد به ما فى السموات من عبادة الملائكة والعجائب ، وما فى الأرض من عصيان بنى آدم، فكان يدعو على مَن يراه يَعصى فيُهلكه الله ، فأوحى الله إليه : =

ما هو خفى فى الحياة الدنيا إن عرفته تتعجب بشدة . والله تبارك وتعالى حين يجعل إشعاعات بصر إبراهيم ترى عالم الملكوت، ويعلم أسراره، تكون هذه نعمة عظيمة ، الله جل جلاله أعطى يوسف الملك : ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ (١) لأن الله علم يوسف أن يفسر الرؤى، ففسر لمن معه فى السجن، وفسر للمَلِك ، والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك فهذه ليست عجيبة؛ لأنه سبحانه فاطر السماوات والأرض، أى أنه خالق كل شيء ويعلم أسرار خلقه ، وأنت إذا ذهبت إلى من يصنع أى جهاز وتقول له: إن هذا الجهاز لا يؤدى مهمته بالكفاءة المطلوبة، صانع الجهاز وحده يستطيع أن يرجعه إلى أصله، بحيث يؤدى مهمته.

والسيارة حين تتعطل أنت تأخذها (للميكانيكى) ، إن كان أمينًا

= يا إبراهيم أمسك عن عبادى ، أما علمت أن من أسمائى الصَّبور . روى معناه علىّ عن النبىّ ﷺ . وقيل: كشف الله له عن السموات والأرض ، حتى العرش وأسفل الأرَضين . وروى ابن جُريح عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِىّ قال : فُرجت له السموات السبع . فنظر إليهن حتى انتهى إلى العرش ، وفُرجت له الأرضون فنظر إليهن ، ورأى مكانه فى الجنة . [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٣ ، ٢٤]

(١) قال الشوكانى : ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام ، بما أخلصه منه من المحن العظيمة ، وبما خوله من الملك ، وعلمه من العلم ، تاقت نفسه إلى الخير الأخروى الدائم الذى لا ينقطع، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للتبعيض ، أى بعض الملك؛ لأنه لم يؤت كل الملك ، إنما أوتى ملكًا خاصًا ، وهو ملك مصر فى زمن خاص. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أى بعضها ، إنه لم يؤت جميع علم التأويل ، سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا. وقيل : ﴿مِنَ﴾ للجنس ، كما فى قوله :﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ وقيل : زائدة ، أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

[فتح القدير : ٣/ ٥٩]

أصلحها ، وإن كان غشاشًا يقول لك : اتركها ؛ لأنها تحتاج إلى عمل كثير وقطع غيار كثيرة. ولكن صانع الشيء يغار عليه، ويحاول أن يجعله يعمل على أتم وجه، والله سبحانه وتعالى هو الخالق وهو العليم بخلقه، ولذلك هو وحده الذى يستطيع صلاح هذا الخلق، ولا يتم هذا الصلاح إلا بمنهج الله سبحانه.

إنهم الآن يصنعون أجهزة يضعونها فى السيارات والسفن وغيرها، تنبهك إلى مكان العطل، وتريك إذا كانت الأجهزة تعمل بكفاءة عالية أم لا ، وهذا لطف وخبرة ، والذى خلقنا يعلم ما هو العطب فينا، واقرأ قوله سبحانه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ لماذا ؟ لأن خلق الإنسان الذى يموت بعد فترة أو يموت وهو فى بطن أمه، أو يموت بعد شهر أو سنة أو سنوات كثيرة ، وتطرأ عليه التغيرات ، فهو اليوم سليم وغدًا مريض، وهو اليوم غنى وغدًا فقير ، هذا أسهل من خلق المخلوقات الثابتة التى لاتتغير ولا تتبدل لملايين السنين ، فالشمس لها الثبات تضىء من ملايين السنين ولا تحتاج لقطعة غيار واحدة.

والأرض لها الثبات تدور من ملايين السنين، ولا تهوى فى الفضاء ، والسماء رفعها الله سبحانه وتعالى بغير عمد، أينما نظرت وكيفما نظرت ترى السماء والشمس والقمر والنجوم ، لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] لأنك تتغير وتموت وتذهب وتأتى ، أما هى فثابتة لا تتغير.

وقوله: ﴿وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، ﴿وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أى ناصرى ومعينى؛ لأنه نصره على كل

العقبات التى واجهته فى حياته، ولكن هل يوسف عليه السلام يريد الدنيا؟ إنه يريد الآخرة ، تلك الحياة الباقية التى لا تزول ، ولذلك تأتى الدعوة الهامة: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ لأن الدين عند الله الإسلام، فيوسف أخذ عطاءات الله فى الدنيا وأتاه الله الملك. هنا يتساءل العلماء: كيف يتمنى الإنسان الوفاة؟ نقول : إن الإنسان إذا وفق فى دنياه، فهو دائمًا طموح يريد زيادة الخير[1].

دخل ميمون بن مروان على عمر وهو يسأل ربه الموت ، قال له :

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى :﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة : لم يتمن الموت أحدٌ ، لا نبى ولا غيره إلا يوسف عليه السلام، حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل، اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يتمن الموت ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ، أى إذا جاء أجلى توفنى مسلما ، وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التسترى : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عز وجل . وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لابد متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى »[1] رواه مسلم .

وفيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا».[2]

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه ؛ أمّا أنه يجوز تَمَنّىٌ الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه فى كتاب « التذكرة » . [تفسير القرطبى : ٩/٢٦٩]

---

(١) أخرجه مسلم [٢٦٨٠] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٦٨٢] .

يا أمير المؤمنين ، أتسأل الله الموت ، وقد صنع الله على يدك خيرًا كثيرًا، فأحييت سننًا وأمت بدعًا وبقاؤك خير للمسلمين ؟ قال: ألا أكون كالعبد الصالح يوسف حين أتم الله عليه نعمته ، قال كما يقص علينا القرآن : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ .

قول يوسف : ﴿تَوَفَّنِي﴾ الله يتوفى الأنفس جميعًا ، فكلنا يتوفانا الله طلبنا أم لم نطلب ، ولكن المطلوب أن يتوفى يوسف مسلمًا ، أى يعبد الله وحده لا إله إلا هو. ولذلك عندما نزور القبور نقول: السلام عليكم ديار قوم مؤمنين أنتم السابقون، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون[1] ،لماذا قلت: «إن شاء الله» مع أنك يقينًا ستلحق بهم ؟ قلت: إن شاء الله؛ ليتوفاك الله مؤمنًا مثلهم. يوسف عليه السلام يقول: ﴿أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ كيف يقول نبى لربه: ﴿أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ، والنبى أعلى درجة من الصالح؟ نقول: إن الصالحين منهم الأنبياء .

ألم يُعلم العبد الصالح موسى نبى الله عليه السلام، أسرار أقدار الله فى الأرض ؟ ألم يأت العبد الصالح لسليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه؟ بينما كان سليمان نفسه عاجزًا عن أن يأتى بالعرش. بهذه الطريقة، وكان يحاول الاستعانة بالجن وغيره، إبراهيم وإسحاق ويعقوب والنبيون كلهم من الصالحين [2].

---

(١) عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر . فكان قائلهم يقول : فى رواية أبى بكر : « السلام على أهل الديار» وفى رواية زهير : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين . وإنا إن شاء الله للاحقون . أسأل الله لنا ولكم العافية » . أخرجه مسلم [٩٧٥].

(٢) قال الماوردى فى قوله تعالى :﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فيه قولان : =

= أحدهما : بأهل الجنة ، قاله عكرمة .

الثاني : بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، قاله الضحاك .

قال قتادة والسدى : فكان يوسف أول نبى تمنى الموت. وقال محمد بن إسحاق : مكث يعقوب بأرض مصر سبع عشرة سنة . وقال ابن عباس: مات يعقوب بأرض مصر، وحمل إلى أرض كنعان فدفن هناك . ودفن يوسف بأرض مصر ، ولم يزل بها حتى استخرج موسى عظامه (1) ، وحملها فدفنها إلى جنب يعقوب عليهم السلام .

---

(1) وهذا الموضع يحتاج إلى بسط وتفصيل فدونك إياه ، فأقول وبالله التوفيق : ورد فى الحديث الصحيح أن جسد يوسف نقل ، ونقله نبى الله موسى ، كما قال ابن إسحاق ، ويؤيده ما صح عن رسول الله ﷺ فروى الحاكم [٢/ ٤٠٤-٤٠٥ و ٥٧١-٥٧٢] ، وأبو يعلى [٧٢٥٤] وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، وصححه الألبانى فى الصحيحة [٣١٣] وقال: إنما هو على شرط مسلم وحده من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ أعرابيا فأكرمه ، فقال له : « ائتنا » فأتاه ، فقال رسول الله ﷺ «وفى رواية» نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ: «تعهدنا ائتنا» فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : « سل حاجتك » فقال : ناقة برحلها وعنزًا يحلبها أهلى ، فقال رسول الله ﷺ « أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » فقال أصحابه : يا رسول الله ، وما عجوز بنى اسرائيل ؟ قال : « إن موسى لما سار ببنى إسرائيل من مصر ضلوا الطريق ، فقال ما هذا ؟ فقال علماؤهم : نحن نحدثك إن يوسف لما حضره الموت، أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر ، حتى ننقل عظامه معنا ، قال: فمن يعلم موضع قبره ؟ قالوا : وما ندرى أين قبر يوسف إلا عجوز من بنى إسرائيل، فبعث إليها فأتته ، فقال : دلونى على قبر يوسف قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطين حكمى ، قال : وما حكمك ؟ قالت : أكون معك فى الجنة ، فكره أن يعطيها ذلك فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء ، فقال : انضبوا هذا الماء فأنضبوه ، قالت: احضروا واستخرجوا عظام يوسف ، فلما أقلوها إلى الأرض إذ الطريق مثل ضوء النهار » .

أقول: فيستفاد من الحديث أن موسى عليه السلام حمل جثة نبى الله يوسف حين خروجه من مصر مع من آمن من قومه .

وقد يستشكل البعض من قوله فى الحديث: « عظام يوسف » ويظن أن هذا يتعارض مع =

. . . .

= الحديث الصحيح : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» (*) والصواب أن لا إشكال ولا تعارض .

فقد وقع فى بعض الأحاديث الصحيحة إطلاق العظام على الجسد كله ، فيعتبر هذا الإطلاق من باب إطلاق الجزء وإرادة البعض ، كقوله تعالى فى الآية : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ المراد : صلاة الفجر ، وكقول تميم الدارى رضى الله عنه فيما رواه أبو داود [١٠٨١](**) بسند جيد على شرط مسلم : أن النبى ﷺ لما بدّن قال له تميم الدارى: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله ، يجمع أو يحمل عظامك : قال : « بلى » فاتخذ له منبرًا له مرقاتين . فهذا الحديث يدل على أنهم كانوا يطلقون العظام ، ويريدون البدن كله . أفاده العلامة الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٣١٣] . [تفسير الماوردى : ٣/ ٨٥ ، ٨٦]

(*) جزء من حديث أخرجه النسائى فى الكبرى [١٦٦٦] ، وابن ماجة [١٦٣٦] عن أوس ابن أوس . وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجة [١٣٢٦] : صحيح .

(**) قال الألبانى فى صحيح أبى داود [٩٥٨] : صحيح .

* ما يُستفاد من قصة يوسف *

القصص فى القرآن الكريم يأتى على شكل لقطات متقطعة فى أكثر من مكان وأكثر من سورة ، البعض يقولون: هذه تكرار للقصة. نقول لهم: لو أننا جمعنا كل اللقطات، لوجدنا القصة مكتملة، ولكن اللقطات تأتى مع كل مناسبة؛ لأن القصص فى القرآن جاء ليثبت به الله الرسول ﷺ والمؤمنين . ورسالته ﷺ استغرقت ثلاثًا وعشرين سنة ، تعرض فيها محمد ﷺ لمواقف غاية فى الصعوبة.

فيأتى القرآن ليثبته فيقول : لا تحزن ، موسى حدث له كذا، وإبراهيم حدث له كذا، ولكن لو جمعت كل الآيات التى جاءت فى القرآن عن موسى عليه السلام، لجاءت القصة كاملة ، وبعض المستشرقين يقولون فى الموقع الواحد تأتى القصة مرتين، ويضربون بذلك مثلاً بالآيتين اللتين جاءتا فى قصة موسى عليه السلام، وهما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ [القصص: ٨] وقوله تعالى: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه: ٣٩] نقول: إنكم لم تفهموا قول الله سبحانه وتعالى . الله يريدنا أن نعلم أن العداوة بين موسى وفرعون ستزداد اشتعالاً ولن تهدأ أبدًا ، والعداوة تفاعل بين اثنين، فإذا كانت العداوة من جانب واحد لا تطول المعركة؛ لأن واحدًا يعادى والثانى يسامح. الله سبحانه حين قال: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ [القصص: ٨] أثبت العداوة من جهة موسى ، ولكن لو أن موسى فعل ما فعل وسامحه

فرعون لخمدت العداوة ، الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف أن هذه العداوة ستزداد ، ولن تخمد أبدًا، فقال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ إذن فقد أثبت العداوة من جهة فرعون ، وأثبتها من جهة موسى.

فكأن كلا منهما سيقوم بعمل سيرد عليه الآخر؛ لأن العداوة بين الاثنين موجودة وتزداد النار اشتعالاً ، وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] هذا الكلام قيل لأم موسى قبل أن تلقى بابنها فى اليم، ولكن عندما جاءت ساعة الإلقاء، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾. إذن فساعة التنفيذ كان الأمر أقوى وأسرع ، ولقد قالوا: القصص فى القرآن مبعثرة، فأتى الله سبحانه بقصة يوسف كاملة محبوكة من أول مولده حتى نهاية ملكه، وجاء بها محمد بن عبد الله النبىّ الأمىّ الذى لم يقرأ كتابًا فى حياته؛ لذلك يقول الله جل جلاله لرسوله ﷺ : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أى لم تكن معهم يا محمد عندما قال إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف:٨] ولم تكن معهم فى أحداث هذه القصة ، وهذا الإعجاز فى أنك رويتها لهم، دليل على صدق بلاغك عن الله سبحانه ، ولذلك فعندما فوجىء الكفار وأهل الكتاب بما يقوله محمد ﷺ عن سيرة يوسف، قالوا: ﴿يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ، فرد عليهم الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ إذ كانت رواية رسول الله ﷺ لقصص الأنبياء وغيرهم أكبر دليل على أنه يوحى إليه من الله سبحانه وتعالى. الله يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾.

والغيب أقسام: هناك ما يغيب عنك، ولا يغيب عن غيرك، فأنت لا تعرف من سرق حافظة نقودك، ولكن اللص يعرف، هذا ليس غيبًا، ولكن الغيب هو الذى يغيب عنك وعن كل البشر.

وقوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى يأتى إليك بوحى من الله سبحانه.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢-١٠٣] ما العلاقة بين هذا الكلام؟العلاقة هى أساس القضية ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [يوسف: ١٠٢] أى الذى لم يعلمه أحد، وكان يجب أن يتنبهوا إلى هذا؛ ليصدقوا برسالة محمدﷺولكن نفوسهم لا تتعلق بالإيمان ، ولا تشتاق إليه، ولا تحرص عليه،ولذلك لم يؤمنوا.﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وجاءت هذه الآية الكريمة بعد أن قص الله على رسوله قصة يوسف عليه السلام، وهو ما طلبه الكفار بإيحاء من اليهود ليؤمنوا ، فكان من الواجب أن يؤمنوا بعد أن جاءهم محمدﷺبما طلبوه موحى به من الله تبارك وتعالى،ولكنهم لم يؤمنوا ولذلك قال الله لرسوله ﷺ :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أى مهما كان حرصك على إيمان الناس وهداهم فإن أكثرهم لن يؤمنوا (١).

(١) قال الشوكانى : الخطاب بقوله : ﴿ذَٰلِكَ﴾ لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ و ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذلك بمعنى : الذى ، ونوحيه إليك خبره ، أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك، والمعنى: الإخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن هذا الذى قصه عليه من أمر يوسف وإخوته ، من الأخبار التى كانت غائبة عن رسول الله ﷺ ، وأوحاه الله إليه وأعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحى شىء من ذلك ، وفيه تعريض بكفار قريش؛ لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحودا وعنادًا وحسدًا ، مع كونهم يعلمون حقيقة =

....

= الحال ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ إجماع الأمر : العزم عليه ، أى وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعا على إلقائه فى الجب، وهم فى تلك الحالة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ به ، أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به، ويبغونه الغوائل. وقيل: الضمير ليعقوب ، أى يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخًا بالدم، وقالوا : أكله الذئب .

وإذا لم يكن سول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك، انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحى من الله سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار، قال الله سبحانه ذاكرًا لهذا : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر الناس على العموم ، ولو حرصت على هدايتهم ، وبالغت فى ذلك - بمؤمنين بالله؛ لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم ، يقال : حرص يحرص مثل : ضرب يضرب ، وفى لغة ضعيفة : حرص يحرص مثل حمد يحمد ، والحرص : طلب الشىء باجتهاد . قال الزجاج : ومعناه: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم ؛ لأنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . قال ابن الأنبارى : إن قريشا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحهما شرحًا شافيًا ، وهو يؤمل أن يكون ذلك سببًا لإسلامهم ، فخالفوا ظنه ، وحزن رسول الله ﷺ لذلك، فعزاه الله بقوله : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الآية. [فتح القدير : ٣/ ٦٠]

ولقد عانى يوسف عليه السلام صنوفًا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة ، ومحنة الجب والخوف والترويع فيه ، ومحنة الرق، وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله. ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته فى قصر العزيز ، ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق فى يديه، وهو يتحكم فى أقوات الناس وفى رقابهم، وفى يديه لقمة الخبز التى تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية، وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه فى الجب ،وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها. . =

. . . .

= لا، بل إن الخاطر ليذهب بى اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى، يكون فيها النصر والتمكين؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراهاً تحت التهديد! كما أخرج يوسف من حضن أبيه، ليواجه هذه الابتلاءات كلها.

إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل - كما استيأس يوسف فى محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه، الذى يليه الفرج المرغوب ! . . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة، وهى فى مثل هذه الفترة تعيش، وفى جوها تتنفس، فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح من بعيد . .

فهو فى السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لا يغفل عن الدعوة لدينه، فى كياسة وتلطف - مع الحزم والفصل - وفى إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها. . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه ، هذا الذى يدعو إليه فى سجنه.

نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة؛ وهو فى الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى. . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة فى انفعالاته وتصرفاته.

ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه. فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة، الضابطة الصابرة.

ثم نلتقى به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها، وقدر الله أن تنقضى الابتلاءات التى نزلت به وببيته ، وحن يوسف إلي أبويه وأهله، ورق لإخوته والضر باد بهم، فكشف لهم عن نفسه، فى عتاب رقيق، وفى عفو كريم، يجىء فى أوانه، وكل الملابسات توحى به، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك.

وفى النهاية يجىء ذلك الموقف الجليل الرائع. . موقف اللقاء الجامع ويوسف فى أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه، وتحقق أحلامه. . وإذا به ينسلخ من هذا كله، وينتحى جانبًا ينفرد بربه، ويناجيه خالصاً له، وذلك كله مطروح وراءه.

ويعقوب. . الوالد المحب الملهوف، والنبى المطمئن الموصول، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التى رآها يوسف؛ وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله فى نفوس بنيه. فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة فى كل جوانبها.

إن مصر فى هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية؛ إنما كان =

= يحكمها «الرعاة» الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم ، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم. نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب «الملك»، فى حين يسمى الملك الذى جاء على عهد موسى ـ عليه السلام ـ من بعد بلقبه المعروف «فرعون». . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف ـ عليه السلام ـ فى مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة، والأسرة السابعة عشرة؛ وهى أسر «الرعاة» الذين سماهم المصريون «الهكسوس» ! كراهية لهم؛ إذ يقال: إن معنى الكلمة فى اللغة المصرية القديمة: «الخنازير» أو «رعاة الخنازير»! وهى فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن.

إن رسالة يوسف- عليه السلام- كانت فى هذه الفترة. وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام ، ديانة التوحيد الخالص ، وهو فى السجن؛ وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ وقررها فى صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة.

والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية، التى عرف الرعاة شيئاً عنها فى أول القصة، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها.

والإشارة الأولى وردت فى حكاية قول النسوة، حين طلع عليهن يوسف: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التى يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف، وأسلمت فى النهاية، فيما حكاه عنها السياق القرآنى:قالت امرأة العزيز: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذى نقرره فى حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون فى سورةغافر ؛ فى دفاعه الإسلامى المجيد عن موسى عليه السلام ، فى وجه فرعون وملئه عندما همّ فرعون بقتل موسى ، ليقتل معه الخطر الذى يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٦ - ٣٥]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ [يوسف ٥١-٥٣]

فقد كان الصراع الحقيقى بين عقيدة التوحيد التى تفرد الله سبحانه بالربوبية، فتفرده بالعبادة ـ أى بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده ـ وين الفرعونية التى تقوم على أساس العقيدة الوثنية، ولا تقوم إلا بها.

انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التى لا تقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم. . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة فى رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها فى النهاية. وفى رؤيا الفتيين صاحبى السجن. وفى رؤيا الملك فى النهاية. . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشى بطابع العصر كله !

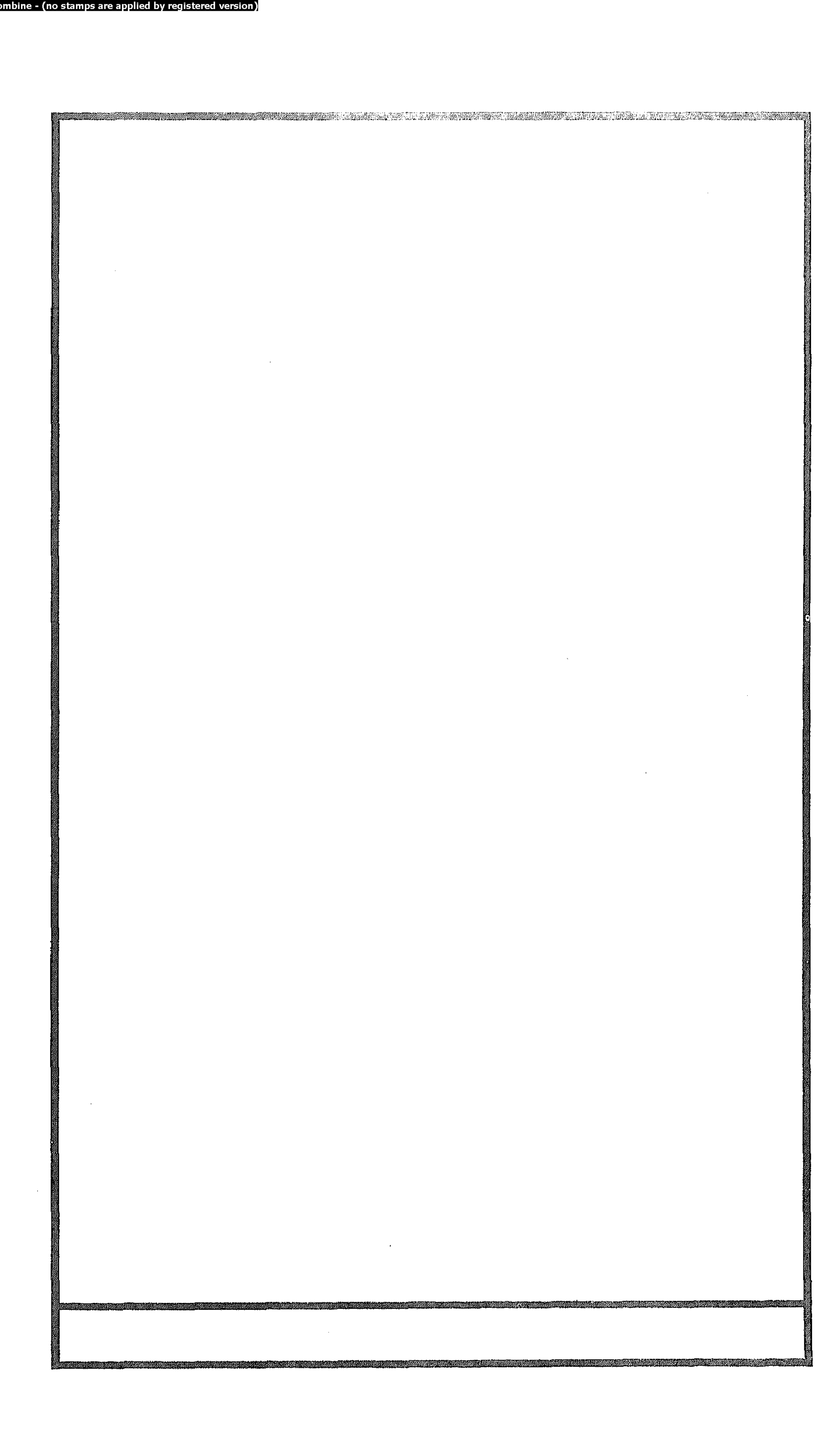
إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التى جاء بها الرسل جميعاً؛ واستيفاء مقوماتها الأساسية فى كل رسالة؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده، ودينونة البشر له وحده. . كما تقرر تضمن تلك العقيدة =

. . . .

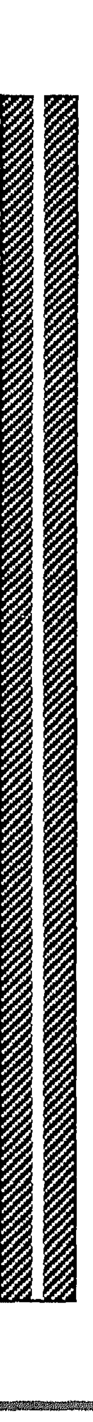
= الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة.

كذلك هى تقرر طبيعة ديانة التوحيد التى جاء بها الرسل جميعا.. إنه ليس توحيد الألوهية فحسب، ولكنه كذلك توحيد الربوبية. [الظلال : ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣]

« تمت قصة يوسف عليه السلام »




نبى الله
أيوب
عليه السلام



* نبى الله أيوب عليه السلام (*) *

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤] ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى دعاه؛ لأن النداء

(*) هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وقال بعضهم: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم أحرق، وكان أيوب فى زمن يعقوب عليه السلام، وكان صهره، وكانت تحته بنت ليعقوب يقال لها : «ليا» وهى التى ضربها بالضغث(١)، وقيل: إن زوجته التى ضربها بالضغث، هى رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب.

وقال الحافظ فى الفتح [٧/ ٧٧]: يقال : هو أيوب بن سارى بن رغوال بن عيصو بن إسحاق ابن إبرهيم، وقيل: اسم أبيه موص والباقى سواء، وقيل: موص بن رزاح بن عيص، وقيل: أيوب بن رزاح بن موص بن عيصو، ومنهم من زاد بين موص وعيص؛ ليقرن، وزعم بعض المتأخرين أنه من ذرية روم بن عيص ولا يثبت ذلك، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام، وأن أباه كان ممن آمن بإبراهيم،وعلى هذا فكان قبل موسى. وقال ابن إسحاق : الصحيح أنه كان من بنى إسرائيل، ولم يصح فى نسبه شىء إلا أن اسم أبيه «امص» ، والله أعلم. وقال الطبرى: كان بعد شعيب. وقال ابن أبى خيثمة : كان بعد سليمان، وكان عيصو تزوج بشمت بنت عمه إسماعيل فرزق منها رغوال، وهو بغين معجمة. ا هـ .

وهو صاحب البلاء المشهور فى جسده ، لما اشتد به البلاء أخرجه أهل القرية التى =

---

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة ، يجمعها أصل واحد مثل الأسل ، والكرّاث ، والثُّمام . وقيل: هو دون الحزمة ، وقيل : هى الحزمة من الحشيش ، والثداء ، والضّعة ، والأسل ، قدر القبضة ونحوها ، مختلطة الرطب باليابس . وقال أبو حنيفة : الضغث: كل ما ملأ الكف من النبات . وفى التنزيل العزيز: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ﴾ [ص : ٤٤] يقال : إنه كان حزمةمن أسل، ضرب بها امرأته ، فبرّت يمينه . [لسان العرب : ٢/ ١٦٣ ، ١٦٤]

بالنسبة لله دعاء؛ لأن النداء أن تطلب إقبال أحد عليك، لكن نداء الله معناه دعاء؛ لأنه غير نداء البشر ؛ لأن نداء البشر كل مراده الإقبال ، تقول مثلاً : يامحمد، فيأتيك ، لكن فى أى شيء تحتاجه، هذا شيء آخر، لكن أيوب حينما نادى ربه ناداه بمطلوب يريد أن يحققه له ، والضر ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره،(1) وقالوا : إن الأنبياء لا يمرضون مرضاً

= كان فيها إلى كناسة خارج القرية، فمكث أيوب عليه السلام مطروحاً على كناسة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهراً ، ما يسأل الله عز وجل أن يكشف ما به، وكان قد آمن به وتبعه على دينه ثلاثة نفر، فانطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكتوه، فلما سمع أيوب عليه السلام كلامهم أقبل على ربه يستغيثه ويتضرع إليه؛ فرحمه ربه ورفع عنه البلاء، ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم، وقال له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ، فاغتسل به، فعاد كهيئته قبل البلاء فى الحسن والجمال.

خبره فى تاريخ الطبرى [1/ 322] وما بعدها ، وتفسير ابن كثير [3/ 183 : 185].

ورد ذكره عليه السلام في أربع آيات من القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163].

وقوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83].

وقوله : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ [ص: 41] .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة. عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «بينما أيوب يغتسل عريانا، خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثى فى ثوبه فنادى ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال : بلى يارب، ولكن لاغنى عن بركتك». أخرجه البخارى [3391].

(1) قال القرطبى : اختلف فى قول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ على خمسة عشر قولا: =

ينفر الناس منهم، ومعنى الضر: هو الإيذاء فى الجسد، أما الضرر: فهو أى

= الأول: أنه وثب ليصلى فلم يقدر على النهوض، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾. إخبارًا عن حاله، لا شكوى لبلائه، رواه أنس مرفوعا.

الثانى : أنه إقرار بالعجز، فلم يكن منافيا للصبر.

الثالث : أنه سبحانه أجراه على لسانه؛ ليكون حجة لأهل البلاء بعده، فى الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع : أنه أجراه على لسانه؛ إلزاما له فى صفة الآدمى فى الضعف عن تحمل البلاء.

الخامس : أنه انقطع الوحى عنه أربعين يوما، فخاف هجران ربه فقال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾. وهذا قول جعفر بن محمد.

السادس: أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه، لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه، محوا ما كتبوا عنه، وقالوا : مالهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضر فى ذهاب الوحى والدين من أيدى الناس. وهذا مما لم يصح سنده، والله أعلم، قاله ابن العربى.

السابع: أن دودة سقطت من لحمه، فأخذها وردها فى موضعها، فعقرته فصاح ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فقيل: أعلينا تتصبر. قال ابن العربى : وهذا بعيد جدا مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده .

الثامن : أن الدود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربى: وما أحسن هذا لو كان له سند، ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع : أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له ، هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ؟ فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء. قال ابن العربى: وهذا غلو لا يحتاج إليه.

العاشر : أنه قيل له : سل الله العافية، فقال: أقمت فى النعيم سبعين سنة، وأقيم فى البلاء سبع سنين، وحينئذ أسأله فقال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾. قال ابن العربى : وهذا ممكن، ولكنه لم يصح فى إقامته مدة خبر ، ولافى هذه القصة. =

= الحادى عشر : أن ضره قول إبليس لزوجه : اسجدى لى، فخاف ذهاب الإيمان عنها، فتهلك ويبقى بغير كافل.

الثانى عشر : لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره، فليخرج عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعد من القرية، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا. فأرادوا قطعها عنه؛ فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ .

الثالث عشر: قال عبدالله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان، فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه؛ من نتن ريحه، فقال أحدهما : لو علم الله فى أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة؛ فعند ذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ ثم قال : «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان قط ، وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى» فنادى مناد من السماء: «أن صدق عبدى» وهما يسمعان ، فخرا ساجدين.

الرابع عشر : أن معنى ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك؟ قال : شماتة الأعداء. قال ابن العربى : وهذا ممكن، فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك، فقال : ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر : أن امرأته كانت ذات ذوائب، فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا، وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها فى تصرفه وتنقله، فلما عدمها وأراد الحركة فى تنقله لم يقدر ، قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾. وقيل : إنها لما اشترت القوت بذوائبها، جاءه إبليس لعنه الله فى صفة رجل، وقال له : إن أهلك بغت ، فأخذت وحلق شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها؛ فكانت المحنة على قلب المرأة، أشد من المحنة على قلب أيوب.

قلت : وقول سادس عشر : ذكره ابن المبارك : أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوما أيوب ﷺ، وما أصابه من البلاء؛ الحديث=

= وفيه: أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه، قال : يا نبى الله لقد أعجبنى أمرك، وذكرته إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفى جسدك، منذ ثمانى عشرة سنة حتى بلغت ما ترى؛ ألا يرحمك الله فيكشف عنك! لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه! فقال أيوب عليه السلام : «ما أدرى ما يقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله - أو على النفر يتزاعمون - فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم؛ إرادة ألا يأثم أحد ذكره ، ولا يذكره أحد إلا بالحق» فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وإنما كان دعاؤه عرضا عرضه على الله تبارك وتعالى، يخبره بالذى بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث.[1]

وقول سابع عشر : سمعته ولم أقف عليه، أن دودة سقطت من جسده؛ فطلبها ليردّها إلى موضعها، فلم يجدها فقال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لما فقد من أجر=

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «إن أيوب نبى الله كان فى بلائه ثمانى عشرة سنة. فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه، ويروحان إليه، فقال أحدهما لصاحبه : أتعلم، والله لقد أذنب أيوب ذنبا ماأذنبه أحد، قال صاحبه: وماذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه؟!
فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب : لا أدرى ما يقول، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله ؛ فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا فى حق. قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ. فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت : أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى؟، ووالله على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال فإنى أنا هو. وكان له أندران : أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض». أخرجه أبو يعلى [٣٦١٧]، وابن حبان [٢٨٩٨]، وقال الأرناؤوط : صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٨١-٥٨٢] وصححه، ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ٢١١] : رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد.(١)

أيوب عليه السلام لما أصابه الضر صبر، ولكن ألم الضر جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره؛ لأن الإنسان لا يتشجع على الله،(٢) ولذلك الإمام على لما دخل عليه شخص يعوده وهو يتألم من المرض، ويقول: آه.

= ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند.

قال العلماء : ولم يكن قوله : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ جزعا؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ بل كان ذلك دعاء منه، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لاينافى الرضا. قال الثعلبى: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء فى دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء بيانه : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾. والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال : عرفه فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال.

[تفسير القرطبى : ١١/ ٣٢٣ : ٣٢٦]

(١) الضَّر والضُّر لغتان : ضد النفع، والضَّر المصدر، والضُّر الاسم. أبو الدُّقَيْش : الضَّر ضد النفع، والضُّر بالضم : الهزال وسوء الحال. فكل ما كان من سوء حال وفقر، أو شدة فى بدن فهو ضُر. وما كان ضدًا للنفع فهو ضَرّ. وقوله : ﴿لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ من الضرر، وهو ضد النفع. [لسان العرب : ٤/ ٤٨٢].

(٢) قال الله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. وقال القرطبى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ أى: على البلاء. ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: توّاب رجّاع مطيع. وسُئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال : كلاهما سواء ؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا؛ فقال فى وصف أيوب : ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال فى وصف سليمان : ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [تفسير القرطبى : ١٥ / ٢١٥]

قال له الرجل : أتتوجع وأنت أبو الحسن ؟ قال له : أنا لا أتشجع على الله.

وكلمة ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ نحن قلنا : حين ترى جمعاً يدخل الله فيه نفسه مع خلقه في شيء، فاعلم أن له معنى آخر، مثل : ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ و﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.. إلخ؛ لأن البشر منهم الراحمون، والرحمة تخلق بصفة من صفات الحق سبحانه ، ولكن رحمة العبد ليست مثل رحمة الخالق ، وذلك مثل الفارق بين مايخلقه الخلق، ومايخلقه الخالق .

فمثلاً : الإنسان الذى صنع كوباً زجاجياً، أتى بالرمل وسخنه وصهره وصنع منه الكوب، فهذه صنعة البشر، ولكن انظر إلى صنعة الحق سبحانه، أنت خلقت من موجود، وهو خلق من معدوم؛ لأنه سبحانه يخلق من العدم، وأنت خلقت مالا يتفاعل ولايتناسل، بل يجمد عند صنعتك له، ولكن الله خلق ما يتفاعل ويتناسل، وفيه روح ويكبر .. إلخ، فهو سبحانه أحسن الخالقين.

ربنا سبحانه حين ناداه أيوب استجاب له وكشف عنه الضر ، قال تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

فهو كان يشتكى من الضر وقلة الأهل، فلم يكن له عزوة، فلما استجاب الله دعوته ، أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه، فكشف عنه الضر، وآتاه أهله وزاده مثلهم أيضا، رحمة من عند الله فوق ماطلب، وهذا كله رحمة من الله وذكرى لكل عابد؛ لأن العابد الذى يخلص عبادته لله، عليه أن يعلم أنه إذا أصابه مكروه ولجأ إلى الله،

فإن الله يرفع عنه هذا المكروه، ويعطيه نعماً فوق ما طلب.[1]

---

(١) قال البقاعي في قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أى أوجدنا إجابته إيجاد من كأنه طالب لها بسبب ندائه، هذا بعظمتنا فى قدرتنا على الأمور الهائلة، وسبّب عن ذلك قوله : ﴿فَكَشَفْنَا﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ بأن أمرناه أن يركض برجله؛ فتنبع له عين من ماء ، فيغتسل فيها، فينبت لحمه وجلده أحسن ما كان وأصحه، ودل على تعاظم هذا الأمر بقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ أى أولاده وما تبعهم من حشمه، وأحييناهم له بعد أن كانوا ماتوا ، ﴿وَمِثْلَهُم﴾ أى وأوجدنا له مثلهم فى الدنيا، فإن قوله : ﴿مَّعَهُمْ﴾ يدل على أنهم وجدوا عند وجدان الأهل، حال كون ذلك الكشف والإيتاء ﴿رَحْمَةً﴾ أى نعمة عظمية ، تدل على شرفه ، بما من شأنه العطف والتحنن ، وهو من تسمية المسبب ، وفخمها بقوله : ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ بحيث لا يشك من ينظر ذلك، أنا ما فعلناه إلا رحمة منا له، وأن غيرنا لم يكن يقدر على ذلك ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أى عظة عظيمة ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ كلهم؛ ليتأسوا به ، فيصبروا إذا ابتلوا بفتنة الضراء، ولا يظنوا أنها لهوانهم، ويشكروا إذا ابتلوا بنعمة السراء؛ لئلا تكون عين شقائهم. [نظم الدرر : ١٢ / ٤٦٢، ٤٦٣]

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم، وآتاه مثلهم معهم فى الدنيا، قاله ابن مسعود، والحسن، وقتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس : كانت امرأته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات، فنشروا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات.

والثانى : أنهم كانوا قد غيبوا عنه ولم يموتوا، فآتاهم فى الدنيا ، ومثلهم معهم فى الآخرة، رواه هشام عن الحسن.

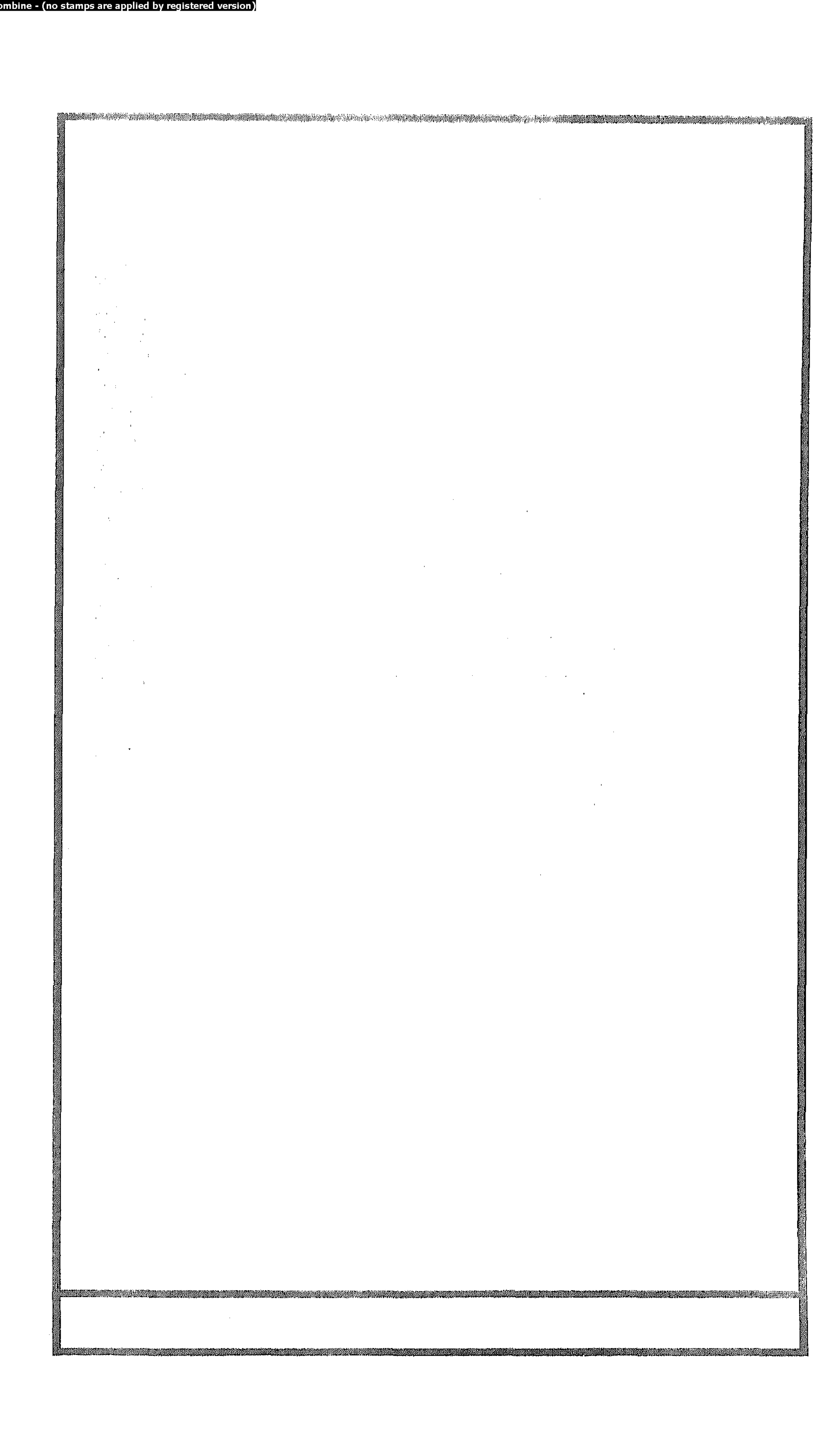
والثالث : آتاه الله أجور أهله فى الآخرة، وآتاه مثلهم فى الدنيا، قاله نوف ومجاهد.

والرابع : آتاه أهله ومثلهم معهم فى الآخرة، حكاه الزجاج.

[زاد المسير : ٥/ ٢٦٢]

« تمت قصة أيوب عليه السلام »


قصة
ذى الكفل
عليه السلام



❊ ذو الكفل ❊

قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وقال الله تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ .

فالظاهر فى ذكره فى القرآن العظيم، بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى، عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًا ، وإنما كان رجلا صالحًا ، وحكمًا مقسطًا عادلا .

وتوقف ابن جرير فى ذلك . . فالله أعلم .

وروى ابن جرير عن ابن أبى نجيح عن مجاهد: أنه لم يكن نبيًا ، وإنما كان رجلا صالحًا. وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل، فسمى ذا الكفل.(1)

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند ، عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس ، يعمل عليهم فى حياتى ؛ حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس ، فقال: من يتقبل منى بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل ، ولايغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ، ولاتغضب؟ قال: نعم. قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت أناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك، فقال: دعونى وإياه ، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان =

(1) أخرجه الطبرى [١٧/ ٧٤] فى تفسيره من طريقين : الأول : فيه ابن جريج، وهو ثقة يدلس، وقد رواه بالعنعنة . والثانى : فيه ابن أبى نجيح ، وهو ثقة ربما يدلس ، وقد رواه بالعنعنة . وقال يحيى بن سعيد : لم يسمع ابن أبى نجيح التفسير من مجاهد .وأخرجه ابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٥/ ٦٦١].

= لا ينام الليل ولا النهار إلا تلك النومة، فدق الباب ، فقال: من هذا ؟ قال: شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه ، فقال : إن بينى وبين قومى خصومة ، وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا ، وجعل يطوِّل عليه ، حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال : إذا رحت فإننى آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره ، فقام يتبعه. فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة ، فأخذ مضجعه ، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد ، قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذ أقمت جحدونى. قال : فانطلق فإذا رحت فأتنى. قال : ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد وشق علىّ النوم. فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل: وراءك وراءك. فقال: قد أتيته أمس وذكرت له أمرى. فقال: لا والله ، لقد أمرنا أن لا ندع أحدًا يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوة[1] فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل. قال: فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ، ألم آمرك؟ قال : أما من قبلى والله فلم تؤت، فانظر من أين أوتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه . فقال : أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء ، ففعلت كل ما ترى لأغضبك [2] .

فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به !

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجماهر ، أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة ، عن كنانة بن الأخنس ، قال : سمعت الأشعرى ، يعنى أبا موسى رضى الله عنه ، وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبيًا ، ولكن كان رجلا صالحا ، يصلى كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة ؛ فسمى ذا الكفل.[3] =

(١) كوة : أى فتحة صغيرة .

(٢) أخرجه الطبرى [١٧/ ٧٣ ، ٧٤] فى تفسيره ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

(٣) أخرجه الطبرى [١٧/ ٧٥] فى تفسيره ، وعبد الرزاق [١٨٨٢] فى تفسيره ، وعبد بن حميد، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور [٥/ ٦٦٤]. فى سنده ابن بشير فى عداد =

. . . .

= ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق، عن معمر ، عن قتادة ، قال : قال أبو موسى الأشعرى ، فذكره منقطعًا .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ، حتى عد سبع مرات ، لم أحدث به، ولكنى قد سمعته أكثر من ذلك ، قال : «كان الكفل من بنى إسرائيل، لايتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت منه وبكت، فقال لها، مايبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتنى إليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط! ثم نزل فقال: اذهبى بالدنانير لك. ثم قال: والله لايعصى اللهَ الكفلُ أبدًا ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبًا على بابه : قد غفر الله للكفل ».(1)

ورواه الترمذى وقال: حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر .

فهو حديث غريب جدًا وفى إسناده نظر، فإن سعدًا هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد. ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا. . فالله أعلم .

وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكفل ، وإنما لفظ الحديث : « الكفل » من غير إضافة، فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن . . فالله تعالى أعلم .

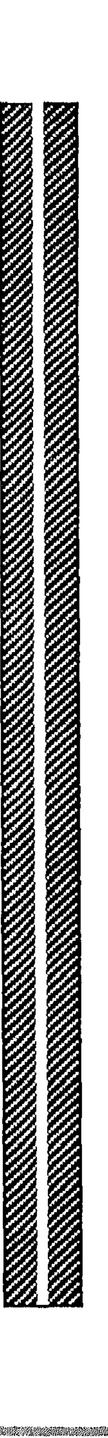
[قصص الأنبياء لابن كثير : ٣١٤ ـ ٣١٧]

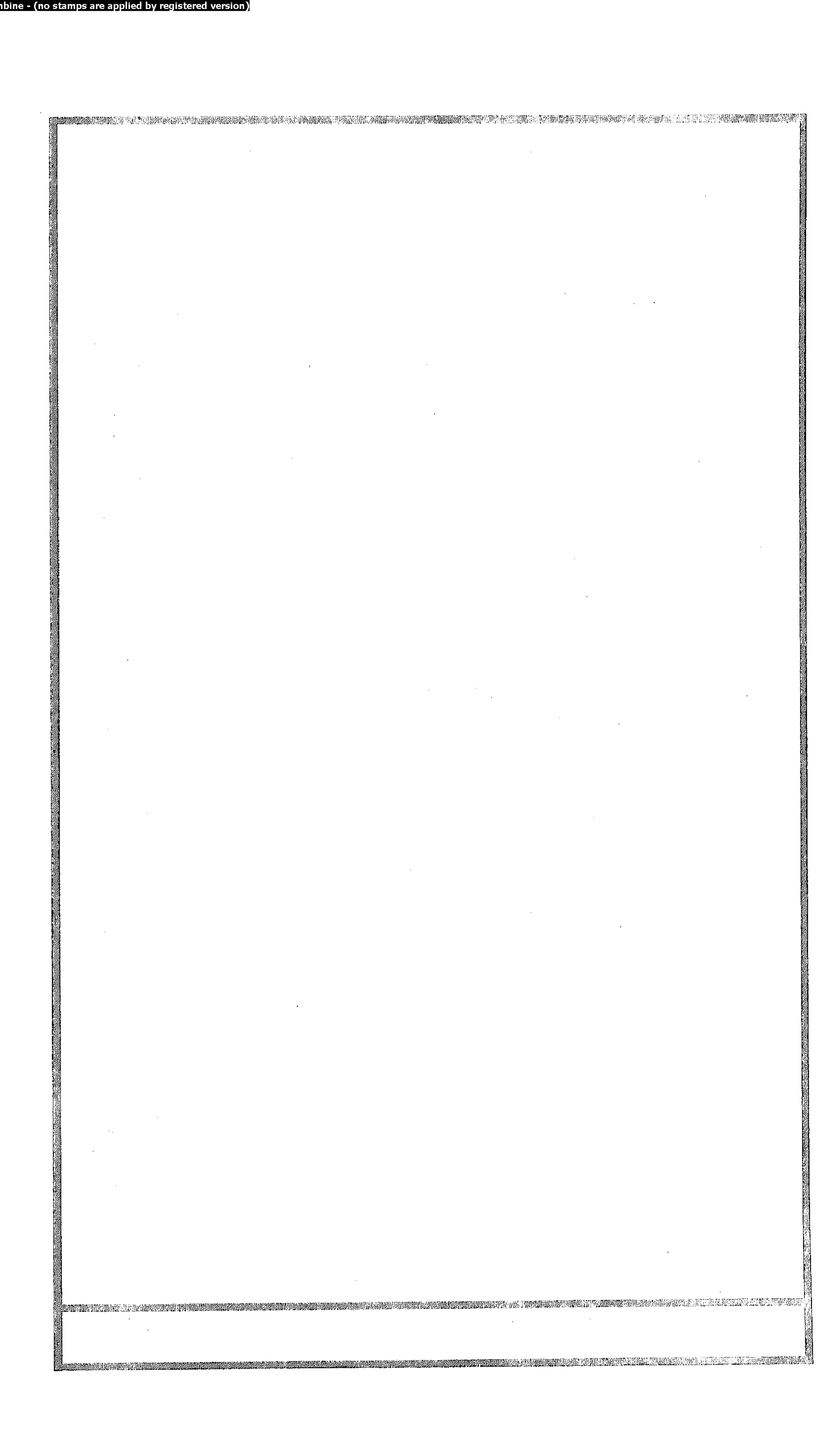
« تمت قصة ذى الكفل عليه السلام »

= الضعفاء ، وقتادة يرويه تارة منقطعًا عن أبى موسى ، وتارة يجعل بينهما كنانة بن الأخنس، وهو فى عداد المجهولين .

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٢٣] ، والترمذى [٢٤٩٦] وقال : حديث حسن ، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥] وصححه ، ووافقه الذهبى . وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٤٤٨] : ضعيف . وأخرجه ابن حبان [٣٨٧] بلفظ : « كان ذو الكفل . . .» وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح ، غير عبد الله بن عبد الله . وذكره السيوطى فى الدر المنثور [٥/ ٦٦٤] بلفظ : « كان ذو الكفل . . . » وفى سنده سعد مولى طلحة ، وهو من المجهولين .


قصة
أصحاب
الرس





* أصحاب الرس *

قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ .

وقال تعالى في سورة «ق» : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ .

وهذا السياق والذي قبله، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا، وهو الهلاك.

وهذا يرد اختيار ابن جرير ، من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج ؛ لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة ، كانوا بعد المسيح عليه السلام . وفيه نظر أيضًا .

وروى ابن جرير قال : قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود.(١)

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه، عند ذكر بناء دمشق، عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره، أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث الله إليهم نبيًا، يقال له حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فصال عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس ، وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها، حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق، وبنى مدينتها، وسماها جبرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكبر منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد « يعني أولاد عاد » بالأحقاف، فكذبوه فأهلكهم الله عز وجل .

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة ، فالله أعلم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه فيها.(٢) =

(١) أخرجه الطبري [١٩/ ١٣] في تفسيره، وفي سنده انقطاع بين ابن جريج ، وابن عباس.

(٢) انظر : تفسير الطبري [١٩/ ١٤] ، تفسير البغوي [٦/ ٨٤]، تفسير ابن كثير [٣/ ٣٠٨]، والدر المنثور [٦/ ٢٥٦] .

= قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة .
قلت : فإن كانوا أصحاب « يس » كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعامة ، قال الله تعالى فى قصتهم : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وستأتى قصتهم بعد هؤلاء . وإن كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضًا وتبروا ، وعلى كل تقدير فينافى ما ذكره ابن جرير .
وقد ذكره أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم ، وتكفى أرضهم جميعًا ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجدًا عظيمًا ، فلما كان بعد أيام ، تصور لهم الشيطان فى صورته، وقال : إنى لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم ؛ حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه ؛ فبعث الله فيهم نبيًا ، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .
قال السهيلى : وكان يوحى إليه فى النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقلتوه وألقوه فى البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم ، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن ، وزئير الأسود ، وصوت الضباع .
فأما ما رواه أعنى ابن جرير ، عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن الله تعالى بعث نبيًا إلى أهل القرية، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى ، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعامًا وشرابًا ، ثم يأتى بها إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه الله عليها، ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه =

. . . .

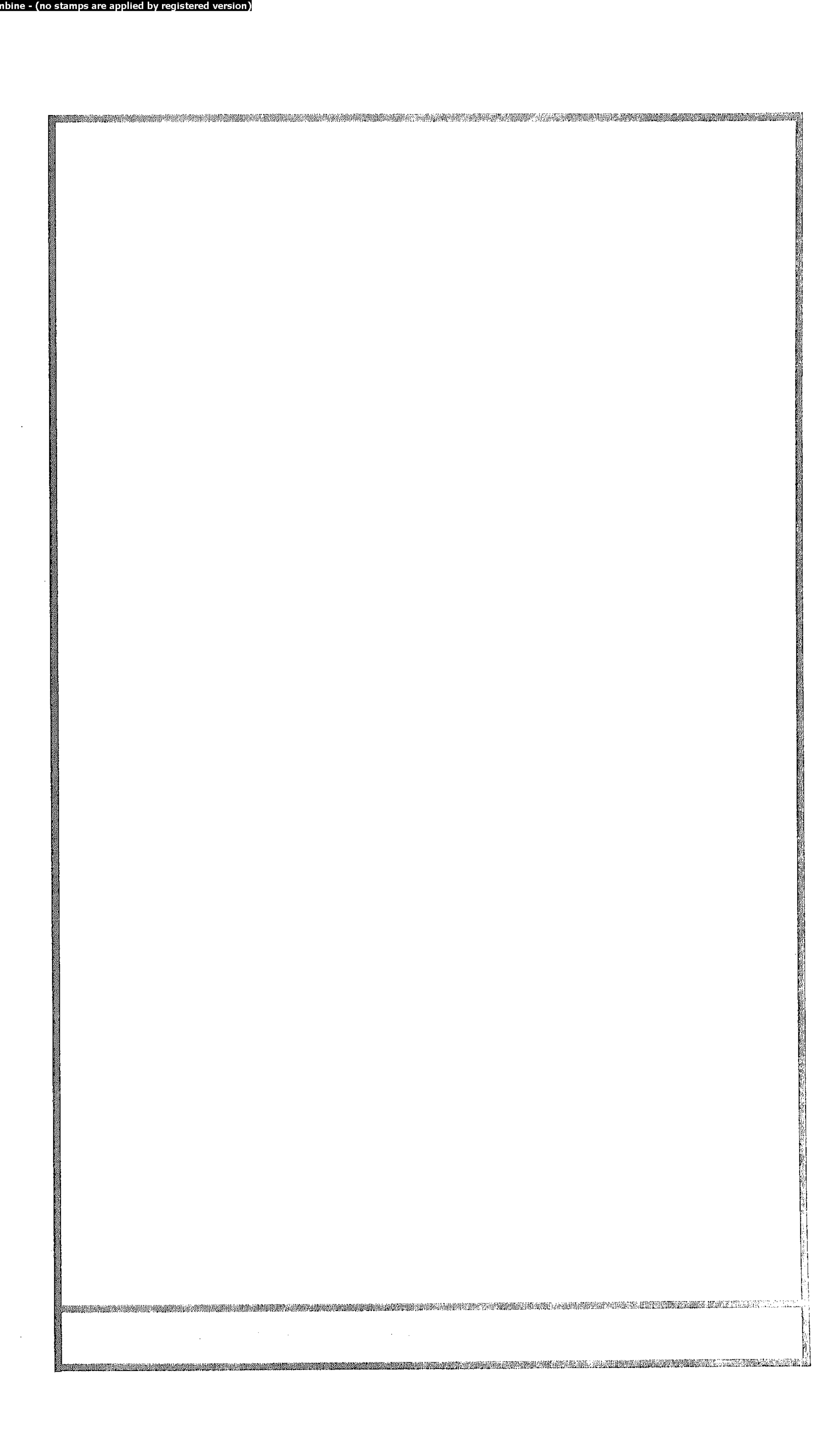
= ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته ، وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها ، وجد سنة فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمًا. ثم إنه ذهب فتمطّى ، فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ، ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى قرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع ، ثم إنه ذهب إلى الحفيرة ، إلى موضعها الذى كانت فيه ، يلتمسه فلم يجده ، وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له : ما ندرى ، حتى قبض الله النبى عليه السلام ، وهبّ الأسود من نومته بعد ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » (١) .

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى . والله أعلم .

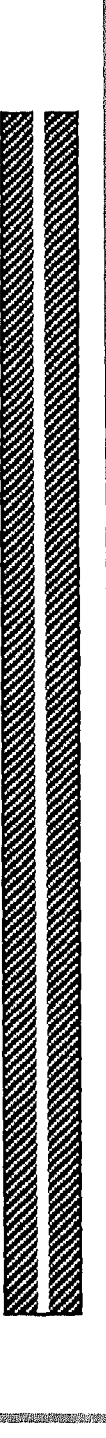
ثم قد رده ابن جرير نفسه، قال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث ، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم . والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود ، وهو ضعيف ، لما تقدم ، ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود ، حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . والله تعالى أعلم . [قصص الأنبياء لابن كثير : ٣١٨ ـ ٣٢١]

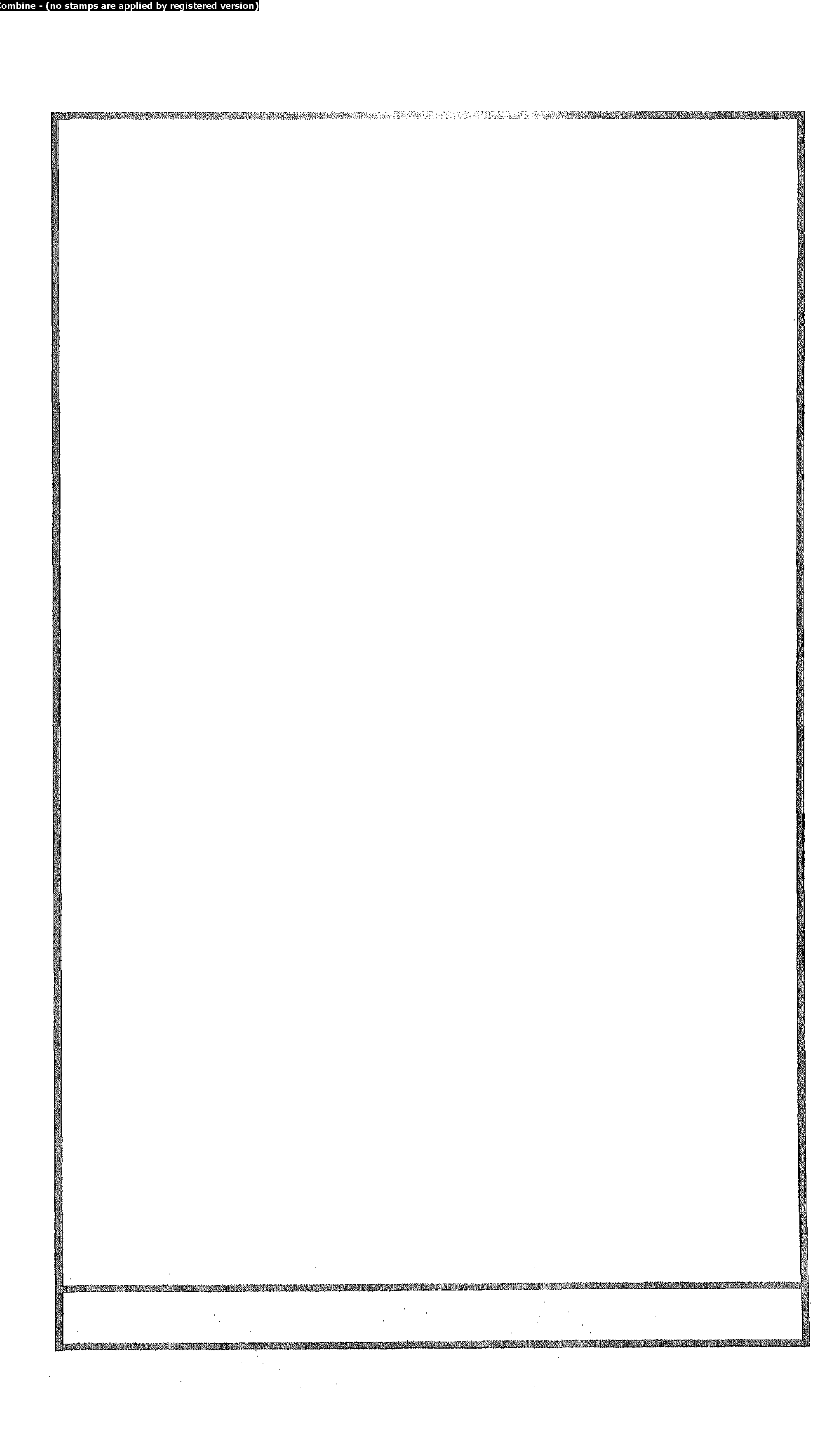
---

(١) أخرجه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبرى [١٩/ ١٤ ، ١٥] فى تفسيره، وفيه ابن حميد شيخ الطبرى، وهو من الضعفاء ، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس ، وفيه إرسال محمد بن كعب القرظى .




نبى الله
يس
عليه السلام





* قصة قوم «يس» *

وهم أصحاب القرية أصحاب «يس» قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس : ١٣ - ٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » ، رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه، وكذا روى عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب، أنهم قالوا : وكان لهم ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام. فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ومصدوق وشلوم، فكذبهم.(١)

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل ، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلا من المسيح. وكذا قال ابن جرير، عن وهب، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي: كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنَّا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جدًا ؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين =

---

(١) انظر: تفسير الطبرى [١٥٦/٢٢] ، تفسير البغوى [١١/٧]، تفسير عبد الرزاق [١١٤/٢] ، تفسير ابن كثير [٥٤٤/٣] ، الدر المنثور [٥٠/٧] .

= كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت ، والقدس ، والإسكندرية ، ورومية ، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذا القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا ، كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا ، فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ، فلا يمنع هذا . والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن ، هى قصة أصحاب المسيح؛ فضعيف لما تقدم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعنى لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعنى المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى أيدناهما بثالث فى الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم. كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًا . فأجابوا بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا ، وانتقم منا أشد الانتقام .

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى تشاءمنا بما جئتمونا به. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال ، وقيل: بالفعال، ويؤيد الأول قوله : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة .

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى بسبب أنا ذكرنا بالهدى، ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعنى لنصرة الرسل ، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة .

ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع =

= شيئًا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى إن تركت عبادة الله ، وعبدت ما سواه .

ثم قال مخاطبًا للرسل : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل : فاستمعوا مقالتى ، واشهدوا لى بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل الله جهرة. فعند ذلك قتلوه ، قيل رجمًا ، وقيل عضًا ، وقيل وثَبُوا إليه وثْبَةَ رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوا بأرجلهم ، حتى أخرجوا قصبته.(١)

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول ، عن أبى مجلز : كان اسم هذا الرجل حبيب ابن مرى ، ثم قيل : كان نجارا ، وقيل : حياكا ، وقيل : إسكافا ، وقيل : قصَّارًا، وقيل : كان يتعبد فى غار هناك (٢) .. فالله أعلم.

وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به ، فيحصل لهم ما حصل لى.

قال ابن عباس: نصح قومه فى حياته بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ رواه ابن أبى حاتم . وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا يلقى غاشًا ؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

---

(١) أخرجه الطبرى [٢٢/ ١٦١] فى تفسيره بسنده عن ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود به . فيه جهالة شيخ ابن إسحاق ، وعنعنة ابن إسحاق ، وهو مدلس . وأخرجه بمعناه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٤٢٩] وصححه ، فتعقبه الذهبى بقوله : عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف .

(٢) أخرجه الطبرى [٢٢/ ١٥٨] فى تفسيره ، وفى سنده المؤمل بن إسماعيل ، وهو صدوق سيىء الحفظ ، له شواهد عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، وابن وهب .

قصارا : أى خياطا وسمى الخياط قصارا ؛ لأنه يدق الثياب بالقصرة ، وهى القطعة من الخشب .

. . . .

﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه !

قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله : ﴿إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى وما احتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم .

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جندا ، أى رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى.

قلت : وأقوى ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى وما كنا نحتاج فى الانتقام إلى هذا، حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ .

قال المفسرون : بعث الله إليه جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون، أى قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

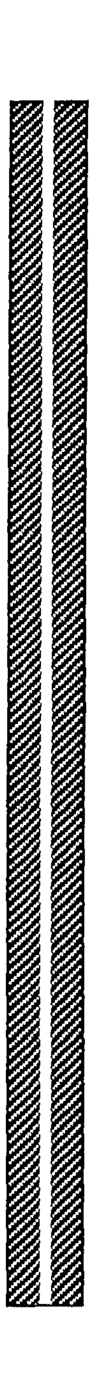
وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا . واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم . فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى: يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى : صاحب يس، والسابق إلى محمد: على بن أبى طالب ».(1) فإنه حديث لا يثبت ؛ لأن حسينًا هذا متروك ، شيعى من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية . والله أعلم .

[قصص الأنبياء لابن كثير : ٣٢٢ ـ ٣٢٦]

---

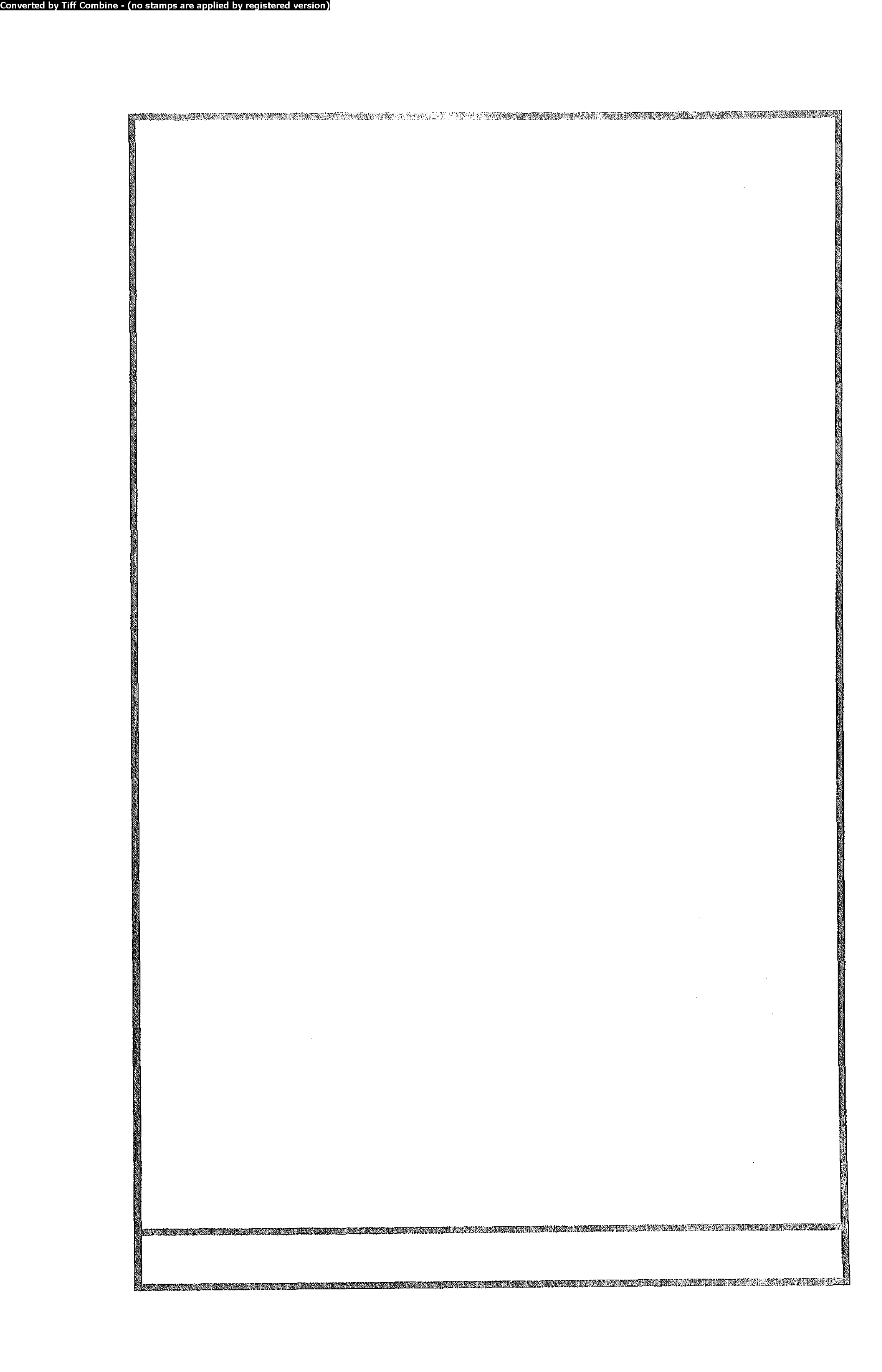
(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير [١١١٥٢] ، وابن مردويه كما فى الدر المنثور [٥/٥٢]. وفى سنده حسين بن الحسن الأشقر، قال البخارى: فيه نظر، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وضعفه أبو حاتم ، والنسائى ، والدارقطنى ، واتهمه بالكذب أبو معمر الهذلى.



نبى الله

يونس

عليه السلام



❋ نبى الله يونس عليه السلام (*) ❋

الله سبحانه وتعالى فى سورة يونس تحدث عن الوحدانية ، والآيات والمعجزات التى تثبت صدق النبوة، ثم قص علينا بعض مواكب الرسل، فقص أول

(*) هو يونس بن متى نبى الله عليه السلام ، بعثه إلى أهل نينوى، من العراق إلى مائة ألف أو يزيدون، وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه إليهم بالنهى عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم وتوحيده.

وقد اختلف السلف من علماء أمة نبينا محمد ﷺ فى ذهابه لربه مغاضبا ، وفى حين ذلك . فمن قائل: كان ذلك قبل دعائه القوم الذين أرسل إليهم ، وإبلاغه إياهم رسالة ربه . وذلك أن القوم الذين أرسل إليهم ، لما حضرهم العذاب أمر بالمسير إليهم، فاستنظر ربه المسير إليهم؛ فلم ينظره فغضب لاستعجال الله إياه. فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، ثم كان من أمره مع الحوت ما كان ، حتى ألقاه فى نينوى. قاله شهر بن حوشب وابن عباس .

وقال آخرون : كان ذلك بعد دعائه من أرسل إليهم ، وتبليغه إياهم رسالة ربه إليهم، ووعدهم نزول عذاب الله بهم ، فى وقت وقَّته لهم إن لم يتوبوا، فلما لم يفعلوا وأظلهم عذاب الله ، وخرج يونس عليه السلام ظنا أنه واقع بهم لا محالة . فلما علموا بخروجه ، تابوا إلى الله فرفع عنهم العذاب، وبلغ ذلك يونس فغضب من ذلك ، وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدى؛ فذهب مغاضبا ربه ، وكره الرجوع إليهم ، وقد جربوا عليه الكذب. [تاريخ الطبرى ٢/ ١١ - ١٢]

وقال الحافظ فى الفتح [٧/ ١١٥] : وهو يونس بن متَّى بفتح الميم وتشديد المثناة مقصورة، ووقع فى تفسير عبدالرزاق أنه اسم أمه، وهو مردود بما فى حديث ابن عباس فى هذا الباب : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى - ونسبه إلى أبيه »(*). =

(*) أخرجه البخارى [٣٤١٣] .

رسالة عن نوح، ثم أتى بالرسالات إجمالاً ، ثم عاد للتفصيل مرة أخرى في قصة موسى وهارون، ثم أتى بيونس الذى سميت السورة باسمه .

ما حكمة اختيار هؤلاء الأنبياء وحدهم ، وترك قصة هود وثمود وشعيب ، وآل لوط وآل مدين ؟ الحكمة هنا أن الله سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالات ، وموكب المعارضين الكافرين بالرسل، وكيف انتهى أمرهم بالهلاك ، وكيف نَجَّى من آمن ، والإهلاك فى قوم نوح كان بالغرق، وفى آل فرعون كان بالغرق ، لنعرف أن الماء الذى تقوم به الحياة، يكون به الإهلاك أيضًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يهب الحياة ويهلكها بالشيء الواحد، الأنبياء الثلاثة الذين ذكروا فى هذه السورة الكريمة ، وهم: نوح ، وموسى ، وهارون ، كان إغراق الذين كفروا بهم بالماء ، ولكن فى قصة يونس عليه السلام ، كاد يونس يهلك بالغرق ، ولكن الله تبارك وتعالى أنجاه ، وأخرجه من بطن الحوت الذى ابتلعه.

ولكن لماذا سميت السورة باسم يونس ؟ ويونس مبعوث إلى مائة ألف أو يزيد ، وهؤلاء عدد محدود ؟ نقول : إن قوم يونس هم الذين آمنوا ، فنجوا من الهلاك، فقوم نوح كذبوا فأغرقهم الله ، ولو أنهم آمنوا ما كانوا أغرقوا ، كان الله سبحانه وتعالى أنجاهم مثل قوم يونس، قوم يونس قبل أن يروا مقدمات العذاب آمنوا ، فأنجاهم الله سبحانه وتعالى ، ولذلك

= فهذا أصح ، ولم أقف فى شيء من الأخبار على اتصال نسبه وقد قيل إنه كان فى زمن ملوك الطوائف. اهـ .

وأورد السهيلى فى مبهماته أن ملك زمانه ونبيهم شعيا ، أمراه أن يمضى إلى ملك غزاهم، فقال لشعيا: الله سمانى؟ قال: لا. فأبى . فألحّا عليه فذهب مغاضباً لهما. التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلى [ص٨٢ – ٨٣].

واختاره ابن جماعة فى كتابه غرر التبيان فيمن لم يسمّ فى القرآن [ص ٣٤٤].

وقصته مع الحوت مذكورة هنا.

سميت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق فنجا من عذاب الله [1] .

ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ . [يونس: ٩٨]

إذن . . فهناك قرى كثيرة لم تؤمن إلا عندما وقع العذاب ، فلم ينفعها إيمانها، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب آمنوا ، فتقبل الله جل جلاله إيمانهم ، والله سبحانه وتعالى لا يظلم خلقه ، ولكن من لم يؤمن منهم إلا بعد أن وقع عليه العذاب استحق العقاب، والذين آمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب تقبل إيمانهم .

قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا ﴾. لولا . . لو دخلت على جملة إسمية يكون لها حكم ، تقول لولا زيد عندك لأتيتك ، إذن لم آت إليك ؛ لأن زيداً عندك فامتنع مجيئى لوجود زيد.

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١] إذن فهذه اسمها امتناع لوجود، فإذا دخلت على جملة فعلية يكون لها استعمال آخر ، وهو حث على فعل الشيء ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ . [التوبة: ١٢٢] وقوله جل جلاله : ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النور: ١٣] أى أن ذلك كان يجب أن يحدث، «فلولا» إذا دخلت على جملة إسمية ، يكون فيها امتناع لوجود، وإذا دخلت على جملة فعلية ، فمعناها أن هذا كان يجب أن يحدث ، لولا

---

(١) قال القاسمى فى سورة يونس : سميت به عليه السلام ، لتضمنها قوله : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب ، قاله المهايمىّ .
[تفسير القاسمى : ٩/ ٣٣٢٠]

الموجودة فى هذه الآية : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾. معناه أنه لو كانت هناك قرية آمنت ، قبل أن يأتيها العذاب ؛ لنجاها الله كما نجا قوم يونس، ولكن لم توجد قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب إلا قوم يونس ، هم القرية المستثناه من العذاب (١) .

---

(١) قال ابن عطيه الأندلسى فى قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ فى مصحف أبىّ وابن مسعود « فهلا » والمعنى فيهما واحد ، وأصل « لولا » فى الكلام التحضيض ، أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره ، فأما هذه فبعيدة عن هذه الآية، لكنها من جملة التى هى للتحضيض بها ، أن يكون المحضض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيء الذى يحضه عليه ، وقد تجيء « لولا » وليس من قصد المخاطب أن يحض المخاطب على فعل ذلك الشيء ، فتكون حينئذ لمعنى توبيخ ، كقول جرير : [الطويل]

لولا الكمى المقنعا

وذلك أنه لم يقصد حضهم على عقر الكمى ، كقولك لرجل قد وقع فى أمر صعب: لولا تحرزت ، وهذه الآية من هذا القبيل .

قال القاضى أبو محمد : ومفهوم من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ، ومعنى الآية فهلا آمن من أهل قرية ، وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم ؛ فيكون الإيمان نافعا فى هذه الحالة ، ثم استثنى قوم يونس ، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وكذلك رسمه النحويون أجمع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره: ما آمن من أهل قرية إلا قوم يونس . [المحرر الوجيز : ٣/١٤٣ ، ١٤٤]

❋ صاحب الحوت ❋

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾(1) [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] هذه قصة سيدنا يونس بن متى، وكان فى بلد تسمى "نينوى" ، وهى فى الموصل فى العراق ، والتى ذكرها عداس خادم بستان الطائف ، عندما ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة، فحرض أهل الطائف عليه غلمانهم وسفهاءهم، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، فدخل إلى بستان، فرآه خادم البستان واسمه عداس؛ وأتى له بقطف عنب ليأكله ثم تكلم معه، فأخبره عداس أنه من «نينوى» ، قال له رسول الله ﷺ: «قرية العبد الصالح» ، قال عداس : وما أدراك بالعبد الصالح ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنه نبى وأنا نبى» .(2)

---

(1) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ فيه قولان :
أحدهما: أنها ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة جوف الحوت، قاله ابن عباس وقتادة.
الثانى : أنها ظلمة الحوت فى بطن الحوت، قاله سالم بن أبى الجعد.
ويحتمل ثالثا : أنها ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة.
[تفسير الماوردى :٣/٤٦٦].

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام [٢/ ٣٤ ، ٣٥].

والنون هو الحوت ، وجمعه نينان مثلما تجمع حوت على حيتان ، فهى مثلها وزنًا ومعنى ، فكلمة ذا النون أى صاحب الحوت؛ لأن له مع الحوت قصة ، كما أن النون اسم من أسماء حروف المعجم؛ ولكن أحياناً حرف المعجم يوافق اسماً له معنى،[1] مثل الحرف "قاف" فيوجد جبل يسمى باسمه جبل قاف ، وحرف العين تسمى عليه عين الماء ، والعين المبصرة ، وحرف السين يسمى على نهر السين ، إذن قد يصادف اسم الحرف اسم شيء آخر.

ومادة الغضب إن أخذت منها المفرد ، تقول: فلان غاضب، ولكن كلمة مغاضب تدل على أن أحداً يشاركه الغضب ، مثل الفعل شارك ومشارك، فتقول شارك زيد عمرا ، فكل واحد منهما يكون فاعلاً مرة ومفعولاً مرة ، بعبارة أخرى : هناك غاضب ومغاضب ، الغاضب يكون غضبان من نفسه، ولم يغضبه أحد، وإنما مغاضب يعنى الناس أغضبوه[2]، مثل هاجر أى ترك المكان من نفسه، ومهاجر أجبره أهل المكان على المهاجرة، والمغاضبة من جهتين التى يسمونها المفاعلة، فعندما

---

(١) النون : الحوت، والجمع أنوان ونينان. الجوهرى : النون حرف من المعجم، وهو من حروف الزيادات. وذا النون : لقب يونس بن متى، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام. وفى التنزيل العزيز: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ هو يونس النبى ﷺ سماه الله ذا النون ؛ لأنه حبسه فى جوف الحوت الذى التقته.
[لسان العرب : ١٣ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠]

(٢) الغضب نقيض الرضا . وقد غضب عليه غضبًا ومغضبة ، وأغضبته أنا فتغضّب . وغاضبت الرجل أغضبته ، وأغضبنى ، وغضبه : راغمه . وفى التنزيل العزيز : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ قيل : مغاضبًا لربه ، وقيل : مغاضبًا لقومه . قال ابن سيدة : والأول أصح ؛ لأن العقوبة لم تحل به إلا لمغاضبته ربه ، وقيل : ذهب مراغما لقومه . [لسان العرب : ١/٦٤٨ ، ٦٤٩]

تقول: قاتل زيدٌ عمرًا ، معناه أن عمرًا قاتل زيدًا أيضًا ، أى هناك مشاركة فى القتال من الطرفين.

ولكن لماذا غضب يونس بن متى ؟ قالوا: لأن قومه كذبوه ، وحذرهم من أن تكذيبهم لمنهج الله ، سيجلب لهم المتاعب ، وينزل عليهم غضب الله وعقابه، ولكنهم عصوا وتمردوا ، وتأخر عنهم عذاب الله ، فلما تأخر العذاب عنهم ، خاف أن يكذبوه ، فترك قومه ومشى ، ولم يكن يعلم أن القوم قد تابوا ، فأجل الله عنهم العقاب، ولكن يونس لم يعلم بهذه التوبة، فغضب لتأخر العذاب عنهم ؛ لأنه خشى أن يشكوا فى دعوته ويكذبوه ، فتركهم مغاضبًا. (١) ورسول الله ﷺ ترك مكة مهاجرًا؛ لأن

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ قال الحسن والشعبى وسعيد ابن جبير : مغاضبا لربه عز وجل. واختاره الطبرى والقتبى واستحسنه المهدوى، وروى عن ابن مسعود. وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح. والمعنى : مغاضبا من أجل ربه، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك. والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصى. وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبى ﷺ لعائشة : « اشترطى لهم الولاء(١) » من هذا. وبالغ القتبى فى نصرة هذا القول. وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر، فلما حمل أعباء النبوة، تفسخ تحتها تفسخ الرُّبَع (٢) تحت الحمل الثقيل، فمضى على وجهه مضى الآبق الناد. وهذه المغاضبة كانت صغيرة. ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم. وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه، حتى أمره بالعود إليهم، بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان يتوعد قومه نزول العذاب فى وقت معلوم، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت، فأظلهم العذاب، فتضرعوا فرفع عنهم، ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضبا، وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد. وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه، فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا؛ ليلبسها فلم ينظر، وقيل له : الأمر أعجل =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٥٦٣] ، ومسلم [١٥٠٤/٨] .

(٢) الربع : ما ولد من الإبل فى الربيع .

قومه هم الذين ألجئوه إلى الهجرة ، ولذلك قال ﷺ وهو يغادر مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلى نفسي ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت »(١)

= من ذلك - وكان فى خلقه ضيق - فخرج مغاضبا لربه؛ فهذا قول. وقول النحاس: أحسن ما قيل فى تأويله : أى خرج مغاضبا من أجل ربه، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه. وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم، فذهب فارا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله. روى معناه عن ابن عباس والضحاك، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوة؛ ولهذا قيل للنبى ﷺ : ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾.

وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه، وهو رسول من الله عز وجل، كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك، الذى كان على قومه. قال ابن عباس : أراد شعيا النبى، والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا، أن يبعثوا يونس إلى ملك نَيْنَوى، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم؛ ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل، وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه، فيعمل على وحى ذلك النبى، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك، أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل، فيبعثه إلى أهل نينوى، فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل، فإنى ملقٍ فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم. فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى؟ قال : لا. قال : فهل سمانى لك؟ قال : لا. قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء. فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى والملك وقومه، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا». [تفسير القرطبى : ١١ / ٣٢٩ ، ٣٣٠]

(١) أخرجه الترمذى [٣٩٢٥] عن عبد الله بن عدى الزهرى بلفظ : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » . وقال : حديث حسن غريب صحيح . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٠٨٢] : صحيح وأخرجه أحمد فى المسند [٤/ ٣٠٥] .

ذا النون خرج مغاضبًا : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ . [الأنبياء: ٨٧]
والظن ترجيح أى أنه اعتقد أن الله سبحانه وتعالى لن يضيق عليه ، فأرض الله واسعة ، وظن أنه سيجد مكانًا آخر ، يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة وأقل عداوة له ، ولكنه مرسل إلى هؤلاء ، وكان لابد أن يتحمل الأذى منهم ، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة ، والتعنت كان شديداً من أهل هذه القرية «نينوى».

بعض الناس يقولون : كيف يظن يونس ، وهو نبى أن الله لن يقدر عليه !! وهذا جهل باستعمالات اللغة ؛ لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل ، أن الله لا يقدر على شيء ؛ لأنه سبحانه على كل شيء قدير ، إذن . . معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾(1) [الأنبياء: ٨٧] أى ظن أن الله

---

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قرأ الجمهور ﴿نَّقْدِرَ﴾ بفتح النون وكسر الدال .. واختلف فى معنى الآية على هذه القراءة . فقيل: معناها: أنه وقع فى ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته . وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظن بالله كفر ، ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة السلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله: ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أى يضيق ، ومنه قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق:٧] . يقال : قدَر وقدّر وقتَر وقتّر ، أى ضيق. وقيل : هو من القدر، الذى هو القضاء والحكم ، أى فظن أن لن نقضى عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدرا ، وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجـع لنا أبدا ما أورق الســلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

أى ما تقدره وتقضى به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى: «فظن أن نُقدِّر » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه =

لن يضيق عليه ويتعبه ، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم ، فيسعد بطاعتهم واستجابتهم له ، بدليل أنه نادى فى الظلمات : ﴿ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فهذا القول منه دليل على أنه يريد من الله أن ينفس عنه كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له ، إذن ﴿لَّن نَّقْدِرَ﴾ أى: لن نضيق عليه ، ونرسله إلى قوم أفضل من قومه طاعة واستجابة.

= القراءة الماوردى عن ابن عباس ، وقرأ ذلك أيضا قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: « أن لن يُقدَّر » بضم الياء والتشديد مبنيا للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن : « يُقدَر بضم الياء وفتح الدال مخففا مبنيا للمفعول . وقد اختلف العلماء فى تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيراً قط، لأهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال : فوالله لئن قدر الله علي . . . الحديث (*) كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، والكلام فى هذا يطول وقد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره . [فتح القدير : ٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠]

(*) عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه ذكر رجلا فيمن سلف أو فيمن كان قبلكم قال كلمة يعنى: « أعطاه الله مالا وولدا ، فلما حضرت الوفاة قال لبنيه : أىَّ أبٍ كنت لكم؟ قالوا : خير أب. قال : فإنه لم يبتئر أو لم يبتئز عند الله خيرا ، وإن يقدرِ الله عليه يعذبونه، فانظروا إذا مت فأحرقونى ، حتى إذا صرت فحما اسحقونى ، أو قال فاسحكونى ، فإذا كان يوم ريح عاصف فاذرونى فيها » فقال نبى الله ﷺ : « «فأخذ مواثيقهم على ذلك وربى ففعلوا ، ثم أذروه فى يوم عاصف ، فقال الله عز وجل : كن ، فإذا هو رجل قائم، قال الله: أى عبدى ، ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال : مخافتك أو فرق منك ، قال : فما تلافاه أن رحمه عندها » وقال مرة أخرى : فما تلافاه غيرها فحدَّثت به أبا عثمان فقال : سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه أذرونى فى البحر ، أو كما حدَّث . أخرجه البخارى [٧٥٠٨] واللفظ له ، ومسلم [٢٧٥٦] عن أبى هريرة .

❋ رحمة الله ليونس عليه السلام ❋

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . الآية تعرضت لقصة خروجه من قومه ، ولكنها لم تتعرض لبقية تاريخه ؛ لأنها تعرضت لها فى سور أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . [الصافات : ١٣٩ - ١٤٤] ونحن نعرف قصة يونس عليه السلام مع الحوت ، وكيف نجاه الله من الابتلاء الشديد ، هناك شبهة يرددها خصوم الإسلام ، وغير الفاهمين ، حول قول الله تعالى فى قصة يونس : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . فقالوا : كيف يظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، مع أنه إن استمر فى بطن الحوت ، فإنه سيموت والحوت أيضًا سيموت، عندما يجيء أجله ، ولن يستمر أحد منهما إلى يوم يبعثون ؟[1]

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى الذاكرين لله ، أوالمصلين له، أو من القائلين : ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ ﴾ الآية ، وقيل : من العابدين، وقال ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة، وقال الحسن : ما كانت له صلاة فى بطن الحوت ، ولكنه قدم عملا صالحا ، فشكر الله تعالى له طاعته القديمة .
﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى لصار بطن الحوت له قبرًا إلى يوم البعث =

هذه هى الشبهة ، وقد فات هؤلاء أن هناك نظرية اسمها نظرية الاحتواء ، مثلما تأتى بكوب وتضع فيه قطعة سكر، وتذيب السكر فى الماء ، فتصبح كل جزئية من الماء فيها جزئية من السكر، وهنا نقول إن الماء احتوى السكر ؛ لأن الاحتواء يكون للأكثر ، إذن فلو أن يونس سيموت، والحوت سيموت فسيتحولان إلى ذرات بعد الموت ، تتفاعل مع بعضها ، فحجم يونس وذراته أقل من حجم الحوت وذراته. فالحوت هو الذى احتوى يونس إلى أن تقوم الساعة ، فى ذراته المنثورة فى الكون ، إذن التعبير القرآنى صحيح ، ولكن هؤلاء لم يفهموا المقصود منه.

وقول الحق : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ [1] أعطى لكل من يقرأ هذه القصة جزءاً من رحمة الله ليونس عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه أن هذه الدعوة ، ليست خاصة بيونس فقط، ولكن الله سبحانه ينجى كل من قالها من المؤمنين، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإن الله تعالى يفرج عنه ما هو فيه ، فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى الله ويقرأ هذه الآية لابد أن يذهب الله غمه [2] ؛ لأنه سبحانه قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى مثل هذا

= وقيل للبث فى بطنه حيًا ، واختلف المفسرون كم أقام فى بطن الحوت ؟ فقال السدى والكلبى ومقاتل بن سليمان : أربعين يومًا ، وقال الضحاك : عشرين يومًا ، وقال عطاء : سبعة أيام ، وقال مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام ، وقيل : ساعة واحدة ؛ وقيل: التقمة ضحى ولفظه عشية . وفى هذه الآية ترغيب فى ذكر الله ، وتنشيط للذاكرين له . [فتح البيان : ١١/٤٢٣]

(١) قال ابن جماعة فى قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْغَمِّ ﴾ هو بطن الحوت. [غرر التبيان: ٣٤٤]

(٢) عن سعد قال : قال رسول الله : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى =

الإنجاء ننجى المؤمنين.

ونحن قلنا سابقًا إن جعفر الصادق رضى الله عنه ، كان له بصر فى القرآن ، وكان يستخرج منه المعانى والعبر ، مثلما قال ابن مسعود : ثوروا القرآن ، أى ثوروه حتى يخرج لكم ما فيه من كنوز ، فكان جعفر الصادق من المثورين للقرآن [1]، ولذلك كتب روشتة لكل أحوال المؤمن، استخرجها من القرآن ، ونحن نعرف أن أول ما يهدد حياة الإنسان هو الخوف ، وقد يكون غير معروف سببه ، وأحيانًا يحدث للإنسان انقباض قد لا يعرف سببه ، فيقول أنا صدرى منقبض ، ولا أعرف له سببا ، فهذا غم لا يعرف سببه ، وكما يخاف من شىء يخاف من مكر الناس به، وهناك من يطلب الدنيا ، يريد أن يكون عنده كذا من متاعها وزينتها.

فهذه الأحوال التى تعترى الإنسان ، إما خوف وإما غم وكرب يلحق به، دون أن يعرف له سببا ، وإما أن يخاف من مكر الناس به وتآمرهم عليه ، ومرة يشغل نفسه بطلب الدنيا ، ويسعى إلى تحقيق أهداف معينة ، ويريد أن يترف حياته ويرقى معيشته ، ويجهد نفسه فى سبيل الحصول على هذه الأشياء ، ولذلك يقول الشاعر :

تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقى

= شىء قط إلا استجاب الله له » . أخرجه الترمذى [٣٥٠٥] ، وأحمد فى المسند [١/ ١٧٠] ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧٨٥] : صحيح ، وصححه الشيخ شاكر [١٤٦٢] .

(١) تَوَّرتُ الأمر : بحثته . وثوَّر القرآن : بحث عن معانيه وعن علمه . وفى حديث عبد الله : «أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين» . وفى رواية : علم الأولين والآخرين . وفى حديث آخر : من أراد العلم فليثوِّر القرآن ؛ قال شمر : تثوير القرآن: قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه ، وقيل لى : ينقِّر عنه ، ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب : ٤/ ١١٠]

ولذلك نرى الناس تحرص على أن تستوعب النعمة والراحة ، وهم فى ذلك مخطئون ؛ لأن الشىء إذا اكتمل لابد أن ينقص يقول الشاعر :

إذا تم شىء بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم [(١)]

ومعلوم أن الإنسان متغير لايثبت على حال ، فلا يثبت على شىء من الصحة أو المرض ، أو الغنى والفقر أو الحزن والسرور ؛ لأن الإنسان عرضة لأن يتغير ، فلو وصل إلى قمة الكمال ، لابد أن ينزل ، ولذلك نرى الناس يحزنون ؛ لأن حياتهم ينقصها شىء ، نقول لهم لا تحزنوا ؛ لأن نقص هذا الشىء هو لحفظ النعمة ؛ لأنها لو اكتملت لابد أن تنقص وتتغير ، فالنقص فى النعمة هو وسيلة حفظ النعم الأخرى ، ولذلك عندنا فى الريف ، إذا رزق أحدهم بمولود جميل ، جرت العادة أن يلبسونه «جلابية متسخة» ، ويسودون وجهه بالكحل ؛ ظناً أنه لن يصيبه حسد ، ولذلك المتنبى الشاعر فطن إلى هذا ، فلما أراد أن يمدح سيف الدولة قال :

شخص الأنام إلى كمالٍ فاستعذ من شر أعينهم بعيب واحد

أى أنه بلغ الكمال فى كل شىء ، فطلب منه أن يحفظ نفسه من شر أعينهم ، بأن يظهر عيباً واحداً ، يبعد عنه حسدهم له .

إذن . . ما دام الإنسان حاله متغير ، فعليه ألا يفرح بتمام النعمة، ولذلك المرأة التى دخلت على الخليفة ، وقالت له: أتم الله عليك نعمته

---

(١) ومنه ما قاله أبو السبقاء الرُّندى فى نونيته المشهورة فيرثاء الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصـــان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسـان

هى الأمور كما شاهدتها دول من سرَّه زمن ساءته أزمـــان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

[تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٣٦ ـ د. الطاهر أحمد مكى]

وأقر عينك ، فقال لعماله : أعطوها ما تريد ، ثم نظر إلى جلسائه ، وقال لهم : أتظنون أنها مدحتنى ، لقد ذمتنى ! لأنها تقول : أتم الله عليك نعمته ، وإذا تمت النعمة زالت.

جعفر الصادق كتب وصية للإنسان المؤمن وأخذها من القرآن؛ لأن الطبيب حينما يكتب تذكرة دواء للمريض ، يكون قد أخذ هذا العلم مما قرأه ودرسه من كتب ومراجع فى كلية الطب وغيرها ، ولكن جعفر الصادق أتى بهذه الوصية للإنسان من كتاب خالق الإنسان وفيها يقول :

«عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله سبحانه : ﴿لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. لأنى سمعت الله يعقبها بقوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ . وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩] فإنى سمعت الله يعقبها بقوله : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فأعطانا وصية ربانية لكل شىء يحدث لنا فى الحياة.

* قوم يونس لما شعروا ببداية العذاب آمنوا *

عندما غضب يونس عليه السلام غادر القرية ، واستقل سفينة ليذهب بها إلى بلد آخر ، ربما يكون أكثر قبولاً لدعوته ، وحينئذ رأى قوم يونس عواصف ورياحاً شديدة ، وانقلابًا فى الطبيعة، فذهبوا إلى علمائهم ، فقالوا لهم إن هذه بداية عذاب سيصيبهم به الله سبحانه وتعالى ؛ لما فعلوه مع نبى الله يونس وقالوا لهم : اذهبوا لترضوا يونس قبل أن يحل عليكم العذاب ؛ فآمنوا وبدأوا يردون المظالم إلى أهلها ، حتى قيل إن الرجل كان يهدم جدار بيته؛ لأن فيه حجراً سرقه من جاره ، فيهدم الجدار ويعيد لجاره حجراً.

أما قصة الحوت . . فعندما ركب يونس السفينة وتلاعبت بها الأمواج، قالوا : لابد من تخفيف الحمولة حتى تنجو السفينة من الغرق ، وأجروا القرعة فحددت القرعة يونس عليه السلام ، وأعادوها عدة مرات ، فكانت كل مرة تحدد يونس عليه السلام ، فألقوه فى البحر والتقطه الحوت، ولفظه الحوت على الشاطئ ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٢ - ١٤٤] . أى الذى نجاه هو كثرة تسبيحه وكثرة ذكره لله سبحانه وتعالى ، وأنبت الله عليه شجرة على الشاطئ لتحميه من حرارة الشمس.

قوم يونس لما أحسوا ببداية العذاب ، وآمنوا وردوا المظالم إلى أصحابها، أنجاهم الله من العذاب ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى أن الله تبارك وتعالى أنجاهم من الهلاك بعذابه حتى تأتى آجالهم عند نهاية العمر، ولم تقع عليهم عقوبة من السماء ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[1]. [يونس: ٩٩] نقول إياك أن تفهم أن الحق سبحانه وتعالى يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله له كمال الصفات منذ الأزل ، وقبل أن يخلق الخلق، وبكمال صفاته خلق ، وبكمال صفاته أوجد ، وهناك فرق بين القوة يكون لها أثر ظاهر ، وبين القوة فى الذّات ، فأنت مثلاً لا تعرف أن فلاناً شاعراً إلا إذا سمعت منه قصيدة ، ولكنه شاعر قبل أن يقول القصيدة ؛ لأنه بشاعريته قالها.

الله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق الخلق، رازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، لأنه بصفات الكمال فيه خلق ، إذن فالخلق لم يأتِ له جل جلاله بصفة ؛ لأن هذا الخلق هو من صفات الكمال لله سبحانه وتعالى ، وعندما تقول "محيى" فهو سبحانه وتعالى محيى قبل أن يوجد

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ .
قيل نزلت فى أبى طالب ؛ لأنه ﷺ أسف بموته على ملة عبد المطلب ، وكان حريصًا على إيمانه. ولما كان أحرص الناس على هدايتهم ، وأسعى فى وصول الخير إليهم ، والفوز بالإيمان منهم ، وأكثر اجتهاداً فى نجاة العالمين من العذاب ، أخبره تعالى أنه خلق أهلا للسعادة وأهلا للشقاوة ، وأنه لو أراد إيمانهم كلهم لفعل ، وأنه لا قدرة لأحد على التصرف فى أحد . والمقصود بيان أن القدرة القاهرة ، والمشيئة النافذة ليست إلا له تعالى . وتقديم الاسم فى الاستفهام على الفعل ، يدل على إمكان حصول الفعل لكن من غير ذلك الاسم ، فلله تعالى أن يكره الناس على الإيمان لو شاء ، وليس ذلك لغيره .
وقال الزمخشرى : ولو شاء ربك مشيئة القسر والإلجاء ، لآمن من فى الأرض كلهم على وجه الإحاطة والشمول جميعًا ، مجتمعون على الإيمان ، مطبقين عليه ، لا يختلفون فيه . [البحر المحيط : ١٠٨/٦]

أحد يحييه ، وبهذه الصفة أحيا أول خلقه، فكأن الصفة موجودة منذ الأزل ، ولم يزد الخلق فيها شيئاً ، والله تبارك وتعالى لا ينتفع من خلقه، بل هو سبحانه الذى ينفعهم ، والله جل جلاله لم يخلق جنسا مخيراً فى الإيمان ، إلا الإنسان كجنس ظاهر، والجن كجنس خفى ، والباقى عوالم لا حصر لها ، لها نظام لا تحيد عنه ، وهى مقهورة مؤمنة مسبحة.

ولو أراد الحق تبارك وتعالى أن يقهر الإنسان والجن على الطاعة لفعل ، والله يريد خلقاً يأتيه عن طواعيه ، يكون له اختيار أن يؤمن أو لا يؤمن ، فيأتى لله مؤمناً ؛ لأنه يحب الله ، إذن فهناك إيمان قهر وإيمان اختيار، كل شىء مؤمن ومسبح لله قهراً ، ما عدا الإنس والجن ، فإن تسبيحهم اختيار ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . إياك أن تقول : إنه تسبيح دلالة ، بل هو تسبيح حقيقى ، ولكننا لا نعرفه [1] ، وقولنا : إنه تسبيح دلالة ، معناه أننا فهمناه ، وهذا يتعارض مع الآية الكريمة، وقد عُلم سليمان منطق الطير ، وسمع الهدهد وهو يقول : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النمل:٢٥]. الهدهد يعرف من الذى يُسجد له ، ويعرف أن السجود للشمس من دون الله من عمل الشيطان، ولكن . . لماذا قال الهدهد: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾

---

(١) قال ابن كثير : وقوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى وما من شىء من المخلوقات ، إلا يسبح بحمد الله. ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ؛ لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (*) . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤١]

(*) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٥٧٩] .

أى: المخفىّ فى الأرض ؛ لأن قوت الهدهد لا يوجد على سطح الأرض، أى لابد أن ينقر بمنقاره تحت الأرض، فيأتى بما يرزقه الله به [1] ، إذن فكل الكون مسبح ومؤمن بالله قهراً ، ماعدا الإنس والجن ؛ لأن لهما اختيارا ، واختيارهما هو الذى يتيح لهما الخروج على المنهج.

---

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ أى هلا يسجدون . كما قرئ بذلك . وجوّز بعضهم أن يكون معمولا لما قبله . أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع « أن » ، أو أن تكون « لا » مزيدة، والمعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا لله ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى يظهر ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وغيرهما ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ قرئ بالتاء والياء على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إما مستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكية عن قول الهدهد . واستظهر الزمخشرى الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد ؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ، جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النّظار بنور الله ، مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

[تفسير القاسمى : ١٣/ ٤٦٦٤]

❋ نجاة يونس وقومه ❋

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] . أى أنه لو أن باقى القرى فعلت مثل قوم يونس لنجيناهم ، واقرأ قول الحق جل جلاله عن يونس عليه السلام : ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أى أن يونس كان سيظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ولكن ذلك امتنع ؛ لأنه من المسبحين، كذلك امتنع عذاب قوم يونس ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب [1] .

---

(١) قال القرطبى : وروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين :أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبَوْا ؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ؛ فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم فى تلك الحالة . وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى ميل . ورُوى على ميل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيها حمرة ، فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر ، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب. وقال الطبرى: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة =

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

= العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين .

وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدلّ على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاينة التى لا تنفع التوبة معها هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون ؛ ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون ؛ لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويَعْضُد هذا قوله عليه السلام: « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [(١)] . والغرغرة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا . والله أعلم . وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، أن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدلّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسيأتى مسندا مبيّنا فى سورة « الصافات» [(٢)] إن شاء الله تعالى .

ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنهينزل بهم لا أنهم رأوه عِيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم .

وبالجملة فكان أهل «نينوى فى سابق العلم من السعداء .ورُوى عن على رضى الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل : إلى أجلهم ؛ قاله السدى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو إلى النار ؛ قاله ابن عباس .

[تفسير القرطبى : ٨/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥]

---

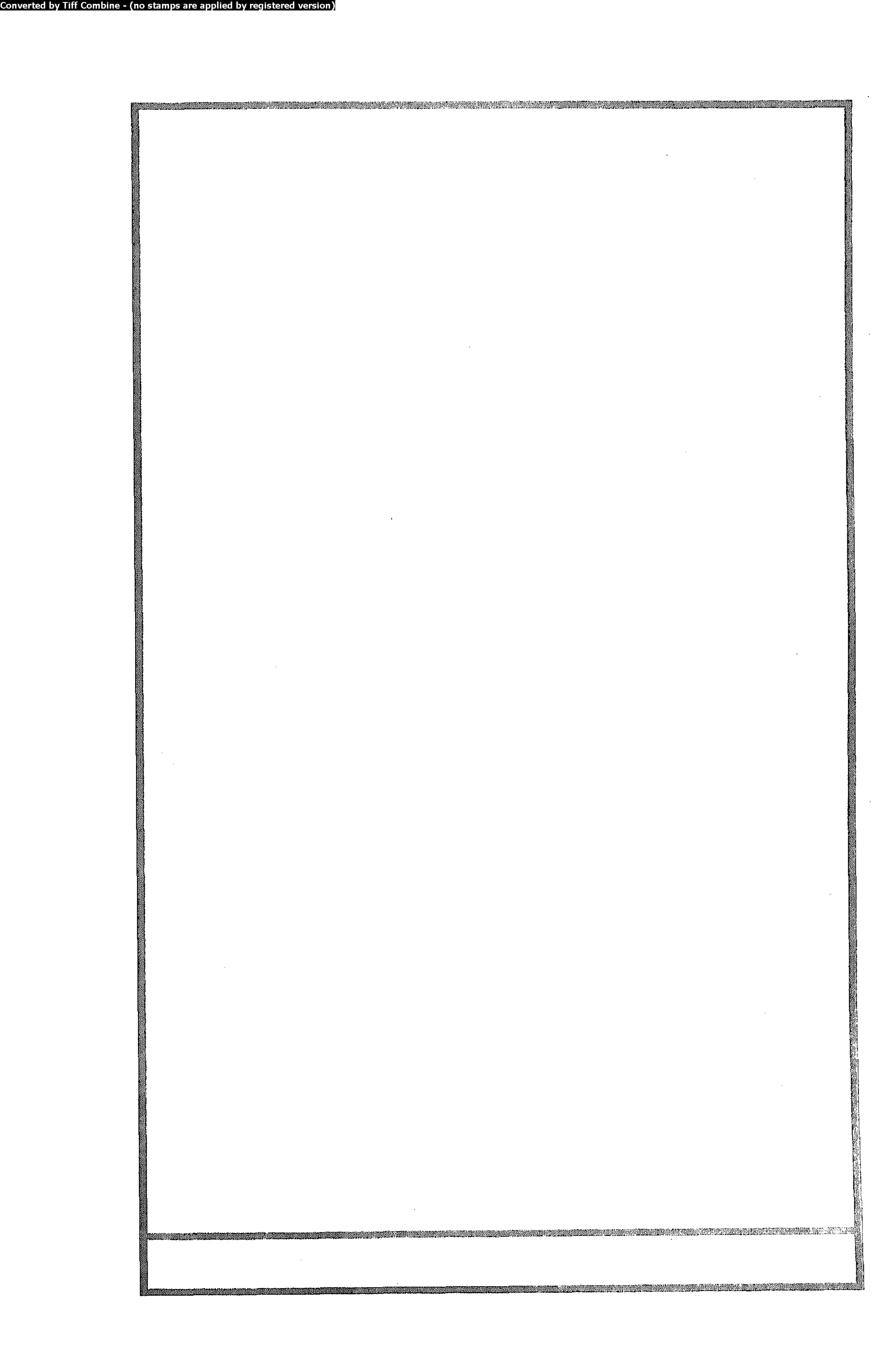
(١) أخرجه الترمذى [٣٥٣٧] وقال : حديث حسن غريب ،وابن ماجه [٤٢٥٣] كلاهما عن ابن عمر بلفظ : « ... ليقبل » بدلا من « .. يقبل » وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٤٣٠] .

(٢) تفسير القرطبى [١٥/ ١٣١] .

الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ كلمة قرية مأخوذة من مكان فيه بناء يقيم فيه أهله ، بحيث إذا أتيناهم فى أى لحظة تجدهم جالسين أو مقيمين ، وماداموا مقيمين، فلابد أن فى القرية أو حولها ما يقيم حياة هؤلاء الناس من طعام وشراب وغير ذلك ، ولذلك سميت مكة أم القرى؛ لأن كل القرى تأتى إليها فى مواسم الحج والعمرة ، فتجد فيها أهلها وتجد فيها الطعام والشراب.

« تمت قصة يونس عليه السلام »


نبى الله
موسى
عليه السلام



* من نبأ موسى وفرعون (*) *

يقول تعالى فى سورة القصص: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣] هذه السورة اختصت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء ؛ وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة ، والقمة هى ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ لم يقل: نتلو عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾؛ لأن النبأ أمر مهم ،

(*) نبى الله موسى هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن ، وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة.

والفرعون هو: الوليد بن مصعب ملك مصر ، وفى اللسان: فرعن: الفرعنة: الكِبرُ والتجبر. وفرعون كل نبى ملك دهره؛ قال القطامى:

وسق البحر عن أصحاب موسى وغرقت الفراعنة الكفار

الكفار: جمع كافر كصاحب وصحاب ، وفرعون الذى ذكره الله تعالى فى كتابه من هذا ، وإنما ترك صرفه فى قول بعضهم لأنه لا سمى له كإبليس فيمن أخذه من أبلس؛ قال ابن سيده: وعندى أن فرعون هذا العلم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر. وكل عات فرعون، والعتاة: الفراعنه. وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أى دهاء وتكبر. وفى الحديث: أخذنا فرعون هذه الأمة . الأزهرى : من الدروع الفرعونية؛ قال شمر: هى منسوبة إلى فرعون موسى، وقيل الفرعون بلغة القبط التمساح ، قال ابن برى : حكى ابن خالويه عن الفراء فرعون، بضم الفاء ، لغة نادرة. [لسان العرب : ١٣/٣٢٣]

وهل هناك أهم من أن يأتى موسى ليرد واحدا عن ادعاء الألوهية؟ فهى مسألة مهمة حقا ،قال الله فيها ستتلو عليك بالحق، وسماه الله القصص، لماذا؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتتبعون آثار الأقدام، فإذا حدث شئ وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة الخ[1].

من ذلك قصة الرجل الأعرابى الذى شرد منه جمل، وأخذ يبحث عنه فلقيه رجل فقال له: عما تبحث؟ قال: عن جمل لى شرد منى، فقال له الرجل: هل جملك أبتر الذيل (أى مقطوع الذيل) ؟ قال : نعم. قال له: هل فيه رجل عرجاء؟ قال: نعم. قال: هل جملك أعور؟ قال: نعم. فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف فى الجمل، أمسك به الأعرابى وقال: إذن أنت أخذت جملى. واقتاده إلى القاضى متهما إياه بسرقة الجمل.

فلما سأله القاضى وأنكر أنه أخذ الجمل، قال له القاضى: إذن من أين عرفت كل هذه الصفات عن الجمل؟ فقال الرجل: كنت سائرًا فى الطريق فوجدت بعرًا متجمعا على غير عادة الجمال؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يمينا ويسارًا عندما ينزل منه، ولكنى وجدت هذا البعر متجمعاً فى أكوام صغيرة ، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل.

فقال له القاضى: وكيف عرفت أن الجمل أعرج؟ قال الرجل: لأنى وجدت أن للجمل قدمًا غائرة فى الرمل، والأخرى قد لامست الرمل ملامسة خفيفة، فعرفت أنه أعرج. فسأله القاضى، وكيف عرفت أنه

---

(١) وقد اهتدى أعرابى من قصاصى الأثر على وجود الله القدير حينما أعمل عقله وقال : البعر يدل على البعير ، والأثر يدل على المسير، الا يدل هذا الكون على إله خالق قدير. وانظر [١ /ص٢٠] فصل: قصص القرآن لماذا ؟ ، من كتابنا هذا.

أعور؟ فقال الرجل: لأنى وجدته يترك الخضرة فى جانب ويأكل من جانب واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة.

فهذا هو قص الأثر الذى نتكلم عنه. فمعنى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ أى: نقول لك: أشياء هى الواقعة بالفعل(١) .

والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصًا ؛ لأن القصص هو الشئ الحقيقى.

ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص؛ لأنه مطابق للواقع إذن ما هو هذا القصص؟ هو فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ . (٢)

---

(١) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أى :نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر . [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٦٦]

(٢) قال البقاعى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر الذى ادعى الإلهية ﴿عَلا﴾ أى بادعائه الإلهية وتجبره على عباد الله وقهره لهم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أى لأنا جمعنا عليه الجنود فكانوا معه إلبا واحدا فأنفذنا بذلك كلمته ، وهى إن كان المراد بها أرض مصر ففى إطلاقها ما يدل على تعظيمها وأنها كجميع الأرض فى اشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها. ولما كان التقدير بما دل عليه العاطف: فكفر تلك النعمة، عطف عليه قوله : ﴿وَجَعَلَ﴾ بما جعلنا له من نفوذ الكلمة ﴿أَهْلَهَا﴾ أى الأرض المرادة ﴿شِيَعًا﴾ أى فريقا يتبع كل فرقة شيئا وتنصره ، والكل تحت قهره وطوع أمره، قد صاروا معه كالشياع، وهو دق الحطب، فرق بينهم لئلا يتمالؤا عليه، فلا يصل إلى ما يريده منهم، فافترقت كلمتهم فلم يحم بعضهم لبعض فتخاذلوا فسفل أمرهم ، فالآية من الاحتباك، ذكر العلو أولا دليلا على السفول ثانيا، والافتراق ثانيا دليلا على الاجتماع أولا ، جعلهم كذلك حال كونه ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أى يطلب و يوجد أن =

. . . .

= يضعف، أو هو استئناف ﴿طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدى واحد منهم، وهو يوسف عليه السلام، وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ، ومع ذلك كافؤه فى أولاده وإخوته بأن استعبدوهم. ثم ما كفاهم ذلك حتى ساموهم على يدى هذا العنيد سوء العذاب فيا بأبى الغرباء بينهم قديما وحديثا، ثم بين سبحانه الاستضعاف بقوله: ﴿يُذَبِّحُ﴾ أى تذبيحا كثيرا ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ أى عند الولادة، وكل بذلك أناسا ينظرون كلما ولدت امرأة ذكرا ذبحوه خوفا على ملكه زعم من مولود منهم ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى يريد حياة الإناث فلا يذبحهن . ولما كان هذا أمرا متناهيا فى الشناعة ، وليس مأمورا به من جهة شرع ما، ولا له فائدة أصلا ؛ لأن القدر - على تقدير صدق من أخبره - لا يرده الحذر، قال تعالى مبينا لقبحه، شارحا لما أفهمه ذلك من حاله: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ أى كونا راسخا ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى الذين لهم عراقة فى هذا الوصف، فلا بدع أن يقع منه هذا الجزئى المندرج تحت ما هو قائم به من الأمر الكلى.

[نظم الدرر: ١٤ / ٢٣٨: ٢٤٠]

وقال ابن عطية : ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من علو الطغيان والتغلب ، وقوله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد فى أرض مصر وموضع ملكه، ومتى جاءت ﴿الْأَرْضِ﴾ هكذا عامة فإنما يراد بها الأرض التى تشبه قصة القول المسوق ؛ لأن الأشياء التى تعم الأرض كلها قليلة والأكثر ما ذكرناه ، و "الشيع" الفرق، وكان هذا الفعل من فرعون بأن جعل القبط ملوكا مستخدمين ، وجعل بنى إسرائيل عبيداً مستخدمين ، وهم كانوا الطائفة المستضعفة ، و ﴿يُذَبِّحُ﴾ مضعف للمبالغة والعبارة عن تكرار الفعل، وقال قتادة كان هذا الفعل من فرعون بأنه قال له كهنته وعلماؤه إن غلاما لبنى إسرائيل يفسد ملكك، وقال السدى: رأى فى ذلك رؤيا - فأخذ بنى إسرائيل يذبح الأطفال سنين فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاما ويستحى عاماً، فولد هارون فى عام الاستحياء وولد موسى فى عام الذبح، وقرأ جمهور القراء "يذبح" بضم الياء وكسر الباءعلى التكثير، قرأ أبو حيوة، وابن محيض بفتح الياء وسكون الذال ، قال وهب بن منبه: بلغنى أن فرعون ذبح فى هذه المحاولة سبعين ألفا من الأطفال ، =

= وقال النقاش: جميع ما قتل ستة عشر طفلا . [المحرر الوجيز ٤ /٢٧٥ : ٢٧٦]

وقال ابن كثير : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ، أى تجبر وعتا وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى . وجعل أهلها شيعا، أى قسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأردأها وأدناها ، ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه على إبراهيم عليه السلام؛ من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك مُلك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل؛ حذرا من وجود هنا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر!

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك. عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى فى منامه؛ كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ، ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة. وسألهم عن ذلك ، فقالوا: هذا غلام يولد من هولاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان . [قصص الأنبياء ٢٥٧ : ,٢٥٨]

وقال القاسمى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وذلك إماته لرجالهم ، وتقليلا لعددهم ؛ كيلا يكثروا فينازعوه الملك ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد. [تفسير القاسمى : ١٣/ ٤٦٩٥]

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية، من وزراء ومسئولين. ليس هذا فقط؛ بل إنه علا حتى على ربه والعياذ بالله وأراد أن يكون إلهًا، فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد؟! ومادامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى ، فسيستخدمها فى إذلال رعيته فهو لم يستعل فى الأرض فقط؛ بل إنه جعل أهلها شيعًا مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلهم سواء، فلا تستأثر طبقة بحظوة عن طبقة أخرى، لكن فرعون جعلهم شيعا وسلط بعضهم على بعض [1].

ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالقبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل ، وسكنوا فيها وتناسلوا وكان المفروض أنهم يذوبون فى المجتمع القبطى. والناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ؛ لأن القبطى معناه المصرى القديم[2] ، لكن

---

(١) شيع: الشيع: مقدار من العدد كقولهم: أقمت عنده شهرا أو شبع شهر. وفى حديث عائشة، رضى الله عنها: بعد بدر بشهر أو شيعه . أى أو نحو من شهر . يقال: أقمت به شهرا أو شيع شهر أى مقداره أو قريبا منه. ويقال: كان معه مائة رجل أو شيع ذلك، كذلك. وآتيك غدا أو شيعه أى بعده، وقيل اليوم الذى يتبعه؛ قال عمر بن أبى ربيعه

قال الخَلِيطُ غَداً تَصَدُّعُنا أو شَيَعهَ أفلا تُشَيِّعُنا

وتقول : لم أره منذ شهر وشيعه أى ونحوه . والشيع ولد الأسد إذا أدرك أن يفرس. والشيعة: القوم الذين يجتمعون على الأمر. وكل قوم اجتمعوا على أمر، فهم شيعة.وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض ، فهم شيع قال الأزهرى: ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وليس كلهم متفقين، قال الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ كل فرقة تكفر الفرقة المخالفة لها .

[لسان العرب : ٨/١٨٨]

(٢) قبط: ابن الأعرابى: القبط الجمع، والبقط التفرقة وقد قبط الشىء يقبطه قبطا: جمعه بيده والقباط والقبيط والقبيطى والقبيطاء : الناطف ، مشتق منه، إذا خففت مددت =

لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى؟ قالوا: لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة الرعاة الذين أزاحو حكم الفراعنة، وتولى المُلك ملوك الرعاة، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة.

= وإذا شددت الباء قصرت. وقبط ما بين عينيه كقطب مقلوب منه ؛ حكاه يعقوب.
والقبط: جيل بمصر، وقيل هم أهل مصر وبُنْكُهَا - والبنك أصل الشىء وقيل خالصة - ورجل قبطى . والقبطية : ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر وهى منسوبة إلى القبط على غير قياس، والجمع قباطى وقَباطى ، والقبطية قد تضم لأنهم يغيرون فى النسبة كما قالوا سُهلىّ ودُهْرىّ؛ قال زهير:

ليأتينك منى منطق قذع   باق ، كما دنس القبطية الودك

قال الليث: لما ألزمت الثياب هذا الاسم غيروا اللفظ فالإنسان قِبطى، بالكسر ، والثوب قُبطى ، بالضم . شمر: القباطى ثياب إلى الدقة والرقة والبياض؛ قال الكميت يصف ثوراً:

لياح كأن بالأتحمية مسبع   إزارا، وفى قبطيه متجلبب

وقيل : القبطرى ثياب بيض، وزعم بعضهم أن هذا غلط، وقد قيل فيه: إن الراء زائدة مثل دمث ودمثر؛ وشاهده قول جرير:

قوم ترى صدا الحديد عليهم   والقبطرى من اليلامق سودا.

وفى حديث أسامة: كسانى رسول الله ﷺ ، قبطية؛ القبطية: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء وكأنه منسوب إلى القبط وهم أهل مصر. وفى حديث قتل ابن أبى الحقيق: ما دلنا عليه إلا بياضه فى سواد الليل كأنه قبطية. وفى الحديث : أنه كسا امرأة قبطية فقال:مرها فلتتخذ تحتها غلالة لاتصف حجم عظامها ، وجمعها القباطى؛ ومنه حديث عمر، رضى الله عنه: لا تلبسوا نساءكم القباطى فإنه إن لا يشف فإنه يصف. وفى حديث ابن عمر: أنه كان يجلل بدنه القباطى والأنماط.

[لسان العرب : ٧/ ٣٧٣]

هنا تجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر فى القديم والحديث سماهم فراعين، فهناك الآية التى نقرأ فيها قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠] وهنا فى قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر: فرعون، لكن فى قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة، ولكن ذُكر لقب الملك، وهذا من إعجازات القرآن؛ لأنه فى أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمدا ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم، وأخبره بما لم يكن يدرى.

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعا تستبد شيعة بشيعة أخرى، فشيعة الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل؛ انتقاما لما فعلوه من مساعدة الرعاة الذين احتلوا مصر، واستولوا على الحكم فيها، وساعة يفرق فرعون بين الناس ويقسمهم إلى شيع متنافرة، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلها؛ لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء، لكن الذى يحرض طائفة على أخرى ليس بإله، بل هو شىء مذموم، يقول الله فى كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[1] [الأنعام: ١٥٩] لأنهم لو كانوا متمسكين بالدين لكانوا شيعة واحدة

---

(١) نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبى ﷺ فتفرقوا، فلما بعث النبى ﷺ أنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه وكانوا شيعا أى خرقا، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه. [تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩٦]

أو طائفة واحدة؛ لأن الدين واحد ، لكن لأن كل واحد من الذين فرقوا دينهم يريد لنفسه سلطة زمنية، تجده يكوِّن لنفسه طائفة أو جماعة أو طريقة؛ ليكون كبيرا عليها. فساعة ترى جماعة اختلفت وتفرقت إلى عشرين جماعة فاعلم أنهم مخطئون. لماذا؟. لأن الإسلام- كما قلنا سابقاً- كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة، والكل محتاج إليه فحين يتلون بلون يصبح مثل العصائر، وتتفرق الرغبات فأنت تحب المانجو وهذا يحب الفراولة وذاك يحب التفاح أو البرتقال، وتتفرق الأمة ويضيع الدين فمادام أصبح للدين لون فلا فائدة فيه، ولذلك لما أخبر محمد ﷺ أن الأمة ستختلف على كذا طائفة وسألوه: فأيهم على الحق؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى[1] فالطائفة التى على الحق واحدة، وهى التى تقتدى بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

ففرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنى إسرائيل؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غزوا مصر، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين.

---

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار، إلا ملة واحدة» قال : من هى يا رسول الله ؟ قال :

«ما أنا عليه وأصحابى» . أخرجه الترمذى [٢٦٤١] وقال: حسن غريب ، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١٢٩] ، وانظر الصحيحة [١٣٤٨].

وعن أنس عن النبى ﷺ : «إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة».

ذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٢٠٤٢].

والإفساد أن تأتى إلى شىء صالح فى ذاته فتفسده، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحيى النساء فهذا فساد كبير، لماذا؟ لأن هناك شيئا اسمه استبقاء الحياة، وآخر اسمه استبقاء النوع، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع، فهو يقتل الأولاد؛ خشية أن يناله منهم شر، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال؛ لأنهن ليست لهن شوكة ، ولا خطر منهن على ملكه.

والقرآن الكريم قال عن فرعون فى هذه الآية: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية فى ثلاث آيات :

ففى سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]

الآية الثانية فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]

والآية الثالثة ذكرها الله تعالى على لسان موسى لقومه، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦] .

فحين جاءت القصة من الله سبحانه مباشرة قال : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ .

وفى الآية الثانية قال : ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فهنا تكلم عن ذبح وقتل، ونحن نلاحظ أن واو العطف جاءت على لسان موسى فى قوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فلماذا لم تأت هذه الواو عندما جاء الكلام من الله سبحانه مباشرة، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام؟ قالوا: لأن موسى يعدد على قومه نعم الله عليهم ، وأنت حين تعدد فضائلك على ابنك مثلاً فتقول له: ألم أشتر لك بدلة جديدة؟ ألم أشتر لك حقيبة؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما؟ ألم أشتر لك دراجة تذهب بها إلى المدرسة؟ ألم أدفع لك المصاريف. . .إلخ. فأنت تعدد فضائلك عليه أو توضح له كثرتها، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة، فموسى حين تكلم أراد أن يضخم نعم الله على قومه، فذكر يسومونكم سوء العذاب، وعطف عليها يذبحون، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يمتن إلا بالشئ الأصيل من النعم.

وفى الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من الله تعالى مرة قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وفى الأخرى قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ فلماذا قال فى الأولى ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفى الثانية ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ . قالوا: لأن إزهاق الحياة له وسيلتان إما الذبح وإما الخنق، فذكر الوسيلتين، ولابد أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضًا، إذن عندما عطف ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ على ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [1] كان الكلام على لسان موسى، وموسى يريد أن يعدد

---

(١) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى يكلفونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأسواه ، وقيل: يصرفونكم فى العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة فى البرية ، وذلك أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولاء وصنفهم فى الأعمال فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يخدمونه، ومن لم يكن منهم فى عمل وضع عليه الجزية. [تفسير البغوى : ١/ ٩٠]

نعم الله على قومه ويبين أنها كثيرة فقال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لكن ربنا حين يمتن، لايمتن بالنعم الصغيرة ولكن يمتن بالنعم الأصيلة الكبيرة، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء، هو نفسه سوم العذاب.

والسوم[1] معناه أن تطلب الماشية المرعى ولا نأخذها نحن إليه ؛ بل نتركها فى الخلاء تلتقط رزقها، ولذلك يسمونها السائمة ؛ لأنها هى التى تذهب لتبحث عن رزقها، لكن الماشية التى نربطها نحن ونحضر لها ما تأكله لا تُسمى سائمة، إذن معنى يسومونكم أى يطلبون لكم العذاب أى سيتفننون فيه، إذن فرعون كان مستعليا ومفسدا فى الأرض، وفرق أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم وينكّل بهم، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا، ليعدل سلوكه ويحسن الأمور، ويأخذ بيد المستضعفين، ولو أن المتسلط على المستضعفين لم يستعل ولم يتأب على طاعة الرسول وانقاد للحق، لكانوا جميعًا مع بعضهم يعيشون رعية.

يقولون: إن الثوريين حين يأتون للانتقام من مفسد وأعوانه، إنما جاءوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين. فكان يجب عليهم أن يمنعوا المفسد من الإفساد؛ لأن منعهم له من الفساد فيه اعتدال الكون، وبعد أن يقضوا على الفساد لا يفضلوا فئة فى المعاملة والقرب على فئة، ولكن اعدلوا بين الجميع وبذلك تأمنوا من غضبهم أو حقدهم عليكم؛ لأن الحقد يأتى من تقريبك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى، لكن يجب عليك

(١) سامه الأمر سوما : كلّفه إياه. وقال الزجاج : أولاه إياه، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم. قال أبو إسحاق ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] يولونكم. وقال الليث : السوم أن تجشم إنسانا مشقة أو سوءا أو ظلما، وقال شمر : ساموهم: أرادوهم به. وقيل : عرضوا عليهم. [لسان العرب : ١٢ / ٣١١]

بعد أن أبطلت الفساد أن تمنع المفسد أن يفسد فهذا إصلاح، ثم تأخذهم جميعاً فى كنفك ورعايتك وتحتضنهم حتى تأمن حدوث الثورة المضادة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ العلو: هو الطغيان والتجبر والتكبر. وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الألوهية. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى: طوائف يخدم بعضها بعضا، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند الفاعل ملحظ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور؛ لأنه إن استقرت بينهم الأمور، ربما تفرغوا إلى شئ ضده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوبًا من كل واحد منهم، والله سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال؛ لأنه لن يفلح ظلوم، ولا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقم الله منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه. فربما رحمه، وحسبك من حادثٍ بامرئ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1] [القصص: ٥] والمنّة عطاء معوض بدون مجهود ممن يعطاه[2] كأنها هبة من الله سبحانه؛ لأن الحق كما قال الإمام

---

(١) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أى ننعم ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم بنوا إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم فى الخير، وقال قتادة: ولاة وملوكا. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ نملك فرعون بعد غرقه. [زاد المسير: ٦ / ٨٦]

وقال ابن عطية فى قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يريد أرض مصر والشام. [المحرر الوجيز: ٤/٢٧٦]

(٢) قال أبو بكر فى قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يحتمل المنّ تأويلين: =

على: إن الله لايُسلِم الحق، ولكن يتركه ليبلو غيرة الناس عليه، فإذا لم يغاروا عليه، غار سبحانه عليه، فالله يريد أن يمن على هؤلاء المستضعفين في الأرض، ليس برفع الظلم عنهم فقط، ولكن بجعلهم أئمة فى الدين، وفى سياسة الأمور والملك، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وإذا أراد الله فلا تستطيع قوة أن تقف أمام إرادته سبحانه فأمره نافذ ولا راد لمشيئته قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لأنه تعالى لا يخلق بالمعالجة، ولكنه يقول: ﴿كُن﴾ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾(١) [ق: ٣٨] فمن عدل الله سبحانه أنه منَّ على المستضعفين بفضله، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط، ولكن جعلهم أئمة، وليسوا أئمة فى مكان آخر غير الذى كانوا مستضعفين فيه ولكن فى نفس المكان بعد أن أورثهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

= أحدهما : إحسان المحسن غير معتد بالإحسان ، يقال لحقت فلانا من فلان منة إذا لحقته نعمة باستنقاذ من قتل أو ما أشبهه .

والثانى : منَّ فلان على فلان إذا عظَّم الإحسان وفخر به، فالأول حسن والثانى قبيح. [لسان العرب : ١٣/٤١٨]

(١) قال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله -خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى من إعياء ولا تعب ولا نصب. [تفسير ابن كثير : ٤ / ٢٢٩]

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (1) [القصص: ٦] كلمة نمكن ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذى يحدث فيه الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه، فمعنى نمكن أى نجعل الأرض مكانا لممكنٍ فى الأرض وقد كان فرعون ممكنًا فى الأرض، يتصرف فيها تسلطًا ويأخذ خيرها والله سبحانه أعطانا ذلك فى لقطات متعددة من القرآن الكريم ، فنبى الله يوسف عبر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت، ولا ينال أحد منك شيئا، وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٦] أى: أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشئ ويصرفه للآخرين.

ومعنى: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاول سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاول سلطانه إلا بواسطة وزرائه، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ لأن هامان كان مركز قوة فى بلاط فرعون ولذلك كان هامان قويًّ الشخصية أمام فرعون ، ويرفع رأسه أمامه ، ونحن نسمع المثل الشعبى

---

(١) ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ بأن يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلى ، هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

[تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٨٠]

الذى يقول : «حتعمل ده على هامان»[1] أى أنك لا تستطيع أن تضحك على هامان لأنه مثلك، فالله تعالى أراد أن يُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين.. يريهم الشئ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه . ما هو هذا الشئ؟ الشئ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوءة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل، فلما عبّروا له الرؤيا قالوا: أنه سيأتى أحد من جهة بيت المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على المُلك أو أن الكهنة قالوا لفرعون : إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه[2].

فالحق سبحانه أراد أن يُرِىَ فرعون وجنوده ما يحذرونه منه من هؤلاء المستضعفين ، ويرون هذا الذى يحذرونه بأعينهم ، وحين ننظر فى المسألة نجد أن فرعون عرف برؤيا منه أو بواسطة الكهنة ، أنه سيأتى وليد سيكون ذهاب ملكه على يديه ، فخاف على ملكه وأخذ حذره واحتياطاته فقرر أن يقتل الغلمان الذين يولدون والذى يأمر بقتل الغلمان يجلس على شط النهر، فيرى تابوتا عائما وفيه طفل فيأخذه جنوده إليه ، ويقوم بتربيته دون

---

(١) مثل شعبى : يضرب لمن لقى مثله فى خصلة من الخصال .
والمثل العربى : على أختك تُطْرَدين ، وقيل فى فرس عادت لرجل فركب أختها يطلب عليها . [المستقصى فى أمثال العرب : ١/ ٤١٢]

(٢) وهذا مما تلقاه القبط من بنى إسرائيل، من أنه سيوجد منهم غلام يكون سبب هلاك وذهاب دولة فرعون على يديه ، فقد كان بنو إسرائيل يدرسون ذلك من قول خليل الله إبراهيم عليه السلام، حين ورد مصر وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه ومنعها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من ذريته من يكون هلاك مصر على يديه . وكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون. [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٠]

أن يخطر على باله أن هذا الوليد يمكن أن يكون هو قاتله والمتسبب فى زوال ملكه ، ودون أن يفكر لماذا ألقى أهل هذا الطفل به فى هذا التابوت ووضعوه فى ماء النيل ، فكيف ينسى كل هذه الأشياء مع أنه يدعى الألوهية وأنه يعرف كل شئ ؟

إذا كان الكهنة قالوا له: إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من بنى إسرائيل فى عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر ، ثم يكون على يديه زوال ملك فرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيقتل غير الذى سيكون ذهاب الملك على يديه ، وطالما أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهًا ؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بألوهية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب ؛ لأن الله أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين، ما كانوا يحذرونه ويخافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على يديهم.

والعجيب أن فرعون هو الذى يربى من سيكون سبباً فى هلاكه وزوال ملكه ويتربى فى داخل قصر فرعون وعلى يديه ، ويأتى به الله من بيت أهله الفقراء إلى قصر فرعون حتى يتربى فى العز والنعيم ، ويصبح قرة عين لإمرأة فرعون فحكمة الله جعلت فرعون يربى قاتله وهادم ملكه فى منزله ، فانظر إلى هذا التغفيل من فرعون وطمس بصيرته ، مع أنه يدعى الألوهية ، وذلك حتى نفهم قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (1) [الأنفال: ٢٤].

---

(١) قال السدى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . =

. . . .

= وقيل : معناه : يملك عليه قلبه ، فيصرفه كيف يشاء .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال :

«كانت يمين النبى ﷺ : « لا ومقلب القلوب» . أخرجه البخارى [٦٦٢٨].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». أخرجه مسلم [٢٦٥٤] .

وعن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين؛ ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» قالت : قلت : يا رسول الله ما لأكثر دعائك « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك؟ قال :

« يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ». فتلا معاذ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].

أخرجه الترمذى رقم [٣٥٢٢] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧٩٢] .

ومعاذ هو ابن معاذ راوى الحديث عن أبى بن كعب صاحب الحرير عن شهر بن حوشب .

❋ منزلة موسى عند الله ❋



هنا تظهر منزلة موسى عند الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يطيب خاطر موسى ، الذى أحسَّ بنوع من لوم نفسه على تجاوزه حينما قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾[1] فقال له الحق سبحانه وتعالى ما معناه : لا تلتفت يا موسى إلى ما منعتك، ولكن انظر إلى ما أعطيتك. والله يريد بهذا أن يلفتنا

---

(١) أشكل حرف ﴿لَن﴾ فى هذه الآية على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأبيد، واستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال، وقيل إنها لنفى التأبيد فى الدنيا ، جمعًا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة. وقد تواترت الأحاديث عن النبى ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة . نورد بعضًا منها:
عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » . أخرجه البخارى [٧٤٣٤] واللفظ له . ومسلم [٦٣٣] .
وعن صهيب عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » ، ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .
أخرجه مسلم [١٨١]

جميعًا إلى ألا ننظر إلى ما منعنا إياه، ونحاول أن نضخمه؛ ولكن فلننظر إلى عطاءاته وفيوضاته وهى كثيرة أجلّ من أن تحصى،[1] وهو سبحانه يذكّره بها فى هذا المقام . فالله قد اصطفاه أى اختاره وميّزه على الناس، وهذه دقة الأداء، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾ ولم يقل ﴿عَلَى النَّاسِ﴾، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق الله، حتى الملائكة المقربين، ولكن الحق سبحانه وتعالى، يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل، هو فى دائرة البشر،[2] ولكن الله اصطفى من الرسل غير

(١) قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وجاء فى الأثر : أن داود عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة منك علىّ ، فقال الله تعالى : الآن شكرتنى يا داود . أى حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

(٢) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] . يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وكلامه ، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين [1] ؛ ولهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أى من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به .

[تفسير ابن كثير : ٢/٢٣٦]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ﴾ مستأنفة كالتى قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به . والاصطفاء : الاجتباء والاختيار ، أى اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتى. كذا قرأ نافع وابن كثير بالإفراد. وقرأ =

(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر . وأول شافع ، وأول مشفع ». أخرجه مسلم [٢٢٧٨] .

موسى ؛ فلذلك نقول: هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة، وبين تفضيل برسالة ومعها شئ زائد، تمامًا كما يتميز أحد أولادك فتعطيه مكافأة، ويتميز ابنك الثاني أكثر فتعطيه مكافأة ومعها هدية، الاثنان أخذا المكافأة، ولكن أحدهما تميز بالهدية، والرسل اصطفاهم الله سبحانه وتعالى بالرسالات، ولكن موسى عليه السلام اصطفاه الله بالرسالة والكلام، على أننا نلاحظ قول الحق: ﴿بِرِسَالاتِي﴾ مع أن موسى له رسالة واحدة وهي اليهودية ، نقول: إن الرسالة على الأنبياء تتنزل على مراحل ، وسيدنا رسول الله ﷺ استمر يتلقى الوحي ثلاثة وعشرين عاما، وكل ما يأتي من الوحي في كل مرة هو رسالة من الله، إذن فالمجموع رسالة واحدة، إلا أنها رسالات متعددة، تشمل كل ما نزل على الرسل السابقين وتضيف عليه، أي إنها رسالة جمعت رسالات كثيرة، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي إن النعم التي أعطيتها لك تستوجب الشكر؛ لأن فيها تفضيلا كبيرًا على ما أعطيته للناس، والإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله، لابد أن ينظر إلى ما بقي من النعم، لا إلى ما سُلب منه، والمؤمن المتفائل إذا رأى كوبًا مملوءا إلى نصفه بالماء يقول نصف الكوب مملوء، والإنسان المتشائم[1] يقول: نصف

= الباقون بالجمع . والرسالةمصدر . والأصل فيه الإفراد . ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب ؛ فجمع لاختلاف الأنواع . والمراد بالكلام هنا : التكليم. امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه ، أي أعطاه من هذا الشرف الكريم . وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل.

[فتح القدير : ٢/٢٥٥]

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، إنما الشؤم في ثلاث . في الفرس ، والمرأة ، والدار » . =

الكوب فارغ. ولذلك فإن جعفر الصادق كان ذاهبا إلى دمشق لمقابلة

= أخرجه البخارى [٥٧٧٢] واللفظ له ، ومسلم [٢٢٢٥/١١٩] .

وقال الإمام النووى : قوله ﷺ : « الشؤم فى الدار والمرأة والفرس » وفى رواية: «إنما الشؤم فى ثلاثة المرأة والفرس والدار » وفى رواية : « إن كان الشؤم فى شىء ففى الفرس والمسكن والمرأة » وفى رواية: « إن كان فى شىء ففى الربع والخادم والفرس » .

واختلف العلماء فى هذا الحديث ، فقال مالك وطائفة : هو على ظاهره ، وإن الدار قد يجعل الله تعالى سكناها سببًا للضرر أو الهلاك ، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى ، ومعناه : قد يحصل الشؤم فى هذه الثلاثة كما صرح به فى رواية : « إن يكن الشؤم فى شىء » .

وقال الخطابى وكثيرون : هو فى معنى الاستثناء من الطيرة ، أى : الطيرة منهى عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها ، أو امرأة يكره صحبتها ، أو فرس أو خادم ، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة ، وقال آخرون : شؤم الدار ضيقها ، وسوء جيرانها وأذاهم .

وشؤم المرأة : عدم ولادتها وسلاطة لسانها ، وتعرضها للريب ، وشؤم الفرس ألا يغزى عليها ، وقيل : حرانها وغلاء ثمنها .

وشؤم الخادم : سوء خلقه ، وقلة تعهده لما فوض إليه .

وقيل : المراد بالشؤم هنا : عدم الموافقة ؛ واعترض بعض الملاحدة بحديث «لا طيرة» على هذا ، فأجاب ابن قتيبة وغيره بأن هذا مخصوص من حديث « لا طيرة إلا فى هذه الثلاثة » .

قال القاضى : قال بعض العلماء : الجامع لهذه الفصول السابقة فى الأحاديث ثلاثة أقسام :

أحدها : ما لم يقع الضرر به ، ولا اطردت عادة خاصة ولا عامة ، فهذا لا يلتفت إليه ، وأنكر الشرع الالتفات إليه وهو الطيرة .

والثانى : ما يقع عنده الضرر عمومًا لا يخصه ونادرًا لا متكررًا كالوباء فلا يقدم عليه، ولا يخرج منه .

والثالث : ما يخص ولا يعم ، كالدار والفرس والمرأة ، فهذا يباح الفرار منه . والله أعلم . [شرح النووى على مسلم : ٤٨١/٧] =

الخليفة، وأثناء الرحلة من المدينة إلى دمشق جرحت قدمه، ولما لم تكن هناك عناية طبية، فقد تقيحت قدمه وتسممت، ولما ذهبوا به إلى الأطباء قرروا قطع قدمه، فقال بعض الحاضرين: التمسوا له مُرْقدًا، أى مخدرا حتى لا يحس بالألم. فرفض جعفر الصادق رضى الله عنه وقال: لا، لا أريد أن أغفل عن ذكر ربى طرفة عين، فلما قطعوا قدمه أخذوها ليدفنوها، قال: أحضروها فجاءوا له بها، فقال: اللهم إن كنت قد ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ فى أعضاء.

وهكذا يجب أن تكون نظرة المؤمن، ليست إلى النعمة التى سلبت منه، ولكن إلى النعم التى أعطيت له، وهنا يريد الله أن يلفت موسى إلى ذلك، فيقول له مامعناه: لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية، ولكن انظر إلى أنى فضلتك على الناس برسالاتى وبكلامى فكن شاكرا لنعمى عليك.(١)

= وقال الخطابى : وخصت هذه الأشياء الثلاثة بالذكر ؛ لأنها أهم الأشياء التى يقتنيها الإنسان، ولما كان الإنسان لا يخلو عن العارض فيها ، أُضيف إليها اليمن والشؤم إضافة مكانٍ ومحل ، وهما صادران عن مشيئته عز وجل . [شرح السنة : ٩/ ١٤]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك؛ يقال : دابة شكور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العلف . والشاكر معرض للمزيد كما قال : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلّمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل . [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٨٠]

❋ إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ❋

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١]. إن هذه السورة سبق أن تكلم الحق فيها عن زكريا وعن يحيى وعن إبراهيم ، وبعد ذلك أراد أن يتكلم عن بعض الرسل الذين لهم خصوصية فى صدد موضوع السورة ، وهناك فرق بين مُخلَص (بفتح اللام) ومُخلِص (بكسر اللام) والكلمة بمادتها تدل على خلوص شئ من شوائب شئ آخر ، فأخلصت هذا من هذا ، أى أخذت الجيد وتركت الردئ[1] ، والإنسان بحكم تكوينه الخلقى فى الأرض له غرائز، وهذه الغرائز قد تخرج عن غاياتها ، فالذى يخلِّص غريزته للغاية المخلوقة لها فهو مخلِص (بكسر اللام) ؛ لأنه خلص غريزته

(١) خَلَص الشىء ، بالفتح ، يَخْلُص خُلُوصًا وخَلاصًا إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسَلِم . وأخلَصه وخَلَّصه وأخلَص لله دِينَه :أمحَضَه .وأخْلَصَ الشىءَ :اختاره ، وقرىء : ﴿إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ والمُخلِصين ؛قال ثعلب : يعنى بالمُخلِصين الذين أخلصوا العبادة لله تعالى ، وبالمُخلَصين الذين أخلَصهم الله عز وجل . الزجاج : وقوله : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ وقرىء مُخلِصًا ، والمُخلَص : الذى أخلَصه الله جعله مختارًا خالصا من الدنس ، والمُخلِص : الذى وحّد الله تعالى خالصًا؛ ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص ؛ قال ابن الأثير: سميت بذلك لأنها خالصة فى صفة الله تعالى وتقدّس ، أو لأن اللافظ بها قد أخلَصَ التوحيدَ لله عز وجل ، وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ، وقرىء المُخلِصين ، فالمُخلَصُون المُختارون ، والمُخلِصون المُوَحِّدُون. [لسان العرب : ٧/ ٢٦]

من شوائب قد تحيق بها فى غير مهمتها ، فهناك مثلا غريزة حب الطعام ولكن الطعام قد يكون شهوة لذاته ، فيمتلىء الإنسان منه فيتعَب ويُتعِب ، يتعب فى بطنه وجيبه ، ويُتعب غيره ، لكن لا يصل إلى حد الشره [(١)] ، فالذى يخلص نفسه من ذلك يكون قد خلّص غريزته من الشوائب التى لم تكن فى مهمتها ؛ لأن القوت معناه استبقاء الحياة وليس اكتناز اللحم والشحم ، يقول الرسول ﷺ : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » [(٢)] والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] وكذلك حب الاستطلاع غريزة ينشأ عنها اكتشاف أسرار الله فى كونه ، وبهذا يرقى المجتمع ويرقى الإنسان ويعمرُ الأرض كما يريده الحق سبحانه وتعالى ، ولكن حب الاستطلاع هذا يجب أن يصفى من شوائبه ، فلا يجوز التجسس على عورات الناس[(٣)]، فهذه الغرائز لها مهمة استبقاها الله من أجلها ، فيجب ألا نبعدها عن مهمتها.

---

(١) الشره : أسوأ الحرص ، وهو غلبة الحرص . ويقال : شَرِه فلان إلى الطعام يَشْرَه شَرَهًا: إذا اشتد حرصه عليه . [لسان العرب : ١٣ / ٥٠٦]

(٢) عن المقداد بن معد يكرب قال : سمعت رسول الله ﷺ : «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنٍ ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

أخرجه الترمذى [٢٣٨٠] واللفظ له ، وابن ماجه [٣٣٤٩] وأحمد فى المسند [١٣٢/٤] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٩٣٩].

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه » . أخرجه مسلم [٢١٥٨/٤٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلا أطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ، ففقأت عينه ما كان عليك من جناح».

أخرجه مسلم [٢١٥٨/٤٤].

فمخلِص (بكسر اللام) أى خلص الغرائز المخلوقة لمهمة ، مما يصيبها من شوائب تؤدى إلى الانحراف بها عن هذه المهمة ، وأما المخلَص (بفتح اللام) فهو الذى بدأه الله مخلصا من ذلك ، دون أن يدخل فى تجربة ، وهؤلاء هم الذين يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية ، فبدلا من أن يخلِّصوا أنفسهم ، يخلقهم الله مخلَصين فالمخلَص خلصه الله من شوائب الغرائز ، والمخلِص (بكسر اللام) خلص نفسه من شوائب الغرائز ، وذلك بالتربية واستعمال منهج الحق سبحانه وتعالى ، فهذا معنى قوله تعالى عن موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] ونحن نعرف أن الرسول هو من أوحى إليه بشرع ، يعمل به ويؤمر بتبليغه ، والنبى أوحى إليه بشرع يعمل به ولم يؤمر بتبليغه ، فكل رسول لابد أن يكون نبيا وليس كل نبى لابد أن يكون رسولا ؛ لأن النبى يعيش على منهج الرسول الذى عاصره أو سبقه، ثم يعطيه الله أشياء تعتبر خصوصية له(١).

ثم يقول تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ جانب الطور الأيمن ، هو المكان الذى رأى فيه موسى النار ، وقال لأهله: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧] وأمره الله عندها أن يخلع نعليه ، وأن يسمع أوامر الله له بالذهاب إلى فرعون ؛ لدعوته إلى الله ، ولكن الأيمن هنا هل هو أيمن الطور أو أيمن موسى؟ المكان لا يقال له أيمن أو أيسر إلا إذا قسته بشئ ثابت، كأن تقول : أيمن القبلة أو أيسر القبلة مثلا. وكلمة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ النجىُّ : هو المناجِى الذى يحدثك عن قرب مع أن الله تعالى كلمه كلاما سمعه موسى ، فمعنى ﴿نَجِيًّا﴾ أى : كلاما

---

(١) ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار ، أولى العزم الخمسة وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه على سائر الأنبياء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٢٤]

لا يسمعه سواه ؛ لأن كلام الله خصوصية له فلا يسمعه غيره ، فلما سمعه موسى وأخفاه عن غيره صار كأنه ناجاه ، وهذه عظمة القدرة وطلاقتها تعطى الكلام والمناجاة فى وقت واحد[1].

وبعض العلماء قالوا: الطور الأيمن من اليمن والبركة ، وليس من اليمين واليسار [2] ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أى من حضرة الحق سبحانه ، والقرب من موسى ؛ لأن الله تعالى قريب منا جميعًا ، هذه الصفات كلها تجمعت فى موسى فهو مخلَص ورسول ونبى و ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ فيه ثلاثة أوجه :
أحدها : أنه قربه من الموضع الذى شرفه وعظمه بسماع كلامه .
الثانى : أنه قربه من أعلى الحجب حتى سمع صريف القلم ، قاله ابن عباس ، وقال غيره : حتى سمع صرير القلم الذى كتب به التوراة .
الثالث : أنه قربه تقريب كرامة واصطفاء لا تقريب اجتذاب وإدناء ؛ لأنه لا يوصف بالحلول فى مكان دون مكان ، فيقرب من بعد أو يبعد من قرب ، قاله ابن بحر .
وفى قوله : ﴿نَجِيًّا﴾ ثلاثة أوجه :
أحدها : أنه مأخوذ من النجوى ، والنجوى لا تكون إلا فى الخلوة ، قاله قطرب .
الثاني : نجاه لصدقه مأخوذ من النجاة .
الثالث : رفعه بعد التقريب مأخوذ من النجوة وهو الارتفاع ، قال الحسن لم يبلغ موسى من الكلام الذى ناجاه به شيئا . [تفسير الماوردى : ٣/ ٣٧٦]

(٢) قال ابن عطيه فى قوله تعالى : و ﴿الطُّورِ﴾ الجبل المشهور بالشام ، وقوله ﴿الأَيْمَنِ﴾ صفة للجانب ، وكانت على يمين موسى بحسب وقوفه فيه ، وإلا فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة ، ولا يوصف بشىء من ذلك إلا بالإضافة إلى ذى يمين ويسار ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿الأَيْمَنِ﴾ مأخوذا من اليمن ، كأنه قال الأبرك والأسعد ، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملته .
[المحرر الوجيز : ٤/ ٢٠]

وكلمه الله وناجاه وفوق ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] أى إن الله تعالى وهب له أخاه هارون ليساعده فى مهمته إلى فرعون وقومه ، وهذه رحمة من الله سبحانه وتعالى له [1].

(١) قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا . [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٢٥]

قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ : أى هبة تليق بعظمتنا ﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾ له لما سألنا ﴿أَخَاهُ﴾ أى معاضدة أخيه وبيّنه بقوله : ﴿هَارُونَ﴾ حال كونه ﴿نَبِيًّا﴾ أو هو بدل ، نبوته شددنا به أزره ، وقوّينا به أمره ، وكان يخلفه فى قومه عند ذهابه إلى ساحة المناجاة ، ومع ذلك فأشركوا بى صورة عجل ، فلا تعجب من غرورهم للعرب مع مباشرتهم لهذه العظائم . [نظم الدرر : ١٦/ ٢١٢]

* الحق أعطى موسى قبل أن يسأله *

بعد ذلك قال الحق سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[1] [طه: ٣٦ - ٣٧]

والسُّؤل هو الشئ المسئول، فأنت مثلا تقول لابنك، اذهب واشتر لنا خبزا، كلمة خبز مثل سؤل. فالخبز هو المخبوز ، والسُّؤل

(١) سوَّلت له نفسه كذا : زيَّنته له . التسويل : تحسين الشىء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . وفى التنزيل العزيز : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ هذا قول يعقوب عليه السلام لولده ، حين أخبروه بأكل الذئب يوسف ، فقال لهم : ما أكله الذئب ، بل سولت لكم أنفسكم فى شأنه أمرًا ، أى : زيّنت لكم أنفسكم أمرًا غير ما تصفون ، وكأن التسويل : تفعيل من سُول الإنسان ، وهو أمنيته . وأصل السُّول مهموز عند العرب ، استثقلوا ضَغْطَة الهمزة فيه فتكلموا به على تخفيف الهمز ؛ قال الراعى فيه فلم يهمزه :

اخترنك الناس إذ رثَّت خلائقهم واعتَلَّ من كان يُرجى عنده السُّولُ

والدليل على أن أصلَ السُّول همزٌ قراءة القرَّاء قوله عز وجل : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أى أعطيت أمنيتك التى سألتها . [لسان العرب : ١١/ ٣٥٠]

وقال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أى أعطيت ما سألته منا عليك ، والسؤل: المسؤول ، أى المطلوب . كقولك: خبز ، بمعنى مخبوز ، ومسؤوله هو قوله ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي﴾ وزيادة قوله : يا موسى ، لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل . [فتح البيان : ٨/ ٢٢٨]

وقال ابن كثير : لما قال الله تعالى لموسى ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى إن =

هو المسئول ، والمعنى : قد أوتيت مسئولك يا موسى، فالذى سألته أعطيناك ومعنى ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أى أعطيناك قبل أن تسأل ، فنحن لم ننتظر حتى تسأل، ولكننا أعطيناك قبل السؤال(1)، ولذلك الحق سبحانه

= لم تكن أنت عونى ونصيرى وعضدى وظهيرى فلا طاقة لى بذلك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]. وذلك لما أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العى ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال. ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة. وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. وهو سؤال فى أمر خارجى عنه وهو مساعدة أخيه هارون له فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَرُونَ أَخِي﴾. وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول: أى أخ فى الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا : لاندرى. قال: أنا والله أدرى. قالت: فقلت فى نفسى فى حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت صدق والله.

لما سأل موسى ربه ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ وهذه إجابة من الله لرسوله موسى فيما سأل. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٤٦-١٤٧] بتصرف

(1) قال الشيخ إسماعيل حقى البروسوى فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ مسئولك ومطلوبك ، وفى الحديث : « إذا أراد الله بالأمير خيرا قيض له وزير صدق ، إن نسى ذكرّه ، وإن ذكر أعانه..» (1) ، ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ من قولهم منَّ عليه منّا بمعنى أنعم عليه ، فإن قيل : ذكر تلك النعم بلفظ المنة مؤذ ، والمقام مقام التلطف ، قلنا : عرّفه أنه لم يستحق شيئا منها بذاته ، وإنما خصّه بها بمحض التفضل ، والمعنى : وبالله لقد أنعمنا عليك يا موسى ، وأكرمناك بكرامات من غير ان تسألنا ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أى وقتا غير هذا الوقت ، فإن أخرى تأنيث آخر، بمعنى غير . [تنوير الأذهان : ٢/ ٤٢٩]

---

(1) أخرجه أبو داود [٢٩٣٢] ، والنسائى فى المجتبى [٧/ ١٥٩] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٥٤٤] .

وتعالى يقول: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أى من كل الذى سألتم ، وهناك قراءة أخرى تقول : « وآتاكم من كلٍّ (بتشديد اللام والتنوين) ماسألتموه» أى أتاكم حتى قبل أن تسألوا؛ لأنه سبحانه أعطاك قبل أن تعرف أن تتكلم وتسأل[1] ، ومعنى ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أى مرة ثانية، فهذا اسمه ترتيب ذكرى وإن كانت هذه متأخرة عن تلك.

وكلمة ﴿مَنَنَّا﴾ المنَّة : تعنى عطاء بلا مقابل، فالجزاء على العمل فى الآخرة يكون بعمل ؛ لأنك عملت عملاً تجازى عليه ، ولكن المنَّة أن يعطيك الله شيئاً بغير عمل فالمنَّة بلا مقابل [2] ، وذكر وقت هذه المنَّة

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ اى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ،ومن كل ما لم تسألوه فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ابتدأنا بها . وهذا كما قال : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ على ما يأتى . وقيل : ﴿مِن﴾ زائدة ؛ أى آتاكم كل ما سألتموه ، وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما : « وآتاكم مِّن كُلٍّ » بالتنوين ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شىء ما سألتموه ، أى الذى ما سألتموه .
[تفسير القرطبى : ٩/٣٦٧]

(٢) مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنّا : أحسن وأنعم ، والاسم المنَّةُ . ومنَّ عليه وامتَنَّ وتمَنَّنَ : قرَّعَه بمِنَّة ؛ أنشد ثعلب :

أعطاكَ يا زَيْدُ الذى يُعْطى النِّعَمْ
من غير ما تَمَنُّنٍ ولا عَـــدَمْ
بَوائكاً لم تَنْتَجِعْ مع الغَنَـــمْ

وفى المثل : كَمَنِّ الغيثِ على العَرْفَجة ، وذلك أنها سريعة الانتقاع بالغيث ، فإذا أصابها يابسةً اخضرَّت ؛ يقول : أتَمُنُّ علىَّ كمَنِّ الغيثِ على العرفجةِ ؟ وقالوا : =

فقال تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ فالمنّة الأولى حدثت وقت أن أوحينا إلى أمك ما يوحى، فأنت يا موسى ولدت فى عام كان فيه فرعون يقتل أولاد بنى إسرائيل، فمننا عليك بأن أوحينا إلى أمك أنها إذا خافت عليك تلقيك فى اليم ، وأننا سنحفظك ونردك إليها ونجعلك من المرسلين، فهناك قال الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ

= منَّ خَيرَهُ يَمُنُّهُ مَنّا فعَدّوه ؛ قال :

كأنى إذ مَنَنْتُ عليك خَيرى مَننْتُ على مُقَطَّعَةِ النِّياطِ

ومنَّ يَمُنُّ مَنّا : اعتقد عليه منّا وحسبَهُ عليه . وقوله عز وجل : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ جاء فى التفسير : غير محسوب ، وقيل : معناه : أى لا يَمُنُّ الله عليهم به فاخرًا أو مُعَظِّما كما يفعل بخلاء المُنعمين ، وقيل : غير مقطوع من قولهم حبل مَنِين إذا انقطع وخَلَقَ ، وقيل : أى لا يُمَنُّ به عليهم .

ورجل مَنُونَةٌ ومَنُونٌ : كثير الامتنان ؛ الأخيرة عن اللحيانى . وقال أبو بكر فى قوله تعالى : ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يحتمل المَنُّ تأويلين :

أحدهما: إحسانُ المُحْسِن غير مُعْتَدّ بالإحسان ، يقال لَحِقَتْ فلانا من فلان مِنَّةٌ إذا لَحقته نعمة باستنقاذ من قتل أو ما أشبهه .

والثانى: من فلان على فلان ، إذا عظم الإحسان ، وفخر به ، وأبدأ فيه وأعاد حتى يفسده ويبغضه ، فالأول حسن ، والثانى قبيح .

وفى أسماء الله تعالى : الحنّانُ المنّانُ أى الذى يُنْعِمُ غيرَ فاخر بالإنعام .

وأنشد : إن الذى يسوغ فى أحلاقهم زادٌ يُمَنُّ عليهم لَلَئـــام

وقال فى موضع آخر فى شرح المنان ، قال : معناه المُعْطى ابتداء ، ولله المِنَّة على عباده ، ولا مِنَّة لأحد منهم عليه ، تعالى الله علوا كبيرا . وقال ابن الأثير : هو المنعم المُعْطى ، من المنّ فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ، ولا يطلب الجزاء عليه . والمَنّانُ : من أبنية المبالغة كالسَّفّاك والوَهّاب .

[لسان العرب : ٤١٧/١٣ ، ٤١٨]

بِالسَّاحِلِ﴾ اليم هو البحر الكبير سواء كان عذباً أو مالحا ؛ لأن الله تعالى حنيما تكلم عن فرعون قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] لأنه كان فى البحر الأحمر.

وحينما تكلم عن موسى قال ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وهو النيل؛ لأن قصر فرعون كان على النيل وهو ماء عذب، فمرة يطلق اليم على المياه المالحة، ومرة يطلق اليم على المياه العذبة (١) .

وهنا الحق سبحانه لما أراد أن يطمئن أم موسى أخبرها أنه سيرده إليها، وسيحفظه ليس من أجلها فقط ؛ ولكن لأنه له مهمة عنده سبحانه ؛ لأنه سيجعله رسولاً فقال تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد أن يلتقطه البحر يلقيه بالساحل. يقذفه البحر بأمر الله إلى قصر فرعون ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فكأنه أمر البحر أن يلقيه بالساحل أمام قصر فرعون. إذن هناك إلقاء لحنان الرحمة فى التابوت ، وإلقاء التابوت فى اليم تنفيذاً لأمره، وإلقاء البحر له على الساحل، ثلاثة إلقاءات.

بعد ذلك قال سبحانه: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ عدو لى ؛ لأنه

---

(١) الليث: اليَمُّ البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطَّاه ، ويقال : اليم لُجّته . وقال الزجاج: اليم البحر ، وكذلك هو فى الكتاب ، الأول لا يُثنى ولا يُكسر ولا يُجمع جمع السلامة، وزعم بعضهم أنها لغة سريانية فعربته العرب ، وأصله يمّاً ، ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحا زعاقا ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، وأمرت أم موسى حين ولدته وخافت عليه فرعون أن تجعله فى تابوت ثم تقذفه فى اليم ، وهو نهر النيل بمصر ، حماها الله تعالى ، وماؤه عذب . قال الله عز وجل : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فجعل له ساحلا ، وهذا كله دليل على بطلان قول الليث إنه البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطَّاه . [لسان العرب : ١٢/٦٤٧]

ادعى الألوهية، وعدو له ؛ لأنه سيقف أمام دعوته ويناصبه العداء ، وكون فرعون يأخذ موسى ويربيه فى قصره، فهذا دليل على أن الله تعالى إذا أراد شيئًا ، جعل أعداءه والكافرين به يقومون بهذا الشئ ، ويساعدون فيه دون أن يدروا، وهم على تغفيلهم وجهلهم، وإلا فهل يتصور أحد أن فرعون الذى كان يقتل الأطفال؛ لأنهم قالوا له: إنه سيولد غلام يكون هلاكك على يديه ، بعد ذلك يجد طفلاً يقذف به البحر إلى قصره ، فيأخذه دون أن يفكر من الذى وضع هذا الطفل فى البحر، ولماذا لم يفكر أن هذا الطفل هو الذى سيقتله ؟ ولكن هذا مراد الله وليس مراد البشر وتجد زوجة فرعون تقول له كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ فلما رآه فرعون ورأته امرأته، وقع فى قلبيهما حبه، فهناك محبة بأسباب الله ،ومحبة بدون أسباب ، ولكن الله أرادها.

فالحق سبحانه ألقى على موسى محبة من عنده، أى محبة بدون أسباب بدون أن يكون فيه ما يوجب المحبة؛ لأننا قلنا إن موسى كان لونه أسمر وشعره أجعد وأنفه أقنى[1] ، فهذه الخلقة لا تجذب من يراها، أو تكون

---

(١) القنى : مصدر الأقنى من الأنوف ، والجمع قنو، وهو ارتفاع فى أعلاه بين القصبة والمارن من غير قبح . ابن سيدة : والقنا : ارتفاع فى أعلى الأنف ، واحديدابٌ فى وسطه وسبوغ فى طرفه ، وقيل : هو نتوء وسط القصبة وإشرافه وضيق المنخرين ، رجل أقنى وامرأة قنواء بيِّنة القنا . وفى صفة سيدنا رسول الله ﷺ : كان أقنى العرنين ؛ القنا فى الأنف : طوله ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه ، والعرنين: الأنف. وفى الحديث : « يملك رجل أقنى الأنف »[1] يقال : رجل أقنى وامرأة قنواء . [لسان العرب : ٢٠٣/١٥]

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدى من أمتى ، أجْلَى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورًا وظلمًا ، يملك سبع سنين » . أخرجه أبو داود [٤٢٨٥] وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٦٠٤] .

سبباً فى محبة صاحبها، ولكن قدرة الله فوق كل شئ واقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] فقلب الإنسان يريد أن يفعل شيئاً ولكن الله لم يرد ذلك، فيحول بين مراد القلب وينقله إلى شئ آخر، وهذا ما حدث مع فرعون، فهو وامرأته أخذا موسى؛ ليكون لهما قرة عين وأحباه واهتما بتربيته ، فهذه محبة وليست عداوة، ولكن فى النهاية آل الأمر إلى أن يصبح هو العدو. ففرعون مع أنه ادعى الألوهية، إلا أنه لم يعرف أنه يربى عدوه الذى سيقضى عليه؛ لأنه كان مغفلا. بعض السطحيين الذين لا يفهمون القرآن يقولون: القرآن يقول: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ ثم يكررها فيقول: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع أنهم التقطوه ليكون لهم ابنا وليس عدوا، وهؤلاء يجهلون أن الآيتين ليستا مكررتين؛ لأن إحداهما تصف جانباً من عداوة فرعون لموسى ولربه؛ فالعداوة هنا من فرعون ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ لكن فى الآية الأخرى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فهنا العداوة من موسى. فمرة تكون العداوة من فرعون ومرة تكون من موسى (١) ؛ لأن

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ جواب الأمر بالإلقاء أو القذف ، والمراد بالعدو فرعون ، فإن أم موسى لما ألقته فى البحر ، وهو النيل المعروف : وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون ، فساقه الله فى ذلك النهر إلى داره؛ فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل : إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون ، فأمر من يأخذه . وقيل: وجدته ابنة فرعون، والأول أولى.[فتح البيان : ٨/ ٢٣٠]
وقال فى قوله تعالى : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ اللام لام العاقبة ، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرة عين ؛لا ليكون عدوا ، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدوا يقتل رجالهم ، وحزنا يستعبد نساءهم ، قاله المحلى: وقال صاحب =

العداوة حين تكون متبادلة من الطرفين ، تكون عداوة شرسة وتستمر ، ويحاول كل طرف التغلب على الطرف الآخر ، ولكن إذا كانت العداوة من طرف واحد سريعاً ما تهدأ وتنتهى ؛ لأن الطرف المعادى يستفز الطرف المسالم فيتحمله ويصبر عليه، فلابد أن يخجل بعد ذلك ويسكت ، لكن العداوة تكون شرسة حينما تكون موجودة عند الطرفين ، عداوة من فرعون لله ولموسى ، وعداوة من موسى لفرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أى ليست من موجبات ذاتك يا موسى ولكنها تفضل منِّى عليك.

ومعنى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ [1] أن الذى يربيه فرعون، ولكنه يربيه

= الكشاف : هى لام «كى» التى معناها التعليل ، ولكن هذا المعنى وارد على طريق المجاز ؛ لأنه لما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم ، وثمرة له ، شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله . [فتح البيان : ١٠/ ٩١]

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ وقرأ أبوجعفر : «ولْتُصنعْ» بسكون اللام والعين والإدغام . قال أبو عبيدة :على ما أريد وأحب . قال ابن الأنبارى : هو من قول العرب : غُذى فلان على عينى ، أى : على المَحَبَّة منى. وقال غيره : لتربَّى وتغذى بمرأى منى ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا ربَّاها ؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى﴾ .
[زاد المسير : ٥/ ١٩٨]

وقال البقاعى : ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أى: تربى بأيسر أمر تربية ، بمن هو ملازم لك لا ينفك عن الاعتناء بمصالحك عناية شديدة ﴿عَلَىٰ عَيْنِى﴾ أى مستعليا على حافظيك غير مُستَخَف فى تربيتك من أحد ، ولا مخوف عليك منه ، وأنا حافظ لك حفظ من يلاحظ الشيء بعينه لا يغيب عنها ، فكان كل ما أردته ، فلما رآك هذا العدو أحبك، وطلب لك المراضع ، فلما لم تقبل واحدة منهن بالغ فى الطلب ، كل ذلك إمضاء لأمرى وإيقافا لأمره به نفسه لا بغيره ؛ ليزداد العجب من إحكام السبب .
[نظم الدر : ١٦/ ٢٨٧ ، ٢٨٨]

على عين الله ، فإن تعرض لشئ فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه، ولذلك مرة كان فرعون يداعب موسى وهو صغير فجذبه موسى من لحيته، فغضب فرعون وكاد أن يقتله وتوجس فيه شرا، فأخذته منه امرأته وضمته إلى صدرها وقالت له: إنه طفل صغير لا يعقل ولا يعرف التمرة من الجمرة ، فلم يقتنع فرعون وجاء لموسى بجمرة وتمرة، فجعل الله يد موسى تمتد إلى الجمرة؛ حتى يصرف فرعون عن مراده ، فأخذ موسى الجمرة ووضعها على لسانه فأصابته بلثغة [1] فيه تسببت فى عقدة لسانه[2] ، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أى إن فرعون

---

(١) اللثغة : أن تعدل الحرْفَ إلى حرف غيره. والألثغُ : الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء، وقيل : هو الذى يجعل الراء غينًا أو لامًا ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذى يَتَحَوَّل لسانه عن السين إلى الثاء ، وقيل : هو الذى لا يتم رفعُ لسانه فى الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذى لا يُبيِّنُ الكلامَ ، وقيل : هو الذى قَصُرَ لسانه عن موضع الحرف ، ولَحِقَ مَوْضِعَ أقرب الحروف من الحرف الذى يعثُر لسانه عنه ، والمصدر اللثغُ . ولَثَغَ لسانَ فلان إذا صَيَّرَه ألثغ . لَثِغَ، بالكسر ، يَلْثَغُ لَثَغًا ، والاسم اللثغةُ ، والمرأة لَثْغاء . وفى النوادر : ما أشدَّ لَثْغَتَه وما أقبح لُثْغَتَه ! فاللَّثَغَةُ الفَمُ ، واللُّثغةُ ثِقَلُ اللسانِ بالكلام ، وهو ألثغُ بيِّنُ اللُّثغة ولا يقال: بيِّنُ اللَّثغة ، والله أعلم . [لسان العرب : ٨/ ٤٤٨]

(٢) قال الطبرى : اتخذه فرعون ولدا فدعى ابن فرعون ، فلما تحرك الغلام أرته أمه آسية صبيا ، فبينما هى ترقصه وتلعب به إذ ناولته فرعون ، وقالت: خذه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ قال فرعون : هو قرة عين لك ولا لى . قال عبد الله بن عباس : لو أنه قال وهو لى قرة عين إذا لآمن به ، ولكنه أبى ، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون علىّ بالذباحين هذا هو ، قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ إنما هو صبى لا يعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وقد علمت أنه ليس فى أهل مصر امرأة أحلى منى ، أنا أضع له حليا من الياقوت =

وحاشيته سيربون موسى ولكن لو حدث منهم أى اعوجاج أو تصرف مخالف فى هذه التربية ، فإن الله سيحفظه ويرعاه.

ثم يقول تعالى : ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أم موسى حينما ألقته فى اليم، قالت لأخته : قصيه (أى تتبعى أثره) فلما حمله البحر إلى قصر فرعون المطل على النيل ، والتقطه آل فرعون، حرّم ربنا سبحانه وتعالى عليه المراضع ، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ فكلما أتوا له بمرضعة رفض أن يرضع ، فقالت أخته لهم : أنا أدلكم على مرضعة ترضعه لكم. فوافقوا وجاءت أمه لترضعه وبذلك أعاده الله إلى أمه.

= وأضع له جمرا ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبى، فأخرجت له ياقتها فوضعت له طستا من جمر ، فجاء جبرائيل فطرح فى يده جمرة ، فطرحها موسى فى فيه، فأحرق لسانه ، فهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. [تاريخ الطبرى : ١/ ٢٧٤]

تم بعون الله تعالى المجلد الثانى

ويليه إن شاء الله المجلد الثالث

وأوله تتمة قصة نبى الله موسى عليه السلام

فهرس موضوعات المجلد الثانى

نبى الله إسحاق عليه السلام	٦٤١
نبى الله لوط عليه السلام	٦٤٧
منطق أصحاب الفطر المطموسة	٦٦٤
خيانة امرأة لوط	٦٦٨
فأنجيناه وأهله إلا امرأته	٦٧٨
إبراهيم يجادل الملائكة فى عذاب قوم لوط	٦٨٢
الملائكة تخبر لوطا بمهمتها	٦٩٨
كيف كان عاقبة المجرمين ؟	٧٠٥
جعل الله عاليها سافله	٧١٢
نبى الله شعيب عليه السلام	٧٢١
شعيب ينصح قومه بالعدل فى التجارة	٧٣١
الغش أهلك أمة	٧٤٣
سؤال قوم شعيب	٧٥٢
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت	٧٧٦
ولولا رهطك لرجمناك	٧٨٤
أرهطى أعز عليكم من الله ؟!	٧٨٧
الترغيب والترهيب لقوم شعيب	٧٩٣
تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين	٨٠٠
شعيب يحتكم إلى الله	٨٠٥
قوم شعيب يستعجلون العذاب	٨١١
مجيئ أمر الله لقوم شعيب	٨١٥
وأخذت الذين ظلموا الصيحة	٨٣٧

أصحاب الأيكة.................... ٨٤٤
قصة شعيب مع أصحاب الأيكة.................... ٨٤٧

نبى الله يعقوب عليه السلام ٨٥١

نبى الله يوسف عليه السلام ٨٥٩

يوسف فى القرآن والكتب السابقة.................... ٨٦١
رؤيا يوسف للكواكب.................... ٨٦٥
من نعم الله على يوسف.................... ٨٨١
في يوسف وإخوته آيات للسائلين.................... ٨٨٤
سؤال اليهود عن أمر يوسف.................... ٨٩٠
إيثار يعقوب ليسوف وأخيه.................... ٨٩٢
وجاءوا أباهم عَشاءًا.................... ٩١٣
الدم الكذب.................... ٩١٨
ماذا حدث ليوسف فى الجب ؟.................... ٩٣١
يوسف فى مصر.................... ٩٣٥
امرأة العزيز تراود يوسف.................... ٩٥٤
كيف همت به وهم بها ؟.................... ٩٦١
وشهد شاهد من أهلها.................... ٩٨٩
إنك كنت من الخاطئين.................... ٩٩٩
مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز.................... ١٠٠٢
سجن يوسف.................... ١٠٢١
ودخل معه السجن فتيان.................... ١٠٢٣
من السجن انطلقت دعوة التوحيد.................... ١٠٣٣
اذكرنى عند ربك.................... ١٠٤٤
رؤيا مفزعة للملك.................... ١٠٤٨

نبوءة يوسف....................	١٠٦٤
وقال الملك ائتونى به....................	١٠٦٥
قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء....................	١٠٦٩
إنك اليوم لدينا مكين أمين....................	١٠٧٤
وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه....................	١٠٨٧
فأسرها يوسف فى نفسه....................	١١٠٩
إنا نراك من المحسنين....................	١١١٣
فلما استيأسوا منه....................	١١١٥
عسى الله أن يأتينى بهم جميعا....................	١١٢١
وابيضت عيناه من الحزن....................	١١٢٣
إن الله يجزى المتصدقين....................	١١٣٤
أئنك لأنت يوسف....................	١١٣٩
تالله لقد آثرك الله علينا....................	١١٤١
قميص المعجزات....................	١١٤٥
وأتونى بأهلكم أجمعين....................	١١٤٧
إنى لأجد ريح يوسف....................	١١٤٩
ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين....................	١١٥٤
هذا تأويل رؤياى من قبل....................	١١٦٠
إحسان الله ليوسف وإخوته....................	١١٦٢
توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين....................	١١٦٨
ما يستفاد من قصة يوسف....................	١١٧٦
نبى الله أيوب عليه السلام	١١٨٥
قصة ذى الكفل	١١٩٥
قصة أصحاب الرس	١٢٠١

نبى الله يس عليه السلام ١٢٠٧

قصة قوم يس عليه السلام............ ١٢٠٩

نبى الله يونس عليه السلام ١٢١٣

صاحب الحوت.......................... ١٢١٩

رحمة الله ليونس عليه السلام............. ١٢٢٥

قوم يونس لما شعروا ببداية العذاب أمنوا.......... ١٢٣٠

نجاة يونس وقومه....................... ١٢٣٤

نبى الله موسى عليه السلام وقومه ١٢٣٧

من نبأ موسى وفرعون..................... ١٢٣٩

منزلة موسى عند الله..................... ١٢٥٧

إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا.......... ١٢٦١

الحق أعطى موسى قبل أن يسأله.......... ١٢٦٧







